الكاتب الذي حصل على جائزة "مان بوكر" الدولية لعام 2015

Lászlo Krasznahorkai

لاسلو كراسناهوركاي

رواية

تانغو الخراب

ترجمة:

الحارث النبهان

التنوير

لازلو كـرازناهـوركـاي
(László Krasznahorkai)

تـانـغـو الـخـراب

ترجـمـة: الـحـارث الـنـبـهـان

لازلو كـرازناهـوركـاي

(László Krasznahorkai)

تـانـغـو الـخـراب

ترجـمـة: الـحـارث الـنـبـهـان

الكتاب: تانغو الخراب
المؤلف: لازلو كرازناهوركاي
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 304 صفحة
الطبعة الأولى: 2016

الترقيم الدولي: 978-9938-886-78-8
رقم الناشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الاول –
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –
الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

المحتويات

في تلك الحالة،

يجعلني انتظار الشيء أخسره!

فرانز كافكا

الجزء الأول

1. أنباء عن قدومهما

ذات صباح، استيقظ فوتاكي على صوت الأجراس. كان ذلك قرب نهاية تشرين الأول قبل بدء سقوط القطرات الأولى، قطرات مطر الخريف الطويل المتواصل من غير هوادة، على التربة المتشققة المالحة في الجانب الغربي من المزرعة، (في وقت لاحق، سيجعل بحر الطين الأصفر المنتن عبور الدروب سيراً على الأقدام شيئاً مستحيلاً وسيجعل الوصول إلى البلدة أمراً متعذراً أيضاً). كانت الكنيسة الوحيدة على مسافة أربعة كيلومترات إلى الجنوب الغربي في عزبة هوتشميس العتيقة أقرب مصدر محتمل لهذا الصوت. لكن تلك الكنيسة لم تكن من غير أجراس فقط، بل إن برجها قد انهار أيضاً خلال الحرب، إضافة إلى أنها واقعة على مسافة أبعد كثيراً من أن يستطيع المرء سماع أي شيء منها. ثم إن قرع الأجراس المجلجل هذا لم يبدُ له بعيداً؛ كانت الريح تحمل صخبها المنتصر، وبدت كأنها آتية من مكان قريب («كأنها آتية من الطاحون...»). ألقى بنفسه مستنداً إلى الوسادة بمرفقيه حتى ينظر من نافذة المطبخ الصغيرة كأنها جحر فأر، كانت النافذة مضببة أيضاً... وجَّهَ أنظاره إلى سماء الفجر التي اكتست زرقة باهتة، لكن الحقل كان ساكناً صامتاً إلّا من صوت الجرس الذي يزداد خفوتاً الآن، وما كان في الخارج أي ضوء يستطيع أن يراه إلا ضوء متراقص واحد في نافذة الطبيب الذي كان بيته منفرداً عن بقية البيوت في الناحية القصوى؛ ما كان ذلك الضوء موجوداً إلا لأن

ساكن البيت كان، منذ سنوات كثيرة، عاجزاً عن النوم في الظلمة. حبس فوتاكي أنفاسه لأنه أراد أن يعرف مصدر ذلك الصوت: ما كان يطيق أن يفقد نغمة شاردة واحدة من تلك الجلجلة المتلاشية سريعاً، رغم بُعد ذلك الصوت («يجب أن تكون نائماً يا فوتاكي...»). كان معروفاً بخفة حركته، رغم عرجه. سار بخطواته المضطربة على أرض المطبخ الحجرية الباردة مثل الجليد من غير أن يصدر أي صوت، كأنه قط، ثم فتح النافذة وانحنى إلى الخارج («أما من أحد مستيقظ؟ ألا يستطيع الناس سماع هذا؟ أما من أحد غيري هنا؟»). صفعته نسمة ريح رطبة حادة في وجهه مباشرة فكان عليه أن يغمض عينيه لحظة، وما عاد لديه شيء يستطيع سماعه مهما أصاخ السمع... إلا صياح ديك، ونباح كلب بعيد، وعواء الريح العنيف وضربات قلبه... كأن الأمر كله كان نوعاً من لعبة لا أكثر، أو كأنه حلم شبحي («... يبدو كأن في الخارج شخصاً يريد إخافتي»). حدق حزيناً في السماء المتوعّدة، وفي البقايا المحترقة من صيف غزاه الجراد، وفجأة رأى على غصن صغير من أغصان الأكاسيا... كأنما هي رؤيا... رأى توالي الربيع والصيف والخريف والشتاء، كأن الزمن كله كان فواصل تافهة في فضاءات الأبدية الأكبر كثيراً، خدعة ذكية مستحضرة لعرض شيء منتظم في الظاهر انطلاقاً من عماء الفوضى، أو لتوفير مُنطلق يمكن أن يكون فرصة تجعل المصادفة تبدو كأنها ضرورة... رأى نفسه مسمَّراً إلى صليب مهده ونعشه، يتألم محاولاً انتزاع جسمه بعيداً من غير أن يفلح في النهاية إلا في وضع نفسه ـ عارياً تماماً، من غير علامة مميزة، مجرداً من كل شيء وصولاً إلى الأساسيات ـ في عهدة الأشخاص الذين كانت مهمتهم غسل الجثث. أشخاص يطيعون نظاماً مرمياً في الهواء الجاف أمام خلفية ضاجّة بالجلادين وسالخي الجلود، حيث كان مرغماً على النظر إلى الشرط الإنساني من دون أي أثر من شفقة، ومن غير احتمال واحد لأي طريق للعودة إلى الحياة، لأنه كان سيعرف يقيناً عند ذلك أنه

أمضى حياته كلها لاعباً مع أشخاص غشّاشين علّموا ورق اللعب وسوف يجرّدونه، آخر الأمر، حتى من آخر ما لديه من وسائل الدفاع، من ذلك الأمل في أن يعثر على طريق العودة ذات يوم. أدار رأسه ناحية الشرق الذي كان موطن صناعة مزدهرة ذات حين فما عاد فيه اليوم شيء إلا مباني متداعية مهجورة، وراح يراقب انبثاق الأشعة الأولى من شمس حمراء منتفخة عبر العوارض العليا من بيت مزرعة متهاوٍ انتزعت قرميدات من سقفه. «عليّ حقاً أن أصل إلى قرار. لا أستطيع البقاء هنا أكثر مما بقيت». اندسَّ من جديد تحت لحافه الدافئ وأراح رأسه على ذراعه، لكنه لم يستطع إغماض عينيه؛ كانت الأجراس الشبحية ما سبّب ذعره في البداية، أما الآن فهو الصمت المنذر الذي تلاها: قد يحدث أي شيء الآن، هكذا أحس. لكنه لم يحرّك عضلة من عضلاته، ليس قبل أن تبدأ الأشياء من حوله، تلك الأشياء التي كانت تصغي حتى الآن، إلى كلام عصبي متوتر (طقطقت الخزانة، وقعقع القدر، وانزلق طبق خزفي في موضعه في حمالة الصحون)... وعندها استدار مبتعداً عن الرائحة الحامضة، رائحة السيدة شميدت المتعرّقة، وتلمست يده كأس الماء المتروكة عند السرير فشربها كلها جرعة واحدة. تخلص من رعبه الطفولي عندما فعل هذا: تنهّد، ومسح حاجبه المتعرّق، كان يعرف أن شميدت وكرانر يقودان الماشية الآن غرباً من الأرض الملحية صوب المشترين في المزارع في الغرب حيث يتلقيان آخر الأمر أجور ثمانية أشهر من العمل الشاق، وعرف أن هذا سوف يستغرق ساعتين على الأقل، فقرر أن يحاول الاستفادة من هذه الفسحة ليحصل على قسط إضافي من النوم. أغمض عينيه، وانقلب على جنبه، ثم وضع ذراعه حول المرأة وكاد ينجح في الإغفاء عندما سمع الأجراس من جديد. «بحق الله» أزاح اللحاف جانباً، لكن الأجراس توقفت فجأة لحظة أن لمست قدماه العاريتان المتقرّنتان أرضية الغرفة الحجرية («كأن أحداً قد أعطى إشارة...!»)... جلس مترقّباً على حافة

سريره ضاماً يديه في حجره إلى أن لفتت الكأس الفارغة انتباهه. كان حلقه جافاً، ويحسّ ألماً واخزاً في ساقه اليمنى، وما عاد يجرؤ الآن على الوقوف ولا على العودة تحت أغطيته. «سأغادر غداً على أبعد تقدير». راحت عيناه تمسحان الأشياء الموزّعة بشكل غامض في المطبخ، من موقد الطبخ المتسخ بالدسَم المحترق وبقايا الطعام إلى سلة من غير مقبض موضوعة تحت السرير، إلى الطاولة المقلقلة، إلى الأيقونات المغبرة المعلّقة على الجدار، إلى القدور؛ ثم استقرت عينه أخيراً على النافذة الضئيلة وعلى أغصان الأكاسيا العارية المنحنية عبر بيت هاليكس بسقفه المسنن ومدخنته المتداعية والدخان المتصاعد منها، ثم قال: «سآخذ حصتي، وسأذهب الليلة!... لن أتأخر أكثر من الغد في أي حال من الأحوال، صباح الغد». صاحت السيدة شميدت التي استيقظت فجأة: «يا إلهي» وراحت تحدّق من حولها مذعورة خافقة الصدر في ضياء ما قبل الفجر، لكنها عندما رأت الأشياء كلها تنظر إليها بمظهرها المألوف أطلقت زفرة ارتياح ورمت برأسها على الوسادة من جديد. سألها فوتاكي: «ما الأمر؟ أهي أحلام بشعة؟» كانت السيدة شميدت تنظر إلى السقف خائفة. تنهّدت من جديد ووضعت يدها على قلبها: «يا إلهي! أحلام مخيفة حقاً! هذه الأشياء! أنا؟! ... من كان يمكن أن يتخيل هذا؟... كنت جالسة هناك، في الغرفة، و... كان هنالك قرع على النافذة. لم أجرؤ على فتحها؛ لكني وقفت هناك فقط أسترق النظر عبر الستائر. لم أرَ إلّا ظهره لأنه كان قد بدأ يهز مقبض الباب في تلك اللحظة، ثم رأيت فمه عندما راح يجأر. الربّ وحده يعرف ما كان يقول. كان غير حليق الذقن، وبدت عيناه مصنوعتين من زجاج... كان هذا مخيفاً... وعندها تذكرت أنني لم أدر المفتاح في الباب إلا دورة واحدة عندما أقفلته في الليلة الماضية، وأدركت أنني لا أستطيع الوصول إلى الباب إلا متأخرة كثيراً، وهكذا أسرعت فصفقت باب المطبخ، لكني أدركت عند ذلك أن مفتاحه ليس معي.

أردت أن أصرخ لكن الصوت لم يخرج من حنجرتي. ثم... لا أذكر لماذا أو كيف على وجه التحديد، لكن السيدة هاليكس صارت فجأة عند النافذة وراحت تسخر مني، بحركات غريبة في وجهها ـ تعرف كيف تبدو السيدة هاليكس عندما تقوم بتلك الحركات ـ لكن، على أي حال، كانت واقفة هناك محدقة إلى داخل المطبخ ثم اختفت، لا أعرف كيف، رغم أن الرجل الذي في الخارج كان يرفس الباب في ذلك الوقت، كان على وشك اقتحامه ودخول البيت خلال دقيقة واحدة، فكرت في سكين تقطيع الخبز فاندفعت صوب الخزانة لكن الدرج كان عالقاً، وظللت أحاول فتحه... ظننت أنني سأموت من الذعر... ثم سمعت صوت انفتاح الباب واصطدامه بالجدار، وسمعته آتياً عبر الصالة. لم أتمكن من فتح الدُّرج بعد. وفجأة كان هناك، عند باب المطبخ، تماماً عندما نجحت أخيراً في فتح الدرج والإمساك بالسكين، وكان يقترب مني ملوّحاً بذراعيه... لكني لست أدري... فجأة رأيته راقداً على الأرض في الزاوية، عند النافذة، نعم، وكانت من حوله قدور كثيرة حمراء وزرقاء بدأت تطير في المطبخ... أحسست بالأرض تميد من تحتي، تخيّل فقط، تحرك المطبخ كله، كأنه سيارة... ولست أذكر شيئاً بعد ذلك...» أنهت كلامها وضحكت مرتاحة. هز فوتاكي رأسه: «إننا ثنائي ممتاز. لقد أيقظني ـ ما الذي أيقظني في رأيك؟ ـ استيقظت على صوت أجراس تقرع...» «ماذا؟» حدقت فيه المرأة مدهوشة: «هل كان أحداً يقرع أجراساً؟ أين؟» «لا أفهم هذا أنا أيضاً. لم يحدث ذلك مرة واحدة، بل مرتين في واقع الأمر، مرة، ثم مرة...» كان دور السيدة شميدت لتهز رأسها الآن. «أنت ـ سوف يصيبك الجنون». دمدم فوتاكي نزقاً: «أو، ربما حلمت بذلك كله. تذكري كلماتي، سوف يحدث شيء اليوم». استدارت المرأة صوبه حانقة: «أنت تقول هذا دائماً؛ أطبق فمك فقط، ألا تستطيع؟» وفجأة سمعا صرير فتح البوابة في الخلف فنظر كل منهما إلى الآخر خائفاً. همست السيدة شميدت: «لا بد

أنه هو. إنني أحس هذا». جلس فوتاكي مصدوماً: «لكن هذا مستحيل! كيف تمكن من العودة بهذه السرعة...» «وكيف أعرف أن...! اذهب! اذهب الآن!» قفز من السرير، والتقط ثيابه فحشرها تحت إبطه، وأغلق الباب من خلفه، ثم ارتدى ملابسه. «العصا. تركت العصا هناك!» لم تكن أسرة شميدت قد استخدمت هذه الغرفة منذ الربيع. غطى عفنٌ أخضر الجدران المتقشرة. لكن الثياب في الخزانة، الخزانة التي كانوا ينظفونها بانتظام، كان فيها عفن أيضاً، وكذلك المناشف وملاءات السرير كلها، لم يستغرق الأمر أكثر من أسبوعين حتى اكتست الملاعق والسكاكين المحفوظة في الدرج من أجل المناسبات الخاصة طبقة من الصدأ، وصارت قوائم الطاولة الكبيرة المغطاة بمفرش مخرّم محلولةً سائبة، وصارت الستائر مصفرّة، وتلف المصباح الكهربائي، لقد قرروا ذات يوم أن ينتقلوا إلى المطبخ وأن يبقوا هناك، ولأنهم ما كانوا قادرين على فعل شيء لإيقاف ما يحدث، فقد تركوا الغرفة مرتعاً للفئران والعناكب. استند فوتاكي إلى الباب وراح يفكر كيف يمكن أن يخرج من غير أن يراه أحد. بدا الوضع يائساً تماماً لأن عليه أن يخرج عبر المطبخ، ولأنه أحس نفسه عاجزاً تماماً عن الخروج من النافذة حيث ستراه السيدة كرانر أو السيدة هاليكس اللتان تمضيان نصف حياتهما في استراق النظر عبر الستائر لمتابعة ما يدور في الخارج. وفوق هذا، فإن عصاه، إذا اكتشف شميدت وجودها، ستفضح على الفور حقيقة أنه مختبئ في مكان ما في البيت، وإذا حدث هذا فقد لا يستلم حصته إطلاقاً لأنه يعرف أن شميدت لا يعتبر هذه الأمور مزاحاً، ثم إنه سوف يُطرد من المزرعة سريعاً، المزرعة التي أتاها مسرعاً قبل سبع سنوات استجابة إلى أخبار تحدثت عن نجاحها ـ كان ذلك بعد سنتين من إقامة المزرعة ـ في وقت كان جائعاً وما كان لديه إلا بنطلون مهلهل واحد إضافة إلى معطف متآكل من غير جيوب. جرت السيدة شميدت إلى الصالة، أما هو فألصق أذنه إلى الباب. سمع صوت

شميدت الأجش: «لا تتذمري يا حبيبتي! افعلي ما أقوله لك. هل هذا واضح؟» أحس فوتاكي دمه يندفع حاراً. «نقودي». أحس بأنه واقع في مصيدة. لكنه ما كان يملك وقتاً للتفكير، فقرر الخروج من النافذة رغم كل شيء لأن «لابد من فعل شيء ما على الفور». كان على وشك فتح قفل النافذة عندما سمع شميدت متحركاً في الصالة. «سوف يخرج!» عاد إلى الباب على أطراف أصابعه ثم حبس أنفاسه ليستمع. وما إن سمع شميدت يغلق الباب المفضي إلى الفناء الخلفي حتى انسلّ بحذر إلى المطبخ حيث ألقى نظرة واحدة على السيدة شميدت المتوترة المتململة، ثم أسرع إلى الباب الأمامي من غير أن يصدر صوتاً، وخرج منه، وبعد أن تأكد من أن جاره عاد فدخل البيت، قرع الباب بصوت مرتفع كأنه وصل الآن: «ماذا حدث؟ ألا يوجد أحد في البيت؟ مرحباً يا شميدت». قال هذه الكلمات صائحاً بأعلى صوته ثم فتح الباب على الفور ـ حتى لا يترك له وقتاً للهرب ـ فحصر شميدت في المطبخ. سأله بصوت ساخر: «نعم، نعم! إلى أين ترانا ذاهبين بهذه السرعة يا صاحبي؟» لم يجد شميدت كلاماً يقوله أبداً: «لا! طيّب، سأخبرك يا صاحبي! لا تقلق يا صاحبي. سوف أساعدك حتى تتذكر كل شيء!» تابع كلامه عابس الوجه تماماً... «لقد كنت تريد الهرب بالنقود! أليس كلامي صحيحاً؟ لقد حزرت هذا منذ المحاولة الأولى، أليس كذلك؟» لم يقل شميدت شيئاً حتى الآن. لكنَّ عيناه كانتا ترفرفان فقط. هز فوتاكي رأسي... «طيب يا صاحبي. من كان يظن هذا؟ عادا إلى المطبخ وجلسا متقابلين. كان شميدت يعبث متوتراً بالأشياء الموضوعة على الموقد. «استمع يا صاحبي...». لكن شميدت قال متأتئاً: «أستطيع أن أشرح...» أسكته فوتاكي بإشارة من يده: «لست في حاجة إلى أيّ شرح! قل لي، هل كرانر مشترك معك في هذا؟» كان شميدت مجبراً على الإيماء برأسه والقول: «إلى حد ما». صاح فوتاكي حانقاً: «يا أبناء العاهرات! ظننتم أنكم ستسجّلون عليَّ نقطة».

خفض رأسه مفكراً، ثم سأل أخيراً: «وماذا الآن؟ ماذا سيحدث الآن؟» فتح شميدت ذراعيه. كان غاضباً: «ماذا تقصد بهذا؟ ماذا الآن؟ أنت واحد منا يا صاحبي». سأله فوتاكي: «ماذا تقصد؟»، قال هذا وهو يحسب المبالغ في عقله. أجابه شميدت كارهاً متردداً: «سنقسم المال على ثلاثة. لكن عليك أن تبقي فمك مطبقاً. ليس لك أن تقلق بشأن ذلك». كانت السيدة شميدت واقفة قرب الموقد فأطلقت زفرة يائسة: «هل فقدتم عقولكم؟ أتظنون أنكم يمكن أن تفلتوا بهذا الأمر؟» تصرّف شميدت كأنه لم يسمعها. ركز عينيه على فوتاكي: «هاك إذن، لا تستطيع القول إننا لم نوضح كل شيء. لكن هنالك أمر آخر أريد أن أقوله لك يا صاحبي. لا تستطيع أن تخرجني من الأمر الآن» «لقد عقدنا اتفاقاً، أليس كذلك؟» «نعم، بالطبع، لا شك بهذا أبداً، ولا لمدة ثانية واحدة!» تابع شميدت كلامه، وصار صوته مثل ولولة حزينة: «كل ما أطلبه... أريد منك أن تقرضني نصيبك مدة قصيرة! سنة واحدة فقط! ريثما نستقر في مكان ما...» أجابه فوتاكي عاوياً: «وما هو الجزء الآخر من جسمك الذي تريد مني تقبيله؟!» مال شميدت إلى الأمام وأمسك بحافة الطاولة: «لم أكن لأسألك هذا لو لم تقل بنفسك إنك لا تعتزم الرحيل الآن. فما عساه يكون سبب حاجتك إلى المال. ثم إنني أطلب هذا لسنة واحدة فقط... سنة، هذا كل ما في الأمر! ... يجب أن نحصل على هذا المال، ألا تفهم، يجب أن نحصل عليه، لا أستطيع أن أشتري شيئاً بهذه الخرق التي ألبسها. لا أستطيع حتى الحصول على قطعة أرض. أقرضني عشرة على الأقل، ما رأيك؟» أجابه فوتاكي: «مستحيل، لن أعطيك قرشاً. لا أريد أن أتعفّن هنا أنا أيضاً!» هز شميدت رأسه؛ كان غاضباً إلى درجة جعلته يبكي بالفعل، ثم بدأ من جديد مصرّاً عنيداً لكنه أكثر عجزاً. كان مستنداً بمرفقيه إلى طاولة المطبخ التي راحت تتأرجح كلما تحرك كأنها تقوم بدوره وتساعده وتتوسل إلى شريكه حتى «يكون لديه قلب» آملة أن يستجيب «صاحبه»

إلى حركاته التي تستدر الشفقة؛ ما كان الأمر ليستدعي جهداً كبيراً لأن فوتاكي كان قد أوشك على الاستسلام عندما أبصرت عينه فجأة مليون حُبَيبة من الغبار تطير مثل زوبعة في شعاع رقيق من ضياء الشمس، وتحسَّس أنفه رائحة المطبخ الباردة الرطبة. أحس فجأة بطعم حامض على لسانه، وظن أنه الموت. منذ أن جرى تقاسم الأعمال، ومنذ أن كان الناس يستعجلون الاندفاع للخروج من هذا المكان مثلما استعجلوا القدوم إليه، ومنذ أن اكتشف أنه غير قادر على الرحيل، وأنه مضطر إلى البقاء إلى جانب بعض الأسر، وإلى جانب الطبيب ومدير المدرسة، صار الأمر متشابهاً كله، يوماً بعد يوم، صاروا يتناولون تشكيلة الطعام المحدودة نفسها عارفين أن الموت يعني الاعتياد... الحساء أولاً، ثم أطباق اللحم، ثم... أخيراً، الوصول إلى أكل الجدران نفسها، ومضغ لقمات قاسية صعبة وقتاً طويلاً قبل ابتلاعها، والارتشاف البطيء لنبيذ لم يتح الوقت الكافي، إلا في ما ندر، حتى يرقد أمامه في الكأس، ثم شرب الماء. كان يحسّ أحياناً برغبة لا سبيل إلى مقاومتها بأن يقتلع قطعة من ذلك الجص النتروجيني في غرفة المحرك في صالة الآلات القديمة حيث كان يعيش، فيحشرها في فمه لعله يدرك طعم اتخاذ الحيطة الواجبة! إشارة في خضم الفوضى المفزعة للطعوم المعتادة. كان يحس بأن الموت ليس إلا نوعاً من التحذير، وأنه ليس نهاية يائسة أبدية. واصل شميدت كلامه وقد أصابه تعب متزايد: «ليس الأمر كما لو أنني أطلب منك هدية. إنه دين. هل تفهمني؟ إنه قرض. وسوف أعيده حتى آخر قرش خلال سنة بالضبط».
كانا جالسين إلى الطاولة، مرهقَيْن تماماً، كليهما. كانت عينا شميدت تحرقانه لشدة إرهاقه، وكان فوتاكي يحدق بضراوة في الأشكال الغامضة لبلاطات الأرضية الحجرية. قال في نفسه إنه ما كان جائزاً له أن يسمح لخوفه بالظهور، رغم أنه وجد صعوبة في تفسير ما كان خائفاً منه. «أخبرني هذا فقط. كم مرة ذهبتُ إلى زيكس، وحدي دائماً، في ذلك الحر غير

المحتمل عندما يخاف الإنسان أن يتنفس حتى لا تشتعل النار في جوفه؟! من الذي حصل على الغابة؟ ومن الذي بنى الحظيرة؟! لقد قدّمت مساهمتي مثلما قدّمتها أنت، أو كرانر، أو هاليكس! والآن تكون عندك الوقاحة الكافية لأن تجعلك تطلب مني قرضاً. أوه، نعم، وسوف تعيده كله عندما تراني في المرة القادمة، أليس كذلك؟!» أجابه شميدت شاعراً بالإهانة: «بكلمات أخرى، هذا يعني أنك لا تثق بي». أجابه فوتاكي بعنف: «صحيح تماماً! تلتقي أنت وكرانر قبل الفجر، وتخططان للانطلاق حاملين المال كله، ثم تتوقع مني أن أثق بك؟! أتراك تعتبرني شخصاً غبياً؟» جلسا صامتَيْن معاً. كانت المرأة تقرقع بالأطباق عند الموقد. بدا شميدت مهزوماً. ارتجفت يدا فوتاكي عندما لف لنفسه سيجارة، ثم نهض عن الطاولة وسار يعرج حتى النافذة مستنداً إلى عصاه في يده اليسرى، ثم راح ينظر إلى المطر المنهمر على سطوح البيوت. كانت الأشجار تنحني مع الريح، وترسم بأغصانها العارية أقواساً منذرة في الهواء. فكر في جذورها، في النسغ الذي يهبها الحياة، في الأرض الغارقة بالماء، وفي الصمت، في الإحساس الذي لا تعبر عنه الكلمات، الإحساس بوصول الأمر إلى نهايته، هذا الإحساس الذي يصيبه بخوف كبير دائماً. سأل بنبرة مترددة: «في تلك الحالة، قل لي...! لماذا عدت إذن، لماذا عدت هذه المرة؟...» قال شميدت مدمدماً: «لماذا؟ لماذا؟! لأن هذا ما حدث معنا ـ وقبل أن نفكر في الأمر، وجدنا أنفسنا في طريق العودة، وهناك... ثم إن لدي امرأة هنا... فهل يمكن أن أتركها هنا؟...» هز فوتاكي رأسه متفهّماً... ثم سأل بعد هنيهة: «وماذا عن أسرة كرانر؟ ما هي ترتيباتك معهم؟» «إنهم عالقون هنا، مثلنا. وهم يريدون الانطلاق صوب الشمال. سمعت السيدة كرانر عن بستان قديم مهمل هناك، أو عن شيء من هذا القبيل. سوف نلتقي عند مفترق الطرق بعد حلول الظلام. هذا ما اتفقنا عليه». أطلق فوتاكي زفرة: «أمامنا يوم طويل. وماذا عن الآخرين؟ أسرة هاليكس

مثلاً؟...» راح شميدت يحك أصابعه جزعاً: «وكيف لي أن أعرف؟ سوف ينامون طيلة النهار، على الأرجح. كان هنالك حفل كبير في بيت هورغوس البارحة. يستطيع سموه، المدير، أن يذهب إلى الجحيم في أول حافلة! إذا سبب لنا أي مشكلة، فسوف أُغرق ابن العاهرة هذا في أول خندق أصادفه؛ أرح أعصابك يا صاحبي، أرح أعصابك». قررا الانتظار في المطبخ حتى حلول الليل. جر فوتاكي كرسياً فوضعه قرب النافذة حتى يتمكن من مراقبة البيوت المقابلة؛ وأما شميدت فقد غلبه النعاس... أكب برأسه فوق الطاولة وبدأ يشخر. جلبت المرأة الحقيبة العسكرية المحزومة بشرائط حديدية من خلف الخزانة، ومسحت عنها الغبار من الداخل والخارج، ثم بدأت تضع حوائجهما فيها من غير كلام. قال فوتاكي: «إنها تمطر». أجابت المرأة: «أستطيع سماع ذلك». الآن فقط تمكن ضياء الشمس الضعيف من النفاذ عبر كتلة ضخمة من الغيوم تزحف بطيئاً صوب الشرق: كان الضوء في المطبخ خافتاً كما لو أنه وقت الغسق. وكان من الصعب معرفة إن كانت بقع الضياء النابضة على الجدار مجرد أشباح أو علامات تشي باليأس الكامن في أفكارهما التي تتلمس الأمل تلمساً واهناً. أعلن فوتاكي محدقاً في المطر المنهمر: «سوف أذهب جنوباً. إن فصول الشتاء أقل طولاً هناك. سأستأجر قطعة أرض صغيرة قرب بلدة من البلدات المزدهرة وأمضي اليوم كله واضعاً قدميَّ في حوض من الماء الساخن. كانت قطرات المطر تسيل ناعمة وتقطر عند جانبي النافذة بسبب الشق الذي يبلغ عرضه إصبعاً، الشق الممتد من العارضة الخشبية إلى إطار النافذة نفسها. كان الماء يتجمع بطيئاً حتى يملأ ذلك الفراغ ثم يشق طريقه نزولاً على امتداد العارضة الخشبية ثم يتحوّل من جديد إلى تلك القطرات التي بدأت تسقط في حجر فوتاكي الغارق في تخيل أماكن قصية إلى درجة جعلته عاجزاً عن العودة إلى الواقع وجعلته غير قادر على ملاحظة أن ذلك الماء قد بلله... «أو يمكن أن أذهب فأعمل حارساً ليلياً في مصنع

الشوكولا... أو لعلي أصير بواباً في مدرسة داخلية للبنات... وسأحاول نسيان كل شيء، ولن أفعل شيئاً غير نقع قدمي في حوض من الماء الساخن كل ليلة حتى تنقضي هذه الحياة القذرة...» تحوّل المطر الذي كان ناعماً حتى الآن إلى طوفان حقيقي مفاجئ كما لو أنه نهر حطّم سداً فأغرق الحقول المختنقة بالمطر وحفر فيها قنوات متلوية كالثعابين؛ صحيح أنه كان مستحيلاً أن يرى المرء أي شيء عبر الزجاج، إلا أن فوتاكي لم يحوّل نظره عن النافذة بل تابع التحديق في إطارها الخشبي الذي أكله التسوّس وتساقط منه معجون تثبيت الزجاج، وفجأة ظهر شكل غامض في تلك النافذة، شكل أمكنه أن يتبين فيه وجهاً بشرياً آخر الأمر، لكنه لم يميز هويته قبل أن يرى تلك العينين الخائفتين المجفلتين... رأى في تلك اللحظة «ملامح وجهه التي أبلاها الزمان»، تعرّف عليها بصدمة كأنها طعنة عندما شعر بأن فعل الزمن في وجهه يشبه فعل المطر الآن. سوف يغسله فيزيل ملامحه. كان في تلك الصورة شيء غريب هائل، شيء يشع نوعاً من الخواء، شيء متحرك صوبه، شيء مؤلف من طبقات من العار والكبرياء والخوف. وفجأة، أحس بذلك الطعم الحامض في فمه من جديد فتذكر قرع الأجراس عند الفجر، وتذكر كأس الماء والسرير وغصن شجرة الأكاسيا وحجارة الأرض الباردة في المطبخ؛ فكر في هذا كله فتغضّن وجهه مرارة. قال مقطباً: «حوض من الماء الساخن!... فليأخذه الشيطان!... ألست أغسل قدميّ كل يوم؟...» جاء من مكان ما خلفه صوت نشيج مخنوق. قال لها: «وأنت، ما الذي يزعجك الآن؟» لم تجبه السيدة شميدت، لكنها استدارت مشيحة عنه وكتفاها يهتزان مع نشيجها. «هل سمعت ما قلت؟ ما مشكلتك؟» رفعت المرأة رأسها ناظرة إليه ثم لم تفعل إلا أن جَلست على المقعد القريب وتمخطت من أنفها مثلما يفعل شخص لا يجد للكلام معنى. لكن فوتاكي ظل ملحاً: «الماذا لا تقولين شيئاً؟ ما مشكلتك بحق الجحيم؟» أجابت السيدة شميدت منفجرة:

«وأين نستطيع أن نذهب؟ أول شرطي نراه في أي بلدة سوف يوقفنا! ألا تفهم؟ لن يسألوا حتى عن أسمائنا!» أجابها فوتاكي حانقاً: «ما هذا الهذيان؟ سوف يكون معنا مال كثير، وبالنسبة لك أنت...» قاطعته المرأة قائلة: «هذا ما أعنيه بالضبط! إنه المال! يجب أن يكون لديك بعض الفهم! أن تذهبوا بهذه الشاحنة القديمة العفنة... كأنكم حفنة من المتسولين!» اشتد غضب فوتاكي: «يكفي هذا الآن! عليك أن تبقي خارج الأمر. لا علاقة لك به. المطلوب منكِ هو أن تصمتي». لكن السيدة شميدت ما كانت لتترك الأمر عند هذه النقطة. قالت ساخرة: «ماذا؟ ما المطلوب مني؟» أجابها فوتاكي بصوت هادئ: «انسِ الأمر! اصمتي وإلا فسوف توقظينه». كان الوقت يمر بطيئاً إلى حد كبير، ومن حسن حظهم أن الساعة المنبهة كانت متوقفة عن العمل منذ فترة طويلة، وهكذا ما كان لديهم صوت التكتكة لتذكيرهم بالوقت؛ لكن المرأة ظلت تحدق في أيدي الرجلين الساكنة بينما كانت تحرّك قدر الفلفل الأحمر من حين لآخر. وأما الرجلان فكانا جالسَيْن منتظرين ضجِرَين أمام طبقيهما الحارَّين الموضوعين أمامهما من غير أن يلمس أي منهما ملعقته رغم إلحاح السيدة شميدت المستمر عليهما بأن يأكلا: «ماذا تنتظران؟ هل تريدان أن تأكلا ليلاً عندما تكونان غارقين في الوحل حتى العظام؟» لم يشعلوا الضوء رغم أن الأشياء راحت تتداخل من حولهم خلال انتظارهم المِمِض، ورغم أن أدوات المطبخ المعلقة على الجدار عادت إلى الحياة، ومعها عادت الأيقونات حية أيضاً، بل بدا أن ثمة شخصاً في الفراش أيضاً. أملوا في الخلاص من هذه الرؤى الهلوسية إن هم استرقوا نظرات في ما بينهم، لكن الوجوه الثلاثة كلها كانت ناضحة بالعجز؛ ومع أنهم كانوا يعرفون أنه لا يمكنهم البدء قبل حلول الليل (لأنهم واثقون من وجود السيدة هاليكس أو المدير جالسين عند النافذة يراقبان الدرب إلى زيكس بلهفة أكبر الآن لأن نصف يوم مضى على مغادرة شميدت وكرانر)، إلا أن

شميدت والمرأة كثيراً ما كانا يقومان بحركات كأنهما يريدان القول: تباً لهذا الحذر، فلنبدأ الآن. أعلن فوتاكي بصوت هادئ: «لقد خرجوا لمشاهدة فيلم. السيدة هاليكس، والسيدة كرانر، والمدير». قال شميدت: «السيدة كرانر؟ أين؟» ثم اندفع صوب النافذة. هزت السيدة شميدت رأسها قائلة: «إنه محق. إنه محق تماماً». استدار شميدت صوبها: «هش! لا تستعجلي هكذا يا حبيبتي!» هدّأه فوتاكي قائلاً: «إنها امرأة ذكية. ثم إن علينا أن ننتظر حلول الظلام على أي حال، أليس كذلك؟ وهكذا لن تكون هنالك شكوك عند أحد، أليس صحيحاً ما أقول؟»

كان شميدت متوتراً، لكنه عاد فجلس إلى الطاولة، دافناً وجهه بين كفيه. واصل فوتاكي نفث الدخان عند النافذة ضجراً. أخرجت السيدة شميدت حبلاً من أعماق خزانة المطبخ وربطت الحقيبة به لأن أقفالها كانت صدئة غير قابلة للاستعمال، ثم وضعتها في الأسفل عند الباب قبل أن تعود فتجلس إلى جانب زوجها ضامّة كفيها. سأل فوتاكي: «لماذا ننتظر؟ فلنقتسم المال». اختلس شميدت نظرة إلى زوجته، ثم قال: «أليس لدينا وقت كثير من أجل هذا يا صاحبي؟» نهض فوتاكي وانضمّ إليهما على الطاولة. فرَدَ ساقيه وحك ذقنه النابتة ثم ثبت عينيه على شميدت قائلاً: «أقول إن علينا أن نقتسم المال». مسح شمبدت حاجبه بيده: «ما الذي يقلقك؟ سوف تحصل على حصتك عندما يحين الوقت». «ما الذي تنتظره يا صاحبي؟» «وفيم العجلة؟ دعنا ننتظر حتى نحصل على ما سيأتي به كرانر». ابتسم فوتاكي: «انظر... الأمر في غاية البساطة. سوف نتقاسم الآن ما معك أنت. وعندما تصل بقية المال سنتقاسم من جديد عند مفترق الطرق». قال شميدت موافقاً: «لا بأس، فليكن. هات المصباح الكاشف». قفزت المرأة مستثارة وقالت: «سأحضره أنا». غطست يد شميدت في معطفه ثم خرجت بحزمة ملفوفة بخيط غليظ. كانت الحزمة مبللة كلها. «انظر الآن» دفع شميدت بقطعة من الورق تحت أنف فوتاكي (قال،

«الوثيقة، فقط حتى ترى أنني لا أحاول أن أغشك») الذي مال برأسه جانباً ثم نظر إليها سريعاً قبل أن يقول: «فلنبدأ العد». وضع المصباح الكاشف في يد المرأة، ثم راح ينظر إلى الأوراق النقدية بعينين لامعتين بينما كانت تمر عبر أصابع شميدت القصيرة الغليظة وتتراكم تدريجاً على الناحية البعيدة على الطاولة؛ تبخر غضبه شيئاً فشيئاً بينما راح يراقب النقود لأنه فهم الآن كيف «يمكن أن يصيب الاضطراب والحيرة رأس الإنسان عندما يرى هذا القدر من النقود فيغامر بالكثير حتى يضع يده عليه». أحس بمعدته تتقلص فجأة، وملأ اللعاب فمه، وراحت حزمة المال التي بقّعها العرق في يد شميدت تتقلص، بينما ازداد حجم الرزمة التي على الناحية الأخرى من الطاولة، وأحس بأن الضوء المرتعش غير المستقر في يد السيدة شميدت ينصبّ في عينيه كأنها تفعل ذلك قاصدة إعماء بصره، ثم أحس بدوار وضعف لم يخرج منهما إلا عندما أعلن شميدت بصوته الأجش: «هذا هو المبلغ المضبوط!» وما إن أوشك على مد يده حتى يأخذ نصيبه حتى صرخ صوت عند النافذة تماماً: «هل أنتِ هنا يا سيدة شميدت، يا عزيزتي؟». خطف شميدت المصباح الكاشف من يد زوجته وأطفأه على الفور، ثم قال هامساً مشيراً إلى الطاولة: «أسرعي، خبئي كل شيء!» وبسرعة البرق، جرفت السيدة شميدت المال كله معاً، وراحت تدس الأوراق النقدية بين ثدييها وهي تقول من غير صوت تقريباً: «إنها السيدة هاليكس!» وثب فوتاكي ليخفي نفسه بين الموقد والخزانة ملتصقاً بظهره إلى الحائط فما عاد ظاهراً منه إلا نقطتين فوسفوريتين كأنه قط مختبئ في الظلمة. همس شميدت: «اخرجي وقولي لها أن تذهب إلى الجحيم!» ثم سار مع زوجته حتى الباب حيث تجمدّت لحظة في مكانها قبل أن تتنهد وتخطو خارجة إلى الصالة ساعلة متنحنحة في سيرها: «نعم، نعم، إنني قادمة!». همس شميدت لفوتاكي: «لا بأس علينا إن كانت لم تر الضوء»، لكنه لم يكن يصدق ذلك هو نفسه. أما فوتاكي، ولشدة توتره،

فقد وجد صعوبة كبيرة في البقاء ساكناً في مخبأه خلف الباب. قال في نفسه محبطاً يائساً وهو يبتلع ريقه بصعوبة: «سأخنقها إذا تجاسرت على الدخول». تلك الأجراس في الصباح الباكر، وظهور السيدة هاليكس غير المتوقع ـ لابد أنها مؤامرة، ولابد من وجود صلة حقيقية بين الأمرين، ومع الدخان الذي دفعه الهواء فأحاط به ازدادت مخيلته تأججاً. «لعل الحياة تعود إلى المزرعة من جديد! قد يجلب آلات جديدة، وقد يأتي أناس جدد، ويمكن أن يبدأ كل شيء من جديد. ويمكن أن يصلحوا الجدران، وأن يدهنوا المباني بطبقة جديدة من الكلس، وأن يعيدوا تشغيل المضخات. ثم... يمكن أن يكونوا في حاجة إلى ميكانيكي، أليس كذلك؟» كانت السيدة شميدت واقفة بالباب ممتقعة الوجه. قالت بصوت خشن: «تستطيعان الخروج الآن». ثم أضاءت النور. قفز شميدت صوبها غاضباً وقد أعمى الضوء عينيه. «ماذا تفعلين؟ أطفئي الضوء! قد يروننا!» هزت السيدة شميدت رأسها: «انس الأمر! يعرف الجميع أنني في البيت، أليس كذلك؟» كان شميدت مضطراً إلى الإيماء برأسه معترفاً بصحة كلامها؛ أمسك بذراعها قائلاً: «ماذا حدث إذن؟ هل لاحظت الضوء؟» أجابت السيدة شميدت: «أجل. لكني قلت لها إنني كنت في غاية التوتر لأنك لم تعد بعد، فنمت منتظرة وصولك. وعندما استيقظت فجأة وأشعلت الضوء احترق المصباح. قلت لها إنني كنت أهم بتغيير المصباح عندما صاحت تناديني، وهذا ما جعلني أستخدم النور الكاشف...». دمدم شميدت موافقاً ثم استبد به القلق من جديد: «وماذا عنا؟ ماذا قالت عنا... هل رأتنا؟» «لا! إنني واثقة من أنها لم تركما». أطلق شميدت زفرة ارتياح وقال: «فما الذي كانت تريده هذه المرأة بحق الله؟» بدا وجه المرأة خالياً من أي تعبير. أجابت بصوت خافت: «لقد فقدت عقلها». أجابها شميدت: «لا شيء مفاجئ في هذا». أضافت السيدة شميدت بصوت متردد وهي تنظر إلى زوجها تارة وإلى فوتاكي المنتبه المتوتر تارة أخرى، «قالت...

قالت إن إرمياس وبيترينا آتيان في الطريق... إنهما في طريقهما إلى المزرعة! وقالت إنهما قد يكونا وصلا إلى الحانة الآن...». ظل فوتاكي وشميدت غير قادرَيْن على قول أي شيء، دقيقة أو أكثر. كسرت المرأة الصمت: «من الواضح أن سائق حافلة المسافات البعيدة... لقد رآهما في البلدة...»، عضت على شفتها... «وقال إنه انطلق متوجهاً ـ إنهما انطلقا متوجهين إلى المزرعة في هذا الطقس القذر، أسوأ من يوم القيامة... رآهما السائق عندما انعطف متوجهاً إلى إيليك حيث تقع مزرعته، رآهما بينما كان عائداً إلى بيته مسرعاً». قفز فوتاكي منتصباً على قدميه: «إرمياس؟ وبيترينا؟» أطلق شميدت ضحكة. «تلك المرأة! لقد جُنت السيدة هاليكس فعلاً هذه المرة. إنها تكثر من قراءة إنجيلها. لقد تسرب الإنجيل إلى عقلها». وقفت السيدة شميدت ساكنة مثل عصا. وعند ذلك فتحت ذراعيها عاجزة ثم جرت إلى الموقد وألقت بنفسها على الكرسي واضعة رأسها على كفها: «إن كان هذا صحيحاً...» استدار شميدت صوبها فاقداً صبره: «لكنهما ميتان!» قال فوتاكي بصوت هادئ كأنه يكمل تسلسل أفكار السيدة شميدت: «إذا تبين أن ذلك صحيح... فمن الواضح أن الطفل، ابن هورغوس، كان كاذباً ببساطة...» رفعت السيدة شميدت رأسها فجأة لتنظر إلى فوتاكي، وقالت: «لم نعرف ذلك إلا من كلامه هو». أومأ فوتاكي برأسه وأشعل سيجارة جديدة بيد مرتجفة: «هذا صحيح! وهل تذكران؟ لقد قلت آنذاك إن هنالك شيئًا غير صحيح تماماً في ما يتعلق بهذه القصة... كان فيها شيء لم يعجبني. لكن أحداً لم يستمع إلي... ثم استسلمت أخيراً وقبلت الأمر». ظلت عينا السيدة شميدت معلقتين بفوتاكي كأنها تحاول نقل أفكارها إليه. «لقد كان كاذباً. كان الطفل كاذباً، ببساطة. ليس من الصعب كثيراً أن يتخيل المرء ذلك. بل أمرٌ سهل كثيراً في الحقيقة أن يتخيل...» كان شميدت ينظر متوتراً إليه لحظة وإلى زوجته لحظة أخرى. «ليست السيدة هاليكس هي التي جنت، أنتما

الاثنان من أصابكما الجنون». لم يجبه فوتاكي، ولم تجبه السيدة شميدت، لكنهما راحا ينظران، كل إلى الآخر. انفجر شميدت صائحاً وتقدم خطوة صوب فوتاكي: «هل فقدت عقلك؟! أنت، أيها العجوز المقعد!» لكن فوتاكي هز رأسه قائلاً «لا يا صديقي. لا... رغم أنك كنت على حق عندما قلت إن السيدة هاليكس لم يصبها الجنون»، قال هذه الكلمات لشميدت ثم استدار صوب المرأة قائلاً: «أنا واثق من صحة الأمر. وسوف أذهب إلى الحانة». أغمض شميدت عينيه محاولاً السيطرة على أعصابه. «ثمانية عشر شهراً! إنهما ميتان منذ ثمانية عشر شهراً. الجميع يعرف هذا! لا يمزح الناس في أمور من هذا النوع. لا تصدقا هذا. إنه مجرد فخ! هل تفهمان؟ إنه فخ!» لكن فوتاكي لم يسمعه أصلاً، بل كان على وشك الفراغ من تزرير معطفه. قال: «سيكون كل شيء على ما يرام، وسوف تريان ذلك». قال لهما هذا، وكان واضحاً من التصميم في صوته أنه قد عقد عزمه على أمر ما. قال مبتسماً وهو يضع يده على كتف شميدت: «إن إرمياس ساحر كبير. وهو قادر على تحويل كومة من روث البقر إلى مزرعة إذا أراد ذلك». فقد شميدت صوابه تماماً. أمسك بمعطف فوتاكي وشده صوبه. قال مكشراً: «أنت الذي هو كومة من روث البقر يا صاحبي. ولن تكون إلا هكذا، دعني أخبرك ذلك، لن تكون إلا كومة من الروث. أتظن أنني سأسمح لشخص مثلك، لشخص دماغه بحجم حبة الفاصولياء، أن يجعلني أنهار؟ لا يا صاحبي، لا! لن أسمح لك بالوقوف في طريقي!» نظر فوتاكي في عينيه وقال بصوت هادئ: «لست أعتزم أبداً أن أقف في طريقك يا صاحبي». «نعم! وماذا سيكون من أمر النقود؟» خفض فوتاكي رأسه. «تستطيع اقتسامها مع كرانر. ويمكنكما التظاهر بأن شيئاً لم يحدث». قفز شميدت مندفعاً صوب الباب معترضاً طريقهما. قال زاعقاً: «أنتما أحمقان! أنتما أحمقان! افعلا بنفسيكما ما تريدان، أنتما الاثنان! وأما نقودي...»، قال هذا رافعاً إصبعه، «فسوف تضعانها على الطاولة».

ألقى على المرأة نظرة متوعدة. «هل سمعتيني... أيتها المقملة... سوف تتركين النقود هنا تماماً، هل تفهمين؟» لم تأت السيدة شميدت بأي حركة. لمع في عينيها ضوء غريب غير معتاد. نهضت بحركة بطيئة ثم ذهبت صوب شميدت. كانت عضلات وجهها متوترة كلها، وصارت شفتاها رفيقتين إلى حد غريب فوجد شميدت نفسه موضع ازدراء وهزء عنيفين إلى حد أرغمه على التراجع والنظر إلى المرأة مدهوشاً. قالت السيدة شميدت بصوت هادئ تماماً: «إياك أن تصرخ عليَّ هكذا أيها الأبله! إنني خارجة. ويمكنك أن تفعل ما تريد». كان فوتاكي ينكش أنفه، فأضاف بصوت هادئ أيضاً: «انظر يا صاحبي، إذا كانا هنا حقاً، فلن تستطيع الهرب من إرمياس أبداً؛ وأنت تعرف هذا بنفسك. وماذا سيحدث بعد ذلك؟...».

تحسس شميدت طريقه مستنداً إلى الطاولة ثم ألقى بنفسه على واحدٍ من الكراسي. دمدم قائلاً لنفسه: «الموتى يبعثون أحياء! وهذان الاثنان مستعدان تماماً لابتلاع الطعم... ها ها ها. لا أستطيع منع نفسي من الضحك». ضرب الطاولة بقبضته. «ألا تستطيعان فهم هذه اللعبة؟! لا بد أنهم شكّوا في شيء ما، وهم يحاولون تضليلنا الآن، يحاولون جعلنا في حيرة من أمرنا... فوتاكي، يا صاحبي القديم، أنت على الأقل يجب أن يكون لديك قطرة من الفهم...». لكن فوتاكي ما كان مصغياً إليه...» كان واقفاً عند النافذة ضاماً يديه معاً. قال: «هل تذكر؟... أيام كانت الأجرة تتأخر تسعة أيام، وأما هو...» قاطعته السيدة شميدت قائلة بفظاظة: «إنه يخرجنا من المشكلات دائماً». تمتم شميدت: «خائنان قذران! كان يجب أن أتوقع هذا». ابتعد فوتاكي عن النافذة، ثم وقف خلف شميدت وقال له ناصحاً: «إن كان لديك حقاً هذا الشك كله، فلنرسل زوجتك قبلنا... تستطيع القول إنها تبحث عنك... وهكذا دواليك...» أضافت المرأة: «لكنك تستطيع المراهنة بحياتك على هذا ـ إنه صحيح». ظلت النقود في عبّ السيدة شميدت لأن زوجها نفسه كان مقتنعاً بأن ذلك المكان

أكثر الأماكن أمناً (رغم أنه ظل مصراً على أن بقاء النقود في مكانها داخل جيبه مربوطة بالخيط أكثر أماناً بكثير)؛ وكان عليهما بذل جهد كبير لإقناعه بالجلوس مجدداً لأنه كان يبحث في البيت عن شيء ما. قالت السيدة شميدت: «لا بأس، إنني ذاهبة». وسرعان ما ارتدت معطفها وانتعلت جزمتها وخرجت جارية ثم اختفت سريعاً في الظلمة عبر تلك البرك المحيطة بالطريق المفضية إلى البار. كانت تتجنّب البرك العميقة، ولم تستدر لتنظر إليهما مرة واحدة... تركتهما هناك، وجهان في النافذة، وجهان ينهمر عليهما المطر. لف فوتاكي سيجارة وراح ينفث الدخان فرحاً مستبشراً وقد زال عنه التوتر كله وانزاح ذلك الحمل عن كاهله... راح يتأمل السقف حالماً؛ كان يفكر في غرفة الآلات في مبنى المضخّات، وكان قادراً منذ الآن على سماع سعال الآلات وصخبها، ذلك الصوت المتألم المتردد أول الأمر ثم المنطلق الواثق بعد ذلك، صوت الآلات الصامتة تعود عاملة من جديد؛ أحس بأنه قادر على شم رائحة الجدران المطلية بالكلس حديثاً... وعندما سمعا صوت فتح الباب الخارجي، لم يتح لشميدت أكثر من الوقت الكافي لأن يقفز واقفاً قبل أن يسمع صوت السيدة كرانر معلناً: «إنهما هنا! هل سمعتم هذا؟!» وقف فوتاكي وهز رأسه ثم وضع قبعته. أما شميدت فانهار جالساً إلى الطاولة. قالت السيدة كرانر: «زوجي! لقد ذهب إلى الحانة وأرسلني فقط حتى أخبركم إن كنتم لم تعرفوا بعد، رغم أنني واثقة من أنكم تعرفون. رأينا من نافذتنا كيف أتت السيدة هاليكس إليكم... لكن عليّ أن أذهب، لا أريد إزعاجكم؛ وأما ما يتعلق بالمال، فقد قال زوجي إن علينا أن ننساه، إنه ليس لأمثالنا، هكذا قال و... إنه محق، فما الحاجة إلى الاختباء والهرب من غير أن يظفر المرء بلحظة سلام؟ من عساه يريد هذا؟ ثم إن إرمياس، سوف ترون، وبيترينا أيضاً، كنت أعرف أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً... أي شيء منه. لم أكن قادرة أبداً على الثقة بابن هورغوس المحتال، تستطيعان

معرفة ذلك من عينيه، تستطيعان بنفسيكما أن تريا كيف اختلق الأمر كله وظل مصراً عليه حتى صدقناه، أقول لكما إنني أدركت منذ البداية...» راح شميدت ينظر إليها مشككاً، ثم قال وهو يطلق ضحكة قصيرة: «إذن، أنت تصدقين هذا أيضاً». رفعت السيدة كرانز حاجبيها عندما سمعت ذلك، بدا عليها الارتباك، ثم اختفت خارجة من الباب. سأله فوتاكي بعد فترة: «هل ستأتي معي يا صاحبي؟» وسرعان ما صارا عند الباب معاً. سار شميدت في المقدمة، وسار فوتاكي خلفه متقافزاً على عكازه والريح تعبث بأطراف معطفه بينما كان ممسكاً بقبعته حتى لا تطير وترتمي في الوحل. راح يتلمس طريقه الأعمى في الظلمة تحت المطر المنهمر من غير شفقة، المطر الذي كان صوته يمحو الشتائم واللعنات التي يرمي بها شميدت ويخفي أيضاً كلمات التشجيع التي كان فوتاكي يطلقها، تلك الكلمات التي استقرت آخر الأمر على جملة واحدة متكررة: «لا تأسف على شيء يا صديقي القديم! سوف ترى. سيكون الأمر هيّناً علينا. ذهب خالص. عصر ذهبي حقيقي!».

2. لقد بُعثنا حيين

كانت الساعة فوق رأسيهما تشير إلى العاشرة إلا ربعاً، لكن ما عساهما ينتظران أيضاً؟ يعرفان ما يفعله ضوء النيون بأزيزه الثاقب بذلك السقف المتشقق، ويعرفان معنى ذلك الصدى اللازماني الصادر عن تلك الأبواب التي يسمعان صوت إغلاقها طيلة الوقت؛ ويعرفان أيضاً لماذا تقعقع هذه الأحذية الثقيلة ذات الأعقاب المعدنية نصف الدائرية في هذه الممرات المبلطة مرتفعة السقوف، يعرفان هذا مثلما يخمنان سبب عدم إنارة الأضواء في الخلف، والسبب الذي يجعل كل شيء باهتاً متعَباً؛ وسوف يحنيان رأسيهما في إقرار متصاغر، بل بدرجة من الرضا المتواطئ، أمام هذا النظام القائم بجلاله كله، فقط لو لم يكونا جالسَيْن على هذه المقاعد الملمعة التي ذهبت ببريقها القديم أرداف مئات ومئات ممن شغلوها قبلهما، ممن كانوا مضطرين إلى مواصلة التحديق في المقبض المصنوع من الألمنيوم، مقبض الباب رقم «أربعة وعشرين»؛ وهكذا... بعد أن ظفرا بالدخول، عليهما الآن أن يقدرا على الاستفادة من تلك الدقيقتين، أو الدقائق الثلاث («إنه لا شيء، فقط...») لكي يبددا «ظل الشك الذي وقع...». فما الذي عساه لديهما للحديث إلا سوء التفاهم السخيف هذا الذي نشأ نتيجة إجراءات بدأها مسؤول زائد الحماسة، لكنه نقيّ الضمير بكل تأكيد؟... وهكذا راحت الكلمات المحضرة لهذه المناسبة تتراكم مصطدمة الواحدة بالأخرى، وبدأت تأتي وتذهب كأنها

في زوبعة، فبعد أن اتخذت شكلاً (وإن يكن عديم الفائدة إلى حد الألم) صارت جملة تشبه جسراً مرتجلاً على عجل غير قادر إلا على تحمل خطوات مترددة ثلاثًا قبل سماع صوت تشققه، قبل أن ينثني ثم ينهار من تحتهما مع صوت انكسار أخير واهن فلا يجدان نفسيهما، مرة بعد مرة، إلا عائدَيْن إلى تلك الدوامة التي دخلاها ليلة أمس عند تلقيهما ورقة استدعاء تحمل خاتماً رسمياً. اللغة المضبوطة الجافة غير المألوفة نفسها («ظلال الشك التي وقعت») تركتهما واثقين من أن المسألة ليست إثبات براءتهما ـ ذلك أن إنكار التهمة، أو المطالبة بالمثول أمام القضاء، لن يكون إلا مضيعة للوقت ـ إن سنحت لهما فرصة فقط من أجل فتح حديث عام يستطيعان من خلاله إيضاح موقفهما من مسألة منسية منذ زمن بعيد فيثبتان هويتيهما... وقد يتمكنان من تعديل بعض تفاصيل المعلومات الشخصية أيضاً. في ماضٍ يبدو من غير نهاية، لعله شهور، منذ أن نشأ اختلاف غبي في الرأي، اختلاف تافه إلى حد يجعله لا يكاد يستحق الذكر، أدى إلى انقطاع حياتهما العادية، فنضجت أفكارهما (من الواضح الآن أنها كانت أفكاراً طائشة) وتحولت إلى قناعة راسخة؛ وإن سنحت لهما فرصة فسوف يجيبان إجابات صائبة على أي أسئلة متعلقة بتلك الأفكار العامة التي يمكن جمعها كلها معاً تحت عنوان «المبادئ الموجهة»، وذلك بثقة مدهشة ومن دون أي صراع داخلي يعذّبهما. بكلمات أخرى، يمكن القول إن شيئاً لا يستطيع مفاجأتهما الآن. وأما عن حالة الذعر الذي يأكل النفس، حالة الذعر التي تعود إليهما مرة بعد مرة، فإنهما قادران على استجماع ما لهما من شجاعة وتفسير الأمر بأنه «تجربة الماضي المرة» لأن «ما من إنسان قادر على الخروج من تلك الحفرة من غير بعض الأذى». يقترب عقرب الساعة الكبير حثيثاً من الثانية عشرة، عندما يظهر موظف في أعلى السلم، واضعاً يديه خلف ظهره، متحركاً بخطوات خفيفة وعيناه عديمتا اللون تقريباً، ناظرتان إلى الأمام بشكل

واضح إلى أن يجذبهما الشخصان الغريبان الجالسان هناك، فتظهر لمسة من اللون على الوجه الرمادي الذي كان يبدو ميتاً حتى هذه اللحظة، فيتوقف صاحبه، ثم يرفع نفسه على أطراف أصابعه، ثم يستدير بتكشيرة متعبة ويختفي هابطاً السلم بعد أن يتمهل لحظة واحدة ليلقي نظرة على الساعة الأخرى المعلّقة تحت لافتة كبيرة كتب عليها «ممنوع التدخين»، وكان وجهه في ذلك الوقت قد عاد إلى لونه الرمادي الطبيعي. قال الأكثر طولاً بين الرجلين مطمئناً رفيقه: «تعطي الساعتان وقتين مختلفين؛ لكن لا يمكن أن يكون أي من هذين الوقتين صحيحاً. إن ساعتنا هنا...» تابع كلامه مشيراً إلى الساعة المعلقة فوقهما بإصبع طويل ناعم رشيق... «متأخرة كثيراً، وأما تلك التي هناك فلا تقيس وقتاً كثيراً، كأنها الحقيقة الأبدية لضحايا الاستغلال. وكأننا بالنسبة إليها مثل غصن شجرة بالنسبة إلى المطر المتساقط عليه: «بكلمات أخرى، لا نستطيع أن نفعل شيئاً». كان صوته، رغم هدوئه، عميقاً موسيقياً رجولياً ملأ ذلك الممر العاري. وأما رفيقه، فمن الواضح من النظرة الأولى أنه مختلف عنه، كاختلاف الطباشير عن الجبن، مختلف كثيراً عن ذلك الشخص الفرد الذي يشع ثقة ومرونة وتمسكاً بالهدف. إنه يثبت عينيه اللتين تشبهان زرّيْن بوجه الآخر الذي أرهقه الزمن وقسّته المعاناة فتغمر العاطفة وجوده كله على نحو مفاجئ. «مثل علاقة غصن الشجرة بالمطر...». يدير هذه العبارة في فمه مرة بعد مرة كما لو أنها نبيذ فاخر يحاول تقدير جودته موقناً، من غير مبالاة إلى حد ما، أن هذا أمر يتجاوز قدراته. «إنك شاعر يا صاحبي... إنك شاعر حقاً!» يضيف هذه الكلمات ثم يؤكد عليها بهزة رأس كبيرة مثل شخص أرعبته فكرة توصّله إلى حقيقة من الحقائق عن غير قصد. يزلق جسمه مرتفعاً قليلاً في المقعد حتى يصير رأسه على مستوى رأس الرجل الآخر، ويدفن يديه في جيبَيْ معطفه الشتوي الذي بدا كأنه مصنوع لشخص عملاق، ثم يبحث بين المسامير وقطع السكاكر وبطاقات بريدية

عليها صور بحرية وملعقة مزخرفة وإطار نظارة فارغ وبعض أقراص من الكالموبيرين من دون غلافها، وأشياء أخرى وجدها هناك، إلى أن يعثر على ورقة بللها العرق فيظهر العرق في حاجبيه. «إذا لم نضع الغطاء...» يحاول أن يمنع خروج هذه الكلمات من بين شفتيه، لكن الوقت قد فات. تزداد الغضون على وجه الرجل الطويل عمقاً، ويشد على شفتيه ثم يغمض عينيه بحركة بطيئة لأنه يجد كبت مشاعره صعباً عليه هو أيضاً. صحيح أنهما يعرفان، كلاهما، أنهما ارتكبا غلطة ذلك الصباح عندما طالبا بتفسير فوريّ واندفعا داخلين الباب الذي يحمل لافتة ولم يتوقفا حتى وصلا إلى الغرفة الأخيرة: لا لأنهما لم يتلقيا تفسيراً، بل حتى لم يقابلا المدير لأنه قال لسكرتيره في المكتب الخارجي، فور وصولهما، («عليك أن تعرف من هما هذين الشخصين!»)، فوجدا نفسيهما خارج الباب. كيف كانا على هذه الدرجة من الحماقة؟ يا للغلطة الكبرى! إنهما الآن يخطئان مرة بعد أخرى لأن هذه الأيام الثلاثة ما كانت كافية لتجاوز حظهما العاثر. منذ إطلاق سراحهما ليأخذا نفساً عميقاً من هواء الحرية ويذرعا كل شبر من هذه الشوارع المغبرة والحدائق المهملة، جعلهما مشهد المساكن القديمة التي استحال لونها مصفراً خريفياً يشعران بأنهما مولودان جديدان عملياً، ثم إنهما استمدا قوة من التعابير الناعسة على وجوه الرجال والنساء الذين مروا بهما، من رؤوسهم المحنية، ومن نظرة الكآبة البطيئة في أعين الشباب المستندين إلى جدار، فإن ظلاً من سوء الطالع، ظلّاً غير واضح بعد، ظل يتبعهما في كل مكان كأنه شيء لا شكل له لكنهما قادران على رؤيته في زوج من العيون الناظرة إليهما أو في حركة هنا أو هناك يكاد يفتضح حضورها التوجيهي الذي لا مهرب منه. ثم فوق هذا كله («اسمي بيترينا، وأنا أعتبر هذا مخيفاً...»)، جاءت تلك الحادثة الليلة الماضية في المحطة المهجورة ـ من عساه يعرف، ومن كان يمكن أن يتوقّع وجود شخص آخر راغب في قضاء الليل على المقعد قرب الباب المؤدي إلى الرصيف؟ ـ

عندما خرج شاب أخرق مبقّع الوجه من الباب الدوّار، ومن دون أن يتردد لحظة واحدة سار إليهما بخطى واسعة فوضع الاستدعاءين بين يديهما. «ألن تكون هناك نهاية لهذا؟» هكذا خاطب الرجل الطويل المراسل ذي المظهر الغبي؛ لكن رفيقه القصير تذكر الآن ملاحظته الوجلة: «إنهم يفعلون هذا قصداً، أنت تعرف، لكي...». ابتسم الطويل ابتسامة متعبة: «لا تبالغ! عليك فقط أن تصغي جيداً، عليك أن تنتبه أكثر. لقد توقف الأمر من جديد». انتفض الآخر متراجعاً عند سماع هذا مثل شخص قبض عليه فجأة متلبساً بالذنب. أحس بالحرج، وراح يلوِّح بيديه ويرفعهما إلى أذنيه الكبيرتين غير المتناسبتين مع رأسه محاولاً شدّهما إلى الأسفل في حين انفرجت شفتاه عن لثتين من غير أسنان. قال: «كما تشاء الأقدار». نظر إليه الرجل الطويل رافعاً حاجبيه، ثم أشاح بوجهه عنه قبل أن يظهر الاشمئزاز عليه. قال: «أفّ! كم أنت بشع!» ثم راح يلتفت إليه من حين لآخر كأنه لا يستطيع تصديق عينيه. انكمش صاحب الأذنين الكبيرتين قانطاً فصار رأسه الصغير الذي يشبه الإجاصة غير مرئي تقريباً من فوق ياقة معطفه المرفوعة. تمتم مجروحاً: «لا تستطيع أن تحكم على شخص استناداً إلى مظهره...» وفي تلك اللحظة فُتح الباب وظهر رجل أفطس الأنف عليه هيئة مصارع محترف وسار صوبهما محدثاً قدراً غير قليل من الضوضاء لكنه، بدلاً من الالتفات إلى الشخصين اللذين اندفعا إلى تحيته بإيماءة من رأسيهما ـ أو بدلاً من أن يقول لهما: «تعالا معي من فضلكما» ـ تجاوزهما ثم اختفى خلف باب في نهاية الممر. نظر كل منهما إلى الآخر نظرة سخط («كأنهما يريدان القول إن الأمر بلغ حده»)، ثم راحا ينظران هنا وهناك حيناً من الزمن، يائسَيْن مستعدين لفعل أي شيء كأن خطوة واحدة فقط تفصلهما عن ارتكاب فعلة لا غفران لها، عندما انفتح الباب من جديد ومد رأسه منه رجل قصير بدين. سألهما ساخراً: «ماذا تنتظران؟»، ثم أتبع ذلك بكلمة «أها!» غير لائقة على الإطلاق، ثم فتح الباب أمامهما. كان المكتب

الواسع داخل ذلك الباب يشبه مستودعاً فيه خمسة أو ستة رجال بملابس مدنية منكبين فوق مكاتبهم الثقيلة اللامعة ومن فوقهم ضوء النيون المشعّ كأنه هالة تغلفهم رغم وجود زاوية قصية ظلت الظلمة جاثمة فيها سنين كثيرة، ظلمة لم يفلح حتى الضوء المتسرب عبر مصاريع النوافذ الخارجية المغلقة في اختراقها بل تلاشى فيها كما لو أن الهواء القاتم هناك في الأسفل قد ابتلعه. ورغم أن الموظفين كانوا ماضين في الكتابة صامتين (كان بعضهم يضع قطعاً قماشية سوداء على مرفقيه، وكانت على أنوف البعض نظارات منزلقة قليلاً)، فقد كان هنالك همس متواصل: «كان واحد أو آخر من الموظفين يلقي من حين لآخر نظرة سريعة صوب الزائرَيْن ناظراً إليهما بعين واحدة محاولاً تقدير وضعهما بحقد ظاهر تقريباً كأنه يحاول تخمين اللحظة التي يمكن أن يقوما فيها بحركة تفضح أمرهما، كاحتمال انفتاح المعطف القديم البالي وانزياحه جانباً ليكشف مؤخرة أكلتها البراغيث، أو احتمال أن تظهر من ثقوب الحذاء جوارب ممزقة بحاجة إلى إصلاح. «ماذا يجري هنا؟»، قال الطويل هذه الكلمات بصوت كالرعد عندما اجتاز العتبة داخلاً ذلك المكان الذي يشبه المستودع، متقدماً رفيقه، ذلك أنه رأى في الغرفة رجلاً يضع أكماماً إضافية فوق قميصه جاثماً على الأرض بأطرافه الأربعة مفتشاً بحركات محمومة عن شيء تحت مكتبه البنّي الداكن. لكن الطويل حافظ على حضور ذهنه: تقدم عدة خطوات، ثم توقف مثبتاً عينيه في السقف متجاهلاً، بحصافة، الوضع المحرج للرجل الذي يجب أن يتكلم معه. بدأ الكلام بأقصى ما استطاع من سحر: «أرجو عفوك يا سيدي! نحن لم ننسَ واجباتنا. وها نحن هنا جاهزان لتلبية طلبكم الذي حملته رسالتكم إلينا الليلة الماضية إذ قلتم فيها إنكم راغبون في الحديث معنا. نحن مواطنان، مواطنان شريفان، في هذا البلد؛ ومن هنا فإننا نود، طوعاً - لا حاجة إلى التأكيد على هذا ـ أن نعرض عليكم خدماتنا التي، إن كان لي أن أتجرأ

وأذكّركم، تلطفتم بالاستفادة منها سنوات كثيرة وإن يكن ذلك على نحو متقطع. ولا أظن أبداً أنكم غافلون عن أنه حدث انقطاع مؤسف في هذه الخدمات اضطررتم خلاله إلى الاستغناء عنا. ونحن نؤكد لكم، باعتبارنا موظفين في مؤسستكم، أننا نرفض الآن، مثلما رفضنا دائماً، أي شكل من أشكال العمل الرديء، بل نرفض أي شيء آخر، يمكن أن يكون غير مُرْضٍ لكم. نحن لا نقبل بأقل من الكمال. صدقنا يا سيدي عندما نقول لكم إننا نقدم لكم عملاً رفيع الجودة مثلما اعتدتم دائماً. ويسعدنا أن نكون تحت تصرفكم». هز رفيقه رأسه وقد تأثر تأثراً واضحاً كاد معه يعجز عن منع نفسه من الإمساك بيد رفيقه ومصافحته مصافحة قوية. في هذه الأثناء، كان الضابط قد نهض عن الأرض ووضع في فمه قرص دواء أبيض، ثم أفلح بعد شيء من الجهد في ابتلاعه من غير جرعة ماء. نفض الغبار عن ركبتيه ثم اتخذ موقعه خلف المكتب. عقد ذراعيه على صدره واتكأ بثقل على مصنَّف قديم بال من الجلد الاصطناعي وراح يحدق في هذين الشخصين الغريبين الواقفين أمامه في وضعية انتباه غامضة ناظرين إلى شيء فوق رأسه. تلوى فمه ألماً فاكتست قسمات وجهه كلها قناعاً مراً. ومن غير أن يحرك مرفقيه، هز علبة السجائر فأخرج سيجارة منها ووضعها في فمه ثم أشعلها. سأل متشككاً: «ماذا تقول؟»؛ كان تعبير وجهه حائراً، وكانت قدماه تتحركان في رقصة عصبية صغيرة تحت الطاولة. ظل سؤاله معلقاً في الهواء من غير جدوى في حين كان ذلك الشخصان واقفين ساكنين مصغيَيْن صابرَيْن. «هل أنت زميل ذلك الحذّاء؟»؛ حاول الضابط أن يسأل من جديد مواصلاً نفث دفقة كبيرة من الدخان ارتفعت أعلى من برج الملفات على مكتبه وبدأت تدور من حوله فظل وجهه مختفياً خلفها عدة دقائق قبل أن يصير مرئياً من جديد. أجاب صاحب الأذنين الكبيرتين وكأنه تلقى إهانة شديدة: «لا يا سيدي... لقد تم استدعاؤنا من أجل المثول هنا في الساعة الثامنة...» قال الضابط راضياً: «آها!... ولماذا لم

تحضرا في الموعد المحدد؟» ألقت عينا صاحب الأذنين الكبيرتين نظرة اتهام من تحت حاجبيه: «لابد أن هناك شيئًا من سوء التفاهم، إن كان لي أن... لقد كنا هنا على الموعد تماماً، ألا تذكر؟» «ما أفهمه هو أن...» قاطعه الرجل القصير وقد دبّت فيه الحياة فجأة: «لا يا سيدي! أنت لا تفهم شيئاً! المسألة هي أننا ـ أقصد هذا الرجل الواقف إلى جانبي وأنا ـ نستطيع أن نفعل أيّ شيء، بكل تأكيد. نستطيع أن نصنع أثاثاً من أجلكم، وأن نعتني بدجاجاتكم، وأن نخصي خنازيركم، وأن ندير مزارعكم، وأن نصلح كل شيء، حتى الأشياء التي قد تظنّون أنها غير قابلة للإصلاح. إن كنتم تريدون منا أن نصبح تجاراً في السوق... فنحن مستعدون. نستطيع أن نفعل كل ما تريدون. لكن، فلنكف عن هذا! لا تجعلنا نضحك! تعرفون تماماً أن عملنا هو تقديم المعلومات، إن كان لي أن أعبّر عنه بهذا الشكل. نحن نتلقى أجراً منكم إن كنتم مهتمين بتذكّر هذا. وضعنا، إن كنتم ما أقصده، هو أننا...» يستند الضابط إلى كرسيه مرهقاً، ويتفحص الرجلين بنظرة بطيئة، ثم تنفرج أسارير وجهه ويهبّ واقفاً على قدميه ويفتح باباً صغيراً في الجدار الخلفي ويصيح بهما من عتبة الباب: «انتظرا هنا فقط. لكن، لا أريد مشاغبة... أنتما تدركان ما أعنيه!» وبعد دقيقتين، ظهر أمامهما رجل طويل أشقر أزرق العينين يحمل رتبة نقيب، ثم جلس إلى الطاولة ومدّ ساقيه مرتاحاً خالي البال، ثم ابتسم لهما ابتسامة طيبة. سألهما بطريقة مهذبة: «هل لديكما أي أوراق؟» راح كبير الأذنين يبحث في جيوبه الضخمة، ثم أعلن مبتهجاً: «ورقة؟ بالتأكيد! لحظة واحدة فقط!» أخرج ورقة كتابة مجعدة بعض الشيء لكنها نظيفة تماماً ثم وضعها أمام النقيب. قال الرجل الطويل وهو يضع يده في جيبه الداخلي: «هل تريد قلماً أيضاً؟» أظلم وجه النقيب لحظة، ثم أشرقت في فمه ابتسامة مرحة. قال ضاحكاً: «هذا مضحك كثيراً! من المؤكد أن لديكما روح الفكاهة». أسبل كبير الأذنين عينيه تواضعاً، ثم قال: «هذا صحيح! لا يمكن للمرء أن يتدبر أمره

في أي مكان من غيرها يا حضرة الضابط...» غدا الضابط جدياً: «صحيح، لكن فلندخل في الموضوع. هل لديكما أوراق أخرى من أي نوع؟»- «بالطبع يا حضرة الضابط! أعطني لحظة فقط». مد يده في جيبه من جديد فأخرج الاستدعاء. لوح بها في الهواء بحركة انتصار، ثم وضعها على الطاولة. نظر الضابط في الورقة ثم احمرّ وجهه وصاح بهما: «ألا تستطيعان القراءة؟! أيها الأحمقان الملعونان! ما الطابق المذكور في هذه الورقة؟» كان هذا السؤال غير متوقَّع أبداً... جعل الرجلان يتراجعان. هز كبير الأذنين رأسه بعنف مجيباً على السؤال: «بالتأكيد...»ألم يجد شيئاً أفضل يقوله. مال الضابط برأسه جانباً ثم قال: «وماذا تقول الورقة؟» أجابه الآخر: «الطابق الثاني». لكنه أضاف موضحاً «أرجو الإبلاغ عن حضورنا». «فماذا تفعلان هنا إذاً؟ كيف وصلتما إلى هنا؟ هل لديكما أي فكرة عن طبيعة عمل هذا المكتب؟» هز الرجلان رأسيهما... شعرا بالضعف. «إنه القسم ت.ع. ـ قسم تسجيل العاهرات». قذفهما النقيب بهذه الكلمات منحنياً إلى الأمام وهو جالس في كرسيه. لكن الرجلين لم يظهرا أي دهشة. هز القصير رأسه كأنما يريد القول إنه لا يصدق النقيب، ثم ضغط على شفتيه مفكراً؛ وأما رفيقه فظل واقفاً إلى جانباً مصالباً ساقيه متظاهراً بأنه يتمعَّن في المشهد الطبيعي في الصورة المعلقة على الجدار. وضع الضابط مرفقه على الطاولة ثم أراح رأسه على كفه وبدأ يدلك حاجبه. كان ظهره مستقيماً كأنه طريق الفضيلة، وكان صدره عريضاً عميقاً، وكانت بدلته الرسمية مغسولة ومكوية بكل عناية، وأما ياقته المنشّاة التي يخطف بياضها الأبصار فكانت منسجمة أتم انسجام مع وجهه المنتعش الوردي. كانت خصلة من شعره المموج المرتب عادة متدلية فوق عينين بلون السماء تمنح مظهره كله سحراً لا يقاوَم. كان مظهره يشع براءة كأنها براءة الأطفال. قال بصوت جنوبي غنائي صارم: «فلنبدأ ببطاقتَي الهوية الشخصية». أخرج كبير الأذنين من جيبه الخلفي رزمتين مجعَّدتي الزوايا

ووضعهما إلى جانب واحد من أبراج الملفات الكبيرة حتى يمسّدهما قبل تقديمهما إلى الضابط، لكن نفاذ صبر الضابط الشاب جعله يختطفهما من يده ويقلب أوراقهما سريعاً بطريقة عسكرية من غير حتى أن ينظر في تلك الأوراق؛ ثم سأل الرجل القصير: «ما اسمك أنت؟» «اسمي بيترينا؛ في خدمتك». «وهل هذا اسمك؟» هز كبير الأذنين رأسه بطريقة حزينة. قال الضابط مائلاً إلى الأمام: «أريد اسمك الكامل». أجابه بيترينا بعينين متسعتين بريئتين: «هذا هو يا سيدي، هذا كل ما لدي»، ثم استدار إلى رفيقه هامساً: «ماذا أستطيع أن أفعل في هذا الشأن؟» صاح الضابط به: «من أنت؟ هل أنت غجري؟» سأله بيترينا وقد صدمته كلمات الضابط تماماً: «ماذا، أنا؟ أنا، غجري؟» «كف عن المراوغة إذن! أعطني اسمك!» التفت كبير الأذنين إلى رفيقه وقد أسقط في يده، ثم رفع كتفيه وبدا عليه ارتباك تام كأنه غير راغب في تحمل مسؤولية في ما يقوله: «حسناً! اسمي ساندور فيرنس استيفان... آآ... آندرياس». راح الضابط يقلب صفحات بطاقته الشخصية ثم قال بنبرة تنذر بالسوء: «مكتوب هنا أن اسمك جوزيف». بدا بيترينا كأن فأساً أصابته: «بالتأكيد هو ليس كذلك يا سيدي الضابط! هل تسمح لي أن أرى...» أمره الضابط الذي صار غير راغب في الاستماع إلى مزيد من الكلام الذي لا طائل منه: «ابق حيث أنت!». لم تظهر على وجه الطويل أي علامة من علامات القلق، ولا حتى الاهتمام؛ وعندما سأله الضابط عن اسمه رمش بعينيه قليلاً كأن ذهنه كان منشغلاً في مكان آخر، ثم أجاب بطريقة مهذبة: «أرجو عفوك يا سيدي، لم أفهم ما قلت». «ما اسمك؟» «إرمياس!» رنّت إجابته عالياً كأنه فخور بها. وضع الضابط سيجارة في زاوية فمه، ثم أشعلها بحركة خرقاء ورمى بعود الثقاب المشتعل في منفضة السجائر أمامه وأطفأه بعلبة الثقاب. «هكذا إذن؟ أنت أيضاً لديك اسم واحد فقط» أومأ إرمياس برأسه مبتهجاً: «بالطبع يا سيدي. أليس لكل شخص اسم واحد فقط؟». حدّق الضابط

في عينيه ثم فتح الباب («أهذا كل ما لديك؟») ثم أشار لهما بأن يلحقا به. سارا خلفه خطوتين بين الموظفين أصحاب النظرات الخبيثة، حتى بلغوا الممر ثم صعدوا السلم. المكان أكثر ظلاماً هنا... مظلم إلى درجة أوشكا معها على التعثر عند منعطف السلم. كان هنالك درابزون من الحديد الخام إلى جانبهما. وكانت على ناحيته السفلية الملمعة المهترئة بقع من الصدأ سارت معهما خطوة فخطوة. وفي كل مكان، يشعر المرء بأن كل شيء منظف تنظيفاً كاملاً بحيث لم تكن تلك الرائحة الثقيلة التي تشبه رائحة الأسماك والتي تتبعهما في كل مكان قادرة على إخفاء ذلك.

- الطابق العلوي
- الطابق الأول
- الطابق الثاني

تقدَّمَهما النقيب بخطوات واسعة مجلجلة، رشيقاً كأنه من ضباط الهوسار. وكان حذاؤه العسكري اللامع الذي يصل حتى منتصف ساقه يصدر صوتاً شبه موسيقي عندما يصطدم ببلاطات الأرض اللامعة. لم يكن ينظر إليهما، لكنهما كانا مدركَيْن تماماً أنه يفكر في كل ما يتعلق بهما، في كل شيء على الإطلاق... من حذاء العمال الذي ينتعله بيترينا إلى ربطة عنق إرمياس ذات اللون الأحمر الفاقع المدوَّخ... ربما لأنه قادر على تذكر التفاصيل كلها، أو لأن الجلد الرقيق فوق أعلى ياقته كان قادراً على تلقّي انطباعات أعمق مما تستطيع العين المجرَّدة اكتشافه. عوى الضابط مخاطباً رقيباً داكن البشرة ضخم الجسم كث الشاربين «معلومات الهوية!» عندما عبروا باباً آخر يحمل الرقم 24 ويفضي إلى صالة مكتومة الهواء عابقة بالدخان. لم يبطئ الضابط خطواته لحظة واحدة عندما أشار بإصبعه إلى من هبّوا واقفين عند دخوله بأن يجلسوا ثم اختفى خلف الباب المغشى إلى جهة اليسار مطلقاً الأمر التالي: «اتبعني! أريد الملفات! أريد التقارير! أعطني الوصلة الهاتفية رقم 109، ثم أعطني خطاً إلى المدينة!»

ظل الرقيب متيبساً في وضعية الانتباه حتى سمع صوت إغلاق الباب خلف الضابط. وعندها مسح العرق عن حاجبيه بذراعه ثم جلس إلى مكتب قبالة المدخل ودفع باستمارة مطبوعة أمامهما قائلاً لهما بصوت مرهق: «املآ هذه الاستمارة. واجلسا. لكن عليكما أولاً قراءة التعليمات على ظهر الورقة». لا يتحرك الهواء أبداً في هذه الصالة. إن في سقفها ثلاثة صفوف من مصابيح النيون... إضاءة تبهر الأبصار: النوافذ الخشبية الخارجية مغلقة هنا أيضاً. والموظفون يجرون متوترين هنا وهناك بين مجموعة من المكاتب: عندما يجد أحدهم نفسه معترضاً طريق موظف آخر في تلك الممرات الضيقة بين الطاولات، فإنه يدفعه جانباً مع ابتسامة اعتذار. وهذا ما جعل المكاتب تنحرف بضعة سنتيمترات كل مرة تاركة علامات خدوش حادّة على الأرض. لكن بعض الموظفين كان يرفض الابتعاد عن الطريق رغم أن أكوام العمل أمامهم تراكمت فصارت أبراجاً هائلة. من الواضح أنهم يفضّلون إنفاق معظم وقت العمل في المشاحنات مع زملائهم ولومهم لأنهم يدفعونهم دائماً في ظهورهم أو لأنهم يزيحون مكاتبهم. كان بعض الموظفين جالساً في كراسٍ حمراء من الجلد الاصطناعي. كانوا في تلك الكراسي كأنهم في سباق الخيل: سمّاعة الهاتف في يد، وفنجان قهوة يتصاعد منه البخار في اليد الأخرى. ومن الجدار إلى الجدار، من آخر الصالة إلى أولها، كانت ضاربات الآلة الكاتبة المتقدمات في السن جالسات في صفوف كأنها قوالب؛ وكنّ ينقرن على آلاتهن. راح بيترينا يراقب عملهنّ المحموم مشدوهاً؛ وراح يلكز إرمياس بمرفقه رغم أن الآخر كان يومئ برأسه وهو منشغل في دارسة «التعليمات» على ظهر الاستمارة. همس بيترينا: «أتظن أن لديهم كافتيريا هنا؟» لكن رفيقه يشير له منزعجاً بأن يظل هادئاً. رفع بيترينا رأسه عن الوثيقة تشمَّم الهواء سائلاً: «ألا تشم هذا؟» قالها وهو يشير إلى الأعلى، ثم أعلن قائلاً: «الرائحة خانقة هنا». نظر الرقيب صوبهما، ثم أشار

إليهما بالاقتراب وهمس: «كل شيء متعفن في هذا المكان... لقد دهنوا الجدران بالكلس مرتين خلال الأسابيع الثلاثة الماضية» هنالك لمعة ذكاء في عينيه العميقتين المتنفختين... كانت ياقة قميصه الضيقة ضاغطة على عنقه. سألهما مبتسماً ابتسامة العارف: «أأقول لكما شيئاً؟» تحرك مقترباً منهما حتى أحسّا بحرارة أنفاسه. بدأ يضحك ضحكة صامتة كأنه غير قادر على منع نفسه؛ ثم بدأ الكلام مشدداً على كلمة بمفردها كأن كلماته صف من الألغام: «أفترض أنكما تظنان أن في مقدوركما أن تتخلصا من هذا الأمر»، ابتسم ثم أضاف... «لكنكما عالقان». بدا عليه أنه شديد السرور بنفسه. دقّ على الطاولة ثلاث مرات كأنه يكرر ما قاله قبل لحظة. ابتسم إرمياس ابتسامة مترفّعة، ثم عاد إلى قراءة الوثيقة بينما ظل بيترينا يحدِّق مذعوراً في الرقيب الذي عضَّ على شفته السفلى فجأة ورماهما بنظرة ازدراء، ثم استند إلى ظهر كرسيه بحركة غير مبالية فصار من جديد جزءاً من منظومة الضجيج العامة الكثيفة. وبعد فراغهما من ملء الاستمارات، قادهما الرقيب إلى مكتب النقيب وقد اختفى من ملامحه كل أثر للتعب، كل أثر لما ظهر كأنه إرهاق أبدي يبدو كأنه نصيبه في هذه الحياة. صارت خطواته حازمة، وحركاته مضبوطة، وكلامه عسكرياً حاداً. كان أثاث المكتب يوحي بقدر من الراحة. وإلى يسار طاولة المكتب انتصبت نبتة ضخمة يمكن أن تستريح العين إلى خضرتها العميقة؛ وأما في الزاوية عند الباب فكانت هنالك أريكة مع كنبتين جلديتين وطاولة صغيرة للتدخين من طراز «حديث». وكانت النافذة مغطاة بستائر مخملية ذات لون أخضر مسموم: امتدت سجادة مقلمة باللون الأحمر من الباب إلى طاولة المكتب على الأرضية الخشبية. يستطيع المرء أن يحس، لا أن يرى، الغبار الناعم متساقطاً بطيئاً من السقف... غبار وقور محترم مكلل بهالة من سنين لا حصر لها. وأما على الجدار، فكانت هنالك صورة مرسومة لشخصية عسكرية. أمرهما الضابط وهو يشير إلى ثلاثة مقاعد خشبية موضوعة

في صف ضيق في الزاوية القصية: «اجلسا! أريد أن يفهم أحدنا الآخر». ارتد مستنداً إلى مقعده ذي المسند المرتفع ضاغطاً على خشبه الذي كان بلون العظام، ثم ثبت نظره على نقطة بعيدة ما... علامة ما باهتة في السقف... بينما راح صوته (صوته الغنائي إلى حد مدهش) يسبح إليهما عبر غمامة من دخان السيجارة كأنه يكلمهما من مكان آخر لا من هذه الغرفة الخانقة التي تطبق على حنجرتيهما. «جرى استدعاؤكما لأنكما تعرّضان المشروع للخطر بسبب غيابكما. ولا شك في أنكما لاحظتما أنني لم أقدم أي تفصيلات دقيقة. لا علاقة لكما بطبيعة المشروع. وأنا نفسي مَيّال إلى تناسي الأمر كله، لكن تناسيه أو عدم تناسيه متعلّق بكما. آمل أن يفهم أحدنا الآخر». ترك كلماته معلقة هناك لحظة حتى تكتسب معنى خارج الزمن. أحسّا بأنهما كائنان أحفوريان كستهما الطحالب. تابع النقيب قائلاً: «أقترح أن نضع الماضي جانباً. هذا شريطة أن تقبلا شروطي في ما يتعلق بالمستقبل». يعبث بيترينا بأنفه؛ ويحاول إرمياس تخليص معطفه من تحت مؤخرة زميله. «ليس لديكما خيار آخر. إن قلتما لا، فسوف أحرص على وضعكما في السجن زمناً طويلاً إلى أن يكون شعر رأسيكما شائباً عندما تخرجان». قاطعه إرمياس: «أرجو عفوك يا سيدي! لكن عمَّ تتحدث؟» تابع الضابط كلامه كأنه لم يسمع شيئاً: «أمامكما ثلاثة أيام. ألم يخطر لكما أن عليكما أن تعملا ذات يوم. أعرف تماماً ما كنتما تفعلان. أمنحكما ثلاثة أيام. وأظن أنكما يجب أن تفهما ما تخاطران به هنا. لست أبذل لكما أي وعود كبيرة أكثر من هذا؛ لكنكما ستحظيان بمهلة الأيام الثلاثة هذه فقط». فكر إرمياس في الاحتجاج، لكنه آثر العدول عن ذلك. وأما بيترينا فقد ذعر ذعراً حقيقياً: «فلأكن ملعوناً إذا كنت أفهم شيئاً، وأرجو عدم مؤاخذتي على هذه التعبير...» يتغاضى الضابط عن ذلك ويتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً، ثم يتابع كلامه كأنه يخلّص نفسه من عبء القرار الذي يتوقّع الامتثال له، لكنه راغب في تجاهله أيضاً. «أحسنا

الإصغاء إلى ما أقول. لن أكرر هذا ثانية: لا أقبل مزيداً من التأخير، ولا مزيداً من التلاعب، ولا أقبل أن تسببا أي مشكلات أخرى. انتهى هذا كله. ستفعلان ما أقوله لكما من الآن فصاعداً، هل هذا واضح؟» استدار كبير الأذنين صوب إرمياس: «عن أي شيء يتحدث؟» أجابه إرمياس بصوت مرتفع: «ليس لدي أدنى فكرة». حوّل النقيب عينيه عن السقف وحدّق فيهما بنظرة قاتمة قائلاً بصوته الغنائي ذي الطراز العتيق: «هلّا تخرسان من فضلكما!»

يجلس بيترينا، بل يكاد يسقط على الكرسي وعيناه ترفرفان مذعورتين وقد عقد كفيه فوق صدره ملصقاً رقبته بظهر الكرسي وقد انفرش معطفه الشتوي الثقيل من حوله مثل زهرة متفتحة. كان إرمياس منتصباً في جلسته؛ وكان ذهنه يجري محموماً. كان حذاؤه المدبب ذا لون أصفر لامع كثيراً. نشق بأنفه فظهرت غضون عميقة عليه: «إن لدينا حقوقاً». النقيب منزعج الآن. إنه ينفث الدخان وتلوح على وجهه علائم الإرهاق. قال: «حقوق! تتحدث عن الحقوق! ليس القانون بالنسبة لمن هم مثلكما إلا شيئاً تستغلونه! ليس إلا شيئاً يغطي ظهركما عندما تقعان في المشاكل! لكن هذا انتهى كله... لن أدخل في جدال معكما لأن هذا ليس نادياً للمناقشة؛ هل تسمعني؟ أقترح أن تألفا سريعاً فكرة أن عليكما أن تفعلا ما أقول. سوف تتصرفان بموجب القانون من الآن فصاعداً. ستعملان ضمن إطار القانون». فرك إرمياس ركبتيه بكفَّيْن متعرقين: «أي قانون؟» فعبس الضابط، ثم قال بوجه ممتقع وقد ابيضّت أصابعه الضاغطة على ذراعَيْ الكرسي: «قانون تناسب القوى. قانون البلد. قانون الشعب. هل تعني هذه المفاهيم أي شيء بالنسبة لأشخاص من صنفكما؟» طرح هذا السؤال مستخدماً، للمرة الأولى، صيغة المخاطبة الأقل احتراماً. أوشك بيترينا على الكلام ("ماذا يجري هنا؟ ولماذا تخاطبنا بهذه الصيغة؟ هل نحن زملاء في العمل أم لا؟ كيف هو الأمر؟ إن كنت تسألني رأيي، فإنني

أفضل...») لكن إرمياس كبحه عندما قال: «يا حضرة النقيب، أنت تعرف القانون الذي تتحدّث عنه، وكذلك نعرفه نحن، هذا سبب وجودنا هنا. ومهما يكن رأيك فينا، فإننا مواطنان يحترمان القانون. إننا ندرك واجباتنا. وأود تذكيرك بأن سلوكنا كثيراً ما برهن على هذا. نحن في صف القانون، مثلما أنت تماماً. فما الحاجة إلى هذه التهديدات كلها؟...» ابتسم الضابط ابتسامة ساخرة مثبتاً عينيه الكبيرتين الصادقتين على وجه إرمياس ذي الملامح المبهمة؛ ومع أن كلماته بدت ودية تماماً فإن الرجلين كانا قادرين على رؤية غضب حقيقي خلف كلامه: «أعرف كل شيء عنكما... لكن الحقيقة هي...»، أطلق زفرة كبيرة، «عليَّ الاعتراف بأنني لست أفضل من يقوم بهذا». «هذا جيد»، لكز بيترينا الذي أراحه هذا الكلام خاصرة زميله، ثم ألقى نظرة حب على النقيب الذي جعلته تلك النظرة ينكمش ثم يبدأ التهديد من جديد... «هذا لأنني، كما تعرفان، لا أستطيع العمل عندما أكون متوتراً. لا أستطيع التعامل مع ذلك!» قال بيترينا مكملاً فكرة الضابط رغم إحساسه بأن ذلك سينتهي نهاية سيئة: «أليس من الأفضل أن تتكلم بهذه الطريقة بدلاً من...» زعق الضابط فيه وهو يقفز عن الكرسي: «اخرس، وأطبق فمك القذر هذا! ماذا تظن؟ من أنتما بحق الجحيم؟ لستما أكثر من تافهين رخيصين! أتظنان أن هذه المسخرة قادرة على التغلب عليّ؟!» عاد إلى الجلوس وقد استبد به الغضب... «أتظنان أننا واقفون في جانب واحد!؟...» نهض بيترينا واقفاً، ملوحاً بيديه، خائفاً، محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه في هذا الموقف: «لا! لا بطبيعة الحال! بحق الله! أرجو أن تسمعني... كيف أعبِّر عن هذا؟... إننا لا نحلم بذلك أبداً!...». لا يقول النقيب شيئاً، ولا كلمة واحدة، لكنه يشعل سيجارة أخرى ويثبت أنظاره في نقطة فوق رأس بيترينا الذي ظل واقفاً هناك حائراً يشير إلى إرمياس طالباً مساعدته. أعلن الضابط بصوت فولاذي بارد: «لقد اكتفيت منكما أنتما الاثنين. هكذا هو الأمر! لقد اكتفيت من الثنائي

إرمياس ـ بيترينا. مللت من أمثالكما من المخلوقات، من الكلاب البائسة التي تظن أنني مسؤول أمامها!» قاطعه بيترينا مسرعاً: «أيها النقيب... أنت تعرفنا. لماذا لا يمكن أن تبقى الأمور مثلما كانت؟ اسأل («أسعفه بيترينا بالقول: اسأل زابو»)... المقدم زابو. لم تحدث أي مشكلات أبداً». أجاب النقيب بمرارة: «لقد تقاعد زابو. وأنا أتولى ملفاته الآن». انحنى بيترينا فوق المكتب وشد على يد الضابط: «وها نحن هنا، جالسان كأننا زوج من الأغنام، لا نعرف شيئاً... أهنئك تهنئة كبيرة يا سيدي؛ أهنئك من كل قلبي!» ينزعج الضابط ويدفع يد بيترينا عنه: «عد إلى مكانك! ماذا تظن أنك فاعل؟» يهز رأسه عاجزاً ثم يتخذ هيئة ودية عندما يرى صدمتهما الحقيقية: «لا بأس، استمعا إلي الآن! أريد أن يفهم كل منا الآخر. أرجو أن تلاحظا أن كل شيء هادئ هنا الآن. الناس راضون. هكذا يجب أن يكون الأمر. لكن، إذا قرأوا الصحف بعناية، فسوف يعرفون أن هنالك أزمة حقيقية. لن نسمح بأن تصيبنا هذه الأزمة وبأن تدمر كل ما أنجزناه حتى الآن! إنها مسؤولية كبيرة، وأنتما تفهمان هذا، مسؤولية خطيرة! لن نسمح لأنفسنا بترف تحمّل وجود شخصيات مثلكما تتجول هنا وهناك حيثما تشاء. لا نريد همساً وإشاعات هنا. أعرف أنكما تستطيعان أن تكونا مفيدَيْن للمشروع. أعرف أن لديكما أفكاراً. إياكما أن تظنا لحظة أنني لا أعرف هذا! لكني لست مهتماً بما فعلتماه في الماضي ـ نلتما ما تستحقان لقاء ذلك. وعليكما أن تكيّفا نفسيكما مع الوضع الجديد! هل هذا واضح؟» يهز إرمياس رأسه الآن: «لا يمكن هذا أبداً يا سيدي النقيب. لا يستطيع أحد أن يجعلنا نفعل شيئاً لا نريده. أما عندما يتعلّق الأمر بالواجب، فإننا سنفعل كل ما نستطيعه، لكن بطريقتنا نحن...» يقفز النقيب من جديد وقد جحظت عيناه وبدأ فمه يرتجف: «ماذا تعني بقولك إن أحداً لا يستطيع أن يجعلكما تفعلان ما لا تريدان فعله؟! ومن أنت بحق الجحيم حتى ترد على كلامي؟! اللعنة عليكما يا ابنَي الحرام العفنين عديمَي

النفع! متشردان قذران! سوف تعودان إليّ غداً صباحاً عند الساعة الثامنة تماماً! اذهبا الآن! انقلعا من هنا!» وبعد أن قال هذه الكلمات، استدار على عقبيه وارتجف جسمه رجفة لم يستطع منعها. انسل إرمياس صوب الباب مطأطئاً رأسه، وقبل أن يغلقه من خلفه لاحقاً ببيترينا الذي صار خارج الغرفة الآن منسلاً مثل أفعى، التفت لينظر خلفه مرة أخيرة. كان النقيب يدلك حاجبيه ووجهه... أحس أنه قد اكتسى درعاً؛ رآها رمادية باهتاً، لكنها معدنيّة المظهر؛ بدا كأنه يبتلع الضوء، كأن قوة سرية غامضة تتغلغل في جلده؛ رأى التعفن يزول من تجاويف عظامه، رآه يتحرر، تمتلئ كل خلية في جسمه كما لو أن الدم ينتشر إلى أطرافه كلها معلناً عن قوة لا تقهر. في تلك اللحظات القصيرة، اختفى الألق المتورّد الصحي، وتصلبت العضلات، وبدأ ذلك الجسم يعكس الضوء بدلاً من امتصاصه، صار فضياً لامعاً، وحل محل الأنف ذي الانحناءة الرشيقة ومحل عظمتَي الوجنتين المنحوتتين على نحو دقيق ومحل الغضون المجهرية الدقيقة أنف جديد وعظام جديدة وغضون جديدة مسحت كلها أي ذكرى لما كان قبلها وجمعت في كتلة واحدة كل ما سيجد نفسه، بعد سنين من الآن، مدفوناً على عمق ست أقدام. أغلق إرمياس الباب من خلفه وراح يسير مسرعاً ليجتاز الصالة المزدحمة حتى يلحق ببيترينا الذي صار في الممر من غير حتى أن ينظر خلفه ليرى إن كان رفيقه لاحقاً به، فقد أحس بأنه إذا التفت لينظر فقد يستدعونه من جديد. كان الضياء يتخلّل السحب الثقيلة التي تتنفس البلدة كلها عبرها؛ ودوّمت ريح غير ودود بين تلك الشوارع والبيوت والممرات والطرق التي غرقت كلها تحت انصباب مطر غزير لم يترك لها أملاً. عجائز جالسات في شبابيكهنّ يحدِّقن في الغسق عبر ستائر مخرّمة، وتنقبض قلوبهن لمرأى وجوه هاربة تحت المساءات في الخارج، ووجوههن مليئة بمظالم وآلام لا تستطيع حتى المعجنات الساخنة المخبوزة في مواقد السيراميك الحارة محوها. يسير إرمياس مجتازاً

البلدة بخطى واسعة حانقة وبيترينا سائراً في أعقابه متشكياً ساخطاً لأنه تركه خلفه، وكان يتوقف دقيقة من حين لآخر بمعطفه المتطاير في الريح حتى يستجمع أنفاسه. يسأل شاعراً بالبؤس: «إلى أين الآن؟»، لكن إرمياس لا يسمعه بل يتحرك قدماً قاذفاً اللعنات: «سوف يندم على هذا... سوف يندم على هذا، ابن الحرام». يسير بيترينا بخطوات أسرع ويقول مقترحاً: «فلننسَ هذه المسألة الوسخة كلها!»، لكن رفيقه ليس مصغياً. يرفع بيترينا صوته: «فلنذهب إلى النهر لنرى إن كنا نستطيع أن نفعل شيئاً هناك...»؛ لكن إرمياس لا يراه ولا يسمعه. «سوف أكسر رقبته...»، يقول هذه الكلمات لشريكه ويحرك يديه ليجعله يرى كيف سيفعل ذلك. لكن بيترينا عنيد مثله أيضاً: «هنالك أشياء كثيرة نستطيع فعلها عندما نكون هناك... نستطيع الصيد مثلاً، وأنت تدرك ما أعنيه... أو، استمع: لنقل إن هنالك شخصاً غنياً كسولاً، ولنقل إنه يريد أن يبني شيئاً...». يتوقف بيترينا أمام أحد البارات ويضع يده في جيبه ليحصي نقوده، ثم يدخلان عبر الباب الزجاجي. ليس في الداخل إلا بضعة أشخاص يمضون الوقت، وأجراس الظهيرة منبعثة من راديو ترانزيستور في حجر العجوز المسؤولة عن المراحيض؛ وخرقة المسح الدبقة؛ كانت الطاولات منحرفةً هنا وهناك، بما عليها من بقع رطبة مستعدة للشهادة على ألف قيامة صغيرة، وكان أكثرها خالياً الآن. كان أربعة أو خمسة رجال لهم وجوه غائرة مستندين بمرافقهم إلى الطاولات، جالسين متباعدين قليلاً وعلى وجوههم تعابير خيبة الأمل أو نظرات ماكرة يلقونها صوب النادلة، أو كانوا يحدقون في كؤوسهم أو يقرأون شيئاً ويرتشفون قهوتهم أو نبيذهم أو كحولهم الرخيص بذهن شارد. كانت رائحة المكان رطبة مرة نتنة، مزيجاً من دخان السجائر والأنفاس الحامضة، مزيجاً يعلو حتى السقف المسوَدّ. وإلى جانب الباب، بالقرب من مدفئة نفطية محطمة، كان كلب منكسر بلله المطر واقفاً يرتعد وينظر إلى الخارج بعينين خائفتين. زعقت

عاملة التنظيف: «حرّك مؤخرتك الكسولة واذهب من هنا!» وتقدمت بين الطاولات رافعة خرقتها بيدها. وخلف نضد الحانة، كانت فتاة بشعر أحمر كالنار ووجه طفولي ترتِّب رفاً مثقلاً بالحلويات البائتة وببضع زجاجات من الشمبانيا غالية الثمن، وتدهن أظافرها في الوقت نفسه. وكانت نادلة ممتلئة ضخمة مستندة إلى الناحية الأخرى من النضد حاملة سيجارتها بيد ورواية رخيصة في يدها الأخرى؛ وكانت تلعق شفتيها مستثارة كلما قلبت الصفحة. كانت على الجدران حلقة من مصابيح كللها الغبار معلقة هناك حتى تضفي جواً على المكان. قال بيترينا مستنداً إلى النضد بجانب زميله: «قدح مفرد ممزوج». لم تكلف النادلة نفسها عناء رفع عينيها عن كتابها. أضاف إرمياس: «وكأساً من الكوسوث الفضّي». تبتعد الفتاة التي خلف النضد عن الرف بضجر واضح، وتضع زجاجة طلاء الأظافر بحرص شديد، ثم تصب الكأسين بحركات بطيئة واهنة، غير ملتفتة إلى ما تفعله إلا قليلاً، ثم تدفع كأساً صوب إرمياس قائلة بصوت بطيء متكاسل: «سبعة، وسبعون». لكن أحداً من الرجلين لم يتحرك. ينظر إرمياس إلى وجه الفتاة فتلتقي عيونهما. يخاطبها بنبرة تذمّر: «طلبت كأساً مفردة!» تشيح الفتاة بوجهها سريعاً فتملأ كأسين آخرين، وتقول خجلة بعض الشيء: «آسفة». يتابع إرمياس بصوت خفيض: «أذكر أنني طلبت منك علبة سجائر أيضاً». تغمغم الفتاة ملتفة صوب زميلتها التي تحاول كتم قهقهتها وتلوح لها بيدها حتى تتجاهلها: «أحد عشر وثمانون». لكنها تأخرت كثيراً. «ما الأمر المضحك إلى هذا الحد؟» اتجهت العيون كلها إليهما. تجمدت البسمة على وجه النادلة، وعدلت بحركة عصبية رباط حمالة ثدييها من فوق مريلتها، ثم رفعت كتفيها. ساد الصمت فجأة. كان رجل بدين في قبعة سائق باص جالساً قرب النافذة المطلة على الشارع. إنه ينظر إلى إرمياس بدهشة ثم ينهي شرابه سريعاً ويضع الكأس على الطاولة بحركة خرقاء. «اعذرني...»، ثم تلعثم عندما رأى العيون كلها

تنظر إليه. في تلك اللحظة بدأت همهمة خفيضة ما كان أحد قادراً على تحديد مصدرها. كان كل واحد حابساً أنفاسه وينظر إلى الآخرين جميعاً لأن الصوت بدا للحظة كأنه صادر عن أحد الأشخاص، عن شخص حي يدمدم. كانوا يختلسون نظرات متبادلة. صارت الدمدمة أعلى صوتاً. رفع إرمياس كأسه ثم وضعها من جديد بحركة بطيئة. دمدم منزعجاً: «هل ثمة من يدمدم هنا؟ هل هي مزحة أم ماذا؟! ما هذه الدمدمة بحق الجحيم؟ هل هي آلة؟ أو، أو لعلها... المصابيح؟ لا، إنه صوت شخص بكل تأكيد. أيمكن أن تكون صادرة عن تلك العجوز عند المرحاض، أم هي صادرة عن ذلك التافه هناك، الذي ينتعل حذاء رياضياً؟ ما هي؟ هل هي نوع من الحلوى؟» ثم توقف الصوت فجأة. ما عاد هنالك إلا الصمت، والنظرات المرتابة. ترتجف الكأس في يد إرمياس. أما بيترينا فينقر على النضد بأصابع عصبية. الكل يجلس ساكناً... الرؤوس منكسة، لا يجرؤ أحد على الإتيان بحركة. تجذب العجوز الواقفة عند باب المرحاض كم النادلة: «هل نطلب الشرطة؟» أما الفتاة خلف البار فلا تستطيع التوقف عن الضحك، لشدّة توترها؛ تحاول إنهاء الأمر فتفتح الصنبور في المغسلة وتبدأ القرقعة بكؤوس البيرة. يقول إرمياس بصوت مخنوق: «سوف ننسفهم جميعاً»؛ ثم يكرر ذلك بصوت مدوٍ: «سوف ننسفهم كلهم. سننسفهم واحداً بعد الآخر. الجبناء! الديدان!» يستدير صوب بيترينا: «إصبع ديناميت واحد في كل جاكيت! ذلك الجالس هناك». يشير بإبهام يده إلى شخص جالس خلفه: «سندُسّ إصبع ديناميت في جيبه. وأما ذلك»، يتابع كلامه ملتفتاً صوب الموقد: «فسنضع الديناميت تحت وسادته. سنضع القنابل في المداخن، وعند الأبواب، وسنعلّقها في الثريات، وسندسّها في مؤخراتهم!» عند نهاية النضد، تقترب النادلة والفتاة التي خلف البار إحداهما من الأخرى خائفتين، ويتبادل الرجال نظرات مذعورة. ينظر بيترينا إليهم، يروزهم بعينين ممتلئتين كرهاً...

«سننسف جسورهم؛ وبيوتهم؛ والبلدة كلها؛ والحدائق؛ وصباحاتهم؛ وبريدهم، سنفعل ذلك خطوة بعد خطوة، سنفعله كما ينبغي، كل شيء وفق الترتيب الصحيح...» يضغط إرمياس على شفتيه وينفث الدخان، ويدفع كأسه فوق بقع البيرة على النضد، ثم يعيدها إليه... «هذا لأن على المرء أن ينهي ما بدأ فعله». يومئ بيترينا برأسه حانقاً: «صحيح تماماً، لا معنى للتسويف: سوف نفجرهم على مراحل!». يواصل إرمياس الكلام كأنه في حلم: «المدن كلها. واحدة بعد أخرى!». «والقرى. حتى أبعد كوخ!» يصيح بيترينا ملوحاً بيديه: «بم! بم! بم! هل تسمعون؟ ثم بووووم! إنها النهاية أيها السادة». يخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة العشرين ويلقي بها على النضد، تماماً وسط بقعة من البيرة، فتمتص الورقة السائل شيئاً فشيئاً. يتحرك إرمياس أيضاً مبتعداً عن البار ويفتح الباب، ثم يستدير: «يومان فقط، هذا كل ما بقي لديكم! سوف ينسفكم إرمياس ويمزقكم إرباً!» يبصق وهو خارج يقلب شفته، ثم يؤدي حركته الأخيرة فتتجول عيناه بحركة بطيئة بين الوجوه اليرقية المذعورة. رائحة المجاري الكريهة ممزوجة بالوحل، والبرك الصغيرة، وبفرقعة البرق الغريبة، وبالريح التي تعصف بقرميد السقوف وأسلاك الكهرباء والأعشاش الفارغة؛ الحرارة الخانقة خلف شبابيك غير محكمة الإغلاق... أنصاف كلمات العشاق متعانقة من غير صبر، قلقة... عويل الأطفال يطلبون طعاماً، تنزلق صرخاتهم في رائحة الغسق القصديرية؛ الشوارع المتعرجة، والحدائق الغارقة إلى الجذور راقدةً مذعنة للمطر، وأشجار البلوط العارية، وأزهار جافة نصف مهشمة، وأعشاب محروقة ساجدة كلها، متصاغرة أمام العاصفة، أضحيات مرمية عند قدمي جلادها. «هل سنرى شتيغروالد؟» لكن رفيقه لا يسمعه. كان قد رفع ياقة معطفه المخطط ودسَّ يديه عميقاً في جيبيه، وسار رافعاً رأسه مسرعاً من غير أن يبصر طريقه ماضياً من شارع إلى شارع من غير أن يبطئ خطوه ومن غير أن يلتفت أبداً.

كانت سيجارته التي بلّلها المطر متدلية من فمه لكنه لم يلاحظ ذلك، في حين واصل بيترينا شتم العالم كله بذخيرة من اللعنات لا تعرف نفاذاً؛ وكانت ساقاه المقوستان تخونانه مرات كثيرة، وعندما يسقط خلف إرمياس بعشرين خطوة يصيح به من غير طائل («أنت! انتظرني! لا تستعجل هكذا! ماذا تراني؟ هل تراني بقرة في سباق؟») ورغم أن الآخر لم يوله اهتماماً على الإطلاق، فقد وجد نفسه ـ حتى تصير الأمور أكثر سوءاً ـ يخوض في برك الماء إلى كاحليه فيطلق لهاثاً شديداً ويستند إلى جدار بيت ثم يدمدم قائلاً: «لا أستطيع المواصلة هكذا». لكن إرمياس يظهر من جديد، بعد دقيقتين، وشعره الرطب متدليًا فوق عينيه، وحذاؤه المدبب الأصفر الساطع ملطخ بالوحل. تسيل المياه من بيترينا، ويقول مشيراً إلى أذنيه: «انظر إلى هاتين! إنهما باردتان، متجمدتان...» يهز إرمياس رأسه متردداً، ثم يتنحنح ويقول: «إننا ذاهبان إلى المزرعة». يحدق بيترينا فيه وقد جحظت عيناه. «ماذا...؟ الآن؟! نحن الاثنان؟! إلى المزرعة؟!» يخرج إرمياس سيجارة أخرى من العلبة فيشعلها ثم ينفث دخانها سريعاً. «بالضبط! الآن تماماً». يستند بيترينا إلى الجدار. «اسمع يا صاحبي، يا سيدي، يا منقذي، يا من يسوق العبيد! سوف تسبب موتي! إنني متجمد بالكامل؛ وأنا جائع، وأريد أن أجد مكاناً دافئاً حيث أستطيع أن أجف وآكل؛ ثم إنني غير راغب أبداً ـ يشهد الرب على هذا ـ في الذهاب في هذه الرحلة الشاقة مشياً إلى المزرعة في هذا الجو القذر. والحقيقة إنني غير راغب في اللحاق بك، في الجري خلفك كأنني مجنون؛ اللعنة على روحك الملعونة أصلاً! اللعنة عليها!» يلوح إرمياس بيده ثم يجيب من غير اكتراث: «إن كنت غير راغب في البقاء معي فاذهب حيثما أردت»؛ ثم يتابع السير. «إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين تنطلق الآن؟» يصيح بيترينا خلفه غاضباً، ثم ينطلق لاحقاً به. «أين أنت ذاهب من غيري؟... قف لحظة واحدة. هيا!» تتراجع شدة المطر قليلاً عندما

يخرجان من البلدة. ويحل ظلام الليل. لا نجوم، ولا قمر. وعند تقاطع الطرق في إيليك، أمامهما بمئة متر، يظهر خيال يتهادى، فلا يكتشفا إلا بعد حين أنه رجل في معطف مطري طويل. يدخل الرجل حقلاً، ثم تبتلعه الظلمة. تظهر على جانبي الطريق السريع بقع مظلمة من أشجار الغابة... على امتداد النظر؛ والطين يغطي كل شيء؛ ولأن الضوء المتراجع يجعل الخطوط مشوّشة كلّها، ويضيع أثر الألوان كلها، ويجعل الأشكال الثابتة متحرّكة في حين يبدو ما يجب أن يكون متحركاً ثابتاً في مكانه كأنه استحال حجراً، فيبدو الطريق كله كأنه وعاء عجيب مصطدم بالأرض، وعاء يتهادى وتتخامد حركته في محيط طيني. لا طير يتحرك ليترك أثراً في السماء التي قست فصارت كتلة صلبة مثل ضباب صباحي معلّق فوق الأرض؛ لا شيء إلا غزال وحيد مذعـور يظهر ثم يغوص مختفياً في البعيد، كما لو أن الوحل ذاته يتنفّس ـ يسرع الغزال هارباً إلى الأفق البعيد.
يتنهد بيترينا: «يا إلهي الرحيم! تتشنج عضلات ساقيَّ عندما أفكر أن الصباح سيأتي قبل أن نصل! لماذا لم نسأل شتيغروالد إن كنا نستطيع استعارة شاحنته؟ ثم ذلك المعطف أيضاً! ما أنا؟ أأنا لاعب سيرك؟؟!»
يتوقف إرمياس ويضع قدمه على حجر من علامات الطريق، ثم يخرج سيجارة أخرى، يأخذ كل منهما سيجارة، ثم يشعلانهما وهما يدرآن الريح عنهما بأكفهما. «هل أستطيع أن أسألك شيئاً أيها القاتل؟» «ماذا؟» «لماذا نذهب إلى المزرعة؟» «لماذا؟ ألديك مكان آخر تنام فيه؟ ألديك شيء تأكله؟ ألديك مال؟ إما أن تكف عن تذمرك الدائم هذا أو أخنقك». «لا بأس! جيد جداً. إنني أفهم، أفهم ما قلته الآن على الأقل. لكن علينا العودة غداً، أليس كذلك؟ يصر إرمياس بأسنانه ولا يقول شيئاً. يتنهد بيترينا مرة أخرى: «انظر يا صديقي! لعلك فكرت حقاً في شيء آخر مستخدماً هذا الرأس الذكي! لا أريد البقاء مع هؤلاء الناس في حالتي هذه. لا أطيق البقاء في مكان واحد. وُلِد بيترينا تحت السماء، وهو يعيش تحتها طيلة

حياته، وتحتها سيموت أيضاً». يزيح إرمياس كلماته جانباً بإيماءة مرة من يده: «نحن غارقان في الخراء يا صديقي. ولا نستطيع أن نفعل شيئاً في هذا الشأن، إلى حين. علينا البقاء معهم». يعصر بيترينا يديه. «يا سيدي! لا تقل هذه الأشياء من فضلك! إن قلبي يدق دقاً عنيفاً منذ الآن». «لا بأس، لا بأس! لا تفعلها في ثيابك. سوف نأخذ نقودهم، ثم نتابع سيرنا. سنتدبر الأمر على نحو ما...» انطلقا من جديد. يسأل بيترينا قلقاً: «أتظن أن لديهم مالاً؟» «يكون لدى الفلاحين شيء ما، دائماً». تابعا السير من غير كلام، ميلاً بعد ميل؛ لا بد أنهما قاربا الآن منتصف المسافة بين المنعطف والبار المحلي. ومن حين لآخر، كانت نجمة من النجمات تومض أمامهما ثم تختفي من جديد في الظلام الكثيف؛ وكان القمر يشع أحياناً عبر الضباب ثم يفر هارباً... هارباً مثلما يفعل شخصان مرهقان ماضيان على ذلك الطريق في الأسفل... يفر معهما عبر ميدان المعركة السماوية شاقاً طريقه مجتازاً كل عقبة أمامه ماضياً إلى غايته حتى بزوغ الفجر. «أتساءل عما يمكن أن يقوله أولئك الريفيون الأغبياء عندما يروننا». أجابه إرمياس من فوق كتفه: «ستكون مفاجأة لهم». تزداد خطوات بيترينا سرعة، ثم يتساءل قلقاً: «وما الذي يجعلك تظن أنهم موجودون هناك أصلاً؟ أظنهم رحلوا منذ زمن بعيد. لا بد أن لديهم هذا القدر من الذكاء». يضحك إرمياس: «ذكاء! من؟ هم؟ لقد كانوا خدماً، وسيظلون خدماً إلى أن يموتوا. سوف يكونون جالسين في المطبخ، جالسين في خرائهم عند الزاوية، مسترقين النظر من النافذة حتى يروا ما يفعله الآخرون. أعرفهم هؤلاء الناس مثلما أعرف كفّي». قال بيترينا: «لا أعرف ما يجعلك واثقاً مما تقول إلى هذا الحد يا صديقي! يقول لي حدسي إن أحداً لن يكون هناك. بيوت خاوية، قرميد سقوفها متساقط أو مسروق، وليس في الطاحون غير جرذ جائع أو اثنين في أحسن الأحوال...» اعترض إرمياس واثقاً: «لا لا لا! ستجدهم جالسين في المكان نفسه تماماً، على الكراسي القذرة نفسها، يحشون

أنفسهم بالبطاطا القذرة نفسها وبالفلفل كل ليلة، من غير أن تكون لديهم فكرة عما يحدث. وستجدهم يتبادلون نظرات الريبة والشك ولا يخرقون الصمت إلّا حين يتجشأون. إنهم ينتظرون! ينتظرون صابرين، كعهدهم دائماً، كعهد معاناتهم التي لا تنتهي؛ وستجدهم مقتنعين تماماً أن هنالك من وضعهم في علبة. إنهم ينتظرون ملصقين بطونهم بالأرض مثلما تفعل القطط وقت ذبح الخنازير آملة في الحصول على بعض البقايا. إنهم مثل خدم يعملون في قلعة أطلق سيدها النار على نفسه: يتجولون هنا وهناك في حيرة تامة ولا يعرفون ما يفعلون...». «كفاك شعراً يا زعيم فأنا مذعور أصلاً!» يحاول بيترينا تهدئة نفسه ويضغط على معدته المقرقرة. لكن إرمياس لا يعيره اهتماماً... إنه ماض في كلامه... «إنهم عبيد فقدوا سيدهم لكنهم لا يستطيعون العيش من غير ما يطلقون عليه اسم الكبرياء والشرف والشجاعة. هذا ما يبقي أرواحهم في مكانها حتى عندما تدرك عقولهم الغليظة أن هذه الصفات ليست ملكاً لهم، وأنهم لا يفعلون أكثر من العيش في ظل سادتهم...» يقول بيترينا بصوت كالأنين وهو يدعك عينيه لأن الماء ينصبّ عليها من حافة قبعته المستوية: «يكفي هذا! انظر، لا تغضب، لكني لا أستطيع احتمال الاستماع إلى هذه الأشياء الآن!... لك أن تخبرني كل شيء عنهم غداً. أما الآن فأفضِّل أن تحدثني عن قدر جميل حارّ من حساء الفاصولياء». لكن إرمياس يتجاهل هذا أيضاً ويمضي في كلامه من غير اضطراب... «ثم، يتبعون ذلك الظل حيث يذهب كأنهم قطيع من الخراف لأنهم لا يستطيعون العيش من غير ظل يتبعونه، تماماً مثلما لا يستطيعون العيش من غير تباهٍ وخيلاء»، (يصيح بيترينا متألماً: «بحق الرب! كف عن هذا يا صديقي، أرجوك!...») «سيفعلون أي شيء حتى لا يظلوا وحدهم مع بقايا خيلائهم وتفاخرهم لأن الجنون يصيبهم إذا تُركوا وحدهم: تراهم ينقضّون، مثل كلاب مسعورة، على أيّ شيء باقٍ فيمزّقونه إرباً. أعطهم غرفاً حسنة التدفئة،

وقدراً حاراً من طبيخ الفلفل، ويضعة كلاب، فيرقصون على الطاولة كل ليلة؛ بل يكونون أيضاً أسعد حالاً تحت أغطية السرير الدافئة... يلهثون هناك ومعهم زوجة الجار اللذيذة الممتلئة... هل أنت مصغٍ إلي يا بيترينا؟» يتنهد صاحبه مجيباً: «نعم نعم» ثم يضيف راجياً: «لماذا تسألني؟ هل انتهيت؟» صارا الآن قادرَيْن على رؤية الأسيجة المنهارة عند البيوت التي على حافة الطريق، والسقيفة المتداعية، وخزان المياه الصدئ؛ وإلى جهة اليمين بالقرب منهما، جاءهم صوت خشن يناديهم من خلف كدسة مرتفعة من الأعشاب: «انتظرا! هذا أنا». ثم ظهر صبيّ في الثانية عشرة أو في الثالثة عشرة من عمره. كان متجمداً من البرد، مبللاً حتى العظام، يرتدي بنطلوناً رفعه إلى ركبتيه. اندفع الصبي إليهما وهو يرتعد والماء يقطر منه وعيناه متألقتان. يتبينه بيترينا قبل رفيقه: «هذا أنت...؟ ماذا تفعل هنا أيها الصغير الذي لا ينفع لشيء؟» أعلن الصبي معتزاً: «إنني مختبئ هنا منذ ساعات...»، ثم خفض عينيه سريعاً. كان شعره المشعث متهدلاً فوق وجهه المبقع؛ وكانت بين أصابعه المطوية سيجارة متوهجة. يتمعن إرمياس في الصبي الذي راح يسترق نظرات مواربة إليه ثم يخفض عينيه سريعاً. سأله بيترينا هازاً رأسه: «فماذا تريد إذن؟» يختلس الفتى نظرة أخرى إلى إرمياس. «لقد وعدتني...» يبدأ الكلام ثم يتلعثم ويتوقف، ... «أنك... أنني إذا...». قال إرمياس مناكفاً الصبي: «هيا يا فتى، قلها!» نطق الصبي أخيراً وهو يضرب الأرض بقدمه طيلة الوقت: «وعدتني إنني إذا قلت للناس إنكما... إنكما ميتان، فسوف تجد لي طريقاً مع السيدة شميدت...» يشد بيترينا أذن الصبي ويقول له موبخاً: «ما هذا؟ لم تفقس من البيضة بعد، وتريد أن تتسلق تنانير النساء أيها الوغد الصغير! ثم ماذا تريد بعد ذلك؟!» يحرر الصبي أذنه ثم يصيح وعيناه متقدتان غضباً: «سأقول لك ما الذي يجب أن تشده أيها التيس العجوز. عليك أن تشد جلد قضيبك!» كانا على وشك العراك لو لم يتدخل إرمياس. صاح قائلاً:

«هذا يكفي! كيف عرفت أننا قادمان على الطريق؟» وقف الصبي على مسافة آمنة من بيترينا وهو يدعك أذنه «هذا شأني أنا. وهو ليس مهمًا أصلاً... يعرف الجميع الآن أنكما قادمان. أخبرهم السائق بهذا». راح بيترينا يصب اللعنات رافعاً رأسه ناظراً إلى السماء. لكن إرمياس يشير له بأن يسكت («استخدم عقلك! دعه وشأنه!») ثم يستدير إلى الصبي: «أي سائق؟» («كيليمين. إنه يعيش بالقرب من منعطف إيليك؛ وهناك رآكما»). «كيليمين؟ هل صار سائق باص؟» «نعم، منذ الربيع، يعمل على خط النقل عبر البلاد. لكن الباص معطل الآن؛ وهكذا صار لديه وقت حتى يتسكع هنا وهناك». «لا بأس»، قالها إرمياس ثم انطلق ماشياً من جديد. أسرع الصبي حتى يواكب خطواته. «لقد فعلت ما طلبت مني فعله. وآمل أنك ستفي بالقسم الذي يخصك من...» أجابه إرمياس ببرودة: «إنني أحفظ وعدي عادة». تبعه الصبي مثل ظله. كان يسبقه أحياناً فيلقي على وجهه نظرة ثم يتخلّف عنه. أما بيترينا فكان سائراً خلفهما، متخلفاً عنهما مسافة كبيرة؛ ورغم عدم قدرتهما على فهم ما يقول، إلا أنهما كانا مدركين أنه يواصل شتم المطر الذي لا يتوقف، والوحل، والصبي، والعالم أجمع («إلى الجحيم بهذا كله!») قال الصبي بعد قرابة مئتي متر: «لا تزال الصورة معي!» لكن إرمياس لم يسمعه، أو تظاهر أنه لم يسمعه؛ كان رأسه مرفوعاً عالياً وهو ماضٍ في وسط الطريق، وهو يشق الظلمة بأنفه المعقوف وذقنه الحادة. لكن الصبي حاول مرة أخرى: «ألا تريد رؤية الصورة؟» استدار إرمياس بطيئاً لينظر إليه: «أي صورة؟» كان بيترينا قد لحق بهما. «هل تريد أن ترى؟» يومئ إرمياس برأسه. يستحثه بيترينا قائلاً: «كف عن التلاعب أيها العفريت الصغير». «ألن تغضبا؟» «لا، لا بأس!» أضاف الصبي: «يجب أن أظل ممسكاً بها» ثم أدخل يده في قميصه. كانا في الصورة واقفين أمام بائع متجول: إرمياس إلى اليمين شعره مسرّح مفروق إلى جانب؛ ويرتدي سترة رسمية مخططة وربطة عنق حمراء؛ وكانت طية

بنطلونه منكسرة عند ركبته. وكان بيترينا واقفاً إلى جانبه في بنطلون من الساتان وقميص داخلي أكبر من مقاسه؛ كان ضياء الشمس يتخلل أذنيه الكبيرتين. وكان إرمياس مضيقاً عينيه مبتسماً ابتسامة ساخرة. أما هيئة بيترينا فكانت وقورة احتفالية؛ وشاءت المصادفة أن تكون عيناه مغمضتين وفمه مفتوحاً قليلاً. ظهرت إلى يسار الصورة أيضاً يد شخص ما حاملة ورقة نقدية بين أصابعها، ورقة من فئة الخمسين. وخلفهما أرجوحة أطفال كبيرة دوارة مفكوكة، أو يجري فكها. قال بيترينا مسروراً: «نعم، هل رأيت هذا؟ إنها صورتنا حقاً يا صديقي. صورتنا بالتأكيد! أعطني الصورة! دعني أرى جيداً كيف كان شكلي». يدفع الصبي بيده بعيداً: «لا! لن ترى شيئاً! أتظن أنه عرض مجّاني أقدمه لك؟ أبعد يدك القذرة»... قال هذا وهو يعيد الصورة إلى مغلف بلاستيكي شفاف ثم يدسه في قميصه من جديد. قال بيترينا مسترضياً، راجياً: «أوو، هيا يا فتى! دعنا ننظر نظرة أخرى. لم أكد أرى شيئاً». «إذا أردت أن ترى المزيد... فعليك إذن....» تردد الصبي قليلاً... «عليك أن تجد لي طريقاً مع زوجة صاحب البار. إن لها ثديين جميلين كبيرين أيضاً». يشتمه بيترينا ويواصل سيره. («ثم ماذا أيها الولد المزعج!») يصفعه الصبي على ظهره ثم يندفع خلف إرمياس. يندفع بيترينا خلفه محاولاً الإمساك به، لكنه يتذكر الصورة فيبتسم ويدمدم لنفسه قليلاً ثم يسير بخطوات أكثر سرعة. إنهم عند مفترق الطرق الآن: «بقي نصف ساعة فقط من هذه النقطة». ينظر الصبي إلى إرمياس مفتوناً، ويقفز إلى يساره تارة وإلى يمينه تارة أخرى... «ماري تضاجع صاحب البار...» يقول هذه الأشياء بصوت مرتفع أثناء سيره وهو يسحب أنفاساً من سيجارته التي احترقت الآن حتى بلغت أصابعه: «والسيدة شميدت تفعلها مع الكسيح... تفعلها... تفعلها منذ زمن طويل؛ أما المدير فيضاجع نفسه... شيء مقرف حقاً... يمكنك أن تتخيل هذا، أوخ!... وأختي الصغيرة جنت تماماً... هي لا تفعل شيئاً غير الإصغاء والتجسس.

تتجسس على الجميع طيلة الوقت. أمي تضربها، لكن عبثاً... لا يجدي معها شيء، مثلما يقول الناس... سوف تظل حمقاء طيلة حياتها... صدق أو لا تصدق... يجلس الطبيب في بيته طيلة اليوم، وطيلة الليل، بل ينام في الكرسي أيضاً؛ وتفوح في بيته روائح كريهة... مثل وكر الجرذان؛ يظل الضوء مشتعلاً عنده ليلاً ونهاراً، ليس لأنه مهتم بالأمر... يجلس هناك يدخن سجائر رفيعة المستوى، سوف ترى، مثلما أقول لك تماماً. ثم، كدت أنسى، اليوم يجلب شميدت وكرانر النقود مقابل الماشية. نعم، هذا ما كانوا يفعلونه كلهم منذ شهر شباط، عدا أمي، لأن ذلك الخنزير القذر لم يتركها تشارك. الطاحون؟ لا يذهب إليها أحد. الغربان تملأ المكان؛ تذهب شقيقتاي إليه فقط لأنهما تلتقطان زبائنهما هناك... لكن، يا للحمقاوين، تخيل هذا فقط! أمي تأخذ نقودهما كلها، وهما لا تفعلان شيئاً... تجلسان وتبكيان فقط! لو كنت أنا لما سمحت بهذا؛ لك أن تكون واثقاً بكلامي؛ هناك، في البار؟ إن زوجة صاحب المكان شديدة الاهتمام بنفسها الآن. انتفخت فصارت مثل مؤخرة بقرة، لكنها من حسن حظها انتقلت إلى بيتها في المدينة وسوف تظل هناك حتى الربيع لأنها قالت إنها لن تبقى هنا مدفونة في الوحل حتى عنقها، ثم... لك أن تضحك الآن... يتعين على صاحب الحانة أن يذهب إلى بيته مرة في الشهر، وعندما يعود تراه كأنه تلقى ضرباً شديداً، إنها تهاجمه كثيراً... لكنه، على أي حال، قد باع دراجة البانون العظيمة التي كانت لديه واشترى بدلاً منها سيارة عتيقة لا بد له من دفعها طيلة الوقت هو وكل من يكون موجوداً من حوله، يدفعونها في المزرعة كلها حتى تعمل ذلك أنه منهمك بتوصيل شيء ما إلى أحد ما طيلة الوقت ـ لكن على الجميع أن يشارك في دفعها... إذا عمل محركها أصلاً. ثم، إنه يخبر الجميع عن فوزه في سباق ريفي ما في تلك السيارة الخردة... ليس لك إلا أن تضحك! إنه مع شقيقتي الصغرى الآن لأننا مدينون له بثمن البذار منذ السنة الماضية...» صارت نافذة

الحانة مرئية الآن، يلمع ضوؤها أمامهم... لكن، لا صوت إطلاقاً، ولا يستطيع المرء أن يسمع كلمة واحدة كأن المكان مهجور، لا أحد فيه... لكن أحدهم بدأ يعزف على الهارمونيكا الآن... يكشط إرمياس الوحل عن حذائه الثقيل، ويتنحنح منظفاً حنجرته، ثم يفتح الباب حذراً، ويبدأ المطر من جديد بينما تضيء السماء في جهة الشرق، سريعاً مثل ذكرى، قرمزية زرقاء شاحبة متكئة على أفق متموج، منتظرة أن تأتي الشمس في أعقابها، تنتظر مثل متسول يشق طريقه لاهثاً كل يوم إلى مكانه على درجات المعبد، مفعماً بالبؤس وبانكسار القلب... مستعدة لجلاء عالم الظلال، ولتفريق الأشجار إحداها عن الأخرى، وللنهوض متعالية على تلك الوحدة اللامتمايزة المشوَّشة المتجمدة... وحدة الليل الباردة التي كانوا عالقين فيها مثلما تعلق ذبابات في شبكة عنكبوت... أرض وسماء بمعالم واضحة، بحيوانات وبشر واضحين... ولا تزال الظلمة هاربة عند نهايات الأشياء، في مكان ما عند ذلك الأفق، في أقصى الغرب حيث تختفي أهوال لا حصر لها، واحداً بعد الآخر، مثل جيش مشتت مرتبك مهزوم.

3. حتى ندرك شيئاً

في الحقبة الباليوزية، قبل ملايين السنين، بدأ غرق أوروبا الوسطى كلها. ومن الطبيعي أن بلدنا الأم هنغاريا كان جزءاً مما جرى. وفي ظل الشروط الجيولوجية الجديدة، غرقت كتل الجبال من الحقبة الباليوزية أعمق فأعمق إلى أن بلغت المهد الصخري فغمرها البحر الموسوبي وغطاها. ومع تواصل هذا الغرق، صارت أرض هنغاريا الحوض الشمالي الغربي من ذلك الجزء من البحر الذي غمر جنوب أوروبا. ظل البحر سيد هذه المنطقة كلها حتى أواخر الحقبة الميسوزية. كان الطبيب جالساً عند النافذة، متجهماً نكد المزاج، وكان مستنداً بكتفه إلى الجدار البارد الرطب، وما كان عليه حتى أن يحرك رأسه لينظر عبر تلك الفجوة بين الستارة المورَّدة القذرة التي ورثها عن أمه وبين إطار النافذة العفن حتى يرى المزرعة؛ ما كان عليه إلا أن يرفع عينيه عن كتابه فيلقي نظرة سريعة حتى يلاحظ أقل تغير... إن حدث تغير من وقت لآخر ـ لنقل مثلاً إنه كان غارقاً في أفكاره كل الغرق، أو إنه كان مركزاً انتباهه على نقطة بعيدة في المزرعة ـ وإذا ما فات عينيه شيء، فإن أذنيه اللتين تزدادان رهافة سرعان ما تخفّا إلى نجدته رغم أن غيابه مسترسلاً في أفكاره كان أمراً نادر الحدوث، وكان أكثر ندرة من ذلك أن ينهض في معطفه الشتوي ذي الياقة الفرائية فيترك كنبته المحشوة المدعمة ببطانية ـ تلك الكنبة التي كان موقعها محدداً بأقصى دقة بفعل خبرة تراكمت لديه نتيجة نشاطاته اليومية فنجحت في أن

تقلل، إلى أقصى حد ممكن، عدد المناسبات المحتملة التي يمكن أن يضطر فيها إلى مغادرة مركز المراقبة عند النافذة. وطبيعي أن هذه المهمة اليومية ما كانت أمراً سهلاً أبداً. بل على العكس من هذا: كان عليه أن يجمع وأن يرتّب، على نحو أمثل، كل ما كان لازماً للأكل والشرب والتدخين وكتابة اليوميات والقراءة، إضافة إلى ما لا يحصى من التفاصيل الصغيرة للحياة اليومية؛ بل إن ذلك كله كان يعني أنه مضطر إلى الإقلاع عن فكرة ترك الأمور تنزلق من تلقاء ذاتها ـ تماماً لمجرد ضعف شخصي ما ـ فتمضي هكذا من غير عقاب لأنه، إن فعل هذا، يكون قد تصرف ضد مصالحه، فمن شأن غلطة ناجمة عن السهو أو الإهمال أن تزيد من الأخطار والعواقب فتجعلها تبلغ حداً قد لا يخطر في بال الإنسان: يمكن أن تكون حركة زائدة واحدة قناعاً تختفي من ورائه علامات بداية الضعف والعطب؛ كان عود ثقاب أو كأس براندي في مكان غير صحيح مثالاً على الأثر المدّمر لتراجع الذاكرة، هذا إن غضضنا الطرف عن حقيقة أن تلك الواقعة نفسها تستدعي تعديلات إضافية على السلوك، أي أنها سوف تعني ـ عاجلاً أو آجلاً ـ إعادة النظر في موقع السيجارة ودفتر الملاحظات والسكين والقلم أيضاً، وسرعان ما سيكون لازماً أن يتغير «نظام الحركة المُثلى كله»، فتنشب الفوضى ويضيع كل شيء. لم يكن الاستقرار على أفضل حال للمراقبة وليد اللحظة أبداً، لا... لقد استغرق سنوات، سلسلة من التطويرات التي جرت يوماً بعد يوم ـ عملية جلد ذاتي وعقاب، وموجة بعد موجة من الغثيان بعد أغلاط لا نهاية لها ـ لكن، مع انقضاء حالة عدم اليقين الأولى ومع انجلاء نوبات القنوط العارضة، جاء وقت لم يعد مضطراً فيه إلى مراقبة كل حركة بعينها لأن الأشياء جميعها بلغت آخر الأمر مواضعها النهائية الثابتة فصار، هو نفسه، قادراً على ممارسة ضبط تلقائي صارم ضمن مجال حركته، دقيقة بدقيقة؛ وعند هذه النقطة صار يستطيع أن يعترف لنفسه، من غير أي مغامرة بالإفراط في الثقة أو بخداع الذات، أن حياته

قادرة على السير من غير شائبة. ومن الطبيعي أن إنجاز هذه النتيجة اقتضى زمناً، بل اقتضى شهوراً، إلى أن فارقه وَجلُه لأنه كان مدركاً أن تقديره للأوضاع في محيطه، مهما بلغ من الكمال، يظل غير قادر على إعفائه – ويا للأسف – من الاعتماد على أشخاص آخرين من أجل تأمين ما يلزمه من طعام ومشروبات وسجائر وغير ذلك من أشياء كبيرة القيمة. وأما ما كان يبعث لديه القلق فيما يتعلق بالسيدة كرانر التي عهد إليها بتأمين ما يلزمه من طعام فسرعان ما أثبت أنه من غير أساس، وكذلك اتضح بطلان شكوكه في صاحب الحانة أيضاً: كانت المرأة دقيقة، شديدة الحرص، وثبت له أن من الممكن فطامها عن المجيء إليه في أسوأ اللحظات حاملة مأكولات غريبة اختلستها من المزرعة لتقول له صائحة: «لا تتركه يبرد يا دكتور». وأما الشراب فكان يشتري كميات كبيرة منه، على فترات متباعدة؛ فإما أن يشتريه بنفسه أو –وهذا أكثر حدوثاً – يعهد بهذه المهمة إلى صاحب الحانة نفسه لأن ذلك الرجل كان يخشى أن يعمد الطبيب الذي لا يستطيع أحد أن يتوقّع سلوكه إلى نزع ثقته عنه فيحرمه من دخل مضمون، وهذا ما جعله يبذل قصارى الجهد لإرضاء الطبيب في كل أمر صغير حتى عندما تبدو له تلك الأمور الصغيرة حماقة صرفاً. إذن، لم يكن لديه ما يخشاه تجاه هذين الشخصين، وأما بقية أهل المزرعة فقد نفضوا عنهم منذ زمن طويل كل أمل في النجاح في الاعتداء على خصوصيته من غير سابق إنذار متذرعين بنوبة حمّى مفاجئة، أو باضطراب معوي، أو بحادثة ما، وهذا لأنهم اقتنعوا جميعاً بأن موثوقيته وقدراته الطبية قد تلاشت أيضاً بفعل استنكافه عن تدبير هذه الحالات كلها. ورغم شيء من المبالغة في ظنونهم هذه، فإنها لم تكن من غير أساس لأنه كرّس القسم الأعظم مما بقي لديه من عزم للمحافظة على قوة ذاكرته مع ترك بقية الأمور تتدبر أمورها بأنفسها. ورغم هذا كله، ظل الطبيب يعيش حالة قلق دائم لأن «هذه الأشياء تأخذ انتباهي كله!» فلم يعد يجد غضاضة (إن كانت السيدة كرانر واقفة بالباب أو كان

صاحب البيت) في التفرس في أي منهما دقائق لا تنتهي، من غير كلام، ناظراً في أعماق عيونهما، مفتشاً فيها ليرى إن كان صاحب العينين سيشيح بوجهه، وليلاحظ مدى سرعته في تحويل أنظاره؛ أي، بكلمات أخرى، ليرى كم تفضح العينان صاحبهما، وكم تكشفان عن شكه وفضوله وخوفه، لأنه يكون عند ذلك قادراً - استناداً إلى هذا الدليل - على معرفة ما إذا كان الواقف ببابه لا يزال راغباً في الاستمرار في الاتفاق القائم بينهما، ذلك الاتفاق الذي تعتمد أموره المالية عليه؛ فكان لا يسمح لأي منهما بالدخول قبل أن يرضى عما يراه في وجهه. وكان حريصاً على إبقاء احتكاكه بهما في الحدود الدنيا، وعلى الامتناع عن الإجابة على تحياتهما إذ يلقي نظرة على الأكياس المليئة التي يأتيان بها، ثم يراقب حركتهما الخرقاء بتعابير غير ودية على وجهه، ويستمع نافذ الصبر إلى أسئلتهما وأعذارهما التي يصوغانها على نحو غريب مدمدماً لنفسه طيلة الوقت متذمراً من أنهما (السيدة كرانر خاصة) لا يكملان جُمَلهما وأنهما يأخذان النقود التي تركها لهما فيسرعان خارجين من غير عدّها. وهذا ما كان يفسر، إلى هذا الحد أو ذاك، السبب الذي يجعله متوتراً طيلة وجوده قريباً من الباب: كان هذا يجعله غير مرتاح بالتأكيد، ويسبب له صداعاً، أو يجعله يحس أنفاسه تتقطع كلما اضطر (نتيجة إهمال ما من جانب واحد منهما) إلى النهوض من مكانه لإحضار شيء من آخر الغرفة؛ وهكذا كان حريصاً كلما فعل ذلك على إنجاز الأمر بأسرع ما يمكن... لكن، ومهما تكن سرعته في ذلك، فإنه لا يفلح في العودة إلى كنبته قبل أن يدرك أن نهاره كله قد فَسُد ويستولي عليه قلق غامض لا قرار له فترتجف يده الممسكة بالقلم أو بالكأس ويملأ صفحة من دفتره بخربشات عصبية صغيرة لا يلبث، بطبيعة الحال، أن يشطبها كلها بحركات غاضبة فظة. فلا عجب إذن في أن يكون كل شيء في هذه الزاوية الملعونة من هذه المزرعة مقلوباً رأساً على عقب: جف الوحل التي أتت به الأقدام إلى داخل البيت مشكِّلاً طبقات ثخينة

فوق ألواح الأرضية الخشبية التي بليت وتعفنت كلها؛ ونمت أعشاب عند الجدار الأقرب إلى الباب، وجثمت إلى جهة اليمين قبعة مسحوقة لا يكاد المرء يستطيع تمييزها تحيط بها بقايا طعام وأكياس من النايلون وبضع زجاجات دواء فارغة وقصاصات ورق وأقلام رصاص مستهلكة. وأما الطبيب نفسه -خلافاً، كما يرى البعض، لما قد يكون لديه من حب مبالغ فيه للنظام، أو من حب مَرَضي للنظام- فلم يكن يفعل شيئاً لإصلاح هذا الوضع غير المحتمل؛ لقد كان مقتنعاً بأن زاويته الصغيرة هذه في المزرعة ليست إلا جزءاً من العالم الخارجي المعادي، ولم يكن في حاجة إلى دليل أكثر من هذا لتبرير خوفه وقلقه واضطرابه وقلة ثقته، فما عاد لديه إلا «جدار دفاعي واحد» يحميه بعد أن صار كل شيء غيره «هشاً سريع العطب». كانت الغرفة تنفتح على ممر مظلم نمت فيه أعشاب؛ وكان هذا الممر طريقه إلى المرحاض الذي توقف خزان الماء فيه عن العمل منذ سنوات فاستعيض عنه بدلو كانت السيدة كرانر مضطرة إلى إعادة ملئه ثلاثة أيام كل أسبوع. وكان في إحدى نهايتي الممر بابان عليهما قفلان ضخمان صدئان؛ وأما نهاية الممر الثانية فكانت مفضية إلى خارج البيت. وكانت السيدة كرانر، التي تحمل نسخة من مفاتيح هذا المكان تشم دائماً الرائحة الحامضة الكريهة الغريبة فور دخولها. كانت الرائحة تتغلغل في ثيابها، وكانت تؤكد دائماً أنها استقرت عميقاً في جلدها إلى حد يجعل إزالتها بالغسل أمراً لا طائل منه، حتى إن اغتسلت مرتين في آخر كل يوم من أيام «زيارة الطبيب». كانت جهودها كلها من غير فائدة. كان هذا هو التفسير الذي قدمته للسيدة هاليكس والسيدة شميدت لقصر الوقت الذي تمضيه داخل ذلك البيت: كانت غير قادرة أبداً على تحمل تلك الرائحة الفظيعة أكثر من دقيقتين في المرة الواحدة لأنها «أقول لك، رائحة غير محتملة أبداً، لا أستطيع أن أطيقها، لا أعرف حتى كيف يكون ممكناً أن يعيش المرء مع هذه الرائحة الفظيعة. وهو، بعد كل حساب، رجل متعلم، يستطيع أن يرى...». كان

الطبيب يتجاهل الرائحة غير المحتملة مثلما يتجاهل كل شيء آخر لا تكون له علاقة مباشرة بموقع المراقبة الذي أقامه؛ وكلما زاد تجاهله لهذه الأشياء كلما تمكّن من تكريس المزيد من انتباهه وخبرته من أجل المحافظة على النظام من حوله ـ الطعام، وأدوات الطعام، والسجائر، وأعواد الثقاب، والكتاب ـ وكلها على مسافة صحيحة فوق الطاولة، وعلى حافة النافذة، وفي المساحة المحيطة بالكرسي حيث انتشر عفنٌ متنامٍ فظيع فوق ألواح الأرضية التالفة أصلاً؛ وكان يحس عند الغسق ألقاً دافئاً ودرجة من الرضا عندما تجول عيناه في الغرفة التي أظلمت فجأة فيرى أن كل شيء فيها واقع تحت سيطرته الحازمة كلية القدرة. وقد أدرك منذ شهور أن ما من معنى لمزيد من التجريب، ثم أدرك أيضاً أنه غير قادر، حتى إذا أراد، على إدخال أي تعديل على ذلك النظام مهما يكن التعديل بسيطاً؛ لا سبيل إلى برهان قاطع على مزية أي تعديل لأنه كان يخشى أن تكون الرغبة في التغيير مجرد إشارة خفية إلى تراجع ذاكرته. وهكذا اكتفى بألا يفعل شيئاً، وبأن يظل يقظاً حريصاً على حفظ ذاكرته المتراجعة في مواجهة التآكل الذي يودي بكل شيء حوله، وذلك مثلما فعل منذ تلك اللحظة (عندما أُعلن عن إغلاق الطاحون فقرر شخصياً أن يظل في ذلك المكان وأن يعيش على ما بقي لديه ريثما «يجري اتخاذ قرار آخر يبطل قرار الإغلاق») التي ذهب فيها إلى الطاحون مع ابنة هورغوس الكبرى ليرى الخراب المخيف الذي ألحقه الهجران بذلك المكان، حيث كان كل امرئ مندفعاً صائحاً هنا وهناك، وحيث لاحت الشاحنات في الأفق كأنها أشباح لاجئين يفرّون من هذا المشهد، فرأى أن حكم الإعدام الصادر على الطاحون قد جعل المزرعة كلها على شفير الانهيار وصار، منذ ذلك اليوم فصاعداً، يحس بأنه أضعف من أن يستطيع بنفسه إيقاف عملية التداعي المتقدمة الظافرة مهما بذل من جهد في سبيل ذلك، فليس له أن يفعل شيئاً في مواجهة القوة التي تدمر البيوت والأشجار والحقول، وفي مواجهة الطيور المنقضة من

علاها، وفي مواجهة الوحوش المندفعة قدماً، وفي مواجهة أجساد البشر ورغباتهم وآمالهم، عارفاً أنه لن يفلح، مهما حاول، في أن تكون لديه قوة كافية لمقاومة هذا الهجوم الغادر الخبيث على الإنسانية؛ وبما أنه أدرك هذا، فقد فهم أيضاً (في الوقت المناسب تماماً) أن أفضل ما يستطيع فعله هو استخدام ذاكرته لكي يدرأ مسار التفكك الخَدّاع المشؤوم، واطمأن إلى حقيقة مفادها أن كل ما يبنيه البَنّاء، وكل ما يقيمه النجار، وكل ما تخيطه المرأة، بل كل ما يحققه الرجال والنساء بعد معاناة ودموع مرة، محكوم بأن يتحول آخر الأمر إلى ركام مسحوق متآكل متهاوٍ سائل جارٍ تحت الأرض، لكن ذاكرته تستطيع أن تظل حية واضحة إلى أن تستسلم أعضاء جسمه «وتلتزم بالعقد القائل إن مهمتها قد انتهت»، أو إلى أن يصبح لحمه وعظامه فريسة كواسر تحوم فوق الموت والفناء. قرر أن يراقب كل شيء مراقبة يقظة وأن يسجل حصيلة مراقبته دائماً، وكل ذلك حتى لا يغفل عن أصغر تفصيل لأنه أدرك مصدوماً أن تجاهل المرء ما يبدو قليل الأهمية في ظاهره يعني إقراراً منه بأنه محكوم بأن يجلس من غير دفاع في ذلك البرزخ الواصل بين الأجزاء القائمة والساقطة من الجسر الممتد بين الفوضى والنظام الشامل. فمهما تكن قلة الشأن الظاهرية لأمر من الأمور، سواء كان ذلك الأمر حلقة رماد التبغ المحيطة بالطاولة أو الاتجاه الذي جاءت منه الإوزات البرية أول ظهورها أو سلسلة حركات بشرية تبدو عديمة المعنى، فما كان قادراً على الإغضاء عن شيء من ذلك بل كان يسجله كله لأنه لا يستطيع من دون ذلك أن يأمل في عدم التلاشي ذات يوم والسقوط أسير الترتيبات الجهنمية التي تدفع بالعالم إلى التفكك لكنها تظل، في الوقت نفسه، متسقة مع عملية البناء الذاتي الجارية. فلم يكن يكفي إذن تذكر الأشياء بضمير يقظ: كان ذلك «غير كافٍ في ذاته»، بل كان غير قادر على تحقيق المطلوب أيضاً: إن على المرء أن يستوعب هذه الإشارات ويدركها كلها طالما بقيت في حالة انتظام حتى يستطيع اكتشاف الوسائل القادرة

على توسيع مجال تأثير الذاكرة المحفوظة جيداً والتمسك بها فترة من الزمن. رأى الطبيب خلال زيارته إلى الطاحون أن أفضل سبيل لهذا هو «تقليل الأحداث والمناسبات الميالة إلى زيادة عدد الأشياء التي تتعين علي مراقبتها»؛ وفي تلك الليلة نفسها (بعد أن قال لابنة هورغوس التي لا نفع منها أن تنصرف إلى بيتها، مبلغاً إياها أنه لم يعد في حاجة إلى خدماتها) أقام مرصده عند النافذة وبدأ التخطيط لعناصر النظام الذي قد يراه بعض الناس جنوناً. كان الفجر في الخارج موشكاً على الانبلاج، وكانت أربعة غربان مشعثة تنعق نعيقاً مشؤوماً في البعيد فوق الزيكس، فعدّل من وضع البطانية على كتفيه وأشعل سيجارته بحركة آلية. خلال الحقبة الكريتاسية (هذا ما جرى اكتشافه)، كانت هنالك طبقتان من المادة التي شكّلت جسم بلادنا. وكانت تظهر على كتلة داخلية منها علامات تشير إلى ميل أكبر إلى الغرق. ونشأت منطقة تشبه منخفضاً أرضياً ملأتها الرواسب تدريجاً حتى دفنتها. وعلى محيط ذلك الحوض يمكننا العثور على علامات على نشوء طيات، أو يمكن القول إن نظاماً ثنائياً متزامناً كان في طور التشكل... ثم بدأ عهد جديد في تاريخ هذه الكتلة من الأرض التي هي هنغاريا الداخلية، أو مرحلة تطور جديدة نشأت فيها علاقة وثيقة، ضمن عملية تفاعلية، بين إطار الطيات الخارجية وبين انهيار الكتلة الداخلية. تسعى التوترات في قشرة الأرض إلى توازن يتحقق آخر الأمر عندما يبدأ انهيار وغرق الكتلة الداخلية الصامدة التي كانت تحدد مسار الأمر قبل ذلك فينشأ واحد من أجمل الأحواض في أوروبا كلها؛ ومع تواصل الغرق، تملأ هذا الحوض مياه البحر النيوجيني. رفع رأسه عن الكتاب فرأى أن ريحاً غير متوقَّعة بدأت تهب فجأة كأنها تعتزم كنس المنطقة كلها؛ وكان الأفق الشرقي غارقاً في ضوء الشمس الأحمر المتألق. ثم فجأة، من غير مقدمات، ظهر القمر نفسه شاحباً ضعيفاً ضمن غيمة واطئة. وعلى الطريق الضيقة بين بيتَي شميدت والمدير، كانت أشجار الأكاسيا مذعورة تهتز

تيجانها الدقيقة مستسلمة؛ وكانت الريح تجرف في طريقها كرات كثيفة من أوراق الأشجار الميتة، وكانت قطة سوداء مذعورة تندفع عبر سياج بيت مدير المدرسة. أزاح كتابه جانباً، وتناول دفتر يومياته ثم ارتجف في التيار البارد المتسرب من النافذة. سحق سيجارته على ذراع كنبته الخشبي، ثم وضع نظارته ومر بنظره على ما كتبه في الليل، ثم كتب بنوع من الاستمرارية: «العاصفة قادمة، وعليَّ أن أسد شقوق النافذة بالخرق قبل المساء. لا يزال فوتاكي في الداخل. وهنالك قطة في بيت المدير لم أرها من قبل. ماذا تفعل القطة هنا بحق الجحيم؟! لا بد أنها خافت من شيء ما لأنها حشرت نفسها لتمر من هذه الثغرة الضيقة... كاد ظهرها يلتصق بالأرض، ولعل ذلك استغرق لحظة. لا أستطيع النوم. لديَّ صداع». أفرغ ما بقي من كأس البالينكا، وعلى الفور ملأها من جديد حتى المستوى نفسه. نزع نظارته وأغمض عينيه. رأى شخصاً غامضاً يصعب تمييز ملامحه، رجلاً طويلاً غريب الشكل له جسم ضخم يسير مندفعاً في الظلمة: لم يلاحظ إلا بعد ذلك أن الطريق، تلك «الطريق المتعرجة التي فيها عراقيل كثيرة»، تنتهي فجأة. لم ينتظر حتى يسقط ذلك الشخص في الهوة بل فتح عينيه مذعوراً. وفجأة، بدا له أنه يسمع صوت جرس كنيسة يُقرع، لم يستمر الصوت إلا فترة وجيزة ثم حل الصمت. جرس! وهو أيضاً قريب جداً!... أو لعل هذا ما بدا له لحظة. قريب تماماً! جالت عيناه في أرجاء المزرعة وقد اكتسى وجهه معالم جليدية. رأى وجهاً مشوشاً في نافذة بيت شميدت، وسرعان ما عرف فيه ملامح فوتاكي المتغضّنة: بدا مذعوراً، وكان منحنياً خارج النافذة المفتوحة باحثاً بصبر عن شيء فوق البيوت. ماذا يريد؟ تناول الطبيب من كومة من السجلات عند نهاية الطاولة دفتر ملاحظات كتب عليه اسم «فوتاكي»، ثم عثر على الصفحة المطلوبة. «فوتاكي خائف من شيء ما. كان ينظر من النافذة عند الفجر وعلى وجهه علامات الذعر. فوتاكي يخشى الموت». أفرغ كأس البالينكا ثم ملأها سريعاً من جديد.

أشعل سيجارة وقال بصوت مرتفع: «ستعرفون الموت قريباً. وأنت أيضاً ستعرفه يا فوتاكي. لا تشغل بالك أيضاً». بدأ هطول المطر بعد لحظات قليلة. وسرعان ما ملأ الحفر والخنادق الضحلة فبدأت جداول صغيرة تجري متعرجة في كل اتجاه كأنها برق سائل. راح الطبيب ينظر إلى هذا كله غارقاً في تفكير عميق، ثم بدأ يرسم صورة المشهد في دفتره... وبأناة وصدق تامَّيْن، رسم صور أصغر البرك، واتجاه التيار، ثم انتهى من الرسم وسجَّل التاريخ تحته. أضاءت الغرفة فجأة: ألقى المصباح الكهربائي العاري المعلق من السقف ضوءاً بارداً على الغرفة. أرغم الطبيب نفسه على النهوض وأزاح عنه البطانية وأطفأ الضوء قبل أن يعود ليستقر في مكانه من جديد. تناول من الخزانة الصغيرة إلى يسار الكرسي علبة فيها أسماك وبعضاً من الجبن. كان العفن قد ظهر على قطعة الجبن هنا وهناك، فراح الطبيب يفحصها بعض الوقت قبل أن يرميها في سلة القمامة عند الباب. فتح العلبة وبدأ الأكل ماضغاً كل لقمة قبل أن يبتلعها. ثم صب لنفسه كأساً أخرى من البالينكا. لم يعد يشعر بالبرد الآن، لكنه أبقى البطانية عليه فترة. وضع كتابه في حجره ثم أفرغ الكأس فجأة من جديد. ومن المثير ملاحظة أن نهاية الحقبة البونتيسية، عندما تراجع بحر الأراضي المنخفضة العظيم في معظمه تاركاً خلفه بحيرة ضحلة تكاد تعادل حجم بحيرة بالاتون ومخلفاً قدراً كبيراً من الدمار الناجم عن قوى الريح والماء مجتمعة في اصطفاق الأمواج. صاح الطبيب غاضباً: ما معنى هذا؟ هل هو تاريخ جيولوجي أم نبوءة؟ قلب الطبيب صفحة الكتاب... وفي الوقت عينه، بدأت منطقة الأرض المنخفضة كلها ارتفاعاً تدريجياً فراحت مياه البحيرات الأصغر حجماً تجري إلى مناطق أكثر بعداً. ومن غير حركة الارتفاع التكوينية لهذه الكتلة التيسيانية المركزية لما كنا قادرين على بدء تفسير الاختفاء السريع لبحيرات الشرق. وفي الحقبة البليستوسينية، بعد اختفاء المياه المتجمعة في أماكن كثيرة، لم يبق في المكان إلا

بحيرات صغيرة ومستنقعات وبرك صارت مجرد علامات باقية تشير إلى هذا البحر الداخلي الذي اختفى... لم يبدُ هذا النص (في طبعة د. بيندا المحلية) مقنعاً على الإطلاق في نظر الطبيب؛ فقلة الأدلة المقدمة، ومنطق المناقشة البدائي الذي لا يستطيع المرء أن يأخذه على محمل الجد ـ أو هذا ما ظنه الطبيب من غير أن تكون له أي معرفة بالموضوع، ومن غير حتى أن يكون واثقاً من معاني المصطلحات العلمية المستخدمة؛ لكن، رغم هذا كله، ومع تقدمه في القراءة، صار تاريخ الأرض التي بدت له صلبة تماماً، ثابتة تحته ومن حوله، شيئاً حياً في نظره رغماً عما في أسلوب هذا الكاتب المجهول من غرابة وضعف ـ كتاب مكتوب الآن، في الزمن الحاضر، لكنه يستخدم كلمة «الآن» في الزمن الماضي ـ أربكه هذا الأسلوب فجعله غير عارف إن كان يقرأ عملاً يتنبأ بحالة الأرض بعد فناء البشر أو كتاباً علمياً في التاريخ الجيولوجي قائماً على معلومات عن الكوكب الذي يعيش فيه. كاد السحر الذي أصاب مخيلته يصل إلى نقطة الشلل عندما أدرك فكرة أن هذه المزرعة، بتربتها الخصبة الغنية، كانت تحت البحر منذ بضعة ملايين من السنين فقط... وفكرة أن البحر واليابسة تناوبا عليها، ثم فجأة ـ رغم أنه سجل بأمانة ظهور شخص شميدت البدين المتمايل في معطفه المبطّن الفضفاض وحذائه المثقل بالطين في الطريق الآتي من زيكس، مسرعاً كأنه يخشى أن يراه أحداً، ثم داخلاً بيته من بابه الخلفي ـ وجد الطبيب نفسه ضائعاً في موجات متلاحقة من الزمن، مدركاً وجوده الخاص الذي لا يعدو أن يكون ذرة صغيرة، ورأى نفسه ضحية ضعيفة عديمة الحول من ضحايا قشرة هذه الأرض، كائناً يمتد قوس حياته الهش من الولادة إلى الموت عالقاً في هذا الصراع الأعمى بين بحار مندفعة وجبال صاعدة، بل بدا له أنه صار يحس تلك الرعشة الخفيفة تحت كرسيه الذي يحمل جسمه المنتفخ، الرعشة التي يمكن أن تكون إنذاراً بهجوم وشيك للبحر عليه، تحذيراً عبثياً له بأن يفرَّ قبل أن تجعل هذه القوة الطاغية الفرار مستحيلاً،

واستطاع أن يرى نفسه راكضاً، جزءاً من فرار جماعي يائس مذعور فيه أيائل ودببة وأرانب وغزلان وحشرات وزواحف وكلاب وبشر... هذه الأرواح العقيمة كلها، هذه الأرواح التي لا معنى لها كلها، مندفعة في الفناء العام الذي لا يمكن فهمه، ومن فوقها تدافعت سحابات من الطيور تتساقط إعياءً وتشير إلى اتجاه الأمل الوحيد المحتمل. ظل عدة دقائق يتأمل في خطة غامضة ويقول في نفسه إنه قد يكون من الأفضل أن يترك تجاربه السابقة حتى يوفر الطاقة اللازمة «لتحرير نفسه من الرغبات»، وحتى يفطم نفسه فطاماً متدرجاً عن الطعام والكحول والسجائر ويختار الصمت بدلاً من هذا الصراع الدائب لإطلاق أسماء على الأشياء، وذلك بحيث يصير بعد عدة شهور، أو بعد أسبوع أو أسبوعين فقط، قادراً على بلوغ حالة لا هدر فيها، وبدلاً من أن يترك خلفه أثراً يمحوه الصمت الأخير الذي يدعوه إليه، ويلحّ في الدعوة... لكن هذا كله بدا سخيفاً تماماً بعد لحظات قليلة، ولعله كان بعد كل حساب لا يعدو أن يكون خوفاً أو إحساساً تافهاً بالكرامة الشخصية جعله يشعر بالضعف؛ وهكذا فقد أفرغ كأس البالينكا ثم ملأها من جديد لأن الكأس الفارغة تجعله دائماً متوتراً بعض الشيء. أشعل سيجارة أخرى بعد ذلك وجلس يكتب مزيداً من الملاحظات. «خرج فوتاكي بحذر من الباب، ثم انتظر في الخارج فترة قصيرة، ثم قرع الباب وصاح بشيء ما. دخل البيت مسرعاً. لا يزال شميدت وزوجه في البيت. خرج المدير من باب بيته الخلفي حاملاً سلة القمامة. وانسلّت السيدة كرانر عند بوابة بيتها. كانت تراقب. إنني متعب، وعلي أن أنام. في أي يوم نحن؟» دفع نظارته فرفعها عن عينيه حتى بلغت حاجبيه، ثم وضع قلمه ودلّك أثر النظارة الأحمر على أنفه. لم يكن يرى إلا بقعاً غائمة غامضة في طوفان المطر المنهمر في الخارج، وكذلك شكل شجرة غريب يتضح أحياناً ويغيم أحياناً أخرى؛ وفي مكان ما، تحت هدير الرعد المستمر، سمع عواء الكلاب المكروب في البعيد. «كأن أحداً يعذبها». رأى كلاباً

معلقة من قوائمها في كوخ غامض أو سقيفة غامضة، ورأى مراهقين أشقياء منحرفين يحرقون أنوفها بأعواد الثقاب: نظر إلى المطر بانتباه أكبر، ثم أضاف ملاحظات أخرى. «يبدو أن المطر توقف... لا، لقد بدأ من جديد».

ظل دقائق كثيرة غير قادر على تحديد ما إذا كان يسمع صرخات ألم حقاً أو أن أذنيه (اللتين أرهقهما العمل سنين طويلة) جعلتاه غير قادر على التمييز بين الضجة العامة المحيطة وبين زعيق قديم آتٍ من حقبة ما قبل التاريخ، زعيق حفظه الزمن على نحو ما ثم جاء المطر الآن فأظهره ورفعه مثلما يفعل بالغبار إذ يثيره أول هطوله (قال بشيء من الأمل: «لا تختفي علائم المعاناة من غير أثر»). ثم سمع فجأة أصواتاً مختلفة: نشيجاً وصياحاً وبكاءً بشرياً مكتوماً كان يظهر واضحاً أحياناً أو يغرق في ضجيج المطر الرتيب ـ مثلما تفعل البيوت والأشجار التي تصير بقعاً غامضة في المطر. كتب في دفتره «الاقتصاد الكوني. سمعي آخذ بالتلاشي». نظر من النافذة، ثم أفرغ كأسه لكنه نسي هذه المرة أن يملأها على الفور. مرت به موجة حرارة مرتفعة، وكسا العرق رقبته الغليظة وحاجبيه، وأحس شيئاً من الدوار ثم جاء الألم... شيء من الانقباض من حول قلبه. لم يجد هذا مفاجئاً على الإطلاق لأنه يشرب باستمرار منذ ليلة أمس بعد أن أيقظته صيحة قريبة من نوم خالٍ من الأحلام لم يستمر إلا ساعتين (لم يبق في «الدمجانة الكبيرة» الجاثمة إلى يمينه من شراب البالينكا إلا ما يكفيه يوماً واحداً)؛ ثم إنه لم يكد يأكل شيئاً على وجه التقريب. نهض حتى يريح نفسه، لكنه عدل عن ذلك عندما رأى كومة القمامة الكبيرة أمام الباب. قال بصوت مرتفع: «في ما بعد، سوف تنتظر»، لكنه لم يجلس بل سار عدة خطوات إلى الطاولة ناحية الجدار البعيد لعل الحركة تخفف «هذا الانقباض المؤلم». كان العرق يتدفق من تحت إبطيه نازلاً فوق خاصرتيه السمينتين: أحس بأنه ضعيف. انزلقت البطانية عن كتفيه عندما سار، لكنه لم يجد لديه قوة حتى يصحح وضعها. عاد فجلس وملأ كأساً أخرى قائلاً إنها قد تفيده: كان

محقاً، فبعد بضع دقائق صار قادراً على التنفس بسهولة أكبر وصار تعرّقه أقل. كان قرع المطر على إطار النافذة يجعل رؤية أي شيء أمراً صعباً، وهكذا قرر تعليق مراقبته زمناً قصيراً مدركاً أن شيئاً لن يفوته لأنه منتبه إلى «أدنى صوت وأدنى حركة»، وسوف يلاحظ ذلك من فوره ... حتى تلك الأصوات الخفيضة المنبعثة من داخله: من قلبه أو من بطنه. سرعان ما غرق في نوم قلق. انزلقت الكأس الفارغة من يده فسقطت على الأرض من غير أن تنكسر. مال رأسه فوق صدره وتسرب اللعاب من زاوية فمه. والظاهر أن كل شيء كان ينتظر هذه اللحظة. أظلم المكان فجأة كأن شخصاً وقف في النافذة فملأها كلها: ألوان السقف، والباب، والستارة، والنافذة، والأرض... صارت الألوان داكنة كلها... ومثلها صارت خصلة الشعر في ناصية رأس الطبيب إذ بدأت تنمو سريعاً مثلما تسارع نمو الأظافر في أصابعه القصيرة المنتفخة. صدر صرير عن الطاولة والكرسي معاً، بل إن البيت نفسه هبط قليلاً في التراب كأنه يساهم بدوره في هذا التمرد الغادر. بدأت الأعشاب عند أسفل الجدار خلف البيت تنمو وتتبرعم، وحاولت دفاتر الملاحظات المبعثرة هنا وهناك ترتيب أنفسها بحركة حادة أو اثنتين، وأصدرت عوارض السقف أنيناً، وتشجعت الجرذان فجرت في الغرفة بحرية أكبر. استيقظ الطبيب مشوشاً مع طعم غريب مزعج في فمه. لم يعرف الوقت، استطاع تخمينه فقط، لأنه نسي أن يملأ ساعة يده المقاومة للماء والصدمات والصقيع من ماركة «روكيت» ـ كان عقرب الساعات قد تجاوز الحادية عشرة قليلاً. كان القميص الذي يرتديه رطباً كله نتيجة العرق فجعله يشعر بالبرد. أحس ببردٍ قارسٍ، وأما صداعه فبدا له متركزاً في أعلى رقبته ـ لكنه لم يكن واثقاً من هذا. ملأ الكأس ثم فوجئ عندما لاحظ أنه أخطأ تقدير الوضع: ليس لديه من البالينكا ما يكفيه يوماً كاملاً، بل هو لا يكفيه إلا ساعتين في أحسن الأحوال. قال في نفسه منزعجاً: «عليَّ الذهاب إلى البلدة. أستطيع ملء الدمجانة في حانة موبز. لكن الباص

اللعين معطل الآن! لو توقف المطر فقط لاستطعت الذهاب مشياً». ألقى من النافذة نظرة إلى الخارج فأزعجه أن يرى ملامح الطريق قد ضاعت في المطر. بل كان هنالك أسوأ من هذا، فإذا كان استخدام الطريق القديمة غير ممكن، فإنه غير قادر أيضاً على سلوك الطريق المعبدة لأنه لن يصل إلى الحانة قبل صباح الغد. قرر أن يأكل شيئاً وأن يؤجل اتخاذ القرار. فتح علبة أخرى وانحنى إلى الأمام ثم بدأ يضع محتوياتها في فمه. كان قد أنهى طعامه وبدأ الاستعداد لتسجيل ملاحظات جديدة يقارن فيها عرض الأخاديد التي ملأها المطر الآن بالحالة التي كانت عليها عند الفجر، وكان يريد الإشارة إلى الفروق عندما سمع صوتاً عند باب البيت. كان أحد ما يضع مفتاحاً في القفل. أزاح الطبيب دفاتره جانباً واعتدل جالساً في كرسيه معتكر المزاج. قالت السيدة كرانر وقد توقفت عند العتبة: «مرحباً يا دكتور! هذه أنا فقط». كانت تعرف أن عليها الانتظار؛ ومن المؤكد أن الطبيب لم يكن يعتزم تفويت فرصة تفحّص وجهها بطريقته المعتادة التفصيلية البطيئة. وقد اعتادت السيدة كرانر أن تتحمل هذا بتواضع من غير أن تفهم شيئاً مما يفعله («فليحدق كما يريد، فليجر هذا الفحص إن كان يستمتع به إلى هذا الحد!» هكذا كانت تقول لزوجها في البيت)؛ ثم تقدمت عندما أشار لها الطبيب بذلك. «لقد أتيت فقط لأن المطر غزير كما ترى. وكما قلت لزوجي قبل الغداء فإن الجو لن يصحو قبل فترة طويلة، ثم يأتي الثلج». لم يجبها الطبيب لكنه كان ينظر أمامه متجهماً... «لقد ناقشت هذا الأمر مع زوجي فرأينا أنني لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان بسبب توقّف عمل الباص حتى الربيع؛ ورأينا أن علينا أن نتحدث مع صاحب الحانة لأن لديه سيارة، وهكذا نستطيع أن نأتي بأشياء كثيرة في رحلة واحدة، أشياء يمكن أن تكفي لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وسنفكر في الربيع في ما يمكن أن نفعله بعد ذلك». كانت أنفاس الطبيب ثقيلة. «إذن، هل يعني هذا أنك لم تعودي قادرة على أداء عملك؟» بدا أن السيدة كرانر مستعدة لهذا السؤال.

«لا أقصد هذا بالطبع؛ أعني... لماذا لا أستطيع القيام بالعمل؟ أنت تعرفني يا دكتور وتعرف أنه لم تكن لدي أي مشكلة على الإطلاق؛ لكن، وكما تستطيع أن ترى بنفسك يا سيدي، فإن الباص متوقف عن العمل، وعندما يكون المطر على هذا النحو... هذا ما يعرفه الدكتور، وسوف يفهم الأمر، هكذا قال زوجي... فكيف أذهب إلى البلدة سيراً على الأقدام؟ وسوف يكون ذلك أفضل لك أيضاً يا سيدي... إذا قاد موبز سيارته إلى هنا، فإنك تكون قادراً على الحصول على أكثر بكثير من...». «لا بأس يا سيدة كرانر، يمكنك الذهاب». استدارت المرأة صوب الباب قائلة: «سوف تكلمه إذاً، أقصد صاحب الـ...» أجابها الطبيب بصوت راعد: «سأتحدث مع من أريد التحدث إليه». ذهبت السيدة كرانر، لكنها لم تسر إلا خطوات قليلة في الممر قبل أن تستدير وتقول مسرعة: «أوه، انظر! لقد نسيت. المفاتيح». «ماذا عن المفاتيح؟» «أين أضعها؟» «ضعيها حيث تشائين». كان بيت السيدة كرانر شديد القرب من بيت الطبيب مما جعله قادراً على مراقبتها وقتاً قصيراً فقط وهي تشق طريقها بخطى بطيئة عبر الوحل الدبق. بحث الطبيب في كومة الأوراق لديه فوجد دفتر ملاحظات يحمل عنوان السيدة كرانر. فتحه وكتب فيه: «تركت كرانر عملها. لا تستطيع مواصلة العمل. وعليَّ أن أسأل صاحب الحانة. لم تكن لديها مشكلة في المشي تحت المطر في الربيع الماضي. إنها تعتزم فعل شيء سيئ. كانت مرتبكة، لكنها كانت مصممة على ما تريد. إنها تطبخ شيئاً ما. لكن، ما عساه يكون ذلك الشيء بحق الشيطان؟» وخلال فترة بعد الظهر، قرأ الطبيب بقية الملاحظات التي سجّلها عن المرأة، لكنه لم يجد فيها فائدة: لعل شكوكه لا أساس لها، ولعل كل ما يحدث هو أن تلك المرأة أمضت النهار كله حالمة في بيتها فأصابها شيء من الاضطراب... كان الطبيب يعرف مطبخ السيدة كرانر منذ زمن بعيد؛ كان يعرف ذلك المكان الضيق المغلق الذي يبالغون في تدفئته. وكان يعرف أن ذلك الركن المكتظ سيئ الرائحة كان أرضاً خصبة

لتوالد خطط طفولية بائسة؛ كانت الرغبات الحمقاء السخيفة تماماً تهاجمها في ذلك المكان من غير إنذار وتندفع أمامها مثل بخار متصاعد من قدر تغلي. من الواضح أن ذلك هو ما حدث الآن: رفع البخار غطاء القدر. وعندها، مثلما حدث مرات كثيرة من قبل، تأتي لحظة الإدراك المرة، وتندفع السيدة كرانر عائدة بسرعة مهولة لكي تصلح ما أفسدته في اليوم الماضي. بدا له أن صوت المطر قد خفّ قليلاً، لكنه عاد فاشتد من جديد. الظاهر أن السيدة كرانر كانت على صواب: إنها حقاً أول موجة أمطار كبرى في هذا الموسم. فكر الطبيب في خريف العام الماضي، وفي السنوات السابقة أيضاً، فأدرك أن الأمر سيكون هكذا؛ وأدرك أن انهمار المطر سوف يستمر «حتى إذا تخللته فترات قصيرة من ضياء الشمس تستمر بضع ساعات أو يوماً أو اثنين على الأكثر»، سيستمر من غير توقف حتى بداية الصقيع فيصير سلوك الطرق متعذراً وتنعزل المزرعة عن العالم الخارجي، تنعزل عن المدينة والسكك الحديدية، ويحيل المطر المستمر التربة إلى بحر هائل من الطين، وتختفي الحيوانات في الغابات الواقعة عند الناحية الأخرى من زيكس وتذهب إلى منتزه عزبة هوتشميس الضيقة أو إلى منتزه عزبة واينخيم الوارفة لأن الطين سيقتل صور الحياة كلها وستتعفن النباتات فلا يبقى منها شيء... لن يبقى شيء إلا آثار العربات العميقة من أواخر الصيف مليئة بالماء حتى أعلى الحذاء الطويل، وسوف تغطي بيوض الضفادع والأعشاب المتشابكة وأجمات القصب هذه البرك والرامات الصغيرة المليئة بالماء، إضافة إلى القناة القريبة؛ وعندما يحل المساء أو أول الفجر، عندما ينعكس ضياء القمر الميت عليها، فسوف يتراقص هذا الضياء على جسد الأرض كله كأنه مجرّة مكونة من عيون عمياء فضية ضئيلة تحدق في اتساع السماء. مرت السيدة هاليكس قبالة النافذة وعبرت أمامه إلى الناحية البعيدة لتقرع نافذة بيت شميدت. كان قد بدا له قبل بضع لحظات أنه سمع نتفاً من كلام جعلته يظن أن هنالك مشكلة لدى آل

هاليكس من جديد، وأن السيدة هاليكس الطويلة الهزيلة تطلب مساعدة من السيدة شميدت. «من الواضح أن هاليكس يجب أن يكون قد سكر من جديد. تشرح المرأة بحماسة شيئاً للسيدة شميدت التي يبدو أنها تنظر إليها بدهشة أو فزع. لا أستطيع الرؤية جيداً من هنا. لقد ظهر مدير المدرسة الآن، إنه يلاحق القطة. ثم يتوجه صوب المركز الثقافي حاملاً جهاز العرض تحت ذراعه. يندفع الآخرون إلى تلك الوجهة الآن أيضاً، نعم: سوف يعرضون فيلماً سينمائياً». أفرغ في جوفه كأساً أخرى من البالينكا ثم أشعل سيجارة وقال لنفسه هامساً: «يا لهذا العمل!» اقترب المساء فنهض الطبيب ليشعل الضوء. وفجأة، أحس بدوار شديد، إنما ظل قادراً على شق طريقه صوب مفتاح النور. أضاء المصباح لكنه صار غير قادر على السير خطوة واحدة للعودة إلى مكانه. تعثر بشيء ما فارتطم رأسه بالجدار وسقط حيث كان يقف، تحت مفتاح النور تماماً. وعندما استعاد وعيه ونجح أخيراً في الوقوف منتصباً، كان أول شيء لاحظه قطرات دم تسيل من جبهته. ما كانت لديه فكرة أبداً عن الوقت الذي مضى منذ أن فقد وعيه. عاد إلى مكانه المعتاد، ثم قال في نفسه «يبدو أنني سكرت كثيراً»، ثم ارتشف مقداراً صغيراً من البالينكا لأنه لم يكن راغباً في إشعال سيجارة جديدة. راح يحدق أمامه وقد ارتسم على وجهه تعبير من البلاهة: إنه يجد صعوبة في استعادة وعيه. أصلح من وضع البطانية على كتفيه ونظر إلى الخارج محدقاً في الظلمة عبر تلك الفجوة. ومع أن الشراب خدّر حواسه، فقد أدرك أن هنالك آلاماً تحاول جاهدة أن تدخل دائرة وعيه بقدر ما كان مصمماً على عدم الاعتراف بها. «لقد تعرضت لضربة بسيطة، هذا كل ما في الأمر». عاد إلى التفكير في الحديث الذي جرى مع السيدة كرانر بعد الظهر، وحاول أن يقرر ما يجب أن يفعله الآن. إنه غير قادر على الخروج في هذا الطقس رغم كونه في حاجة ماسة إلى البالينكا. وما كان يريد التفكير في كيفية الاستعاضة عن السيدة كرانر ـ هذا إذا لم تغير رأيها ـ لأن

المشكلة لم تكن مشكلة جلب المؤن فحسب، بل كل تلك الأشياء الصغيرة التافهة حقاً، لكن الضرورية، تلك المهمات في البيت التي لا بد من القيام بها، وهذه مشكلة غير بسيطة أبداً؛ هذا ما جعله، في الوقت الحالي، يركز على اختراع خطة عملية لما يجب أن يفعله في مواجهة الحوادث الأخرى غير المتوقعة «سيكون يوم الغد يوم ذهاب السيدة كرانر لرؤية صاحب الحانة»، وكذلك الحصول على ما يكفي من الشراب ريثما يمكن العثور على «حل مناسب». من الواضح أن عليه أن يتحدث مع صاحب الحانة. لكن كيف يمكنه أن يبعث برسالة إليه؟ عبر من؟ فبالنظر إلى وضعه الحالي، لم يكن الطبيب راغباً حتى في التفكير في إمكانية الذهاب إلى الحانة بنفسه. لكنه رأى فيما بعد أن من الأفضل عدم ترك هذه المهمة لأي شخص آخرَ لأن صاحب الحانة سوف يعمد إلى إضافة الماء إلى الشراب ثم يدافع عن نفسه بعد ذلك بالزعم أنه لم يكن يعرف أن «الزبون هو الطبيب». قرر أن ينتظر قليلاً، وأن يستجمع شتات نفسه، ثم يذهب بنفسه إلى الحانة. ربت على حاجبه عدة مرات ثم راح يغمس منديله في إبريق الماء على الطاولة ليمسح جرحه. لم ينفعه هذا في تخفيف صداعه أبداً، لكنه لم يجرؤ على تعريض مشروعه كله للخطر بالبحث عن دواء. حاول أن ينام، أو على الأقل أن يغفو قليلاً، لكنه وجد نفسه مجبراً على إبقاء عينيه مفتوحتين بسبب الصور المفزعة التي كانت تندفع إلى رأسه كلما أغمضهما. استخدم قدمه لإخراج حقيبة قديمة من الجلد الطبيعي قابعة تحت الطاولة، ثم أخرج منها بضع مجلات أجنبية قديمة. كانت هذه المجلات (التي اشتراها عشوائياً مثلما اشترى معظم كتبه) من محل لبيع الكتب المستعملة في كيسرومانفاروس التي كانت أصغر ناحية رومانية من النواحي التابعة للبلدة. كان صاحب المكتبة شخصاً من سوابيا اسمه شوارزنفيلد؛ وكان هذا الرجل يفخر بأصوله اليهودية، وكان يغلق محله نتيجة ضعف الحركة التجارية في أشهر الشتاء عندما ينتهي فصل السياحة، ثم ينطلق في مجموعة

من رحلات العمل قاصداً التجمعات السكانية الكبيرة والصغيرة في تلك المنطقة؛ وما كان ليتأخر أبداً عن زيارة الطبيب الذي أسعده أن يجد فيه «رجل ثقافة أتشرف بمعرفته». لم يكن الطبيب يلقي كبير اهتمام إلى أسماء المجلات، بل كان يفضل النظر إلى ما تحتويه من صور لقتل الوقت ـ مثلما يفعل الآن. وكان يجد متعة خاصة في صور الحروب في آسيا، وفي مشاهد لم تكن تبدو له شديدة البعد أو الغرابة، بل كان مقتنعاً أيضاً أنها ملتقطة في مكان قريب إلى حد يجعله يرى فيها وجوهاً مألوفة فينفق وقتاً طويلاً مرهقاً في محاولة التعرف على أصحابها. وقد رتب أفضل الصور وصنفها، ثم جعله النظر المتكرر إلى تلك الصفحات يألفها إلى حد يسمح له بالعثور على صوره المفضلة سريعاً. وكانت هنالك صورة خاصة (كانت مراتب التفضيل تتغير بتغير الوقت)، لقطة جوية تعجبه كثيراً: موكب ضخم غير منتظم التشكيل يسير متعرجاً في منطقة تشبه الصحراء تاركاً وراءه أطلال مدينة عصفت بها الحرب وراحت أعمدة الدخان وألسنة اللهب تتصاعد منها؛ وأمام أولئك الناس السائرين، لم يكن في انتظارهم إلا مساحة ممتدة كبيرة قاتمة كأنها ميدان عقابهم. وأما ما كان يجعل تلك الصورة تستحق ملاحظة خاصة فهو ما فيها من تجهيزات تلائم موقع مرصد عسكري (تبدو تفصيلاً زائداً للوهلة الأولى) ظاهرة في الزاوية اليسرى أسفل المشهد. أحس الطبيب بأن هذه الصورة تستحق انتباهاً خاصاً لأنها تظهر، بثقة كبيرة وبعمق حقيقي، «التاريخ البطولي حقاً» لعمل متقن تماماً من الأعمال البحثية التي تركز على الأساسيات، بل هي بحث يقف فيه المراقِب والمراقَب على مسافة متساوية كل من الآخر حيث يجري تشديد خاص على ملاحظة الدقائق الصغيرة إلى حد كان يجعل الطبيب يتخيل نفسه أحياناً واقفاً خلف العدسة منتظراً اللحظة المناسبة للضغط على زر الكاميرا بثقة مطلقة. وحتى الآن، كانت هذه هي الصورة التي التقطها من غير تفكير تقريباً: كان قد أَلِف الصورة حتى أدق التفاصيل، لكنه كان ينظر إليها كل

مرة آملاً في اكتشاف شيء لم يلاحظه فيها بعد. إلا أن الصورة بدت له مشوشة قليلاً هذه المرة رغم أنه كان يضع النظارة. أزاح المجلات قليلاً ليأخذ غفوة قبل انطلاقه. وبصعوبة، ارتدى معطفه الشتوي المبطن بالفرو، ثم طوى البطانيات وغادر البيت متمايلاً بعض الشيء. فاجأه الهواء البارد النظيف مفاجأة شديدة. تفقد جيوبه ليتأكد من وجود محفظته ودفتر ملاحظاته، ثم عدّل من وضع قبعته ذات الإطار الواسع وسار في اتجاه الطاحون. كان في وسعه أن يختار طريقاً أقصر للوصول إلى الحانة، لكن ذلك كان سيعني المرور أولاً ببيت كرانر ثم ببيت هاليكس، فضلاً عن أنه سيلتقي بالتأكيد في طريقه «بواحد من الحمقى» بالقرب من المركز الثقافي أو من مولّد الكهرباء... شخص ما سيحتجزه رغماً عنه وسيبدأ معه تحقيقاً فظاً أو ماكراً تحت ستار ما يطلقون عليه اسم العرفان لإشباع فضول ذلك الشخص المزعج. كان التقدم في الوحل صعباً، لكن الأسوأ من ذلك أن الطبيب صار شبه عاجز عن رؤية طريقه في الظلمة؛ لكنه عبرَ فناء بيته وعثر على الطريق المؤدية إلى مسلك ذاهب إلى الطاحون؛ كان يعرف هذا المسلك بعض الشيء لكنه لم يستعد توازنه استعادة تامة حتى الآن فراح يتعثر ويتمايل في سيره مما أدى به مرات كثيرة إلى أن يخطو خطوات غير محسوبة ويصطدم ببعض الأشجار أو يتعثّر بأغصان منخفضة. تقطعت أنفاسه وخفق صدره واستمر إحساسه بالضيق حول قلبه، ذلك الإحساس الذي عاناه طيلة فترة بعد الظهر. تسارعت خطاه حتى يصل الطاحون بأسرع ما يستطيع حتى يحتمي من المطر ولم يعد يحاول تجنب الخوض في برك الماء التي تعترض سبيله بل راح يخوض فيها حتى كاحليه. تجمع الطين حول حذائه الطويل وصار معطفه المبطن بالفرو أكثر ثقلاً من قبل. دفع باب الطاحون المتيبس بكتفه ففتحه وجلس على صندوق خشبي ثم ظل عدة دقائق يحاول التقاط أنفاسه. كان يشعر بنبض الدم في رقبته... ساقاه خدرتان ويداه مرتجفتان. كان في الطابق الأرضي من ذلك المبنى

المهجور، ومن فوقه كان ثمة طابقان أيضاً. كان الصمت شاملاً. وبما أن كل شيء صالح للاستعمال، ولو قليلاً، قد أزيل من هذا المكان، فقد كان الفراغ مدوياً في هذا الحيز الواسع المظلم الجاف: رأى إلى يمين الباب بعض صناديق الفاكهة القديمة وحوضاً حديدياً لم يعرف طبيعة استخدامه وصندوقاً خشبياً مجمعاً كيفما اتفق ومكتوباً عليه «للاستعمال عند الحريق» من دون رمل فيه. خلع الطبيب حذاءه ثم خلع جواربه وعصرها. بحث عن سيجارة، لكن العلبة كانت مبتلة كلها فلم يجد فيها سيجارة صالحة للتدخين. كان الضوء الخافت المتسرب عبر الباب كافياً لرؤية الأرضية والصناديق مثل بقع نصف مظلمة متميزة عن الظلمة الأكبر المحيطة بها. ظن أنه يسمع صوت جري الجرذان. قال متعجباً: «جرذان؟ هنا؟» ثم سار عدة خطوات متقدماً صوب قلب المبنى. وضع نظارته وراح ينظر مرفرفاً بعينيه صوب ذلك الظلام الدامس. لكنه لم يعد يسمع صوتاً الآن، فعاد ليأخذ قبعته ويرتدي جواربه وينتعل حذاءه. حاول إشعال عود ثقاب بحكّه على بطانة معطفه. اشتعل العود، وفي ضوء ناره المتراقصة استطاع الطبيب أن يرى بداية السلم الصاعد على مسافة ثلاثة أو أربعة أمتار منه عند الجدار. ومن غير سبب محدد، سار بضع خطوات مترددة صوب ذلك السلم. لكن العود احترق كله، وما كان عند الطبيب رغبة ولا سبب يدعوه إلى تكرار المحاولة. ظل لحظة واقفاً في الظلام. ثم تحسست يده الجدار، وكان على وشك العودة لينطلق من جديد في طريقه إلى الحانة عندما سمع صوتاً خافتاً. «لابد أنها جرذان بالفعل». بدا صوت هرولة الجرذان كأنه قادم من مسافة بعيدة، من مكان ما في أعلى المبنى. وضع الطبيب يده على الجدار من جديد وبدأ صعود السلم درجة بعد درجة، لكنه لم يكد يصعد إلا درجات قليلة حتى صار الصوت أكثر وضوحاً. «ليس صوت جرذان. إنه أشبه بفرقعة أعواد تتكسر». وعندما وصل إلى منعطف السلم صار واضحاً له أن ذلك الصوت، رغم انخفاضه، ليس إلا نتفاً من كلام بشري. رأى عند

آخر الطابق الأوسط... على مسافة عشرين أو خمسة وعشرين متراً من الطبيب المصغي المتيبس في مكانه كأنه تمثال... فتاتين جالستين على الأرض حول نار صغيرة متراقصة. كانت النار تعطي قسمات وجهيهما خطوطاً حادة وتلقي ظلالاً ضخمة متقافزة على السقف المرتفع. كان من الواضح أن الفتاتين ماضيتان في حديث عميق ما وهما تنظران إلى ألسنة اللهب المتراقصة المنبعثة من العيدان المشتعلة. قال الطبيب متحركاً صوبهما: «ماذا تفعلان هنا؟» قفزت الفتاتان مذعورتين، لكنهما لم تلبثا أن ضحكتا مرتاحتين. «أوه! أهذا أنت يا دكتور؟» انضمّ إليهما الطبيب عند النار، ثم جلس قائلاً: «سوف أدفئ نفسي قليلاً. إذا لم يكن لديكما مانع». جلست الفتاتان معه طاويتين سيقانهما تحتهما وضاحكتين بصوت منخفض. قال لهما الطبيب من غير أن يرفع عينيه عن النار: «لا أظن أن لديكما سيجارة. صارت سجائري مثل الإسفنج بسبب المطر». أجابت إحدى الفتاتين: «لدينا بالطبع! خذ واحدة. السجائر هناك عند قدمك؛ إنها بجانبك». أشعل الطبيب سيجارة ونفث دخانها ببطء. قالت إحدى الفتاتين موضحة: «إنه المطر، كما تعرف! هذا ما كنا نتحدث عنه أنا وماري الآن: للأسف، لا يوجد عمل؛ الوضع سيئ» ـ ضحكت ضحكة صغيرة خشنة ـ «وهكذا فإننا عالقتان هنا كما ترى». استدار الطبيب حتى يدفئ جسمه من الناحية الأخرى. لم يكن قد رأى ابنتي هورغوس منذ أن صرف كبراهما من خدمته. كان يعرف أنهما تمضيان النهار في الطاحون منتظرتين، من غير اكتراث، ظهور «زبون» أو استدعائهما من قبل صاحب الحانة. ونادراً ما كانتا تتجولان في المزرعة. تابعت ابنة هورغوس الكبرى كلامها: «كنا نقول إن الأمر لا يستحق الانتظار. تمر أيام، كما تعرف، يأتون فيها واحداً بعد الآخر، ثم تمر أيام ليس فيها أي زائرين؛ لا يحدث شيء، وأما نحن فنجلس هنا فقط. وتمر علينا أوقات تجعلنا نكاد نتشاجر نحن الاثنتين؛ الطقس شديد البرودة. ومن المخيف لنا أن نكون هنا وحدنا...» ضحكت

ابنة هورغوس الصغرى ضحكة جافة وقالت: «أوه! إننا خائفتان كثيراً!» ثم تابعت وهي تلثغ مثل طفلة صغيرة: «المكان مخيف هنا، نحن الاثنتان فقط». زعقت الفتاتان معاً زعقة قصيرة خائفة. قال الطبيب راجياً: «هل لي بسيجارة أخرى؟» قالت الكبرى: «خذ واحدة، يمكنك أن تأخذ واحدة طبعاً. لماذا أرفض طلباً كهذا، منك أنت خاصة؟!» غرقت الصغيرة في الضحك ثم كررت مقلدة صوت أختها: «لماذا أرفض طلباً كهذا، منك أنت خاصة؟! هذا جيد! قالتها بطريقة جيدة!» توقف ضحكهما آخر الأمر وراحتا تحدقان في النار متعبتين. كان الطبيب مستمتعاً بالدفء وفكر في أن يظل جالساً بعض الوقت حتى تجف ثيابه ويدفأ جسده قبل أن يستجمع همته وينطلق إلى الحانة. راح يحدق في النار نعساً وهو يصدر أصوات صفير خفيف مع تنفسه. كسرت ابنة هورغوس الكبرى الصمت. كان صوتها متعباً، خشناً، مراً: «تعرف أنني قد تجاوزت العشرين الآن، وهي ستبلغ العشرين قريباً. عندما أفكر في هذا ـ هذا ما كنا نتحدث فيه عندما أتيت ـ أتساءل إلى أين يقودنا هذا كله. تصاب الفتاة بالملل. هل لديك فكرة عن مقدار المال الذي يمكن أن نوفره؟ هل تستطيع تخيل ذلك؟! آه، أستطيع أن أقتل بعض الناس أحياناً!» حدق الطبيب في النار صامتاً. كانت ابنة هورغوس الصغيرة تنظر أمامها من غير اهتمام: كانت ساقاها منفرجتين، وكانت مستندة إلى كفيها. أومأت برأسها وقالت: «علينا أن نعيل المجرمة الصغيرة، الطفلة الحمقاء إيستي، وعلينا أن نعيل أمنا أيضاً رغم أنها لا تفعل شيئاً غير التذمر والشكوى من هذا الأمر وذاك الأمر أو سؤالنا عن مصدر المال ومطالبتنا بإعطائه لها... أعطوني من أجل كذا، وأعطوني من أجل كذا ـ وماذا عن كل شيء؟! صدقني إنهما قادرتان تماماً على سرقة آخر لباس داخلي لدينا! وأما نحن، فسوف نذهب إلى المدينة أخيراً ونترك هذه الحفرة العفنة... لو كنت قادراً فقط على سماع الإساءات التي يقذفوننا بها! ماذا نظن أننا فاعلتان، كذا، كذا، كذا؟... الحقيقة هي أننا ضقنا ذرعاً بهذه

الحياة كلها، أليس هذا صحيحاً يا ماري؟ ألم ننل كفايتنا من هذا؟» لوّحت الأخرى بيدها تلويحة ضجرة: «انسي الأمر! لا تثيري المشاكل! إما أن تذهبي أو أن تبقي! لا تستطيعين القول إن أحداً يجبرك على البقاء هنا». هاجمتها أختها على الفور: «نعم، ستكونين مسرورة إذا ذهبت، أليس كذلك؟ سوف تكونين على أحسن ما يرام هنا وحدك! لا بأس، هذا هو بالضبط سبب عدم ذهابي! إذا ذهبت أنا فسوف تذهبين أنت أيضاً!» كشرت ابنة هورغوس الصغرى: «لا بأس! لكن عليك ألا تنوحي هكذا، سوف تجعلينني أبكي!» كانت لدى شقيقتها إجابة جاهزة، لكنها لم تستطع إكمالها لأن كلماتها ضاعت في عاصفة من السعال. «لا تقلقي يا ماري! سيكون هنا مال كثير اليوم، كيس من المال! انظري فقط ماذا سيحدث هنا فقط في وقت قريب جداً؛ انظري فقط لتعرفي أنني لست مخطئة!» استدارت الأخرى صوبها منزعجة: «كان يجب أن يكونا هنا منذ زمن طويل. هنالك رائحة سيئة في هذا، هكذا أشعر». «آهاً، كفي عن هذا. لا تشغلي رأسك به. أعرف كرانر، وأعرف الآخرين أيضاً، سوف يكون هنا قريباً، سيأتي لاهثاً مستعجلاً مثل كل مرة». «لا أظنك تتوقعين أنه سيعطيك كل ذلك المال! كل تلك النقود؟» رفع الطبيب رأسه، ثم سأل: «أي نقود؟» لوحت ابنة هورغوس الكبرى بيدها وقد نفذ صبرها: «انس الأمر يا دكتور! اجلس فقط وتدفأ ولا تلق إلينا بالاً». وهكذا، جلس الطبيب برهة ثم طلب سيجارتين إضافيتين وعوداً جافاً من الثقاب ثم هبط السلم. بلغ الباب من غير أي صعوبة: كان المطر يدخل مندفعاً من فتحة الباب. وكان صداع الطبيب قد تراجع قليلاً وما عاد يشعر بأي دوخة على الإطلاق؛ ولم يعد لديه إلا ذلك الضغط في صدره، إحساس مزعج يرفض أن يزول. سرعان ما اعتادت قدماه الظلمة وسارتا مرتاحتين تماماً عارفتين طريقهما. كان تقدمه سريعاً بالنظر إلى حالته، وما كان يصطدم بغصن أو يتعثّر بنبات إلا في حالات نادرة. سار مندفعاً إلى الأمام مائلاً برأسه جانباً حتى لا يصطدم

المطر بوجهه. توقف بضع لحظات تحت إحدى السقائف قبل الجسر، لكنه سرعان ما تابع سيره غاضباً صامتاً والظلمة من أمامه ومن خلفه. شتم السيدة كرانر بصوت مرتفع وراح يحلم بأنواع مختلفة من الانتقام، لكنه كان ينساها على الفور. عاوده التعب من جديد ومرت به لحظات أحس فيها بأن عليه أن يجلس في مكان ما قبل أن يتهاوى ويسقط. وصل إلى الطريق المعبدة المؤدية إلى الحانة وقرر أن يصل إليها من دون أن يتوقف. قال مشجعاً نفسه: «إنها مئة خطوة، مئة خطوة لا أكثر، هذا كل ما بقي». كان ضياء يوحي بالأمل منبعثاً من باب الحانة ومن شبابيكها الصغيرة، نقطة وحيدة تهديه في تلك الظلمة. صار شديد القرب منها الآن، شديد القرب إلى حد سخيف، لكنه أحس بأن ذلك الضوء المتسلل منها لا يصبح أقرب إليه بل يتحرّك مبتعداً عنه. توقف لحظة ثم قال: «هذا لا شيء، سيزول سريعاً! كل ما في الأمر أنني لست على ما يرام». رفع رأسه ناظراً إلى السماء فانسكب وابل من المطر على وجهه: إنه في حاجة إلى المساعدة الآن، أكثر من أي شيء آخر. لكن الضعف الذي طغى عليه فجأة غادره على نحو مفاجئ أيضاً. ترك الطريق المعبَّدة فصار أمام باب الحانة، لكنه سمع صوتاً خافتاً يصيح من تحته: «سيدي الطبيب!» كان ذلك صوت صغرى بنات هورغوس، الطفلة إيستي. أمسكت بمعطفه. كان شعرها الأشقر بلون القش وثوبها الصوفي المحبوك النازل حتى مرفقيها غارقين في الماء تماماً. خفضت رأسها لكنها ظلت ممسكة به كأنها لم تكن تفعل ذلك لمجرد التسلية. «أهذه أنت يا إيستي الصغيرة؟ ماذا تريدين؟» لم تجبه الطفلة. «ماذا تفعلين هنا في الخارج في هذه الساعة من الليل؟» ظل الطبيب مصدوماً لحظة ثم حاول أن يحرر نفسه من قبضتها، كان نافذ الصبر لكن إيستي الصغيرة ظلت ممسكة به كأن حياتها متعلّقة بذلك. لم تفلته أبداً. «اتركيني! ماذا بك؟ أين أمك؟» أمسك الطبيب بيد الفتاة التي سحبتها فجأة وأمسكت بكمه، ثم ظلت واقفة إلى جانبه صامتة وهي تنظر إلى الأرض.

ضربها الطبيب على ذراعها حتى يحرّر نفسه منها لكنه تعثر بالممسحة الموضوعة أمام الباب. لوح بذراعيه لكي يتجنب السقوط، لكنه انتهى مستلقياً في الطين. ذعرت الفتاة الصغيرة وجرت صوب نافذة الحانة وهي تنظر إليه مستعدة للفرار عندما نهض ذلك الجسم الضخم وتحرك مقترباً منها. «تعالي. تعالي في الحال!» استندت إيستي إلى إطار النافذة ثم اندفعت جارية صوب الطريق المعبدة بخطوات صغيرة كأنها بطة. «هذا كل ما كنت في حاجة إليه!» دمدم الطبيب غاضباً مخاطباً نفسه، ثم صاح في إثر الفتاة: «هذا كل ما كنت في حاجة إليه! إلى أين أنت ذاهبة؟! توقفي الآن، توقفي! عودي إلي فوراً!» ظل واقفاً أمام باب الحانة غير عارف ما يتعين عليه فعله... أيتابع مهمته أم يذهب خلف الفتاة؟ «إن أمها في الداخل تشرب، وأختاها في الطاحون من أجل الدعارة، وشقيقها... من عساه يعرف أي متجر في المدينة يسرق في هذه الدقيقة بالذات. وهي تجري تحت المطر في ثوب خفيف فقط... ستنتقم السماء منهم جميعاً!» بلغ الطريق المعبدة وصاح في الظلمة: «إيستي! لن أضربك! هل أصابك الجنون؟! عودي إلى هنا فوراً!» لم يسمع أي إجابة. سار خلفها وهو يلعن نفسه لأنه خرج من بيته أصلاً. تبللت ثيابه كلها حتى بلغ الماء جلده؛ لم يكن يشعر بأنه على ما يرام في الأصل، ثم جاءت هذه الفتاة الصغيرة نصف المجنونة وتعلّقت به!... أحس بأن أشياء كثيرة جداً حدثت معه منذ لحظة مغادرته البيت، وأحس بأن كل شيء صار قد اختلط الآن في رأسه. واستنتج بمرارة أن كل النظام الذي تعب عليه صابراً كل هذه السنين قد أثبت هشاشته الكبيرة الآن، وآلمه أكثر من ذلك إدراكه أنه، هو نفسه (رغم جسمه الكبير القوي) كان على وشك الانهيار أيضاً: انظر، مسافة صغيرة حتى الحانة («وسأرتاح هناك أيضاً!»)، وهي ليست مسافة كبيرة حقاً. وها هو الآن، بأنفاس مبهورة وضغط في صدره وساقين ضعيفتين... لم يبق في جسده أي قوة. والأسوأ من هذا أنه كان مندفعاً هنا وهناك فاقد العقل، ذاهباً في

هذه الطريق وتلك الطريق من غير أدنى فكرة لديه عن السبب الذي يحمله على الجري خلف الطفلة مثل شخص مجنون في ذلك الطريق المعبد تحت المطر المنهمر. صرخ مرة أخيرة في الاتجاه الذي يفترض أن الطفلة قد سلكته، ثم توقف حانقاً معترفاً لنفسه بأنه غير قادر على الإمساك بها. صار عليه أن يستجمع قواه الآن. استدار عائداً وفوجئ عندما لاحظ أنه ابتعد مسافة كبيرة عن الحانة. بدأ السير في اتجاهها، لكن العالم كله أظلم فجأة بعد خطوتين فقط؛ أحس بساقيه تنزلقان في الوحل، وأدرك لحظة قصيرة أنه يسقط على الأرض ويتدحرج إلى مكان ما، وأخيراً فقد وعيه. تطلب الأمر جهداً كبيراً ووقتاً كبيراً حتى يستجمع قواه من جديد. لم يستطع أن يتذكر كيف وصل إلى تلك النقطة. كان الوحل ملء فمه فجعله طعمه يشعر بالغثيان فجأة. كان معطفه ملطخاً بالوحل كله، وكانت ساقاه متيبستين نتيجة البرد والرطوبة، لكن العجيب أن السجائر الثلاث التي أخذها من الشقيقتين هورغورس كانت سليمة تماماً لأنه كان مطبقاً قبضة يده عليها بإحكام حتى لا يصيبها البلل. دس السجائر سريعاً في جيبه ثم حاول الوقوف. لكنَّ ساقيه واصلتا الانزلاق على حافتي الخندق الموحل إلى جانب الطريق، ولم يتمكّن من الخروج من الوحل والعودة إلى الطريق المعبّدة إلا بعد جهد كبير. «قلبي! قلبي!» لمعت تلك الفكرة في عقله فأمسك بصدره مذعوراً. أحس بضعفٍ شديدٍ وعرف أن عليه أن يذهب إلى المستشفى بأسرع ما يستطيع. لكن المطر كان يجعل ذلك أمراً مستحيلاً: كانت كل موجة جديدة من المطر تضرب الطريق بزاوية مائلة وبقوة لا ترحم. «عليَّ أن أستريح. عليَّ أن أجد شجرة... أو عليَّ أن أذهب إلى الحانة! لا، عليَّ أن أستريح في مكان ما». ترك الطريق والتجأ تحت شجرة أكاسيا عجوز قريبة. طوى ساقيه تحته حتى لا يجلس على الأرض مباشرة. حاول جاهداً ألا يفكر في أي شيء، وحاول الاكتفاء بالنظر أمامه من غير حركة. مضت بضع دقائق على هذا النحو، أو لعلها كانت ساعات... لم

يستطع معرفة ذلك. وفي جهة الشرق، بدأ الضياء يظهر في الأفق تدريجاً. جلس الطبيب يراقب تقدم الضياء عبر الحقول؛ كانت روحه محطمة لكنها ظلّت ترعى أملاً غامضاً. منحه الضياء أملاً لكنه كان خائفاً منه أيضاً. أراد أن يكون الآن مستلقياً في غرفة دافئة ودود تحت نظرات رقيقة من ممرضات شابات شاحبات الجلد، وقصعة من الحساء الحار أمامه يغرف منها ويضع في فمه، ثم يستدير صوب الجدار. لاحظ ثلاثة أشخاص يسيرون في الطريق مقتربين منه، كانوا قبالة مركز تنظيف الطرقات. كانوا بعيدين عنه، بعيدين إلى حد يبعث على القنوط، لم يستطع سماعهم بل رآهم فقط؛ لكنه أدرك أن الشخص الأصغر بينهم طفل، كان يتحدث متحمساً وهو يشرح شيئاً لواحد منهم في حين سار الآخر متأخراً عنهما بضع خطوات. عرفهم عندما صاروا مقابله أخيراً. حاول أن يناديهم، لكن لا بد أن الريح حملت صوته بعيداً لأنهم لم يتنبهوا إليه بل واصلوا سيرهم صوب الحانة. وعندما بدأ التفكير متعجباً في وجود هذين المارقين القديمين، الشخصين اللذين اعتبرا ميتين منذ زمن، أمامه تماماً، نسي الأمر كله: بدأ ألم حاد في ساقيه، وصار حلقه جافاً. جاء الصباح فوجد نفسه سائراً في الطريق متوجهاً إلى المدينة. لم تعد لديه رغبة في العودة إلى الحانة. كان يسير مترنحاً متمايلاً وأفكار مشوشة تملأ رأسه، كان خائفاً من أصوات تنفجر فوق رأسه من حين إلى آخر. بدا له أن سرباً من الغربان يحوم من حوله، يتبعه؛ أحس بغريزته أن الغربان تطير في إثره ولا تتركه يغيب عن أبصارها. وبعد الظهر، عندما وصل إلى مفترق الطرق المؤدي إلى إيليك، لم يعد لديه قوة تكفيه لكي يصعد إلى العربة. ترك الأمر لسائقها كيليمين ذي القلب الطيب حتى يدفع به على كومة من القش الرطب خلف المقعد. أحس بالدوار، وظل صدى كلمات السائق الموبخة يتردد في رأسه: «يا سيدي الطبيب، ما كان عليك أن تفعل هذا! حقاً، كان عليك ألا تفعل هذا».

4. شباك العنكبوت (1)

قال الفلاح كيريكس: «أوقد النار!». كانت حشرات خريفية تئز طائرة حول المصباح المظلل المتداعي الذي يرسم ضوؤه الضعيف أشكالاً متشابكة ناعسة تختلط من حين لآخر بأشكال البورسلين القذر بحيث تعود الحشرات بعد كل اصطدام بالمصباح إلى الدروب المغناطيسية التي نسجتها بنفسها من قبل وتواصل دورتها التي لا تعرف نهاية مع أنها محصورة ضمن دائرة مغلقة... ستظل هكذا إلى أن يخبو ذلك الضوء؛ لكن اليد العطوف التي كانت لديها قدرة على القيام بهذا العمل، على إطفاء الضوء لترتاح الحشرات الطائرة، لا تزال في مكانها مستندة إلى وجه غير حليق. كان صوت المطر الذي يبدو أنه لا يريد التوقف يملأ أذني صاحب الحانة الذي راح يراقب الحشرات الطائرة بعينين ناعستين ترفّان ... يدمدم صاحبهما: «فليأخذكم الشيطان جميعاً». كان هاليكس جالساً في الزاوية عند الباب على كرسي غير مستقر تماماً رغم أنه مصنوع من الحديد، وكان معطفه الواقي من المطر مزرراً حتى ذقنه... كان معطفاً لا بد لصاحبه من رفعه حتى وسطه إن أراد الجلوس لأن المطر والريح فعلا فعليهما في الرجل ومعطفه فشوهاهما وأوهناهما. كان هاليكس يشعر بأن جسده كله قد فقد شكله، وأما معطفه ففقد ما كان لديه من مقاومة للماء وما عاد قادراً على حمايته من طوفان الأقدار، أو كما كان يقول هو نفسه «من مطر الموت في القلب»، مطر يهطل ليل نهار صافعاً قلبه الذاوي

وأعضاء جسمه التي لا حول لها. كانت بركة الماء عند قدميه تزداد اتساعاً، وكانت الكأس الفارغة في يده تزداد ثقلاً، ومهما حاول عدم سماع ما يجري خلفه، كان الفلاح كيريكس جالساً مستنداً بمرفقيه إلى ما يدعونه طاولة بلياردو متجهاً صوب صاحب الحانة بعينيه اللتين لا تريان ويرتشف بيرته ببطء عبر أسنانه ثم يبتلعها بجرعات كبيرة نهمة. قال مكرراً: «قلت لك أن توقد النار...»، ثم مال برأسه قليلاً ناحية اليمين حتى لا يفوته أي صوت. أحاطت رائحة العفن المتصاعدة من الأرض عند زوايا الغرفة بطليعة الصراصير المتقدمة على امتداد الجدار الخلفي، ومن خلفها سار جيش الصراصير كله متدفقاً على اتساع الأرضية المشبعة بالزيت. أجابه صاحب الحانة بحركة بذيئة مقابلاً نظرات عيني هاليكس الدامعتين بابتسامة ماكرة متآمرة، لكنه سمع كلمات الفلاح المتوعدة («لا تشر بيدك هكذا يا وجه الخراء!») فانكمش جالساً في كرسيه مذعوراً. كان ملصق جداري مبقع بالجير معلقاً خلف طاولة الخدمة ذات السطح القصديري فوق زاوية متشققة في الجدار، وأما على الناحية الأخرى خلف دائرة الضوء المنبعث من المصباح وإلى جانب إعلان الكوكاكولا الذي بهتت ألوانه فكان هناك مشجب معدني للملابس عليه قبعة مغبرة منسية ومعطف عمل يتدلى منه؛ كان المعطف متيبساً كأنه تمثال طائر؛ وكان يمكن لكل من ينظر إليه أن يظنه شخصاً مشنوقاً. تحرك كيريكس في اتجاه صاحب الحانة حاملاً زجاجة فارغة في يده. صرّت ألواح الأرضية تحت خطواته، أما هو فكان منحنياً إلى الأمام قليلاً، وكان جسمه الضخم يعلو فوق كل شيء آخر. بدا للحظة كأنه ثور مندفع من فوق سياج: بدا كأنه يشغل كل إنش متاح في الفراغ. رأى هاليكس صاحب الحانة يختفي خلف باب غرفة المستودع، وسمعه يغلق مزلاج ذلك الباب سريعاً، وأحس بشيء من العزاء عندما أدرك أنه، تلك المرة، لم يكن في حاجة إلى الاحتماء خلف كومة أكياس السماد الصناعي التي وضعت هناك، واحداً فوق

الآخر، منذ سنوات كثيرة ثم لم يحركها أحد بعد ذلك، ولأنه لم يكن مضطراً إلى الاختفاء بين صفوف المعدات الزراعية وصناديق علف الخنازير ذي الرائحة البشعة وإلى الاستناد بظهره إلى الباب الفولاذي البارد كالجليد؛ بل إنه أحس بشيء من السرور أيضاً، أو لعله كان شيئاً من الرضا لرؤية سيد مخزن النبيذ المتلألئ هذا مختبئاً خائفاً خلف باب موصد، ينتظر انتظاراً يائساً سماع صوت يطمئنه بعد أن صارت حياته مهددة من قبل هذا الفلاح ذي البنية الجسدية الجبارة. قال كيريكس مطالباً بصوت غاضب: «زجاجة أخرى!» ثم أخرج من جيبه قبضة من الأوراق المالية لكن سرعة حركته جعلته يسقط الأوراق النقدية التي طارت لحظة في الهواء ثم حطت عند حذائه الضخم تماماً. وبما أن هاليكس كان يدرك ـ ولو قليلاً ـ القواعد التي تحكم سلوك الأشخاص الآخرين، ومدى إمكانية توقع أو عدم توقع تصرفاتهم، ولأنه كان يعرف ما يجب أن يفعله بكل تأكيد، فقد نهض وانتظر ثواني قليلة ليرى إن كان الفلاح سينحني لالتقاط النقود، ثم تنحنح وتحرك مخرجاً آخر ما لديه من نقود معدنية، ثم فتح راحة يده. رنت قطع النقود المعدنية عندما تناثرت في أرجاء المكان، وعندما استقرت آخر قطعة منها، ركع هاليكس على الأرض ليجمعها. هدر صوت كيريكس: «التقط المئة التي سقطت مني أيضاً، فما كان من هاليكس الذي يعرف كيف يسير هذا العالم («أستطيع أن أرى ما تخفيه!») إلا أن التقط النقود صامتاً مطيعاً كأنه عبد وناوله إياها وهو ممتلئ غِلّاً طيلة الوقت. قال في نفسه وهو لا يزال مذعوراً: «لم يخطئ إلا في كمية المال!... لم يخطئ إلا في كمية المال». ثم سمع صوت الفلاح الفظ يسأله «إذن، أين أنت؟» فهبّ واقفاً على قدميه ونفض الغبار عن ركبتيه ثم اتكأ إلى الطاولة على مسافة آمنة من كيريكس لأنه لم يكن متأكداً إن كان الرجل يخاطبه هو أو يخاطب صاحب الحانة. بدا التردد على كيريكس. هل هذا معقول؟ قال هاليكس أخيراً بصوت هش لا يكاد يُسمع: «حسن،

هل سننتظر طويلاً؟» فتردد صوته في الصمت ولم ينل إجابة على سؤاله. مع ذلك، وبما أنه كان مضطراً إلى الوقوف على مقربة من كيريكس القوي فقد نأى بنفسه إلى أقصى حد يستطيعه عن الكلمات التي قالها من غير انتباه، وأحس بأنه أقام نوعاً من رفقة غير واضحة مع كيريكس، ذلك النوع الوحيد من الصحبة التي كان قادراً عليه لا بسبب شدة تقديره لنفسه بل لأن خلايا جسده نفسها رفضت احتمال أن يتصرف تصرفاً مختلفاً عن تصرف أي جبان آخر: كان التعاون المذعور الخيار الوحيد المتاح له. وعندما التفت إليه الفلاح بطيئاً كان إحساسه بواجب البقاء على الولاء (إحساس كان دائماً جزءاً من شخصية هاليكس) قد أفسح المكان لشيء آخر: أحس بتأثر غريب عندما اكتشف أن كلمات شاردة صدرت عنه قد أصابت هدفها. كان هذا غير متوقع إطلاقاً. وما كان مستعداً لإدراك أن صوته هو نفسه – الصوت الذي استخدمه عندما تكلم قبل قليل، الصوت الذي لم يكن مستعداً لذلك أبداً – يمكن أن يغير وجهة غضب الفلاح وأن يحيّد دهشته الواضحة، وهذا ما جعله يضيف سريعاً، كعلامة على الانسحاب الفوري غير المشروط: «رغم أن لا علاقة لي بالأمر طبعاً...». كان كيريكس على وشك أن يغضب من جديد. خفض رأسه وأدرك أن أمامه على الطاولة صف من كؤوس النبيذ المغسولة: رفع قبضته عندما ظهر، في تلك اللحظة الدقيقة، صاحب الحانة من غرفة المستودع ووقف عند بابها. دعك الرجل عينيه واستند إلى إطار الباب؛ كانت الدقيقتان اللتان أمضاهما في مخبئه كافيتين لإزالة ذعره المفاجئ، ذلك الذعر الذي يبدو سخيفاً إذا ما نظر إليه المرء بهدوء («كم هو عدواني!... هذا الحيوان الملعون!»)، لم يكن الأذى الذي أصاب كرامته إلا شيئاً سطحياً، شيئاً على مستوى الجلد بعد كل حساب، لم يكن شيئاً خطيراً... وحتى إذا تمكن الفلاح الضخم من تجاوز الجلد، فلن يكون الأمر إلا «حجراً آخر أُلقي في بئر لا قرار لها». قال كيريكس مطالباً: «زجاجة أخرى!» ثم وضع المال على

الطاولة. وعندما لاحظ أن صاحب الحانة ظل محافظاً على مسافة آمنة منه، أضاف: «لا تخف أيها الأحمق. لا أريد إيذاءك. كف عن هذه الحركات فقط». وعندما عاد إلى كرسيه عند طاولة البلياردو، وهبط حذراً ليجلس عليها خشية أن يسحبها أحد من تحته، كانت ذقن صاحب الحانة قد استقرت على كفه الأخرى وغامت عيناه الثعلبيتان عديمتا اللون وظهر فيهما شيء من الريبة والتوق الملموس، وراح ينظر إلى أصابع يديه الطويلة الدقيقة التي أضنتها سنوات من العمل، وتهدل كتفاه، وبرز كرشه، ولم تتحرك عضلة في جسده عدا أصابع قدميه داخل حذائه المهترئ: كل ذلك في دفء الخنوع اللصيق ـ ذلك النوع من الخنوع الذي يجعل الجلد ضعيف الحس ويجعل اليدين عرقتين ـ خنوع يشع من وجهه الأبيض كالطبشور. وفي تلك اللحظة بدأ المصباح الذي كان متدلياً من السقف من غير حركة يتأرجح جيئة وذهاباً، وتأرجحت معه هالة الضوء (التي لم تكن أكبر من قطعة خبز) التي تركت معظم السقف وأعالي الجدران في الظل ولم يسمح ضوؤها إلا برؤية الرجال الثلاثة والمعجنات والشعيرية المجففة من أجل الحساء والطاولة التي غطتها كؤوس النبيذ وزجاجات البالينكا، والكراسي، والحشرات الميتة ـ أعطى ذلك التأرجح الحانة هيئة سفينة تصارع عاصفة في أول الغسق. فتح كيريكس الزجاجة وجذب الكأس إليه بيده الأخرى، ثم جلس بضع دقائق من غير حركة حاملاً الزجاجة بيد والكأس باليد الأخرى كأنه نسي ما يريد أن يفعل بعد ذلك. الآن، وبعد أن جرى كل شيء بهدوء، في ظلمة عماه المطلقة، أحس أنه أصيب بالصمم أيضاً، وأن كل شيء من حوله صار من غير وزن، حتى جسده ومؤخرته وذراعاه وساقاه المنفرجتان تحته على اتساعهما، وأحس أن كل قدرة لديه على اللمس أو الذوق أو الشم هجرته أيضاً، ولم يعد فيه ما يعكر سكينة انعدام الوعي الشامل هذا إلا جريان دمه وعمل أعضاء جسمه الهادئ، وانسحب جوهر قلقه الغامض إلى ظلمة جحيمه، إلى

مساحات الخيال المحرَّمة حيث كان مجبراً على الإفلات والتحرر من حين لآخر. لم يعرف هاليكس كيف يفسر هذا الوضع فراح يتململ مضطرباً لأنه أحس بأن كيريكس يراقبه. كان من شأن تفسير سكونه غير المتوقع بأنه شكل متدرّج بطيء من أشكال الدعوة إلى أن يكون افتراضاً مغامراً؛ بل على العكس من ذلك، أحس بأن العينين الميتتين المتجهتين صوبه تمثلان خطراً، لكنه أجهد ذهنه فلم يستطع أن يتذكر أي إساءة يمكن أن تأتيه بعقوبة فورية، خاصة أنه (في الساعات الصعبة، عندما ينغمس «صاحب هموم» مثله في مياه معرفة الذات التي تحرره) اعترف لنفسه بأن حياته المريحة التي مضت به من غير أحداث تذكر حتى الثانية والخمسين لم يكن لها أهمية في خضم الحيوات المتصارعة كلها أكثر من أهمية دخان سيجارة في قطار محترق. اختفى هذا الإحساس السريع بالذنب الذي جاء في غير محله (هل كان إحساساً بالذنب حقاً؟ إذا ما كان يقوله المثل صحيحاً «بعد أن تنطفئ نار الإحساس بالذنب، ولا يبقى إلا عود ثقاب محترق»، فإن الضوء القليل الباقي لا يمكن تفسيره إلا بمشكلة من مشاكل الضمير)، اختفى تماماً احساسه بالذنب عند اللحظة التي كان يمكن فيها أن يخترق روحه إلى عمق أكبر فانتقل إلى المرحلة اللاحقة من الهستيريا التي أصابت باطن فمه وحلقه وحنجرته ومعدته لأنه استعد لشيء آخر قبل ذلك، لوصول آل شميدت وتسوية «حقوقه» معهم. زادت الحانة الباردة الوضع سوءاً، وكانت نظرة واحدة منه إلى رفوف النبيذ المنتصبة خلف طاولة صاحب الحانة المنخفضة كافية لجعل مخيلته الهستيرية تتحرك مثل زوبعة تهدد بابتلاعه تماماً، خاصة الآن بعد أن سمع أخيراً صوت انصباب النبيذ في كأس الفلاح ولم يعد يستطيع مقاومة النظر إليه بعد أن صارت قوة أكبر منه تشد عينيه إلى النظر صوب تلك اللآلئ اللحظية الدقيقة التي تلتمع في النبيذ المصبوب. أصغى صاحب الحانة، بعينين مسبلتين، إلى صرير حذاء هاليكس على الأرض ولم يرفع بصره

إليه عندما أحس بأنفاسه الحامضة لأنه لم يشعر بأي رغبة في مواجهة قطرات العرق على وجه هاليكس، فقد كان يعرف أنه سوف يستسلم للمرة الثالثة هذا المساء. تنحنح هاليكس بحذر ثم قال: «انظر يا صديقي! كأس واحدة، واحدة فقط!» ثم ألقى على صاحب الحانة نظرة صادقة تماماً، ورفع إصبعه أيضاً. «سوف يصل آل شميدت، أنت تعرف هذا، سوف يصلون قريباً جداً». وببطء شديد، وعينين مغمضتين، رفع كأسه الممتلئة حديثاً وراح يتناول رشفات صغيرة وهو يرد رأسه إلى الخلف، ثم أبقى قليلاً من النبيذ في فمه عندما فرغت الكأس حتى تنساب آخر قطرة في حلقه. «نبيذ لطيف جيد...»، تمطق بشفتيه محتاراً وهو يضع الكأس على الطاولة بلطف، بل بتردد، مثل شخص يعيش الأمل حتى آخر لحظة، ثم استدار مبتعداً مدمدماً في نفسه («علف الخنازير») قبل أن يسير متهادياً إلى كرسيه. أسند كيريكس رأسه الثقيل على قماش طاولة البلياردو الأخضر؛ وحك صاحب الحانة الواقع في دائرة الضوء مؤخرته الخدرة، ثم بدأ يضرب بمنشفة تجفيف الصحون ليزيل شباك العنكبوت. «هاليكس، استمع! هل تسمعني؟... أنت! ما الذي يجري هناك؟» نظر إليه هاليكس محدقاً أمامه غير فاهم شيئاً. «أين؟» كرر صاحب الحانة ما قاله ثم أضاف: «أوه، في المركز الثقافي!» حك هاليكس رأسه قليلاً: «لا شيء خاصًا». «لا بأس... لكن، ماذا يعرضون هناك الآن؟» لوّح هاليكس بيده قائلاً: «آه! لقد رأيته آخر ثلاث مرات. الحقيقة أنني أخذت زوجتي وتركتها هناك ثم جئت إلى هنا مباشرة». ظل صاحب الحانة جالساً في كرسيه، واستند إلى الجدار ثم أشعل سيجارة. «قل لي على الأقل ما الفيلم الذي يعرضونه الليلة؟» «تقصد اسم الفيلم... إنه فضيحة في سوهو». «حقاً؟» صدر صوت صرير عن الطاولة التي خلف هاليكس، وتنهد خشب الحانة العفن بصوت خفيض كأنه صوت حركة عجلة عربة قديمة يطغى على صوت طنين الذباب: كان صوتاً يستحضر الماضي، لكنه ناطق بلسان خراب

أبديّ أيضاً. ومع صرير الخشب، ظلت الريح في الخارج تسأل السؤال نفسه مرة بعد مرة كأنها يد عاجزة تبحث في صفحات كتاب كساه الغبار عن جملة مختفية، كأنها تأمل في العثور على «ما يشبه إجابة صحيحة» تقدمها إلى حواف الطين الصلب، كأنها تريد إقامة علاقة بين الأشجار والهواء والأرض، كأنها تبحث عن الصوت الأصلي الأول عبر شقوق غير مرئية في الباب والجدران، عن صوت تجشؤ هاليكس. كان الفلاح يشخر فوق «طاولة البلياردو» واللعاب يسيل من فمه المفتوح وفجأة، مثل هدير بعيد في الأفق، مثل شكل غامض يقترب بطيئاً رغم أنك لا تعرف تماماً إن كان قطيعاً من الأبقار يقوده الراعي عائداً إلى البيت، أو باص مدرسة، أو صوت فرقة موسيقية عسكرية سائرة، صعدت من أعماق معدة كيريكس زمجرة يصعب تحديدها بلغت شفتيه أخيراً وخرجت منهما على هيئة كلمات مثل: «... عاهرة» و«حقاً»، و«أو» و«أيضاً»، لكنهما لم يستطيعا تمييز أكثر من ذلك. انتهى ذلك الصوت إلى أن صار حركة واحدة، إلى أن صار ضربة موجهة إلى أحد أو إلى شيء ما. انقلبت كأسه ورسم النبيذ المنسكب على القماش الأخضر شكلاً يشبه كلباً متمدداً قبل أن يمتص أشكالاً أخرى ويضمها إليه قبيل تغلغله في القماش فانتهى إلى هيئة لا هوية لها (لكن، هل شربه القماش فعلاً؟ أم أنه جرى تحت القماش ليستقر على الألواح الخشبية من تحته ويشكل سلسلة من البقع المجتمعة والمنفصلة... رغم أن شيئاً من هذا كله ما كان مهماً أبداً بالنسبة لهاليكس لأن...). قال هاليكس بصوت خافت كالهسيس: «اللعنة على هذه السحنة السكيرة!» ثم هز قبضته في اتجاه كيريكس وقد أعجزه الغضب كما لو أنه لا يريد أن يصدق عينيه. استدار إلى صاحب الحانة حانقاً مدمدماً: «إنه يهرق الشراب... ابن الحرام...» ألقى صاحب الحانة على هاليكس نظرة طويلة محمّلة بالمعاني قبل أن يلتفت أخيراً صوب الفلاح، لا في اتجاهه تماماً في الحقيقة بل في الاتجاه العام، بالقدر الكافي لتقدير الأضرار؛ ثم

أجاب هاليكس الذي تنقصه الخبرة بابتسامة عالية وهز رأسه مرات كثيرة قبل أن يغيّر وجهة الحديث: «يا للرجل الضخم... كأنه ثور، دابة حقيقية، أليس كذلك؟» حدّق هاليكس محتاراً في تلك اللمعة الساخرة خلف أهداب صاحب الحانة نصف المغلقة، ثم هز رأسه وألقى نظرة طويلة على الفلاح النائم الذي كان شكله أشبه بالثور. سأل بلسان شبه مشلول: «ما مقدار الطعام الذي تحتاجه هذه الدابة عندما تأكل؟» نخر صاحب الحانة قائلاً: «حتى تأكل!؟ إنه لا يأكل، إنه يلتهم العلف!» مضى هاليكس إلى طاولة صاحب الحانة ثم انحنى فوقها قائلاً: «لابد أنه يأكل نصف خنزير في الوجبة الواحدة. صدقني عندما أقول لك هذا». «أصدقك بالتأكيد». أطلق كيريكس شخرة صغيرة فكفّا عن الكلام. نظرا إلى الجسد الهائل الساكن، وإلى الرأس المحتقن دماً والحذاء المثقل بالوحل الذي كان بارزاً من تحت ظل طاولة البلياردو، نظرا مدهوشين خائفين مثلما ينظر الناس إلى حيوان مفترس نائم بعد أن يطمئنوا إلى أمانهم اطمئناناً مضاعفاً بفعل القضبان التي تحيط به وبفعل نومه نفسه. كان هاليكس يسعى إلى دقيقة أو ثانية من مشاعر الرفقة مع صاحب الحانة (وقد ظفر بما أراد في حقيقة الأمر). ولو كان ذلك مثلما يكتشف ضبع محبوس في قفص وطير جارح يحوم حراً في السماء لحظة شراكة متبادلة غير واعية تجعلهما يرحبان بالكارثة معاً... لكن خبطة مهولة أيقظتهما من هذا الحلم، خبطة شعرا معها كما لو أن السماء تنفتح من فوقهما. فعلى الفور، بعد أن أضاءت الحانة كلها التماعة برق عظيم، برق يستطيع المرء أن يشم رائحته (كان يمكن أن يعلق هاليكس على ذلك البرق قائلاً: «كان ذلك قريباً جداً») بدأ شخص ما يقرع باب الحانة بقوة. وثب صاحب الحانة مستعداً لكنه لم يندفع صوب الباب على الفور لأنه كان واثقاً للحظة فقط، من وجود علاقة ما بين البرق وهذا القرع على الباب. ثم لم يلبث أن استجمع شتات نفسه وانطلق ليفتح الباب عندما بدأ الشخص الواقف

بالباب يجأر قائلاً: «إذن، فهو أنت، و...» كان ظهر صاحب الحانة في مواجهة عيني هاليكس الآن فلم ير شيئاً في البداية ثم ظهر حذاء ضخم، ومن بعده ظهرت سترة واقية من الريح، وأخيراً رأى بعدهما وجه كيليمين المنتفخ وقد جثمت قبعة السائق مبتلة فوق رأسه. حدّق هاليكس فيه بعينين متسعتين. أطلق الوافد الجديد بعض الشتائم وهو ينفض الماء عن معطفه، ثم رماه غاضباً فوق المدفأة قبل أن يستدير إلى صاحب الحانة الذي كان يحاول إغلاق الباب بالمزلاج مولياً الحانة ظهره. «هل أصابكم الصمم جميعاً هنا؟ وأنا واقف هناك أحاول فتح هذا الباب الملعون، كاد البرق يصيبني ولم يأت أحد ليفتح الباب» عاد صاحب الحانة إلى مكانه خلف طاولته وصب كأساً من البالينكا ثم دفع بها أمام الرجل العجوز وأجاب على سؤاله معتذراً: «بالنظر إلى شدة صوت الرعد، فليس من المفاجئ في الحقيقة أن...». كان يتفرس في وجه القادم الجديد محاولاً أن يحزر سريعاً ما أتى به في هذا المطر وما يجعل الكأس تهتز بيده، وما كان يخفيه أيضاً. لكن أحداً لم يسأله عن شيء من ذلك بعد، لا هو ولا هاليكس، لأن السماء انشقت ثانية وبدا أن المطر كله قد هطل منها دفعة واحدة كأن كيساً كبيراً أفرغ فوق سقف الحانة مباشرة. حاول العجوز، بأقصى ما يستطيع، أن يعصر قبعته المبتلة وأن يعيدها إلى شكلها الأصلي، ثم وضعها على رأسه من جديد بنظرة مهمومة، ثم أفرغ كأس البالينكا كله. الآن، وللمرة الأولى منذ بحثه عن السبيل المفقود في الظلمة الدامسة، سبيل لا يستطيع أحد تذكر استخدامه (الطريق التي غطتها الأعشاب والنباتات)، بدأت صورة حصانيه المضطربين تلوح أمام أبصاره وهما يلتفتان، على نحو لا يمكن تفسيره، صوب سيدهما المصمم، رغم عجزه، وقد راح ذيلاهما يرتعشان ارتعاشاً متوتراً، وسمع من جديد لهاثهما الثقيل يعلو فوق صرير العربة وطقطقتها وهي تمضي مهتزة فوق حفر خطرة، ورأى نفسه واقفاً في مقعد السائق، ثم ممسكاً بأعنة الحصانين غارقاً في

الوحل حتى كاحليه، منحنياً في مواجهة الريح الشديدة التي تضربه في وجهه، ولم يصدق إلا الآن ما حدث، ذلك أنه ما كان لينطلق في هذه الرحلة لولا إرمياس وبيترينا، لأن «ما من قوة أكبر من قوتهما» كان يمكن أن ترغمه على ذلك، لأنه بات الآن متأكداً من أن هذا صحيح لأنه رأى نفسه في ظل قوّتهما العظيمة أشبه بجندي مشاة عادي في ميدان المعركة عندما يحس أكثر مما يسمع حقاً، الأمر الذي يعطيه قائده الضابط فيمضي إلى القيام بواجبه من غير أن يقول له أحد أن يفعل ذلك. وهكذا راحت الصور تتحرك صامتة أمام عينيه بتسلسل أكثر ثباتاً كما لو أن كل ما يمكن أن يعزّ على المرء ويعتبر حمايته ضرورة حيوية كان موجوداً كجزء من نظام سرمدي مستقل، وعندما تكون ذاكرة المرء لا تزال عاملة إلى الحد الكافي لذلك بدرجة ما من درجات الثقة وتأتي إلى حيز الوجود بمعنى الآنية الطافية خفيفة، وعندما يتثبت المرء من الخيوط الحية التي تمسك بقواعد هذا النظام في مجرى الأحداث المفتوح، فإنه يجد نفسه مرغماً على جَسْر الهوة بين الذاكرة والحياة لا بإحساس من الحرية بل تحت قيود الرضا الضيقة بأن يكون حائزاً تلك الذاكرة؛ وهكذا، عند هذه المرحلة، عندما تسنح فرصة أولى لاستحضار هذه الأشياء في الذهن، أحس كيليمين بالرعب كامناً في كل شيء حدث، رغم أنه سرعان ما سيبدأ التعلق بالذاكرة بحس غيرة استحواذي متزايد مع أن الذاكرة غالباً ما ستعاوده «في السنوات القليلة الباقية له» وصولاً إلى آخر مرة يستحضر فيها هذه الصور وهو منحن من نافذة بيت المزرعة المتجهة شمالاً في أكثر ساعات الليل بؤساً، وحيداً عديم الحول، منتظراً بزوغ الفجر. سأله صاحب الحانة أخيراً: «من أين أتيت؟» «من البيت». بدت الدهشة على هاليكس وتقدم خطوة من الرجل. «لكن ذلك يعني رحلة تمتد نصف يوم على الأقل». أشعل الزائر سيجارة وظل صامتاً. سأله صاحب الحانة متردداً: «هل جئت سائراً على قدميك؟» «بالطبع لا. الحصانان. العربة.

الطريق القديمة». كان الشراب قد أشاع الدفء في جسده الآن، وراح ينظر إلى وجوههم واحداً واحداً وهو يرمش بعينيه قليلاً، لكنه لم يخبرهم بعد ما أراد إخبارهم به، ولم يعرف بعد كيف يبدأ لأن اللحظة لم تكن مناسبة تماماً، أو... إذا أردنا الدقة أكثر... كان غير قادر على تحديد تلك اللحظة لأنه لم يكن يعرف ما ينتظر حدوثه، وحتى لو كان هذا واضحاً له فإن إحساسه بالفراغ والضجر المنبعثين من الجدران نفسها ما كان إلا مظهراً خارجياً، وحتى لو كانت هذه البقعة موئلاً لقوى غير مرئية (لكنها أكثر هولاً نتيجة ذلك) خلال الساعات القادمة، وحتى إن كانت الصيحات المتوحشة للجمع الذي سوف يغمرهم جميعاً مسموعة منذ الآن، وإن تكن غير حاضرة بعد، فإنه كان ـ رغم ذلك كله ـ يتوقع أكثر من هذا بكثير، يتوقع إحساساً محموماً بالترقّب أكثر مما كان صاحب الحانة وهاليكس قادرَيْن على توفيره، وهذا ما جعله يحس بأن القدر خذله تماماً عندما وضعه في مواجهة هذين الشخصين فقط: صاحب حانة تفصله عنه «هوة حقيقية»، لأن الناس الذين يعتبرهم «جمهوراً مرتحلاً» أو، بدقة أكبر، «من نوع المسافرين»، كانوا بالنسبة لصاحب الحانة مجرد «ضيوف...»؛ أو هاليكس الذي كان «إطاراً مثقوباً» أو رجلاً لا تعني له أي شيء الآن تعابير من نوع «الانضباط، والثبات على الهدف، والروح المقاتلة، والمصداقية»، ولم تكن تعني له شيئاً في يوم من الأيام. كان صاحب الحانة ينظر متوتراً إلى الظلال المتشكّلة عند رقبة السائق، وكان تنفسه بطيئاً حذراً وفي هذه الأثناء كان هاليكس مقتنعاً ـ على الأقل إلى أن بدأ السائق يروي قصته ـ بأنه «لابد أن يكون شخص ما قد مات». تنتقل الأخبار سريعاً في المزرعة، وكان نصف الساعة اللازم حتى يعود صاحب الحانة كافياً تماماً بالنسبة لهاليكس الذي كان جالساً على مسافة قريبة جداً يتفحّص سراً ما هو موجود حقاً خلف لصاقات الزجاجات المصفوفة على الرف، اللصاقات التي تحمل كلمة «ريزلينغ...» اسم له ارتباطات بأشياء كثيرة في نظره،

وكان الوقت كافياً أيضاً (في حضور شخص نائم وشخص آخر يكاد يغفو) لإنجاز اختبار بسرعة البرق لفرضيته التي جرّبها كثيراً: «عند خلط النبيذ بالماء فإن لون المزيج يحمل شبهاً بلون النبيذ الأصلي نفسه. شبه يحيّر المرء بسهولة... لكن مسألة مختلفة تماماً كانت في ذهنه. وفي الوقت نفسه الذي أنهى خلاله هاليكس استطلاعه هذا، ظنت السيدة هاليكس، التي كانت في طريقها إلى الحانة، أنها رأت نجماً يهوي من السماء فوق الطاحون. توقفت في مكانها متجمدة ووضعت يدها على قلبها لكنها، مهما بحثت في السماء بإصرار ودأب، تلك السماء التي بدت مثل أجراس تقرع، كانت مضطرة إلى الإقرار بأن ذلك ـ على الأرجح ـ كان لأن عينيها تلتمعان بإثارة غير متوقعة... رغم هذا، فإن عدم الثقة، أو مجرد احتمال وقوع حدث حاسم الأهمية في مواجهة هذا المنظر المروع الذي يؤذي النظر... كان ضغط ذلك عليها شديداً إلى درجة جعلتها تغير رأيها وتستدير عائدة إلى بيتها لتأخذ إنجيلها الرث من تحت كومة الملابس المكوية، ثم تنطلق بمزيد من الإحساس بالذنب على الطريق المعبدة مارة بلافتة كانت تحمل اسم المزرعة ذات يوم وتجتاز المسافة البالغة مئة وسبع خطوات، أو نحو ذلك، إلى الحانة في مواجهة الريح الشديدة في حين كان ذهنها يعمل جاهداً لاستيعاب تطورات الموقف. وحتى تكسب بعض الوقت، لأن حالتها المضطربة جعلت الكلمات تجول صاخبة في رأسها، ولأنها أرادت أن تنقل رسالة («نحن نعيش في زمن نهاية العالم!») بوضوح ساطع لا سبيل إلى مقاومته، توقفت عند باب الحانة وانتظرت بينما تأتيها عبارة وافية بالغرض، ولم تفتح الباب وتخطو مجتازة العتبة إلا بعد أن تأكدت من أنها اهتدت إلى العبارة المناسبة، إلى الكلمات الصحيحة، فصاحت لحظة دخولها، مثيرة دهشة كل من في الحانة، «يوم يُبعث الأموات» ـ كلمات كانت قوتها كافية لزيادة الأثر المسحور المدوّخ لدخولها... عبارة كافية في حد ذاتها لأن تستقطب الانتباه. ارتدّ رأس

الفلاح مذعوراً عندما سمع هذه الكلمات، وقفز السائق كمن أصابته طعنة، وأجفل صاحب الحانة فتراجع بحركة عنيفة مفاجئة جعلت رأسه يصطدم بالجدار فكاد يفقد وعيه نتيجة ذلك. سرعان ما أدركوا أن الواقفة أمامهم هي السيدة هاليكس. لم يستطع صاحب الحانة منع نفسه من الصراخ بها: «بحق الله يا سيدة هاليكس... ما مشكلتك بحق السماء؟» ثم راح يحاول إعادة تثبيت مزلاج الباب المكسور. طغى الحرج على هاليكس وحاول أن يجر زوجته التي تثرثر مستثارة إلى أقرب كرسي (لم تكن هذه المهمة سهلة: «تعالي معي بحق الله، انظري كيف يدخل المطر إلى الحانة!») محاولاً تهدئتها بأن يهز رأسه موافقاً على كل ما تقوله... كان كلامها مزيجاً من انفعال شديد وذعر باكٍ لم ينتهيا إلا عندما لاحظت السيدة هاليكس أن صاحب الحانة والسائق يتبادلان نظرات ساخرة فزعقت بهما غاضبة: «ليس هذا شيئاً مضحكاً! ليس فيه أي شيء مضحك أبداً»، وكان هاليكس في تلك اللحظة قد أفلح أخيراً في دفعها لتجلس على أحد الكراسي القريبة من كرسيه عند زاوية الطاولة. هناك انكفأت المرأة فلاذت بصمت جريح وهي تشد إنجيلها إلى صدرها وتنظر من فوق رؤوس الآخرين صوب سديم سماوي ما وقد غامت عيناها بحس الهناءة الناتج عن ثقة مستمدة من الأعلى. رأت نفسها، في عقلها، واقفة منتصبة مثل عمود، مرتفعة فوق حقل مغناطيسي من رؤوس وظهور محنية، رأت نفسها تحتل مكانة مسالمة معتدة بنفسها في تلك الحانة، حيزٌ لم تكن راغبة في تركه كأنه فتحة في تلك الحانة المغلقة، فتحة يمكن أن يخرج منها الهواء الملوث وأن تدخل منها نفحات مذهلة متجمدة سامة فتحل محله. وفي ذلك الصمت المتوتر، كان طنين الحشرات الطائرة الصوت الوحيد المسموع، إضافة إلى صوت المطر المتواصل في البعيد، وكان يوّحد الصوتين معاً صوت اصطفاق أشجار الأكاسيا المتواصل في الخارج والعمل الليلي الغريب للسوس في قوائم الطاولة وفي أقسام كثيرة

من طاولة صاحب الحانة، أصوات كان نبضها غير المنتظم يطغى على أجزاء الزمن الصغيرة ويقسم الحيز الضيق إلى أجزاء يمكن أن تستوعب كلمة أو جملة أو حركة. كانت تلك الليلة من أواخر تشرين نابضة كلها بإيقاع واحد، وكان وقعها الغريب يتردد عبر الأشجار والمطر والطين على نحو يتجاوز الكلمات والرؤى: رؤية حاضرة في الضوء الشحيح، في مرور الظلمة البطيء، في الظلال المشوّشة، في عمل العضلات المتعبة، في الصمت، في موضوعاته البشرية، في صفحة الطريق المعبدة تحت المطر، وفي شعرة تتحرك وفق إيقاع مختلف عن إيقاعات ألياف الجسد المتحللة. تقدمٌ وانحدارٌ سائران في دربَيْن متباعدتين؛ وكل تلك الآلاف من الإيقاعات التي تتردد أصداؤها، ذلك الصخب المحير لأصوات ليلية، كل أجزاء ما يبدو تياراً مشتركاً واحداً، إنها كلها محاولة لنسيان اليأس، رغم أنه من خلف الأشياء تظهر أشياء أخرى كأنها من فعل العفاريت، أشياء تتجاوز قدرة العين فتغدو غير مترابطة معاً. وهكذا، مع بقاء الباب مفتوحاً كأنما إلى الأبد، ظل ذلك القفل الذي لن ينفتح أبداً. هنالك هوة، صدعٌ عميق. وبعد أن اكتشف صاحب الحانة أن محاولة العثور على بقعة صلبة في خشب الباب المتعفن ليست إلا مضيعة للوقت والطاقة، رمى المزلاج جانباً واستعاض عنه بإسفين خشبي، لم يعد فجلس على كرسيه وهو يطلق شتيمة («تظل الفجوة فجوة»)، هكذا دمدم لنفسه آخر الأمر وهو يقر بالحقيقة، هكذا صار جسمه قادراً على مقاومة القلق المدوّم الذي سوف يستولي عليه سريعاً ـ كان يعرف هذا جيداً. كان ذلك لأن الأمر كله عبث لا طائل تحته: ما عاد يشعر برغبة مفاجئة عنيفة في الانتقام من السيدة هاليكس بقدر ما كان مأخوذاً بذلك الانحدار السريع صوب الجزع والقنوط. ألقى نظرة على الطاولات مقدّراً كمية النبيذ والبالينكا الباقية هناك ثم نهض ودفع باب غرفة المستودع ثم أغلقه من خلفه. الآن، عندما لم يعد أحد قادراً على رؤيته أطلق العنان لغضبه وراح يهز قبضته

ويكشر تكشيرات مفزعة وهو يحس إحساساً تاماً برائحة الصدأ من حوله (سنحت له مناسبات كثيرة لأن يطلق عليها اسم «رائحة الحب...» عندما اتخذت الشقيقتان هورغوس هذه الغرفة مقراً لهما) وتجري عيناه على صف من السلع التي لم تمس بعد مثلما يفعل دائماً عندما يريد التفكير في مشكلة طارئة، وراح ينظر إلى النافذة المحمية من لصوص الطريق المحتملين بقضيبين حديديين يبلغ الواحد منهما ثخانة الإصبع، إضافة إلى شبكة كثيفة من نسيج العنكبوت، ثم عادت عيناه فمرتا بأكياس الطحين وأكوام المواد الغذائية المرتفعة وصولاً إلى المكتب الصغير حيث يضع دفاتر حساباته وأوراقه وتبغه وأشياءه الشخصية الكثيرة، ثم عاد فنظر إلى النافذة الصغيرة (بعد أن أطلق ملاحظة فظة متعلقة بالخالق الذي كان يحاول تدمير حياته بهذه «العناكب القذرة»، من غير أن يشعر بأي دافع يحمله على إزالتها أو على تركها في مكانها) واستدار صوب اليمين ثم سار متخطياً كومة من القمح المسكوب على الأرض فبلغ الباب الحديدي من جديد. كان هذا كله كلاماً فارغاً: لم يكن مؤمناً بأي شكل من أشكال بعث الموتى أحياء، وكان يسعده أن يترك هذا الهراء للسيدة هاليكس المعتادة على أنواع الهراء كلها، رغم أن المرء يمكن حقاً أن يشعر بشيء من الانزعاج أو الاضطراب إذا اتضح له فجأة أن شخصاً ظنه ميتاً قد عاد حياً في حقيقة الأمر. ما كان لديه سبب يحمله على الشك في الرواية التي أكدها الطفل ابن هورغوس تأكيداً شديداً، بل إنه أخذه جانباً حتى «يستجوبه» بدقة أكبر في ما يتعلق بالتفاصيل. صحيح أنه كانت هنالك تفاصيل صغيرة حملته على الشك في الأساس الذي قامت عليه تلك القصة لأنها لم تكن «متينة كما يجب أن تكون» إلا أنه لم يفترض أن القصة نفسها كانت كاذبة. وذلك لأنه سأل نفسه عن السبب الذي يمكن أن يجعل ابن هورغورس يكذب كذبة كبيرة إلى هذا الحد! كان هو نفسه، بالطبع من أصحاب الرأي القائل إن الولد فاسد إلى أقصى الحدود لكن

أحداً لم يكن قادراً على إقناعه بأن الفتى يمكن أن يختلق قصة من هذا النوع من غير مساعدة خارجية، أو من غير تشجيع على ذلك. لكنه، في الوقت نفسه، كان واثقاً تماماً من أن الموت هو الموت... هكذا هو الأمر (كان يمكن أن يذهب أحد لرؤية الميتين في المدينة). لم يفاجئه ذلك على الإطلاق: هذا هو تماماً ما يمكن أن تتوقعه من إرمياس. ولم يكن يرى من ناحيته أن هنالك شيئًا أشد غرابة من أن يستطيع المرء تصديقه في ما يتعلق بذلك المتشرد القذر، لأن من الواضح تماماً أنه ورفيقه لم يكونا إلا زوجاً من الأوغاد الوسخين. قرر أخيراً أنه سيظل هادئاً صلباً عندما يصلان: لا بد من دفع ثمن النبيذ. فالمشكلة ليست مشكلته على المدى البعيد ـ قد يكونان شبحين بالفعل ـ لكن على كل من يريد الشرب أن يدفع ثمن ما يتناوله. فلماذا يخرج هو من ذلك خاسراً؟ لم «يشقَ ويتعب» طيلة حياته، ولم ينشئ هذا العمل هنا بالكدح الشاق حتى تأتي «حفنة من المتشردين الكسالى» لتبتلع نبيذه مجاناً. لم يكن الناس يبيعون بالدين، ولم يكن الاحتيال والتظاهر ـ ذلك النوع من الأشياء ـ من أسلوبه. لم يقتنع أصلاً بأن من المستحيل أن تكون سيارة قد صدمت إرمياس بالفعل. فلماذا؟ ألم يسمع أحد غيره بحالة موت واضحة؟ لابد أن أحداً ما قد نجح في إعادة الناس إلى هذه الحياة البائسة، فماذا يعني ذلك!؟ في رأيه، لم يكن هذا أمراً يتجاوز قدرات الطب الحديث، رغم أنه فعل طائش إلى حد كبير، إن كان الأمر كذلك حقاً. وسواء الأمر كان هكذا أو لم يكن، فإنه ما كان مهتماً به؟ ما كان ذلك النوع من الناس الذين يجرون خائفين من شخص ظنوا أنه قد مات. جلس إلى مكتبه ونفض الغبار عن دفتر حساباته، ثم راح يقلب صفحاته، ثم سحب قطعة من الورق وعقب قلم رصاص ممضوغ كثيراً وغير مبري جيداً، ثم راح يجمع محموماً الأرقام في الصفحة الأخيرة ويكتب بعض الأعداد التي لا معنى لها في حين كان يغمغم قائلاً لنفسه:

10 × 16 (ب) بسعر 4 × 4

9 × 16 (س) بسعر 4 × 4

8 × 16 (و) بسعر 4 × 4

المستحقات:	صندوقان	31.50
	ثلاثة صناديق	5.60
	خمسة صناديق	3.00

غرق تماماً في هذه الحسابات، وحدق مزهواً في عمود الأرقام المائل من اليمين إلى الشمال شاعراً، في الوقت نفسه، بكره لا نهائي تجاه العالم الذي يجعل من الممكن لأنذال قذرين أن يستهدفوا أشخاصاً مثله بأفعالهم الدنيئة؛ كان قادراً في الأحوال العادية على إخماد نوبات غضبه المفاجئة («إنه رجل طيب بطبيعته!» هكذا كانت زوجته تقول للجيران في المدينة)، وكذلك احتقاره تجاه أكبر الطموحات في حياته: كان يعرف أن عليه أن يكون مستعداً لكل شيء حتى يصبح ذلك حقيقة واقعة. كلمة واحدة أسيء تقديرها، حساب واحد متعجل فقط فيضيع كل شيء. لكن «الإنسان لا يستطيع ضبط مزاجه أحياناً»، وهذا ما يكون سبباً للمشاكل دائماً. كان صاحب الحانة سعيداً بحاله الذي كان عليه، لكنه اكتشف فجأة كيف يمكنه إرساء أسس لطموح كبير. وحتى في شبابه، بل خلال طفولته في حقيقة الأمر، كان قادراً على أن يحسب، حتى آخر قرش، المكاسب التي يمكن جنيها من الكره والقرف المحيطين به. وبعد أن اكتشف ذلك (كان هذا واضحاً)، لم يعد في مقدوره أن يرتكب الغلطة نفسها! لكنه كان، رغم ذلك، يقع فريسة نوبات عارضة من سوء المزاج، وعندما يكون في حالة من هذا النوع فإنه ينسحب إلى غرفة المستودع حتى يتمكن من التنفيس عن حنقه من غير وجود شهود لا ينبغي أن يكونوا موجودين معه. كان يدرك معنى الحذر. وحتى في أوقات كهذه، كان يظل حذراً حتى لا يسبب أي ضرر. كان يركل الجدار مثلاً أو ـ في أسوأ الأحوال ـ يحطم

صفاً من الزجاجات الفارغة على ذلك الباب الحديدي ويسمح لنفسه بأن «يعبر عن غضبه» هناك! لكنه ما كان يستطيع حقاً أن يسمح لنفسه بهذا السلوك الآن لأنهم يمكن أن يسمعوا الصوت في الحانة. وهكذا فقد لجأ إلى الأرقام مثلما فعل كثيراً من قبل. وبما أن الأرقام تملك خصيصة الوضوح الغامضة، أي تلك «البساطة الجدية» التي يقلل الناس من شأنها بكل غباء، فإن فكرة تقشعر لها الأبدان يمكن أن تنشأ من التوتر القائم بين هاتين الفكرتين، فكرة يمكن الإعلان عنها بالقول: «هنالك عدة وجهات نظر». لكن، هل توجد سلسلة من الأرقام قادرة على هزيمة هذا النحيل، رمادي الشعر، ميت المظهر، كومة القمامة التي لها وجه كوجه الحصان، كومة الخراء، الطفيلي الذي تليق به البالوعة، الذي اسمه إرمياس؟ ما الرقم الذي يمكن أن يقهر هذا الوغد الغدار بلا حدود القادم من الجحيم؟ غدار؟ لا تسبر أغواره؟ لا وجود لكلمات قادرة على وصفه! لا وجود لوصف يستطيع أن يفيه حقه. إن الكلمات غير قادرة على هذا ـ ليست المسألة مسألة كلمات. كان لا بد من القوة العارية المحض. هذا ما كان لازماً لوضع حد له! نعم، إنها القوة، وليست الثرثرة الضعيفة الكثيرة! رسم خطاً عبر ما كتبه، لكن الأرقام من خلف ذلك الخط ظلت مقروءة، ظلت دلالاتها لامعة واضحة. لم تعد المسألة بالنسبة لصاحب الحانة منحصرة الآن في كمية البيرة والمشروبات الخفيفة والنبيذ التي يجب أن تكون موجودة في الصناديق المختلفة. صار الأمر أكثر من ذلك بكثير! صارت الأرقام أكثر دلالة. لم يستطع منع نفسه من ملاحظة أن أهميته، هو نفسه، كانت في ازدياد مع زيادة أهمية تلك الأرقام. كان ينتفخ ويكبر بالتأكيد. كلما ازدادت أهمية الأرقام، كلما «ازدادت أهميتي أنا». كان إدراكه لعظمته الاستثنائية قيداً عليه خلال السنتين الماضيتين. صار رشيقاً الآن فجرى إلى المشروبات الخفيفة ليتأكد من أنه أحصاها كلها بدقة. أقلقته يده اليسرى عندما بدأت ترتجف ارتجافاً لم يستطع السيطرة عليه.

كان عليه آخر الأمر أن يواجه المسألة الكريهة، مسألة «ما العمل؟» «ماذا يريد إرمياس؟» سمع صوتاً خشناً في الزاوية جعل دمه يتجمد لحظة في عروقه لأنه ظن، زيادة على الأشياء الأخرى كلها، أن تلك العناكب الجهنمية قد تعلمت الكلام. مسح حاجبه واستند إلى أكياس الطحين ثم أشعل سيجارة. «إذن، فقد ظل يشرب مجاناً أربعة عشر يوماً ثم يتجرأ الآن على مد كأسه من جديد! إنه عائد! لكنه ليس عائداً فقط! كأنه يظن أن ذلك لم يكن كافياً. سوف أرمي هذه الخنازير الثملة خارج الحانة! سوف أنير الأضواء كلها! وسوف أغلق الباب بالمسامير! وسأضع حاجزاً أمام المدخل». صار في حالة هستيرية تماماً الآن. كان عقله يجري مندفعاً في قنواته المألوفة التي صنعها بنفسه. «دعني أرى الآن. لقد جاء إلى المزرعة قائلاً:«إن كنت في حاجة إلى المال فعليك أن تزرع البصل في كل مكان. هذا كل شيء». سألته «أي نوع من البصل؟» أجابني«البصل الأحمر».« وهكذا زرعت البصل في كل مكان. وقد نجح الأمر! ثم اشتريت الحانة من ذلك السوابي. العظَمة مكونة دائماً من أشياء بسيطة. وبعد ذلك بأربعة أيام فتحت أبواب الحانة فجاءني وتجرّأ على القول لي إنني (نعم، إنني) مدين له بكل شيء، وظل يشرب بالدين أربعة عشر يوماً حتى من غير أن يقول كلمة شكراً! والآن؟ لعله آتٍ ليستعيد كل شيء. ليأخذ مني ما هو لي! يا إلهي! ماذا سيحدث للعالم عندما يستطيع أي شخص أن يدخل ذات يوم ويطلب منك الانصراف قائلاً لك إنه السيد الآن! إلى أين تمضي هذه البلاد؟ ألم يعد هنالك شيء مقدس! أوه، لا، لا يا أصدقائي! توجد قوانين ضد هذه الأشياء!». انجلت عيناه شيئاً فشيئاً وهدأت أعصابه. وبهدوء أحصى صناديق المشروبات الخفيفة. صاح وهو يصفع جبهته: «بالطبع! تأتي المشاكل عندما تصيب المرء نوبة ذعر». أخرج السجل وفتح دفتره ورسم من جديد خطاً عبر الصفحة الأخيرة كلها، وبدأ حساباته مرة أخرى، بالقدر نفسه من الاعتزاز.

10 × 16 (س) بسعر 4 × 4

9 × 16 (ب) بسعر 4 × 4

8 × 16 (و) بسعر 4 × 4

المستحقات: 3 (ك) 31.50

صندوقان 3.00

خمسة ... 5.60

ألقى بالقلم فوق الطاولة، ثم أغلق الدفتر ووضعه في السجل، ثم وضعهما معاً في درج المكتب وفرك ركبتيه وفتح مزلاج الباب الحديدي. «دعونا نفهم الأمر بشكل واضح». كانت السيدة هاليكس الشخص الوحيد الذي لاحظ طول الوقت الذي أمضاه في تلك الغرفة المخيفة. وصارت عيناها الثاقبتان تتبعان عينيه الآن في كل لحظة. كان هاليكس مصغياً، خائفاً، إلى حكاية السائق التي يقصها بصوت مرتفع. كان قد جعل جسمه أصغر ما يمكن ودفن يديه عميقاً في جيبيه حتى يقلل مساحة المنطقة المعرَّضة للهجوم إذا ما «اقتحم أحد ما المكان علينا في هذه اللحظة». كان كافياً تماماً أن يظهر السائق في هذا الطقس الاستثنائي، أن يظهر مشعثاً مستثاراً إلى هذا الحد (لم يأت إلى المزرعة منذ الصيف الماضي)، تماماً مثلما يكون أمراً استثنائياً أن يأتي أشخاص غرباء في معاطف مهلهلة تصل إلى كواحلهم فيدخلون خلال عشاء عائلي هادئ ليعلنوا بأصوات متعبة أخباراً مقلقة مخيفة تقول إن حرباً قد اندلعت، وبعد أن يفعلوا ذلك يستندون إلى الخزانة ليفرغوا كأساً من البالينكا المصنوعة منزلياً، ثم لا يراهم أحد بعد ذلك في المنطقة كلها. فما الذي يمكن أن يستنتجه من هذا البعث المفاجئ من الموت؟ من هذا الاندفاع المحموم في دوائر مغلقة؟ لم يكن يحب كل ما يتغير من حوله: كان ذلك يزعجه. تحركت الطاولات والكراسي، وظلت آثار قوائمها الشاحبة ظاهرة على الأرض المشبعة

زيتاً؛ وكانت صناديق النبيذ عند الجدار تتحرك متخذة ترتيباً مختلفاً؛ وكان سطح طاولة البيع نظيفاً إلى حد غير طبيعي. في أوقات أخرى، كان يمكن لصحون السجائر «أن تكون مصفوفة في كومة واحدة» لأن الناس كلهم يلقون برماد السجائر على الأرض على أي حال، أما الآن... مهلاً! كانت كل طاولة مزهوة بصحن السجائر الخاص بها! لا يزال الباب مغلقاً بالإسفين الخشبي، أما أعقاب السجائر فكانت مكنوسة متجمعة في الزاوية! ما معنى هذا كله؟ هذا إذا لم نقل شيئاً عن العناكب الملعونة التي تجعل من المستحيل على المرء أن يجلس من غير الاضطرار إلى إزالة شباكها عن ثيابه... «ما الذي يهمني في آخر المطاف؟ لو أن تلك المخلوقة الأنثى ترحل إلى الجحيم...». ظل كيليمين منتظراً حتى ملأ له صاحب الحانة كأسه، ثم وقف قائلاً: «سوف أحرك وسطي قليلاً!» قال هذا ثم انثنى إلى الأمام والخلف بضع مرات وهو يطلق أنيناً مرتفعاً، وبعد ذلك أفرغ كأس البالينكا دفعة واحدة في جوفه بحركة متباهية... «صدقوني، الأمر حقيقي مثل جلوسي بينكم هنا. صار المكان شديد الهدوء على نحو مفاجئ حتى إن الكلب انسلّ خلف المدفأة من غير أن يصدر صوتاً! أما أنا فجلست هناك فاتحاً عينيّ على اتساعهما غير مصدق ما رأيته! لكنهما كانا هناك، أمامي تماماً، واضحين كالحياة نفسها... حقيقيين أكثر منها بمرتين!» قذفته السيدة هاليكس بنظرة باردة: «قل لي إذن، ألم تكن ثملاً ساعتها؟» استدار السائق صوبها غاضباً: «ثملاً، ماذا؟» تابعت السيدة هاليكس كلامها بصوت حزين: «ألم تتعلم شيئاً؟» ثم أشارت إلى كأس كيليمين وهي لا تزال حاملة الإنجيل بيدها... «أترى؟ لا تزال تشرب الخمر». قال العجوز غاضباً: «ماذا؟ أنا؟ أنا ثمل؟ ما الذي يجعلك تظنين أنك تستطيعين الكلام معي بهذه الطريقة؟» أخذ هاليكس جرعة كبيرة من كأسه ثم تدخّل معتذراً: «لا تأخذ الأمر على محمل الجد يا سيد كيليمين. يؤسفني أنها تكون هكذا دائماً». أجابه الرجل بحدة: «لا تأخذ هذا على

محمل الجد! ماذا تقصد بهذا؟ ماذا تظنني؟!» تدخّل صاحب الحانة بطريقة ودية مخلصة: «هوّن عليك! تابع من فضلك، تابع القصة. إنني مهتم بها». استدارت السيدة هاليكس صوب زوجها بانزعاج واضح: «كيف تستطيع الجلوس هنا بهذا الهدوء كأن شيئاً لم يحدث! لقد أهان الرجل الجالس هناك زوجتك! هل يمكنك أن تصدق هذا؟!» كان الازدراء الناضح من كلماتها جلياً إلى درجة جعلت الكلمات تعلق في فم كيليمين رغم أنه لم ينه كلامه بعد. «والآن... أين كنت؟» طرح هذا السؤال على صاحب الحانة ثم تمخط قبل أن يطوي منديله من جديد بعناية تامة مرتّباً ثنياته بدقة... «أوه، نعم، كيف راحت الفتيات خلف البار يطلقن ملاحظات فظة، ثم، عند ذلك...» هز هاليكس رأسه: «لا، لم تصل في الحكاية إلى هذه النقطة». خبط كيليمين كأسه على الطاولة غاضباً: «لا أستطيع المواصلة على هذا النحو!» ألقى صاحب الحانة نظرة تحذير باتجاه هاليكس ثم لوح لكيليمين بيده قائلاً: «لا حاجة إلى الانزعاج من هذا...» «لا، حقاً! لقد شبعت من ذلك!» قال هذا وهو يشير إلى هاليكس... «اذهب وخذ الحكاية منه! كأنه كان هناك! كأنه يعرفها أحسن مني». أجابه صاحب الحانة مهدئاً: «انساهما! إنهما لا يفهمان. صدقني، لا يفهمان شيئاً». رضي كيليمين بهذا وبدأ يهز رأسه. كان دفء الشراب قد بلغ عظامه، واحمر وجهه المنتفخ، بل بدا أن أنفه قد ازداد حجماً أيضاً... «إذن، كنا هناك، وكانت الفتاتان خلف البار... ظننت أن إرمياس سوف يصفعهما كما تستحقان، لكن لا! كانتا مثل هذين الجالسين هنا... أعرف من كانوا موجودين كلهم: سائق شاحنة الحطب الذي يسكن على مسافة موقفين من الغابة، ثم معلم الرياضة من المدرسة المجاورة، ونادل ليلي من المطعم، وعدد غير قليل من الأشخاص غيرهم. إذن، سأتكلم على نحو مباشر صريح... لقد أعجبت بضبط النفس لدى إرمياس... لكن عليَّ أن أكون منصفاً، عليَّ أن أكون منصفاً معه، هكذا هو الأمر، فماذا يمكن أن

يفعل بهما؟ ماذا تستطيع أن تفعل مع أشخاص من هذا النوع؟ انتظرت ريثما تناولا جرعة من الشراب الممزوج... هذا ما كانا يشربانه (نعم، أقول لك، شراب ممزوج)، وعندما جلسا إلى الطاولة ذهبت إليهما. عندما عرفني إرمياس، أقصد... أقصد أنه عانقني على الفور وقال لي: نعم يا صديقي، يسعدني أن أراك هنا. ثم أشار لفتاتَي البار فجاءتا تتقافزان كأنهما صرصوران أو شيء من هذا القبيل... رغم أن تلك الحانة لم تكن توفر خدمة الطاولات، ثم طلب لي جولة من الشراب على الفور». سأله صاحب الحانة مدهوشاً: «جولة من الشراب...»؛ أجابه كيليمين مؤكداً: «نعم، جولة! لماذا تجد هذا شديد الغرابة؟ رأيت أنه لم يكن راغباً في الكلام فتكلمت مع بيترينا. لقد أخبرني بكل شيء». انحنت السيدة هاليكس إلى الأمام حتى لا تفوتها هذه الفرصة. قالت بصوت جاف: «أوه، نعم، كل شيء. إنه بالضبط من ذلك النوع من الناس الذين يقولون كل شيء». وقبل أن يتمكن السائق من الاستدارة حتى يواجه الساحرة العجوز، انحنى صاحب الحانة فوق طاولته واضعاً يده على كتفه: «قلت لك ألا تهتم بها. قلت لي إن إرمياس كان...» ضبط كيليمين أعصابه ولم يأت بأي حركة: «كان إرمياس يهز رأسه من حين لآخر. لم يقل شيئاً كثيراً. كان يفكر في شيء ما». ابتلع صاحب الحانة ريقه: «تقول إنه كان... يفكر... في شيء ما؟...». «نعم، هكذا تماماً. وفي آخر الأمر قال ببساطة: «حان وقت الذهاب. سوف نلتقي من جديد يا كيليمين'. ثم غادرت المكان أنا أيضاً بعد ذلك بوقت قصير لأن الأمر كان مستحيلاً: لا أستطيع البقاء هذا الوقت كله مع هذه الصحبة الرديئة، وكان لدي أيضاً عمل مع هوكان القصاب في كيسرومانفاروس. كان الظلام قد حل عندما انطلقت عائداً إلى البيت لكنني صادفت شخصاً عند ذلك. صادفت هناك ابن توت الأصغر الذي كان جاراً لي في مزرعة بوسيبليك. هو من أخبرني أن إرمياس، هكذا قال، أمضى فترة بعد الظهر جالساً مع تاجر السلاح

شتيغروالد الذي أصابه الإفلاس، وقال إنهما كانا يتحدثان عن نوع من أنواع الذخائر، هكذا على الأقل ما أخبره به أطفال شتيغروالد في الشارع. وهكذا انطلقت إلى البيت. وقبل أن أصل إلى المفترق عند إيليك ـ ألا تعرف بيت آل فيكيت؟ ـ ولست أعرف أنا نفسي ما الذي جعلني أنظر أنا إلى الخلف. عرفت على الفور أن الشخصين اللذين رأيتهما لا يمكن أن يكونا أحداً غيرهما رغم أنهما كانا على مسافة بعيدة مني. تابعت السير قليلاً لكني لم أبتعد إلى الحد الذي يجعل مفترق الطرق يغيب عن عيني، وقد كان الأمر صحيحاً، لم تكن عيناي تخدعانني أبداً... كانا هما فعلاً. لقد استدارا ماضيين في الطريق الصحيح من غير لحظة تردد واحدة. عندها، بعد أن وصلت إلى البيت، أدركت وجهتهما، من أجل ماذا، ولماذا». مال صاحب الحانة إلى الأمام راضياً وظل ينظر إلى كيليمين بعين الشك: حزر أن ما سمعه لم يكن إلا جزءاً، جزءاً صغيراً جداً مما حدث بالفعل، وأدرك أن هذا الجزء الصغير الذي سمعه كان مختلقاً على الأرجح. كان احترامه لكيليمين كافياً لجعله يدرك أن الرجل، على الأرجح، يوفر الجزء الأفضل إلى وقت لاحق، أي إلى وقت يكون له أثر أكبر بكثير. ثم إنه كان يناقش الأمر على النحو التالي: لا يقول لك أحد كل شيء مباشرة؛ وهذا يعني أنه لم يكن يصدق أحداً أبداً، وبالتأكيد لم يكن يصدق السائق الآن، ولا كلمة واحدة، رغم اهتمامه الكبير بكل ما سمعه. كان واثقاً من أن هذا الرجل غير قادر على قول الحقيقة كلها بطريقة مباشرة حتى إذا أراد ذلك، وهذا ما كان يجعله غير مهتم كثيراً بالرواية الأولى للأحداث فقد كان يكتفي بتسجيل الحقيقة التالية لنفسه «ربما يكون قد حدث شيء». وأما ما حدث بالضبط فلا يمكن تقريره إلا بجهد مشترك كبير، وبسماع كل نسخة من نسخ القصة نفسها، نسخ أحدث فأحدث، من غير أن يفعل شيئاً غير الانتظار... انتظار أن تركّب الحقيقة نفسها بنفسها، مثلما يمكن أن يحدث في أي لحظة عند النقطة التي تتضح فيها تفاصيل

جديدة، رغم أن ذلك يشتمل على جهد يفوق طاقة البشر من أجل التركيز لتذكّر ترتيب الظهور الفعلي للأحداث المكوِّنة للقصة، واحداً بعد واحد. سأل مبتسماً: في أي طريق ذهبا؟ أين، ولماذا؟» أتته الإجابة: «هنالك الكثير مما يجب التفكير فيه، ألا ترى هذا؟» أجاب صاحب الحانة ببرود: «هذا ممكن». اقترب هاليكس من زوجته أكثر من ذي قبل («يا للأشياء الفظيعة التي يسمعها المرء، يا إلهي! يكفي هذا لجعل شعر الرجل يقف منتصباً...») التي حركت رأسها ببطء لتنظر إلى الجلد المترهل على وجه زوجها، وإلى عينيه الرماديتين الحسيرتين وحاجبه المنخفض الناتئ. عندما نظرت إليه عن قرب ذكّرها جلده المتهدل بتلك المسالخ المخيفة حيث يضعون شرائح لحم البقر والخنازير مطوية واحدة فوق الأخرى، وذكّرتها عيناه الرماديتان الحسيرتان بماء تغطيه بيوض الضفادع في الآبار الريفية في بيوت مهجورة منذ زمن بعيد، وذكّرها حاجبه المنخفض البارز «بحواجب القتلة الذين يرى المرء صورهم في الصحف الوطنية ولا يستطيع نسيانها». هكذا، ومهما بلغ ما قد يكون لديها من إحساس بالرفقة مع هاليكس، فقد غادرها هذا الإحساس على الفور ليحل محله شعور آخر (لا يكاد يكون مقبولاً) يمكن التعبير عن محتواه بعبارة صغيرة واحدة «يا لطف الله!» أبعدت عنها ذلك الإحساس المزعج بواجبها في أن تحب زوجها، «لأن الكلب لديه شرف أكثر منه»، لكن ماذا بعد؟ لابد أن الأمر مكتوب في كتاب القدر رغم كل شيء. ولعل هنالك زاوية هادئة في الجنة معدة من أجلها، لكن ماذا عن هاليكس؟ ماذا يمكن لروحه الخاطئة الفظة أن تتوقع؟ كانت السيدة هاليكس مؤمنة بالعناية الإلهية، وقد علّقت أملها على قوى المطهر. لوحت بالإنجيل قائلة له بعنف: «سيكون من الأفضل لك أن تقرأ قبل أن ينفد الوقت ... طالما أن لديك وقتًا متاحًا للقراءة». «أنا؟ أنت تعرفين أنني لا...». قاطعته السيدة هاليكس: «أنت! نعم، أنت! على الأقل، لن تكون هكذا غير مستعد إطلاقاً عندما تأتي نهاية الزمان».

لم تحرك هذه الكلمات الخطيرة شيئاً في هاليكس لكنه، رغم هذا، تناول الكتاب منها بتكشيرة مرة لأن «المرء يمكنه هكذا أن ينعم بشيء من السلام». وعندما شعر بثقل الكتاب بين يديه أومأ برأسه ثم فتح الصفحة الأولى. لكن السيدة هاليكس اختطفت الكتاب من بين يديه صائحة: «لا! ليس في سفر التكوين أيها الأحمق!» ثم مضت بحركة خبيرة إلى سفر الرؤيا. وجد هاليكس الجملة الأولى صعبة بعض الشيء، لكنه لم يهدر الوقت في محاولة فهمها، لأن التظاهر بالقراءة كان كافياً تماماً بعد أن خف تركيز انتباه السيدة هاليكس عليه. ومع أن الكلمات لم تفلح في شق طريقها وصولاً إلى دماغه، فإن رائحة الصفحات كان لها أثر مريح في نفسه، وصار هاليكس قادرًا على الاستماع بأذن واحدة إلى الحديث الدائر بين كيريكس وصاحب الحانة، وبين السائق وصاحب الحانة أيضاً («ألا يزال المطر مستمراً؟» «نعم»، و«ماذا به؟» «إنه ثمل كأنه سمندل») لأنه بدأ يستعيد تدريجياً إحساسه بالاتجاهات وصارت لديه فكرة عن المسافة الفاصلة بينه وبين طاولة البيع، إضافة إلى ذلك الجفاف في حلقه وإلى أمان الالتجاء هنا في عالم الحانة هذا بعد أن تبخر الذعر الذي أثاره طيف إرمياس. أحس على الفور أنه أفضل حالاً لأنه كان قادراً على الجلوس هنا وقضاء وقته «بين أشخاص آخرين» مطمئناً إلى معرفته بأن إصابته بالأذى تصبح أقل احتمالاً عندما يكون مع الآخرين. «سوف أحصل على نبيذي هذه الليلة. ولست أبالي بالآخرين». وعندما رأى السيدة شميدت عند الباب سرت في عموده الفقري الرخو رعدة من «أمل شقي واهن». «من يدري؟ عندما يقال كل شيء وينجز كل شيء يمكن حتى أن أحصل على نقودي». لكن نظرات السيدة هاليكس الحادة المسلطة عليه لم تفسح له وقتًا طويلاً للحلم، فأغمض عينيه وأعاد الكتاب مثل تلميذ مدرسة يواجه امتحاناً فيصير موزعاً بين نظرة أستاذه غير المتساهلة من جهة وإغراء الصيف الحار خارج غرفة الصف من جهة أخرى. كانت السيدة شميدت

تجسيداً للصيف في عين هاليكس، صيف لا يمكن أبداً أن يكون خارج متناول شخص اعتاد «أطلال الخريف وشتاء من غير رغبات» فقط ثم ربيعاً مفعماً بالنشاط لكنه محبط في آخر الأمر. قفز صاحب الحانة واقفاً على قدميه مبتسماً ابتسامة واهية «أوه، السيدة شميدت!» وبينما كان كيليمين يتهادى هنا وهناك باحثاً على الأرض عن إسفين الباب حتى يظل الباب مغلقاً، قاد صاحب الحانة المرأة إلى الطاولة التي يحب العمل عليها ثم انتظرها إلى أن جلست وانحنى مقترباً من أذنها حتى يستطيع أن يشم رائحة الكولونيا القوية الخشنة المنبعثة من شعرها، تلك الرائحة التي غطت تقريباً على الرائحة اللاذعة لمواد التجميل الأخرى. لم يكن يعرف ما يفضله حقاً: عبير عيد الفصح أم تلك الرائحة المثيرة التي تقود الرجل عندما يأتي الربيع إلى بؤرة الرغبة (مثلما تفعل بالثور في الحقول). لم يستطع هاليكس حتى أن يبدأ في تخيل ما حدث لزوجها... «ما هذا الطقس الفظيع؟ ماذا أجلب لك؟» أزاحت السيدة شميدت صاحب الحانة جانباً مستخدمة «مرفقها اللذيذ، الذي يمكن أكله عملياً» ثم نظرت من حولها. قال صاحب الحانة مصراً، واثقاً، والابتسامة لا تفارق وجهه: «بالينكا بالكرز؟» أجابته السيدة شميدت: «لا! لا بأس، ربما قطرة واحدة» كانت السيدة هاليكس تتابع كل حركة من حركات صاحب الحانة وعيناها تتقدان كرهاً، وشفتاها ترتجفان، ووجهها يضطرم ناراً؛ كان الغضب في جسدها كله يخفت حيناً ويعلو حيناً، يحركه ذلك الإحساس الذي لا يقاوم بالظلم تجاه شيء يخصها هي، ولم تستطع الآن أن تقرر ما تفعله... أتمضي خارجة من «جحر الرذيلة الملعون هذا» أم تصفع صاحب الحانة الخنزير الفاسق جزاء محاولته إغواء مخلوقات بريئة وإيقاعها في شباكه الشريرة مستخدماً مكره لجعل الروح البريئة ثملة. كانت تفضل كثيراً أن تهرع للدفاع عن السيدة شميدت («سوف أجلسها في حضني وأكون لطيفة معها...») حتى لا تظل معرّضة لمحاولات صاحب الحانة «أن

يفرض نفسه عليها» لكنها لم تجد شيئاً تفعله. كانت تعرف أن عليها ألا تكشف عن مشاعرها لأن من الممكن أن يساء فهم ذلك (ألم يكونوا دائماً يهمسون بهذا الشيء تحديداً من وراء ظهرها) لكنها خشيت أن تقع الفتاة المسكينة فريسة إغواء هذه الألاعيب وخافت مما سوف يكون في انتظارها في النهاية. ظلت جالسة هناك والدموع تنبع من عينيها وجسدها منهك... صار وزن العالم كله ثقلاً فوق كتفيها. قال صاحب الحانة بلباقة لا تقاوم: «وهل سمعت؟» وضع كأس البالينكا أمام السيدة شميدت وحاول، قدر ما استطاع، ابتلاع كرشه. زعقت السيدة هاليكس من زاويتها: «لقد سمعت؟ لقد سمعت بالفعل؟» جلس صاحب الحانة في مكانه بشفتين مشدودتين وعلى وجهه تعبير وقور. أما السيدة شميدت فرفعت كأسها إلى فمها بأناقة مستخدمة إصبعين فقط (كأنها تأملت المسألة ملياً) وأفرغتها في فمها ثم ابتلعت الشراب دفعة واحدة مثلما يفعل الرجال. «وهل أنتم كلكم واثقون من أنهما هما فعلاً؟» أجابها صاحب الحانة: «واثقون تماماً! لا مجال للخطأ». ملأت الإثارة كيان السيدة شميدت كله؛ تنمّل جلدها كله، ودومت في رأسها نتف كثيرة من أفكار فوضوية، فأمسكت بحافة الطاولة بيدها اليسرى حتى لا تفضح موجة السعادة الكبيرة هذه. لا يزال عليها أن تخرج أشياءها من الصندوق العسكري الضخم، وأن تفكر في ما سوف تحتاجه وما لن تحتاجه إذا كانوا سينطلقون صباح الغد ـ أو ربما في هذه الليلة نفسها ـ لأنها لم تكن تشك أبداً في أن الزيارة غير المعتادة (غير المعتادة؟ بل :لزيارة الرائعة!) لإرمياس لم تكن مجرد مصادفة (قالت في نفسها باعتزاز: «هكذا هو طبعه دائماً!»). كانت تذكر كلماته حرفاً بحرف... لكن، هل يمكن نسيان تلك الكلمات؟ ثم يأتي هذا كله الآن، في آخر ساعة ممكنة! كانت الأشهر القليلة الماضية، منذ اللحظة الرهيبة التي سمعت فيها خبر وفاته، قد دمرت إيمانها تماماً: تخلت عن كل أمل، وهجرت خططها الحبيبة كلها، ووطنت نفسها على

نوع من أمل الهروب الذي كان بدافع الفقر (وكان منافياً للعقل أيضاً)، فقط حتى تكون بعيدة عن هذا المكان. آه، أيها الناس الحمقى ضعيفو الإيمان! ألم تكن تعرف دائماً أن هذا الوجود البائس مدين لها بشيء ما؟ هنالك، بعد كل حساب، شيء تنتظره، شيء تأمل حدوثه. الآن على الأقل، ستكون نهاية معاناتها، نهاية عذابها! كم حلمت بهذا، وكم تخيّلته؟ وها هو يحدث الآن. هنا! أعظم لحظة في حياتها كلها! شعّت عيناها بغضاً وشيئاً يشبه الازدراء عندما نظرت إلى الوجوه الظليلة من حولها. أما في داخلها، فكانت تكاد تنفجّر فرحاً. «إنني ذاهبة! موتوا جميعاً... موتوا كما أنتم. أرجو أن تصيبكم صاعقة. لماذا لا تموتون كلكم؟ موتوا الآن!» امتلأ رأسها فجأة بخطط كبيرة غير محددة (لكنها كبيرة بالتأكيد) رأت أضواءً، وصفوفاً من المتاجر المنارة صادحة بأحدث الألحان، وسبحت أمام عينيها ملابس داخلية غالية الثمن، وجوارب، وقبعات («قبعات!»)؛ رأت الفراء الناعم ذا الملمس البارد، وفنادق لامعة الإنارة، ووجبات فطور وفيرة، ورحلات تسوّق كبيرة، وليالي... الليالي، ترقص... أغمضت عينيها لعلها تستطيع سماع تلك الضوضاء، سماع تلك الجلبة، سماع ذلك الصخب الفَرِح من غير حدود. وتحت أجفانها المسدلة تراءى لها حلم طفولتها الذي حفظته بكل غيرة وحرص، حلم أجبر على المنفى (حلم عاشته مئة مرة، بل ألف مرة، حلم «شاي بعد الظهر في الصالون...») لكن قلبها الخافق بضراوة كان في الوقت عينه مثقلاً بذلك القنوط نفسه تجاه المباهج التي فاتتها ـ تلك المباهج الكثيرة كلها! كيف يمكنها الآن ـ في هذه المرحلة من حياتها ـ أن تتلاءم مع ظروف حياة جديدة تماماً؟ ماذا تفعل في «الحياة الحقيقية» التي توشك أن تقتحم عالمها؟ لا تزال قادرة على استخدام الشوكة والسكين عندما تأكل، لكن كيف ستتعامل مع تلك الآلاف من مواد التجميل والدهونات والبودرة والعطور؟ كيف تكون استجابتها «عندما يحييها معارفها»؟ كيف تتلقى إطراء؟ كيف تختار

ملابسها، وكيف ترتديها؟ وإذا كان لديهما سيارة أيضاً ـ لا سمح الله ـ فماذا تفعل؟ قررت أن تتبع غريزتها وأن تبقي عينيها مفتوحتين. إذا كانت قد استطاعت احتمال العيش مع رجل بغيض منفر مثل شميدت الغبي ذي الوجه الذي يشبه الشمندر، فلماذا تقلق من مخاطر الحياة مع شخص مثل إرمياس؟! هنالك رجل واحد تعرفه ـ إرمياس ـ قادر على أن يفتنها ويثيرها بهذا العمق، في السرير وفي الحياة معاً؛ إرمياس الذي تملك إصبعه الصغيرة فضائل أكثر مما يملكه رجال العالم جميعاً، إرمياس الذي تفوق قيمة وعده الذهب كله... رجال؟!... أين الرجال هنا، إلا هو؟ شميدت برائحة قدميه الكريهة؟ فوتاكي بساقه المعطوبة وبنطلونه المبلل؟ صاحب الحانة ـ هذا الشيء الموجود هنا بكرشه الضخم وأسنانه العفنة وأنفاسه الكريهة؟ كانت تعرف «كل فراش قذر في المنطقة» لكنها لم تصادف أبداً أي رجل تستطيع مقارنته بإرمياس... قبل أن تعرفه وبعد أن عرفته. «الوجوه البائسة لهؤلاء البائسين! ماذا يفعلون هنا؟ النتانة الطاغية غير المحتملة نفسها في كل مكان، حتى في الجدران. كيف صرت هنا؟ في هذا المستنقع النتن؟ ما هذه المزبلة؟ ما هذه الزمرة من الحيوانات القذرة؟» تنهد هاليكس قائلاً في نفسه: «آه، طيب، ماذا تستطيع أن تفعل إذا كان ابن العاهرة شميدت محظوظاً إلى هذا الحد». حدق بشهوة في كتفي المرأة العريضتين، وفي فخذيها الضخمتين وشعرها الأسود المربوط، وفي صدرها الكبير الجميل اللذيذ حتى تحت معطفها السميك... فكيف إذا رآه في الخيال... (ينهض ليقدم لها كأساً من البالينكا. ثم ماذا؟ عندها، سيبدآن الحديث، وسوف يطلب منها الزواج. تقول له: لكنك متزوج! فيجيبها: لا مشكلة في هذا). وضع صاحب الحانة كأساً أخرى من البالينكا أمام السيدة شميدت، وبينما كانت تشربها برشفات صغيرة كان اللعاب يملأ فمها. اقشعرّ جلد السيدة هاليكس. لا مجال للشك بعد الآن في أن صاحب الحانة قد قدم لها كأساً أخرى من

البالينكا رغم أنها لم تطلبها، ولا مجال للشك في أنها قد شربت الكأس. «إنهما عاشقان الآن». أغمضت عينيها حتى لا يرى أحد غيرها ما شعرت به. سرى الغضب والقنوط في عمودها الفقري، اخترقاها من رأسها حتى قدميها. لم تعد مسيطرة على نفسها الآن. أحست بأنها واقعة في فخ لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً إزاءهما؛ فالمسألة غير مقتصرة على أنهما «يتبادلان الحديث»، بل إنها تجد نفسها الآن جالسة هنا عاجزة وهما ماضيان في غرامياتهما الخبيثة. لكن نوراً عظيماً لمع فجأة فأضاء ظلمتها المخيفة ـ كانت قادرة على أن تقسم على أنه شعاع من نور وجهته السماء إليها مباشرة ـ فصرخت في داخلها «إنني خاطئة!» أطبقت كفها على إنجيلها مذعورة وراحت شفتاها تتحركان بصمت، تصرخان في داخلها، بدأت بشكل غريزي تنشد ترنيمة «أبانا الذي في السموات». صاح السائق: «مع حلول الصباح؟ لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة، السابعة والنصف على أكبر تقدير، عندما التقيتهما عند مفترق الطرق و، لا بأس... لقد اجتزت المسافة إلى هنا خلال، لنقل مثلاً، خلال ثلاث أو أربع ساعات رغم أن الحصانين كانا مجبرين غالباً على إبطاء سيرهما في ذلك الطين حتى يصيرا بسرعة الرجل الماشي على قدميه؛ وهذا يعني بالنسبة إليهما أن أربع أو خمس ساعات قد تكون كافية للوصول!» رفع صاحب الحانة إصبعه قائلاً: «لن يصلا قبل الصباح، انتظر لترى. إن الطريق مليئة بالحفر والبرك! الطريق القديمة تفضي إلى هذه الحانة مباشرة بطبيعة الحال، إنها مستقيمة كالسهم، لكنهما سيضطران إلى سلوك الطريق المعبدة. والطريق المعبدة تلتف مسافة كبيرة قبل الوصول إلى هنا، كأنك تدور حول حافة المحيط. لا تحاول مجادلتي فأنا من سكان هذه المنطقة». صار كيليمين الآن عاجزاً تقريباً عن إبقاء عينيه مفتوحتين فاكتفى بأن لوح بيده ووضع رأسه على الطاولة، ثم غرق في النوم بعد وقت قصير. وفي مؤخرة الغرفة، رفع كيريكس ببطء رأسه الحليق المرعب الذي غطته ندوب ناتجة عن

إصابات قديمة؛ كانت أحلامه قد جعلته يبقى مسمراً إلى طاولة البلياردو. أصغى إلى المطر المنهمر بضع دقائق، ثم دلك فخذيه الخدرتين وارتعد لإحساسه بالبرد، ثم استدار مخاطباً صاحب الحانة: «يا صاحب المؤخرة الغبية! لماذا لا تعمل تلك المدفأة العاهرة؟!» كان لهذه البذاءة أثر أكيد... قالت السيدة هاليكس: «إنه محق! سيكون لطيفاً أن نحظى ببعض الدفء». فقد صاحب الحانة أعصابه: «قل لي بشرفك، بماذا تهرف؟ ماذا؟ ليست هذه غرفة انتظار، إنها حانة». هاجمه كيريكس قائلاً: «إذا لم يصبح الجو دافئاً هنا خلال عشر دقائق فسوف أكسر عنقك». تراجع صاحب الحانة: «لا بأس! لا بأس! لماذا الصياح؟» ثم التفت إلى السيدة شميدت مبتسماً لها ابتسامة مصطنعة. «كم الساعة الآن؟» نظر صاحب الحانة إلى ساعته: «الحادية عشرة، الثانية عشرة، لا أكثر، سنعرف عندما يصل الآخرون». سأل كيريكس: «من هم الآخرون؟» «مجرد كلام». مال الفلاح على طاولة البلياردو ثم تثاءب ومد يده إلى كأسه. سأل بصوت خال من أي تعبير: «من أخذ نبيذي؟» «لقد دلقته أنت». «إنك كاذب يا صاحب المؤخرة الغبية». فتح صاحب الحانة كفيه قائلاً: «لا، حقاً، إنه أنت». «إذن، اجلب لي كأساً أخرى». انتشر الدخان بطيئاً وخيّم فوق الطاولات وسمعوا صوت عواء من بعيد ـ يظهر تارة ويختفي تارة أخرى ـ تشممت السيدة شميدت الهواء، ثم سألت مجفلة: «ما هذه الرائحة؟ لم تكن موجودة من قبل». أجاب صاحب الحانة بنبرة مداهنة: «إنها العناكب فقط. أو لعلها رائحة الوقود»، ثم ركع عند المدفأة ليشعلها. هزت السيدة شميدت رأسها. دست أنفها في معطفها وتشممته من الداخل والخارج، ثم شمت الكرسي، ثم هبطت على ركبتيها ماضية في استطلاعها. كان وجهها ملاصقاً للأرض تقريباً عندما انتصبت واقفة على نحو مفاجئ وقالت: «الرائحة منبعثة من الأرض».

5. الكشف

لم يكن الأمر سهلاً! في ذلك الوقت، اقتضاها الأمر يومين حتى عرفت أين تضع قدميها، وإلى أي شيء تستند، وكيف تدفع بنفسها عبر ما بدا ثقباً ضيقاً مستحيل العبور تركته بضع قرميدات مفقودة فانفتح تحت حافة السقف في الناحية الخلفية من البيت؛ أما الآن فإن ذلك لم يعد، بطبيعة الحال، يحتاج إلى أكثر من نصف دقيقة، كما صارت المخاطرة مقبولة شريطة اختيار اللحظة المناسبة للقفز من فوق كومة الحطب المغطاة بمشمع أسود، والإمساك بالمزراب، ووضع قدمها اليسرى في الفجوة، ثم زلقها جانباً، ثم الدخول في ذلك الثقب الضيق، رأسها في المقدمة، مع الدفع بقدمها الحرة، فتصبح داخل سقيفة الحَمام القديمة في عِلّيّة البيت، في ذلك الحيز الوحيد حيث لا يعرف أحد أسرارها ولا تكون مضطرة إلى أن تخاف هجمات أشقائها الكبار المفاجئة غير المفهومة، رغم أن عليها أن تظل حذرة حتى لا توقظ شكوك أمها وأختها الكبرى نتيجة غيابها الطويل، لأنهما، إذا ما اكتشفتا سرها، سوف تمنعانها على الفور من الصعود إلى العليّة فتصبح كل مساعيها عقيمة بعد ذلك. لكن، ما أهمية ذلك كله الآن؟ خلعت سترتها المبللة، ثم أصلحت من وضع قميصها الورديّ المفضل ذي الياقة البيضاء وجلست عند «النافذة» حيث أغمضت عينيها وارتجفت، جاهزة للقفز من مكانها، وهي تصغي إلى هدير المطر فوق قرميد السقف. في البيت، كانت أمها نائمة في مكان ما

في الأسفل، ولم تعد شقيقتاها بعد رغم أن وقت الشاي قد حل، وهذا ما جعلها عملياً واثقة من أن أحداً لن يبحث عنها خلال فترة بعد الظهر، باستثناء محتمل وحيد هو شقيقها ساني الذي لم يكن أحد يعرف أين يجده مما جعل ظهوره في كل مرة أمراً مفاجئاً غير متوقع... كأنه كان يبحث عن حلّ لمشكلة المزرعة التي طال تجاهلها بعض الشيء، عن السر الذي لا يمكن اكتشافه إلا بهجمة مفاجئة من غير سابق إنذار. والحقيقة أنها لم يكن لديها سبب يدعوها للخوف لأن أحداً لم يكن ليبحث عنها أبداً؛ بل على العكس، كانوا يقولون لها بحزم أن تظل بعيدة، وخاصة (هكذا كان الوضع غالباً) عند وجود ضيف في البيت. لقد وجدت نفسها في هذا المكان الذي لا يخص أحداً لأنها لم تكن قادرة على إطاعة الأوامر؛ كما لم يكن مسموحاً لها أن تكون في أي مكان بالقرب من البيت، ولا بالتجول بعيداً عن البيت أيضاً، ولأنها تعرف أن من الممكن أن يتم استدعاؤها في أي وقت («اذهبي واجلبي زجاجة نبيذ. اذهبي سريعاً!» أو «أحضري لي ثلاث علب من السجائر يا فتاتي، من نوع كوثوس، لن تنسي هذا، أليس كذلك»)، وإذا أخفقت، ولو مرة واحدة، في مهمة من هذه المهمات فلن يسمحوا لها بدخول البيت بعد ذلك أبداً. لم يبق لها شيء غير ذلك: وضعتها أمها لتعمل في المطبخ، عندما أرسلوها إلى البيت من مدرسة أصحاب الاحتياجات الخاصة «بموجب اتفاق متبادل»، لكن خوفها من سخطهم جعلها غير قادرة على إنجاز أبسط المهمات على الإطلاق ـ عندما تتكسر الصحون على الأرض، أو عندما يتكسر طلاء القدر، أو عندما تظل شباك العنكبوت في الزاوية، أو عندما يصبح الحساء عديم الطعم، أو يصبح طبيخ الفلفل الأخضر شديد الملوحة ـ وهكذا لم يبق غير طردها من المطبخ أيضاً. ومنذ ذلك الوقت، صارت أيامها مشبعة بقلق دائم فصارت تختبئ خلف الاسطبل أو تختبئ أحياناً في آخر البيت تحت الإفريز لأنها تستطيع من ذلك الموقع مراقبة باب المطبخ حتى

تحضر حالاً إذا نادوها، رغم أنهم لا يستطيعون رؤيتها في ذلك المخبأ. وسرعان ما كان لاضطرارها إلى هذه اليقظة الدائمة أثر على مشاعرها وانفعالاتها: اقتصر انتباهها، على نحو حصري تقريباً، على باب المطبخ وحده، وصارت تدقق في تفاصيله بحدة مواظبة تكاد تبلغ مرحلة الألم الحاد، كان كل تفصيل من تفاصيل ذلك الباب ينطبع فيها على الفور، واللوحتان الزجاجيتان القذرتان فوقه اللتان تستطيع عبرهما أن ترى لمحات من الستائر المخرَّمة المثبتة هناك بالدبابيس ومن تحتها رشاش من طين جاف، وكذلك اتجاه مقبض الباب المنحني صوب الأرض؛ وبكلمات أخرى، كان ذلك كله شبكة مخيفة من الأشكال والألوان والخطوط؛ ثم إن حالة الباب نفسها كانت تتغير دائماً تبعاً لإحساسها المتقطع بالزمن، ذلك الزمن الذي تحضر فيه الأخطار المحتملة عند كل لحظة. عندما تصل أي فترة من فترات السكون إلى نهاية مفاجئة، يتحرك معها كل شيء من حولها: تتحرك جدران المنزل، وكذلك يفعل قوس حافة السقف المعوجّ، ويتغير موضع النافذة، وتنزاح الحظيرة وحوض الزهور المهمل مارّين بها من اليسار إلى اليمين، ثم تتحرك الأرض من تحتها وتحس بأنها صارت واقفة أمام أمها أو أختها الكبرى التي تظهر أمامها فجأة من غير أن تستطيع رؤية الباب المفتوح. كانت اللحظة القصيرة التي تقتضيها رفّة عينها كافية لها حتى تدرك وجودهما، لم تكن تحتاج أكثر من هذا لأن هيئة أمها وهيئة أختها كانتا مطبوعتين دائماً في ذلك المشهد الماثل أمامها في الهواء الخافق. كانت قادرة على الإحساس بوجودهما من غير أن تراهما، وكانت تعرف أنهما موجودتان هناك وأنها تواجههما. تماماً مثلما تعرف أنهما تعلوان فوقها كثيراً إلى درجة أنها إذا رفعت رأسها ونظرت ورأتهما، فإن صورتهما يمكن أن تتحطم فوراً لأن هذا الحق الذي لا تستطيع احتماله، حقهما في أن تعلوان فوقها، كان أمراً لا نقاش فيه إلى حد يمكن أن تجعل رؤيتها لهما كافية لتفجيرهما. كان

طنين الصمت ممتداً حتى الباب الساكن فقط، وأما بعده فكانت تجد صعوبة في التميز بين الأوامر الغاضبة من أمها وأختها («أنت كافية لإصابة أي شخص بنوبة قلبية! لماذا تمضين مسرعة هنا وهناك على هذا النحو؟ لا عمل لك هنا! هيا، اخرجي والعبي في مكان ما!») وبين الضجيج الساحق الذي يخبو سريعاً عندما تجري لتختبئ خلف الحظيرة أو تحت الإفريز. وهكذا يمكن أن يطغى ارتياحها على ذعرها، الذعر الذي لم تتخلص منه في يوم من الأيام لأنه يمكن أن يبدأ من جديد في أي وقت. لم تكن تلعب أبداً، بالطبع، لا لأن ليس لديها دمية أو قصة تقرأها أو كرة زجاجية يمكنها بها أن تتظاهر بأنها تلعب لعبة من الألعاب (إذا ظهر أي شخص غريب في فناء البيت فرآها، أو إذا نظر الناس الذين في البيت من النافذة لتفقدها)، لكنها لم تكن تجرؤ على اللعب لأن حالة اليقظة الدائمة منعتها وقتاً طويلاً، صار وقتاً طويلاً الآن، من الانغماس في أي نوع من الألعاب. لم يكن هذا لمجرد أن أمزجة أشقائها المتغيرة سريعاً كانت هي ما يحدد الأشياء المتاحة للعبها (أمزجة تقرر من غير رحمة الأشياء التي تستطيع الاحتفاظ بها وتقرر مدة احتفاظها بها أيضاً) لكن لأن الألعاب التي كان مُنتَظراً منها أن تلعبها، أي الألعاب التي يمكن أن تلعبها كنوع من الدفاع عن نفسها حتى ترضي توقعات أمها وشقيقتها في ما يتعلق «بنوع الألعاب التي يجب أن تلعبها» بحيث لا تكونان مضطرتين إلى احتمال العار اليومي الناجم عنها («إذا تركناها على هواها!») «تسترق النظر إلينا، كأنها شيء مقيت يراقب كل ما نفعله». أما هنا، فقط هنا، في سقيفة الحمام غير المستخدمة هذه، فقد كانت تشعر بالأمان حقاً: ليس عليها أن تلعب هنا، ولا وجود لباب «يمكن أن يأتي أحد منه» (كان والدها قد أغلق الباب بالمسامير كخطوة أولى من مشروع ما لم يعرف طريقه إلى التنفيذ، مشروع في الماضي الغامض البعيد)، ولا نافذة «يمكن أن ينظر الناس منها» لأنها ألصقت صورتين ملونتين أخذتهما من المجلات

فسدّت بهما بيوت الحَمّام حتى يصير لديها «منظر لطيف»؛ كان في إحدى الصورتين شاطئ بحري مع شمس غاربة، وكانت الأخرى صورة قمة جبل يكسوها الثلج مع غزال في مقدمتها. لكن كل شيء انتهى الآن، بالطبع، انتهى إلى الأبد. اندفع تيار هوائي عبر الفراغ الذي كان يحتله باب العلية الأرضي القديم: ارتجفت. تحسست سترتها لكنها لم تكن جافة بعد فأخرجت واحداً من أكبر كنوزها، قطعة من قماش ستارة أبيض مخرم أخذتها من بين الخرق الموجودة في المطبخ الخلفي؛ وضعت هذه القطعة عليها بدلاً من النزول إلى البيت وإيقاظ أمها لتطلب منها بعض الملابس الجافة. لم يكن يمكن من قبل أن تصدق أنها جريئة إلى هذا الحد، وما كانت قادرة على تخيل هذا قبل يوم واحد فقط. لو ابتلت يوم أمس لذهبت فوراً وغيرت ثيابها لأنها تعرف أن أمها وشقيقاتها لن يحتملن بكاءها إذا مرضت وصارت مضطرة إلى ملازمة الفراش. لكن، كيف كان يمكنها أن تتوقع، حتى صباح الأمس، أن يحدث هذا مثل انفجار لم يدمر الأشياء بل، على العكس، جعلها أكثر قوة وطهّرها بفعل «اعتقاد قائم على الإحساس المغري بالكرامة» فجعلها قادرة على النوم بسلام، وعلى الحلم. لقد لاحظت منذ أيام قليلة أن شيئاً حدث لشقيقها: صار يمسك ملعقته بطريقة مختلفة، وصار يغلق الباب خلفه بطريقة مختلفة، وصار يستيقظ فجأة في السرير الحديدي إلى جانبها في المطبخ، وصار يمضي اليوم كله مفكراً في شيء ما. جاء إلى الحظيرة البارحة، بعد الإفطار، وبدلاً من أن يشد شعرها، أو بدلاً – وهذا أسوأ – من أن يكتفي بالوقوف خلفها حتى تنفجر باكية، أخرج من جيبه قطعة من الحلوى وقدمها إليها. لم تفهم إيستي شيئاً من هذا وظنت أن أمراً سيئاً يمكن أن يكون قد حدث بعد الظهر عندما أطلعها ساني على «أغرب سر على الإطلاق». لم تشك في حقيقة ما قاله أخوها لها، وكانت شديدة البعد عن عدم تصديق حقيقة أن ساني اختارها من بين الناس جميعاً ليطلب مساعدتها، لأنها «كانت غير

موثوقة على الإطلاق». لكن أملها في ألا يكون هذا فخاً جديداً تغلّب على حذرها من أن يكون كذلك؛ وهكذا، قبل أن تصير الإجابة على السؤال ممكنة، وافقت إيستي على كل شيء موافقة فورية غير مشروطة. صحيح أنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً آخر، فبطبيعة الحال كان ساني قادراً على جعلها تقول: «نعم» على أي حال، لكنه لم يكن مضطراً إلى هذا لأنه فاز بثقتها الكاملة عندما باح لها بسر شجرة النقود. وعندما انتهى ساني «أخيراً» نظر ليرى الأثر الذي تركه ما قاله لدى شقيقته ذات «الرأس الغبي»؛ وجدها غارقة في دموعها مع انفجار السعادة غير المتوقع هذا، رغم معرفتها من تجاربها المرة، أن البكاء ليس بالسبيل المستحسن عندما يتعلق الأمر بشقيقها. سلمته مضطربة كنزها الصغير الذي ظلت تجمعه منذ عيد الفصح ليكون مساهمة منها في التجربة التي «لا يمكن أن تفشل»، وذلك لأنها كانت تعتزم أصلاً إعطاءه هذه المجموعة من القطع النقدية التي أخذتها من زائري البيت، ولم تكن تعرف كيف تخبره بأنها خبأتها شهوراً كثيرة، وأنها كذبت في ما يتعلق بهذا الأمر، فقط حتى يظل الأمر ـ أمر مدخراتها ـ سراً... صحيح أن أخاها لم يظهر فضولاً كبيراً، لكن الفرحة التي شعرت بها لأنها صارت، أخيراً، مشاركة في مغامراته السرية طغت من فورها على أيّ إحساس بالاضطراب والتشوش. وأما ما لم تستطع تفسيره فهو السبب الذي جعله يثقل كاهلها بهذه الثقة الخطيرة ويخاطر بالفشل على هذا النحو لأنه كان من المستحيل عليه تصديق أن شقيقته قادرة على تنفيذ مهمة تستدعي «الشجاعة والتحمل وإرادة النصر». أما من ناحية أخرى، فإنها لم تكن قادرة على نسيان أن من خلف المعاناة المرة التي كان يسببها لها، ومن خاف فظاظته التي لا تعرف الشفقة، كانت هنالك لحظة -عندما كانت مريضة - سمح لها ساني فيها بأن تزحف إلى سريره في المطبخ، بل تركها أيضاً تحتضنه قليلاً حتى تستطيع النوم. هذا يوضح الأمر كله. وكانت هنالك مرة أخرى أيضاً، في جنازة والدها منذ

بضع سنوات، عندما فهمت أن الموت الذي هو «أقرب الطرق إلى السماء والملائكة» لم يكن نتيجة إرادة الرب فقط، بل كان شيئاً يمكن للمرء اختياره، وقد قررت هي نفسها أن تعرف كيف يحدث ذلك، فكان شقيقها هو الذي أوضح الأمر لها. لم تكن قادرة أبداً على اكتشاف ذلك بنفسها. كانت في حاجة إليه ليخبرها ما يجب أن تفعله تماماً، حتّى لعلها كان يمكن أن تصل إليه بنفسها، ألا وهو أن «سم الفئران يمكن أن ينجز الأمر أيضاً». وعندما استيقظت عند الفجر، عندما استيقظت عند فجر الأمس، عندما استطاعت أخيراً أن تتجاوز خوفها وقررت ألا تنتظر أكثر من ذلك، وكانت تحس برغبة حقيقية في أن ترتفع إلى السماء، وبدا لها أن ريحاً جبارة ترفعها وأنها ترى الأرض من تحتها تتراجع وتصغر شيئاً فشيئاً، ترى الحقول والبيوت وقناة الماء والعالم كله يصغر من تحتها، عندما صارت واقفة عند باب السماء تقريباً بين الملائكة الذين يعيشون في ألق قرمزي - كان ساني مجدداً، بحديثه عن شجرة النقود السرية، هو من شدها من ذلك الارتفاع الساحر، لكن المخيف، فانطلقا في غبش الفجر معاً - نعم معاً! - متوجهَيْن إلى القناة: أخاها يصفر سعيداً حاملاً مجرفة على كتفه، وهي سائرة خلفه بخطوتين اثنتين قابضة مستثارة على نقودها الملفوفة في منديل. حفر ساني حفرة عند ضفة القناة وهو صامت كعادته، وبدلاً من طردها، سمح لها بأن تضع نقودها في قعر تلك الحفرة. شرح لها بصرامة أكبر بأن بذور النقود التي زرعاها الآن يجب أن تسقى بمياه وافرة مرتين كل يوم، مرة في الصباح وأخرى في المساء («وإلا فسوف تجف!») ثم أرسلها إلى البيت قائلاً لها إن عليها أن تعود «بعد ساعة بالضبط» ومعها عدة السقاية لأن عليه الآن أن يقول «بعض التعويذات السحرية» خلال غيابها، وأن عليه أن يكون وحده خلال تلاوة هذه التعاويذ. مضت إيستي الصغيرة في تنفيذ مهمتها بضمير يقظ، ونامت نوماً سيئاً تلك الليلة وهي تحلم بأن كلاباً شاردة تلاحقها، لكنها استيقظت في الصباح ورأت المطر

يهطل مدراراً في الخارج فصار كل شيء أكثر جمالاً في عينيها وغمرتها موجة من السعادة الدافئة. مضت من فورها إلى القناة حتى تكون واثقة من إعطاء البذور السحرية الماء الكافي إن لم تكن قد حصلت على ما يكفيها بالفعل. وعلى طاولة الغداء، همست لساني «لم تشأ إزعاج أمها النائمة لأنها كانت تعمل في تخزين القش طيلة الليل» قائلة إنها لم تر شيئاً حتى الآن، «... لا شيء، لا شيء أبداً» لكنه أكد لها أن الأمر يستغرق ثلاثة أيام على الأقل، بل ربما أربعة أيام، قبل أن تظهر البراعم، ولن يحدث شيء بالتأكيد قبل ذلك، بل إن ذلك أيضاً يعتمد على ما إذا «كانت سقاية تلك البقعة جيدة كما يجب». ثم أضاف نافذ الصبر بصوت لا يشوبه أي تناقض «لا حاجة بك إلى قضاء اليوم كله جاثمة هناك لمراقبتها... لن يفيدك هذا شيئاً. يكفي أن تذهبي مرتين في اليوم، مرة في الصباح وأخرى في المساء. هذا كل شيء، هل تفهمين أيتها المتخلفة». ابتسم لها ثم خرج من البيت، فقررت إيستي أن تظل جالسة في العلية إن اقتضى الأمر، ريثما يأتي المساء. «إلى أن تظهر البراعم!» وكم أغمضت عينيها حتى تتخيل تلك البراعم ناهضة، حتى تراها تنمو سريعاً لتنحني الأغصان تحت ثقل ثمارها، وتخيلت نفسها حاملة سلتها الصغيرة ممزقة المقبضين وأنها، أبراكادابرا، تجمع تلك الثمار وتمضي إلى البيت فتصبّ النقود على الطاولة! كيف سيحدقون مدهوشين جميعاً! واعتباراً من ذلك اليوم ستحظى بغرفة نظيفة لتنام فيها، غرفة بسرير كبير له لحاف كبير حقاً، ولن يكون عليهم بعد ذلك أن يفعلوا شيئاً غير الذهاب في رحلة يومية إلى القناة لملء السلة والرقص وشرب فنجان بعد فنجان من الكاكاو، وستكون الملائكة هناك أيضاً، رفوف من الملائكة، جالسين جميعاً من حول طاولة المطبخ... تغضن حاجباها («انتظري دقيقة!») راحت تميل من جهة لأخرى وبدأت تنشد:

البارحة كان يوماً،

نضيف اليوم فيصبح لدينا يومان،
وغداً اليوم الثالث،
وبعد غد يصبح لدينا أربعة أيام.

قالت في نفسها مستثارة: «لعلها في حاجة إلى ليلتين من النوم فقط!» لكنها توقفت فجأة: «لكن انتظري! هذا ليس صحيحاً!» أخرجت إبهامها من فمها، ثم سحبت يدها الأخرى من تحت القماش المخرَّم الذي لفت نفسها به، ثم حاولت العد من جديد:

البارحة كان يوماً،
واليوم يصير لدينا يومان،
اثنان وواحد، يصبح لدينا ثلاثة أيام،
وغداً، آه غداً،
هذا يعني ثلاثة أيام، ويوم آخر فتصبح أربعة.

«بالتأكيد! هكذا فقد يمكن أن يحدث ذلك الليلة! الليلة!» وفي الخارج، اندفعت المياه من على قرميد السقف، اندفعت من غير عائق... اندفعت في خط مستقيم فاصطدمت بالأرض عند جدران مزرعة هورغوس فشكلت خندقاً مائياً يزداد عمقاً كأن كل قطرة من قطرات المطر كانت لديها نية خفية في عزل البيت أولاً وإغراق سكانه، وفي تخلل الطين ببطء، ملليمتراً بعد ملليمتر، وصولاً إلى أساسات البيت الحجرية في الأسفل حتى يزول البيت كله؛ وهكذا، خلال زمن قصير من العمل الدؤوب من أجل تلك الغاية، سوف تتشقق الجدران وتنزاح النوافذ وتنخلع الأبواب من إطاراتها، وسوف تميل المدخنة وتنهار، وتخرج المسامير من الجدران المتهاوية، وسوف يصبح لون المرايا المعلقة على تلك الجدران داكناً، وسيختفي هيكل البيت كله بملاطه الرخيص، سيختفي تحت الماء كأنه سفينة تسرب إليها الماء، سيخوض حرباً خاسرة

في مواجهة المطر والأرض، ولن يكون السقف دفاعاً كافياً عن حسن نيات البشر الهشّ الضعيف. ومن تحتها كانت الظلمة تامة تقريباً، ولم يتسرب من الخارج إلا بعض الضوء الخافت مثل ضباب كثيف مندفع. كان كل شيء هادئاً من حولها. استندت إلى إحدى الدعائم، ولأن شيئاً من فرحتها السابقة لا يزال موجوداً أغمضت عينيها. «الآن هي اللحظة!»... كانت في السابعة من عمرها عندما أخذها والدها إلى المدينة أول مرة، وكان ذلك وقت معرض الماشية الوطني؛ تركها تتجول بين الخيام، وهكذا تعرفت على كورين الذي فقد عينيه في الحرب الأخيرة وظل يعيش على نقود قليلة كان يكسبها من عزف الهارمونيكا في الأسواق والحانات والاحتفالات. عرفت منه أن العمى «حالة سحرية يا فتاتي»، وأنه ـ أي كورين ـ ما كان آسفاً البتة لأنه فقد عينيه، بل كان على العكس سعيداً وشاكراً للرب على «هذا الغسق الدائم عندي»، وهذا ما جعله يضحك فقط عندما يحاول أحد الناس أن يصف له «ألوان حياته الدنيوية الفقيرة». أصغت إيستي الصغيرة إليه مسحورة، وعندما ذهبا إلى المعرض في المرة التالية مضت مباشرة إليه فكشف الرجل الأعمى لها أن السبيل إلى عالمه المسحور لم يكن «مسدوداً أمامها، وأن عليها فقط أن تغمض عينيها زمناً طيلاً حتى تصبح هناك». لكن محاولاتها الأولى أفزعتها: رأت ألسنة نار تقفز، وألواناً نابضة، وقطعاناً من أشكال سابحة متوحشة، وسمعت أيضاً همهمة خفيضة متواصلة وأصوات خبطات بالقرب منها. لم تجرؤ على طلب النصيحة من كيريكس الأعمى الذي كان يمضي وقته كله في الحانة، من الخريف حتى نهاية الربيع، وهذا ما جعلها تكتشف الحل السري بنفسها بعد زمن طويل عندما أصابها مرض رئوي خطير فاستدعوا الطبيب على وجه السرعة حتى يمضي الليل إلى جانب فراشها. أحست بالأمان في وجود الطبيب البدين الضخم إلى جوارها، كانت الحمى قد خدّرت حواسها، وسرت فيها ارتعاشات الفرح، أغمضت

عينيها فرأت أخيراً ما حَدَّثها كورين عنه. رأت في ريف سحريّ والدَها حاملاً قبعته في يده مرتدياً معطفاً طويلاً ممسكاً برسن الفرس وهو يقود العربة في فناء البيت ثم يأخذ منها قصعة كبيرة من السكر ورغيفاً حلواً ضخماً وألف شيء آخر أتى به من السوق، ثم رأته يفرش هذا كله على الطاولة، أدركت أن أبواب هذه المملكة لا تفتح أمامها إلا عندما «يكون جلدها حارّاً كله»... عندما يبدأ جسدها وتبدأ أجفانها بالارتجاف. كانت مخيّلتها المستثارة ميّالة عادة إلى استحضار أبيها الميت وهو يختفي بطيئاً عبر الحقول ويثور الغبار من أمامه وخلفه مع هبوب الريح؛ ثم صارت، على نحو متزايد غالباً، ترى شقيقها أيضاً وهو يغمز بعينه لها مرحاً، أو هو نائم إلى جانبها على السرير الحديدي بشكله الذي تراه الآن. وجهه الحالم هادئ، وشعره منسدل فوق عينيه، وذراعه متدلية من السرير؛ ثم يتقلص جلده وتبدأ أصابعه بالحركة، وفجأة ينقلب فينزلق الغطاء عنه. «أين هو الآن؟» قعقعت المملكة السحرية وأزت واندفعت بعيداً عندما فتحت عينيها. كان لديها صداع شديد، وكان جلدها مضطرماً بالحمى، وأحست بأن أطرافها صارت ثقيلة جداً، وفجأة، عندما نظرت من النافذة، خطر في بالها أنها لا تستطيع الانتظار هنا حتى يزول الضباب المشؤوم كله من تلقاء نفسه؛ أدركت أنها، لكي تثبت إنها تستحق مزاج أخيها الطيب غير المعقول، تخاطر بخسارة ثقته، ثم إن هذه الفرصة كانت فرصتها الأولى، وقد تكون فرصتها الأخيرة لكسب ثقته؛ وما كانت تستطيع أن تحتمل فقدانها لأن ساني كان يعرف الطبيعة «المنتصرة المجنونة المشاكسة» لهذا العالم، ومن دونه لن تكون الحياة إلا اضطراباً أعمى بين الغضب والشفقة القاتلة، بين آلاف الأخطار الماثلة بفعل الغضب والضياع. كانت خائفة مذعورة، لكنها أدركت أنه لا بد من فعل شيء الآن، ولأن هذا الإحساس ما كان معروفاً لديها من قبل، فقد وازنته فكرة التمعت لحظة، طموح مرتبك قال لها إنها، إذا استطاعت أن تكسب احترام أخيها، فسوف

يصبحان قادرَيْن على «فتح» العالم كله. وهكذا، بطيئاً، من غير أن يُلحظ، انزاح الكنز السحري، انزاحت السلة ذات المقبض المكسور، انزاحت الغصون الذهبية المنحنية تحت ثقل النقود، انزاح هذا كله عن مركز اهتمامها وتحولت خصائصه الجاذبة كلها إلى أخيها. أحست بأنها واقفة على جسر واصل بين مخاوفها القديمة وبين الأشياء التي كانت ترعبها قبل يوم واحد فقط: ما كان عليها إلا أن تعبر إلى الجانب الآخر حيث ينتظرها ساني نافد الصبر، وهناك سيتضح لها كل ما كان سراً مستغلقاً عليها حتى اليوم. فهمت الآن ما كان شقيقها يعنيه عندما أصر على الفوز ـ «علينا أن نفوز، هل تفهمين يا متخلفة؟ أن نفوز!» ـ لأن أمل الفوز أثّر فيها هي أيضاً، ومع أنها ظلت تشعر بأنه لن يكون هنالك فائزون في النهاية ولو لسبب واحد هو أن لا شيء ينتهي أبداً، فإن كلمات ساني التي قالها لها البارحة جعلت كل اعتراض أمراً سخيفاً «يفشل الناس هنا في كل شيء، إنه فشل بعد فشل، لكننا نعرف كيف نصحح كل شيء، ألا نعرف ذلك يا متخلفة؟»... ؛ صار كل إخفاق عملاً من أعمال البطولة. أخرجت إبهامها من فمها وشدت القماشة المخرمة حول جسمها، ثم بدأت تمشي في العلية حتى تخفف إحساسها بالبرد. ما العمل؟ كيف تستطيع أن تثبت قدرتها «على الفوز»؟ جالت نظراتها في العلية باحثة عن شيء قد يلهمها. كانت العوارض الخشبية من فوقها صاعدة إلى الأعلى في هيئة مشؤومة، وكانت فيها مسامير صدئة وخطاطيف متدلية. خفق قلبها سريعاً. وفجأة سمعت صوتاً من الأسفل. ساني؟ شقيقتاها؟ بحذر وصمت، هبطت إلى كومة الحطب، ثم تسللت بحذاء الجدار حتى بلغت نافذة المطبخ وضغطت وجهها على الزجاج البارد. إنها «ميكورا!» كانت القطة السوداء جالسة فوق طاولة المطبخ تلعق سعيدة بقايا طبيخ الفلفل الأخضر في القِدر الأحمر. تدحرج غطاء القِدر وسار على الأرض حتى بلغ الزاوية. «أوه، ميكورا!» فتحت الباب بصمت، ورمت القطة على الأرض، ثم

أسرعت فأعادت غطاء القدر إلى مكانه، وفي تلك اللحظة خطرت فكرة في ذهنها. استدارت ببطء وعيناها تبحثان عن ميكور. «إنني أقوى منها»، لمعت هذه الفكرة في رأسها. جرت القطة إليها وراحت تتمسّح بساقيها. مضت إيستي إلى المشجب والتقطت عن أحد الخطاطيف الكيس الأخضر المصنوع من خيوط النايلون. وعادت صامتة صوب القطة. «هيا الآن!» تقدمت ميكور طائعة وسمحت لإيستي بأن تضعها في ذلك الكيس. لكن لا مبالاتها لم تستمر طويلاً بطبيعة الحال: أخرجت قوائمها من ثقوب الكيس من غير أن تجد شيئاً صلباً تستند إليه فأطلقت مواءً مذعوراً. «ما الأمر الآن؟» جاء صوت من الغرفة الأخرى... «من هناك؟» توقفت إيستي مذعورة:«هذه أنا... أنا فقط...» «ماذا تفعلين، بماذا تعبثين هناك؟ اخرجي الآن، اذهبي والعبي هناك». لم تقل إيستي شيئاً، لكنها حبست أنفاسها وخرجت إلى فناء البيت، وظلت القطة تموء في الكيس. بلغت إيستي زاوية البيت من غير أي مشكلات أخرى وتوقفت هناك حتى تلتقط أنفاسها، ثم انطلقت تجري لأنها أحست بأن العالم كله مستعد للانقضاض عليها. وعندما نجحت أخيراً، في المحاولة الثالثة، في الوصول إلى مخبئها، استندت إلى إحدى العوارض لاهثة ولم تنظر خلفها لكنها كانت تعرف أن من تحتها ـ من حول كومة الحطب كلها ـ كانت الحظيرة والحديقة والطين والظلمة مندفعين جميعاً، كلٌ صوب الآخر، وقد شوّه وجوههم الغضب كأنهم كلاب جائعة هربت وجبتها منها. أخلت سبيل ميكور فانطلقت القطة السوداء من فورها صوب الفتحة قبل أن تستدير وتمضي متشمّمة طريقها في أرجاء العلية رافعة رأسها من حين لآخر مصغية إلى الصمت ثم مضت من جديد تتمسّح بساقَيْ إيستي رافعة ذيلها مسرورة، وعندما جلست صاحبتها أمام «النافذة»، قفزت وجلست في حضنها. همست إيستي عندما بدأت ميكور خريرها الهانئ: «هذا نصيبك؛ لا تظني أنني سأكون آسفة عليك! تستطيعين الدفاع عن نفسك

إن أردت ذلك، إن ظننت أنك تستطيعين الدفاع، لكن ذلك لن يفيدك...»
دفعت القطة عن حضنها ومضت إلى الفتحة فأغلقتها بألواح خشبية كانت مسندة إلى الجدار القرميدي. انتظرت قليلاً ريثما تألف عيناها الظلمة، ثم مضت صوب ميكور ببطء. لم تشتبه القطة في أي شيء وسمحت لإيستي بأن تمسك بها وترفعها عالياً، ولم تبدأ المقاومة إلا عندما رمت إيستي نفسها إلى الأرض وهي ممسكة بها ثم بدأت تتدحرج بضراوة معها من زاوية لأخرى. أطبقت أصابع إيستي حول رقبتها كأنها أصفاد ورفعت القطة بسرعة كبيرة ثم انقلبت من جديد فصارت القطة تحتها؛ تجمّدت القطة مذعورة ثانية واحدة غير قادرة على الدفاع عن نفسها. لكن الصراع ما كان يمكن أن يستمر وقتاً طويلاً. سرعان ما انتهزت القطة أول فرصة مناسبة فغرست مخالبها عميقاً في يدَيْ صاحبتها. لكن إيستي أيضاً فقدت الثقة بنفسها فجأة، وما عادت القطة راغبة في اختبار قوتها في مواجهتها مهما نادتها ملحّة («هيا الآن! أين أنت! هيا، هاجميني! هاجميني!»)، والحقيقة أن إيستي هي التي كانت مضطرة إلى توخّي الحذر حتى لا تسحق القطة بين يديها عندما تتشقلبان معاً من جديد. راحت تحدق يائسة في القطة الهاربة التي بادلتها النظرات بعينيها المضيئتين على نحو غريب وقد انتصب وبرها واستعدت للوثب. ما العمل الآن؟ هل يتعين عليها أن تحاول من جديد؟ لكن كيف؟ كشّرت لتجعل وجهها مخيفاً وتظاهرت أنها موشكة على الاندفاع صوب القطة مما جعل الأخيرة تقفز إلى الزاوية المقابلة. قامت بحركة مفاجئة واحدة بعد ذلك ـ رفعت يدها ثم خبطت بقدمها وقفزت مقتربة من القطة ـ كان هذا كافياً لميكور التي ازداد خوفها ويأسها من أن ترمي بنفسها إلى زاوية تستطيع الدفاع عن نفسها فيها غير عابئة حتى بالجراح التي أصابتها بها الخطاطيف والمسامير الصدئة، ولم تعبأ لاصطدامها بقطع القرميد أو بالعمود الرئيسي أو بالألواح التي تسد الفتحة. كانت كل منهما تعرف، بثقة مطلقة، مكان وجود الأخرى: كانت

إيستي قادرة على تحديد موضع القطة الدقيق على الفور بسبب عينيها المضيئتين وصوت اصطدامها بقطع القرميد، أو بصوت الخبطة المكتوم عندما تثبت ويستقر جسدها على الأرض؛ وأما هي، فكان موضعها قابلاً للتحديد الواضح أيضاً حتى ولو من خلال الزوابع الصغيرة التي كانت حركة ذراعيها تثيرها في الهواء الكثيف. كان الفرح والاعتزاز اللذان ينبعان في داخلها من لحظة إلى أخرى يطلقان مخيلتها في جولات مخمومة فلم تعد تشعر بأنها في حاجة إلى الحركة تقريباً بعدما تبين لها أن القطة غير قادرة على مواجهة قوّتها؛ والواقع أن إدراكها لتفوقها الذي ليس له حدود («أستطيع أن أفعل كل شيء بك، أي شيء بالمطلق!») أربكها قليلاً أول الأمر وفتح لها عالماً لا تعرفه أبداً، عالماً تقف هي في مركزه غير قادرة على تقرير شيء نتيجة اتساع الخيارات المتاحة لها، رغم أن لحظة عدم القدرة على اتخاذ القرار، ذلك الإحساس السعيد بالإشباع، سرعان ما انتهت، ورأت نفسها تطعن ميكور المذعورة في عينيها اللامعتين (بتألقهما المعافى) أو تقتلع مخالبها بحركة واحدة، أو تعلّقها ببساطة من خطاف حاد. أحست بثقل غريب في جسدها ووعت ذاتها بطريقة أكثر قوة، بطريقة كانت غريبة عنها. لم تكن رغبتها الضارية في الانتصار قد محت نفسها القديمة تماماً، لكنها عرفت أنها ستتعثر كيفما تحركت وستقع على الأرض مباشرة وأدركت أيضاً، في اللحظة الأخيرة، أن شعورها بالتصميم والتفوّق، هذا الشعور الذي يشعّ منها الآن، سوف يُصاب بأذى عميق. وقفت هناك متيبسة وهي تنظر إلى الألق الفوسفوري في عيني القطة، وأدركت فجأة شيئاً لم يخطر في بالها من قبل: فهمت وهي تنظر إلى الضياء المنبعث من هاتين العينين أن الرعب والقنوط يمكن أن يجعلا الآخر ينقلب ضد نفسه؛ فهمت أن العاجز يمكن أن يتركز أمله الأخير في تقديم نفسه ضحية أملاً في أن يمكّنه ذلك من الإفلات. كانت تلك العينان مثل مصباحَيْن كاشفَيْن يخترقان الظلمة، ومن غير توقع

يضيئان الدقائق القليلة الماضية، لحظات الصراع بين الخصمين المنفصلَيْن الآن، بين الخصمين اللذين صار كل منهما متعلقاً بالآخر، وقفت إيستي تنظر عاجزة بينما راح كل شيء أنشأته في نفسها وعن نفسها، ببطء وصعوبة وألم، يتهاوى أمامها كما لو أنه سقط صريعاً بضربة واحدة. عادت إلى وعيها من جديد: العوارض الخشبية، والنافذة، والألواح، وقطع القرميد، والخطاطيف، والجدران، رغم أن هذه الأشياء كلها تحركت ففارقت أماكنها المحددة لها ـ مثل جيش شديد الانضباط ينتظر كلمة من قائده، كانت الأشياء الخفيفة تتراجع شيئاً فشيئاً، وكانت الأشياء الثقيلة (غريب تماماً) تقترب منها كما لو أن كل شيء قد غرق إلى قعر بركة لا يصله الضوء حيث يتحدد اتجاه تلك الأشياء وسرعتها واندفاعها بوزنها وحده. كانت ميكور منبطحة على ألواح الأرضية العفنة فوق نثار من فضلات الحمام الجافة وعضلاتها مشدودة كلها إلى حد الانقطاع، وكانت حدود جسدها ضائعة بعض الشيء في الظلمة فبدت القطة كأنها تسبح صوبها في ذلك الهواء الكثيف؛ لم تدرك إيستي ما فعلته إدراكاً واضحاً إلا عندما بدا لها أنها تحس حرارة جسد القطعة وتقلصات معدتها والجروح الكثيرة على جلدها والدم المندفع منها. خنقها إحساسها بالعار والندم. أدركت أن نصرها لا يمكن أن يكون شيئاً جيداً الآن. إذا بدأت التحرك صوبها لتمسيد جسدها فسيكون هذا عبثاً لأن ميكور ستجري هاربة. سيظل الأمر هكذا إلى الأبد إلا إذا استطاعت دعوتها الآن، إلا إذا احتضنتها في حجرها الآن... إذا لم يحدث هذا فستظل ميكور مستعدة للهرب دائماً، وستستعيد عيناها في كل مرة الذكرى المخيفة التي لا فكاك منها، ذكرى هذا اللعب مع الموت التي ستجبرها على القيام بالحركة الأخيرة. كانت تظن حتى الآن أن الفشل وحده هو ما لا يمكن احتماله، لكنها فهمت في هذه اللحظة أن احتمال النصر غير ممكن أيضاً لأن العنصر الأكثر خزياً في الصراع اليائس لم يكن بقاؤها في القمة بل كان

كامناً في عدم وجود احتمال الخسارة أيضاً. خطر في ذهنها أنهما تستطيعان المحاولة من جديد («... إذا خمشَتني... هل ستعضّني؟...») لكنها سرعان ما أدركت أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً في هذا الشأن، إنها الطرف الأقوى، بكل بساطة! كانت الحمى تحرق جسدها، وغطى العرق حاجبيها. عند ذلك التقطت الرائحة. كان الخوف ردة فعلها الأولى لأنها ظنت أن معهما شخصاً آخر في تلك العلية. ولم تكتشف ما حدث فعلاً إلا عندما مرت ميكور بها جارية إلى الزاوية المقابلة ـ لأن إيستي خطت خطوة غير واثقة صوب النافذة («ما هذه الرائحة؟») فظنت القطة أنها تريد مهاجمتها من جديد. صرخت غاضبة: «لقد فعلتِها في مكانك! تجرّأتِ على فعلها!» سرعان ما ملأت الرائحة العلّية كلها. حبست إيستي أنفاسها وانحنت فوق براز القطة. «لقد تبوّلت أيضاً!» جرت صوب الفتحة فأخذت نفساً عميقاً ثم عادت إلى مسرح الجريمة فاستخدمت قطعة خشب مكسورة حتى تضع البراز فوق قطعة من جريدة قديمة ثم طوتها ولوحت بها مهددة ميكور. «أود أن أجعلك تأكلين هذا!» توقفت فجأة كما لو أن الكلمات علقت في فمها، ثم جرت إلى الفتحة وأزاحت الألواح عنها. «وأنا التي ظننت أنك خائفة! بل إنني أحسست بالشفقة تجاهك». وبسرعة البرق، حتى لا تتيح مجالاً للهرب، قفزت فوق كومة الحطب ورمت بالورقة ذات الرائحة الواخزة في الظلمة وتركت الوحوش الخفية المختبئة هناك تلتهمها، حتى تلك التي خرجت باحثة عن الفُتات؛ ثم زحفت تحت الإفريز حتى صارت فوق باب المطبخ. هبطت وفتحت الباب بهدوء فوجدت أمها تشخر بصوت مرتفع. «سوف أفعلها. إن لديَّ الجرأة. نعم، إن لدي الجرأة»؛ ارتعدت في تلك الحرارة، كان رأسها ثقيلاً وساقاها ضعيفتين. فتحت باب غرفة المؤونة بكل هدوء. «ذلك الشيء الذي يفعلها تحته! نعم، أنت تستحقين هذا». أخذت وعاء الحليب عن الرف وملأت طبَقاً صغيراً ثم عادت إلى المطبخ على رؤوس أصابعها. «على أي حال،

فات الوقت على أي شيء آخر». أخذت سترة أمها الصوفية عن المشجب ثم خرجت إلى فناء البيت ببطء شديد حتى لا يصدر عنها أي صوت. «يجب أن أرتدي السترة أولاً». أرادت أن تضع الطبق على الأرض حتى تتمكن من ارتدائها، لكن زاوية السترة نزلت في الوحل. انتصبت واقفة من جديد وهي تحمل السترة بيد والطبق باليد الأخرى. ماذا أفعل؟ كان المطر يهطل منحرفاً فيدخل تحت الإفريز، وصارت قطعة الستارة المخرمة التي لفت نفسها بها مبتلة تماماً من جهة المطر. بدأت تسير إلى الخلف غير واثقة وهي حذرة حتى لا ينسكب الحليب («سوف أضع السترة على كومة الحطب، ثم...»)، لكنها توقفت فجأة لأنها تذكرت أنها تركت صحن القطة عند العتبة. لم يخطر في بالها ما يجب أن تفعله إلا عندما عادت إلى باب المطبخ: لو نشرت السترة فوق رأسها لكان في وسعها أن تضع الطبق على الأرض، وهكذا يصير كل شيء أكثر سهولة ـ صارت مستعدة أخيراً لكي تتحرك صوب كومة الحطب وهي تحمل طبق الحليب في يد وصحن القطة العميق في اليد الأخرى. وبعد أن سيطرت على الوضع بهذه الطريقة أحست بأنها وجدت المفتاح إلى المهام التي تنتظرها. أدخلت الصحن إلى العلية أولاً، ثم عادت لتأخذ طبق الحليب. غطت الفتحة بالألواح من جديد وبدأت تنادي ميكور في تلك الظلمة الدامسة. «ميكور! ميكور! أين أنت؟ بِس، بِس، إن لديَّ وليمة من أجلك!» كانت القطة ملتصقة بأبعد زاوية في العلية، وكانت تراقب من هناك كيف أدخلت صاحبتها يدها تحت أحد ألواح الأرضية عند النافذة، وأخرجت كيساً ورقياً صغيراً، ثم نثرت بعض محتوياته في الصحن وصبت الحليب فوقها. «انتظري! لن ينجح هذا». تركت الصحن ومضت صوب الفتحة ـ تململت ميكور في مكانها متحفزة ـ لكن لم يأت من الفتحة أي ضوء مهما باعدت بين الألواح. ما كان مسموعاً غير قرع المطر على القرميد ونباح كلاب بعيد. نضبت أفكارها فوقفت هناك مثل يتيمة والسترة متدلية حتى

ركبتيها. كانت توّاقة إلى الفرار من هذا المكان المظلم، إلى الفرار من هذا الصمت القاتم، ولأنها لم تعد تشعر بالأمان هنا فقد خافت من البقاء وحدها، خافت أن يثب عليها شيء من إحدى الزوايا المظلمة أو أن تخطو فتجد نفسها في قبضة يد جليدية ممتدة. صاحت بصوت مرتفع: «عليَّ أن أتابع!» ثم، كأنها تتمسك بحبال صوتها نفسه، خطت خطوة صوب القطة. لم تتحرك ميكور. «ما الأمر؟ ألستِ جائعة؟» بدأت تناديها بنبرة متودِّدة، وسرعان ما وجدت أن القطة لم تقفز مبتعدة عندما سارت خطوة أخرى في اتجاهها. وعند ذلك صارت الفرصة سانحة: سمحت ميكور (لعلها وثقت بالصوت بضع ثوان) لإيستي بالاقتراب منها، فقفزت الفتاة على القطة بسرعة البرق وثبتتها أولاً إلى الأرض ثم رفعتها متجنبة بحركة ذكية مخالبها التي راحت تضرب الهواء، ثم حملتها إلى الصحن المنتظر عند «النافذة». صاحت بصوت مرتجف: «والآن، هيا، كلي! وجبة لطيفة!» وبحركة قوية واحدة ضغطت رأس القطة حتى دخل في الحليب. كانت أي محاولة للهرب أمراً عقيماً، وفهمت القطة أن كل مقاومة بعد ذلك كانت من غير معنى، وذلك أنها ظلت هادئة تماماً إلى درجة جعلت صاحبتها ـ عندما تركتها أخيراً ـ غير قادرة على معرفة إن كانت القطة قد اختنقت أو أنها «تتظاهر بذلك» فقط، لأنها ظلت مستلقية إلى جانب الصحن الفارغ كما لو أنها ميتة بالفعل. تراجعت إيستي بطيئاً إلى الزاوية القصية وغطت عينيها بكفيها حتى لا ترى الظلمة المتوعدة المميتة، ثم وضعت إبهاميها على أذنيها في الوقت نفسه لأن جمهرة من الأصوات المهمهمة المقعقعة المتضاربة اندفعت نحوها خارجة من ذلك الصمت. لكنها لم تشعر بأي ذعر لأنها أدركت أن الوقت كان في صَفّها وأن عليها أن تنتظر فقط ريثما تذوي تلك الأصوات من تلقاء نفسها مثلما يترك جيش مدحور محطَّم قائده بعد موجة الذعر والفوضى الأولى فيفر من ميدان المعركة أو يتوسل رحمة عدوه إن كان الفرار مستحيلاً. مر وقت طويل،

وبعد أن ابتلع الصمت آخر موجة من تلك الأصوات، لم تشعر إيستي بالهدوء ولا بالاستعجال ـ لم تعد بعد الآن مهتمة بما يتعين عليها فعله بل عرفت تماماً أين يجب أن تضع قدمها وصارت حركاتها صائبة صحيحة التوجه: كانت كأنها ترتفع وتعلو فوق أرض المعركة وفوق خصومها المدحورين. أخذت جسد القطة المتكور المتيبس فهبطت إلى فناء البيت وقد احمر وجهها من الحمى، ثم نظرت من حولها وانطلقت معتزة بنفسها على الدرب المفضية إلى القناة لأن غريزتها همست لها بأنها ستجد ساني هناك. خفق قلبها خفقاً شديداً عندما تخيلت «تعابير وجهه» عندما تجعله يرى جثة القطة التي ستكون باردة في ذلك الوقت، وغصّت حنجرتها بالفرحة عندما لاحظت كيف وقفت شجرات الحور في المزرعة من حولها مثلما تقف العجائز تتابعن بأنظارهن الغيورة الحارقة درب العروس التي تغادر وتتركهن خلفها؛ سارت وهي تحمل جسد ميكور الميت الذي صار الآن ممطوطاً إلى الأبد، كانت تحملها من ساقيها مبعدة إياها عن جسمها، لم يمر وقت طويل على انطلاقها، لكن رحلتها استغرقت وقتاً أكثر من المعتاد قبل أن تبلغ القناة لأن قدمها كانت تغرق في الوحل كل خطوتين أو ثلاث فتترنح أماماً وخلفاً في الحذاء الثقيل الذي ورثته عن شقيقتيها، فضلاً عن أن «المخلوق القذر» كان يزداد ثقلاً أيضاً مما جعلها مضطرة إلى نقله من يد إلى أخرى طيلة الوقت. لكن هذا لم يثبط عزيمتها ولم يجعلها تهتم بالمطر المنهمر، كانت آسفة فقط لأنها لم تكن قادرة على الطيران مثل الريح لتصير إلى جانب ساني، ولم تلُم إلا نفسها عندما وصلت أخيراً فلم تجد أحداً هناك. «أين يمكن أن يكون الآن؟» تركت الجثة تسقط في الطين، ودلكت ذراعيها المتألمتين اللتين أحرقهما التعب، ثم انحنت فوق النباتات حتى تُوقف حركة عقلها، وتقطعت أنفاسها كما لو أن رصاصة طائشة أصابتها في قلبها مباشرة، أحست بأنها لم تعد تفهم شيئاً وأنها كانت وحيدة تماماً. كانت البقعة السحرية في حالة فوضى وقد

طوَّح المطر بالعصا التي وضعاها علامة على المكان فانكسرت إلى نصفين حيث كانت التربة المعتنى بها مكوَّمة. التربة التي رعتها مخيلتها واهتمت بها طيلة هذا الوقت، أما الآن فلم تر أمامها إلا حفرة في الأرض مثل محجَرِ عين فارغ، حفرة ملأها الماء إلى منتصفها. رمت بنفسها على الأرض يائسة وبدأت تنبش التراب في الحفرة كيفما اتفق. ثم وثبت ناهضة واستجمعت قواها لتعلو صيحتها ثقل الليل الجاثم فوقها، لكن صوتها المتعب («سانيي! سانيي! تعال يا ساني!...») ضاع في ضجيج الريح والمطر. وقفت على ضفة القناة غير عارفة ما يمكن فعله وغير عارفة أين تتجه. وأخيراً انطلقت تسير مع القناة لكنها سرعان ما استدارت عائدة واندفعت في الاتجاه المعاكس، ثم لم تلبث أن توقفت ثانية بعد بضع مئات من الأمتار وانعطفت صوب الطريق المعبَّدة. كان سيرها هناك بطيئاً وأكثر صعوبة من قبل لأن قدميها كانتا تغرقان في الطين حتى الكاحلَين، كانت الأرض غارقة تماماً بالمياه، وكان عليها أن تتوقف وأن تسحب قدمها فتخرجها من الحذاء، ثم تتوازن على ساق واحدة ثم تمضي وقتاً في استخراج فردة حذائها من الطين. بلغت الطريق وقد استنفدت قواها، وعندما راحت تنظر في الأرض المهجورة من حولها، ظهر القمر ثانية واحدة من فوقها ـ أحست فجأة بأنها اتخذت وجهة خاطئة وأن من الممكن أن يكون البحث عنه في البيت أولاً هو الحل الأفضل. لكن في أي وجهة هو البيت الآن؟ ماذا لو مضت عبر الدرب الملتفة حول حقل هورغوس وكان ساني عائداً من طريق هوتشميس؟ ثم... ماذا لو كان في البلدة؟... ماذا لو كان صاحب الحانة قد أوصله بسيارته؟... لكن، ما العمل من دونه؟... لم تجرؤ على الاعتراف لنفسها بأن الحمى قد أضعفتها كثيراً وأن الضوء المتراقص في تلك النافذة البعيدة هو ما كان يجذبها حقاً. لم تتقدم إلا بضع خطوات عندما جاءها صوت من جانبها يقول لها: «نقودك أو حياتك». زعقت إيستي فزعة ثم بدأت تجري. استمر

الصوت آتياً من الظلمة، ثم أطلق ضحكة خشنة: «ما هذا أيتها السنجابة الصغيرة؟ هل فعلتِها تحتك من الخوف؟...» سمعت الفتاة الصغيرة هذه الجملة فتبخَّر خوفها وجرت عائدة، مطمئنة. «تعال... تعال بسرعة! إن النقود!... شجرة النقود!...» ظهر ساني على الطريق المعبدة ماشياً صوبها بخطوات بطيئة، شدّ قامته ثم ابتسم: «واو! إنها سترة أمي الصوفية! سوف تضربك كثيراً بسببها. وستمضين الأسبوع القادم في الفراش!... أيتها الغبية!» دفن يده اليسرى عميقاً في جيبه، وكانت في يده اليمنى سيجارة مشتعلة. ابتسمت إيستي مرتبكة، ثم طأطأت رأسها ولم تفعل إلا أن تابعت حديثها: «شجرة النقود!... أحد ما!...» لم ترفع رأسها لتنظر إليه لأنها عرفت كم يكره ساني النظر في عينيه. نظر الصبي إلى إيستي، من رأسها إلى قدميها. ثم نفخ الدخان في وجهها: «ما أخبار الملجأ؟» نفخ خديه كأنه على وشك أن يضحك، وكأنه يجد صعوبة في كتم ضحكته. صار وجهه حجرياً على نحو مفاجئ: «إذا لم تنقلعي فوراً، فسوف أصفعك صفعة... يا حبيبة قلبي... صفعة تجعل رأسك الغبي يسقط بين كتفيك! لا ينقصني إلا أن يشاهدني أحد هنا واقفاً معك... سيضحك الناس مني بقية الأسبوع كلها. اذهبي الآن، اختفي من هنا!» نظر سريعاً من فوق كتفه، كان قلقاً بشكل واضح، وراح يمسح بعينيه الطريق المعبدة حيث تختفي في الظلام، ثم نظر من فوق رأس أخته - كأنها قد ذهبت بالفعل - صوب النافذة المضاءة البعيدة وارتسم على وجهه تعبير الحيرة كأنه يحاول حل معضلة ما في ذهنه. أصاب إيستي رعب حقيقي الآن. ماذا حدث؟ أيمكن أن يكون قد أصاب ساني شيء ما حتى يعود إلى... هل فعلت شيئاً خاطئاً؟ هل ارتكبت غلطة؟ حاولت إخباره من جديد: «النقود التي زرعناها... لقد سرقت... سُرقت!» صاح الصبي نافذ الصبر: «سرقت؟ طيب، طيب! تقولين إنها سرقت، ومن سرقها؟» «لست أدري... أحد...». ألقى عليها ساني نظرة باردة: «أنت تتهمينني؟ أتجرؤين على اتهامي؟» هزت إيستي

رأسها مذعورة. «أوه، نعم. هكذا بدا كلامك». أخذ نفساً من سيجارته ثم استدار فجأة من جديد وراح يراقب منعطف الطريق متوتراً كأنه ينتظر أحداً ما، ثم عاد واستدار إلى شقيقته وقد ملأ الغضب وجهه: «ألا تستطيعين حتى أن تقفي منتصبة القامة؟» نصبت الفتاة الصغيرة قامتها على الفور لكن رأسها ظل مطرقاً، ظلت تحدّق في حذائها المنغرس في الوحل وقد انسدل شعرها الأشقر فوق وجهها. فقد ساني أعصابه: «ما مشكلتك؟! انقلعي! هل فهمت هذا؟» دعك بيده ذقنه الممتلئة ذات الغمازة العميقة، وعندما رأى أن إيستي لم تتحرك كان مجبراً على الكلام من جديد: «لقد كنت في حاجة إلى النقود، هل تفهمين؟ ماذا إذن؟» توقف لحظة لكن أخته استمرّت واقفة هناك، لم تتحرك سنتيمتراً واحداً. «ثم إن تلك النقود كانت لي أنا، اللعنة عليك، إنها نقودي أنا، هل هذا واضح؟» هزت إيستي رأسها خائفة وقالت: «كانت النقود لي أنا أيضاً... كيف تجرؤ على إخفائها عني؟» ابتسم راضياً: «عليك أن تكوني سعيدة بالقليل الذي بقي لك! كان يمكنني أن آخذ النقود منك!» هزت إيستي رأسها فاهمة ثم بدأت تتراجع بخطوات بطيئة لأنها خشيت أن يكون شقيقها موشكاً على ضربها. تابع يقول بابتسامة تآمرية: «على أي حال، لدي هنا بعض النبيذ الجيد حقاً، هل تريدين جرعة؟ سوف أسمح لك بأن تأخذي جرعة واحدة. أم أنك تريدين نَفَساً من هذه؟ هنا». مد صوبها يده التي تحمل السيجارة الميتة الآن. وبحركة غريزية، مدت إيستي يدها صوب السيجارة لكنها سحبتها على الفور تقريباً. «لا تريدين؟ لا بأس. استمعي الآن، سوف أقول لك شيئاً! لن تكوني أبداً صالحة لأي شيء. لقد ولدت متخلفة، وهكذا ستبقين دائماً». استجمعت الطفلة الصغيرة شجاعتها: «إذن، أنت... كنت تعرف؟» «أعرف ماذا يا حشرة؟ ما الذي كنت أعرفه؟» «كنت تعرف... أن... أن... شجرة النقود... ليست أبداً... أبداً؟...» فقد ساني أعصابه من جديد: «ماذا؟ لا تحاولي اتهامي. كان عليك أن تصلي

إلى هذه النتيجة قبل هذا، يا متخلفة! تريدين مني تصديق أن شيئاً من هذا لم يخطر في بالك من قبل؟ أنت لست غبية إلى هذه الدرجة؟» أخرج عوداً من الكبريت وأشعل سيجارته وهو يحميها من الهواء بكفه. «رائع! إذن فأنت من انزعج الآن!... بدلاً من أن تكوني سعيدة لأنني أوليك بعض الاهتمام!» نفخ دخان سيجارته ثم أغمض عينيه قليلاً: «هكذا! انتهى اللقاء! ليس لدي وقت للوقوف هنا ومجادلة الحمقى. انصرفي أيتها الطفلة الصغيرة. انقلعي». دفع إيستي بإصبعه، لكنه صاح بها عندما انطلقت راكضة: «عودي إلى هنا! اقتربي! اقتربي قلت لك. جيد. ما هذا الذي في جيبك؟» مد يده إلى جيب السترة الصوفية وأخرج الكيس الورقي: «بحق الجحيم! ما هذا؟!» رفع الكيس ونظر إلى الكتابة عليه. «يا للهول! إنه سم الفئران! من أين حصلت عليه؟!» لم تستطع إيستي التفوه بكلمة واحدة. عض ساني على شفته. «لا بأس. إنني أعرف على أية حال. إنه من الحظيرة، وقد سرقته من هناك! أليس هذا صحيحاً؟» شد على الكيس بيده. «لماذا تريدين هذا السم أيتها المتخلفة الصغيرة؟ كوني لطيفة وأخبري أخاك الكبير!» لم تأت إيستي بأي حركة. تابع الصبي ضاحكاً: «أفهم الأمر الآن. هنالك كومة من الجثث في البيت الآن، صحيح؟ وبعد ذلك يأتي دوري أنا، أليس كذلك؟ دعينا نرى إن كان لديك ذرة من الشجاعة! ها أنت هنا!» دفع بالكيس ثانية في جيب السترة الصوفية: «لكن عليك أن تكوني حذرة. إنني أراقبك». بدأت إيستي الجري صوب الحانة وهي تتمايل قليلاً كأنها بطة. صاح ساني خلفها: «تمهلي الآن! كوني حذرة! لا تستعمليه كله مرة واحدة!» ظل واقفاً في المطر برهة منحني الكتفين رافع الرأس حابساً أنفاسه مصغياً إلى أصوات الليل، ثم ثبت عينيه إلى النافذة البعيدة وضغط بإصبعه على بثرة في وجهه ثم بدأ يجري هو أيضاً وانعطف عند مركز عمال إصلاح الطرقات، ثم اختفى في الظلام. ظلت إيستي تنظر خلفها فرأته خلال جزء من الثانية، رأت سيجارته

مشتعلة في يده كأنها شهاب يذوي ولا يعود إلى الظهور أبداً، شهاب يظل أثره بضع دقائق في السماء المظلمة، ثم تغيم حدود ذلك الأثر ويمتصه ضباب الليل الثقيل آخر الأمر، ضباب الليل الذي أطبق فكّيه عليها الآن فغابت الطريق من تحتها على الفور وأحست بأنها تسبح في الظلمة من غير شيء تستند إليه، أحست بأنها تسبح عديمة الوزن معزولة تماماً. كانت تجري نحو الضوء المتراقص في نافذة الحانة كأنه تعويض لها عن وهج سيجارة شقيقها الضائع؛ ارتعدت برداً عدة مرات عندما بلغت تلك النافذة وتعلقت بحافّتها البارزة لأن ثيابها كانت غارقة بالماء حتى جسدها، وكانت قطعة الستارة المخرمة ملتصقة بجسمها الحارّ فأحست كأنها جليد يلفّها. وقفت على رؤوس أصابعها لكنها لم تستطع أن تصل إلى النافذة تماماً، وهكذا كان عليها أن تقفز لكي ترى ما في الداخل؛ لكن أنفاسها ضببت الزجاج فلم تستطع إلا سماع أصوات متداخلة في الحانة، وقعقعة الكؤوس، وصوت بضع كؤوس تتكسر، وصوت نتف من ضحكات سرعان ما ذابت في أصوات حديث بشري أكثر ارتفاعاً. كان رأسها مليئاً بالصخب: أحست كأن سرباً من طيور غير مرئية يزعق ويحوم من حولها. ابتعدت عن ضوء النافذة واستندت إلى الجدار بظهرها وراحت تنظر حالمة إلى الأرض التي أنارتها بقعة الضوء المنبعثة من النافذة. كان هذا ما جعلها تنتبه في اللحظة الأخيرة فقط إلى وقع خطوات ثقيلة وصوت لهاث عندما ظهر شخص قادم من الطريق وصعد الدرجات المفضية إلى باب الحانة. لم يعد لديها وقت للهرب الآن فاكتفت بالوقوف ملتصقة بالجدار وقد تسمَّرَت قدماها بالأرض آملة ألا يلاحظها ذلك القادم. لم تتحرك من مكانها إلا عندما رأت أنه الطبيب. جرت إليه مذعورة. أمسكت بمعطفه المبلل، كانت تفضل أن تختبئ داخل ذلك المعطف سعيدة لكن السبب الوحيد الذي جعلها لا تنفجر باكية هو أن الطبيب لم يعانقها فاكتفت بالوقوف أمامه خافضة الرأس ودقات قلبها متسارعة والدم ينبض في

أذنيها، لم تنتبه إلى أن الطبيب كان يقول لها شيئاً، ولم تفهم إلا أنه كان ينتظر نافد الصبر أن يتخلّص من قبضة يدها، لم تكن قادرة على فهم كلماته، وسرعان ما تحول ارتياحها لرؤيته إلى مرارة غير مفهومة لأنه كان يريد منها أن تبتعد عنه بدلاً من أن يعانقها. لم تستطع أن تفهم ما أصاب الطبيب، لم تستطع أن تفهم ما أصاب الرجل الذي «سهر الليل كله ذات مرة إلى جانب فراشها وهو يمسح العرق عن وجهها»، فلماذا يكون عليها الآن أن تخوض معركة حتى تظل ممسكة بمعطفه وحتى تمنعه من دفعها بعيداً عنه. لكنها، ببساطة، لم تكن تستطيع ترك طرف ذلك المعطف، ولم تستسلم إلا عندما رأت أن كل شيء من حولهما قد راح يتقلص ويرتفع، وصار استمرار التمسك بالطبيب أمراً لا طائل منه لأنها رأت، أخيراً، أن كل شيء قد انتهى، وراحت تنظر مذعورة إلى الأرض تنفتح تحتهما وإلى الطبيب يختفي في تلك الهوة التي لا قرار لها. بدأت تجري وجوقة من أصوات نابحة تتبعها، كأنها أصوات كلاب متوحشة، أحست بأنها النهاية، وأنها لم تعد قادرة أن تفعل شيئاً، وأن تلك الأصوات المزمجرة موشكة على الإمساك بها ورميها في الطين، ثم حل الصمت فجأة وما عاد من حولها إلا همهمة الريح وانفجارات ناعمة لمليون قطرة من قطرات المطر الصغيرة تغطي الأرض من حولها. لم تجرؤ على تخفيف سرعتها قليلاً إلا عندما وصلت إلى حافة مزرعة هوتشميس، لكنها لم تكن قادرة على التوقف. سفحت الريح ماء المطر على وجهها، وانحلت أزرار سترتها الصوفية، لم تستطع التوقف عن السعال. كان لكلمات ساني المخيفة وللحادثة الكريهة مع الطبيب أثر كبير عليها جعلها غير قادرة على التفكير؛ لم تعد تجذب انتباهها إلا الأشياء الصغيرة: انحل رباط حذائها... كانت السترة الصوفية محلولة الأزرار... ألا يزال الكيس الورقيّ معها؟... وعندما بلغت القناة وتوقفت عند تلك الحفرة في الأرض، حل عليها هدوء غريب. قالت في نفسها: «نعم، نعم، الملائكة ترى هذا وتفهمه».

نظرت إلى الطين المبعثر حول الحفرة، وكان الماء يقطر في عينيها من حاجبيها، وبدأت الأرض أمامها تتماوج... بلطف شديد. ربطت شريط حذائها وزررت السترة الصوفية ثم حاولت ردم الحفرة بدفع التراب فيها بقدمها. ثم توقفت وتركت الأمر. استدارت جانباً فرأت جسد ميكور الميت ممدداً على الأرض. كان فراء القطة غارقاً في الماء، وكانت عيناها الزجاجيتان محدقتين في لا شيء، وكان بطنها متهدلاً على نحو غريب. قالت بصوت هادئ مخاطبة الجثة: «أنت آتية معي». ثم رفعتها من الطين. احتضنتها بقوّة ثم انطلقت مصممة بعد أن استقر رأيها. سارت مع القناة فترة ثم انعطفت قبل مزرعة كيريكس فبلغت الدرب الطويلة المتعرّجة الملتفّة من حول مزرعة بوسبيليك التي تتقاطع مع الطريق المعبدة داخل البلدة ثم تمضي مباشرة فتمر بأطلال قلعة واينخيم بالقرب من غابات بوسبيليك التي يلفها الضباب. حاولت السير بحيث يكون احتكاك بطانة حذائها بعقبي قدميها أقل ألماً لأنها كانت تعرف أن أمامها مسيرة طويلة: عليها أن تصل إلى قلعة واينخيم مع بزوغ الفجر. كانت سعيدة لأنها ليست وحيدة ولأن ميكور تدفئ بطنها قليلاً. «نعم»، قالت مرددة لنفسها، «الملائكة ترى هذا وتفهمه». أحست الآن بسلام أكثر وضوحاً، أكثر عرياً: الأشجار، والطريق، والمطر، وحتى الليل، كانت كلها تشعّ سكينة. قالت في نفسها: «كل ما يحدث خير». أخيراً، صار كل شيء بسيطاً، إلى الأبد. رأت صفَّي أشجار الأكاسيا على جانبَي الطريق، المشهد الذي يختفي في الظلام بعد أمتار قليلة منها، كانت تحس بالمطر ورائحة الطين الخانقة وعرفت جازمة أن ما تفعله صواب تماماً. فكرت في أحداث ذلك اليوم وابتسمت عندما فهمت كيف أنها مرتبطة كلها: أحست بأن الأمر لم يكن مصادفة، ولا حادثاً، بل هو منطق جميل لا يمكن وصفه يربط تلك الأشياء كلها معاً. عرفت أنها لم تكن وحيدة وأن كل شيء وكل شخص (والدها في السماء، وأمها وإخوتها، والطبيب، والقطة، وأشجار الأكاسيا، وهذه

الدرب الموحلة، وهذه السماء والليل من تحتها) كان معتمداً عليها مثلما هي معتمدة على كل شيء آخر. «كم سأكون بطلة عظيمة! عليَّ أن أتابع السير فقط». شدت ميكور إليها بقوة أكبر ورفعت رأسها ناظرة إلى السماء الجامدة، ثم توقفت سريعاً: «سوف أجعل نفسي مفيدة عندما أكون هناك».

بدأت السماء تضيء قليلاً ناحية الشرق؛ وعندما لمست أشعة الشمس الأولى جدران قلعة واينخيم وتدفقت عبر الثغرات وفتحات النوافذ الكبيرة فدخلت الغرف الضخمة المحترقة، كانت إيستي قد أنجزت استعداداتها كلها. مددت ميكور على الأرض إلى جانبها، وبعد أن قسمت ما بقي من محتويات الكيس بطريقة أخوية، نصفاً بنصف، وتمكنت من ابتلاع حصتها مستعينة بقليل من ماء المطر، وضعت الكيس الورقي إلى جهة اليسار على الأرضية الخشبية المهترئة لأنها أرادت ضمان أن يراه شقيقها. استلقت في الوسط ومدت ساقيها واسترخت. ردت شعرها عن جبهتها ووضعت إبهام يدها في فمها وأغمضت عينيها. لا حاجة إلى القلق. كانت تعرف تمام المعرفة أن ملائكتها الحارسة قادمة في الطريق إليها.

6. شباك العنكبوت (2)

لعبة إبليس، تانغو الخراب

«ما هو خلفي يظل ماثلاً أمامي. ألا يحظى الإنسان بالراحة؟» قال فوتاكي هذا لنفسه بمزاج نكِدٍ عندما رأى، وهو يخطو خطوات خفيفة كالقط متكئاً على عصاه، شميدت الصامت صمتاً عنيداً ومعه السيدة شميدت، الصامتة لحظةً، العاوية لحظةً أخرى، جالسَيْن إلى يمين صاحب الحانة على «طاولته الشخصية»، فجلس متثاقلاً على الكرسي تاركاً كلمات المرأة تنزلق مارّة به («أرى أنك ثمل! وأظن أيضاً أن الشراب قد صعد إلى رأسي بعض الشيء، ما كان عليَّ أن أتناول أكثر من نوع واحد من الشراب، لكن... لكنك سيد لطيف حقاً...») عندما أمسك بالزجاجة الجديدة ودفع بها إلى منتصف الطاولة وقد ارتسمت على وجهه نظرة بلهاء متسائلاً عن السبب الذي يجعله يشعر بهذه الكآبة فجأة، ذلك أنه لم يكن لديه ـ حقاً ـ أي سبب للكآبة، فبعد كل حساب، لم يكن هذا اليوم مثل الأيام الماضية لأنه أدرك أن ما قاله صاحب الحانة سوف يتضح قريباً وأن «أمامهم بضع ساعات فقط، بضع ساعات قصيرة من الانتظار» حتى يصل إرمياس وبيترينا فيضع وصولهما نهاية لسنوات من «البؤس الرهيب» ويتحطم الصمت الكئيب ويتوقف الجرس الجنائزي الأبدي، ذلك الجرس الذي لا يترك الناس يرتاحون في الفراش عند الصباح الباكر

فيصير عليهم أن يقفوا هناك عاجزين والعرق يقطر منهم بينما يتساقط كل شيء ببطء ويتفكك. أما شميدت الذي رفض أن يقول كلمة واحدة منذ أن وضع قدمه في الحانة (كان يغمغم فقط مولياً «الأمر الملعون كله» ظهره في تلك الجلبة المرتفعة عندما يتقاسم كرانر والسيدة شميدت النقود) فقد رفع رأسه الآن وحدق في زوجته غاضباً وهي تتمايل على حافة كرسيها بشكل خطر («لقد وصل الشراب كله إلى رأسك، إن لم أقل إلى مؤخرتك أيضاً. أنت ثملة مثل السمندل») ثم استدار إلى فوتاكي الذي كان موشكاً على ملء كأسيهما من جديد وقال له: «لا تصبّ لها، اللعنة على هذا! ألا تستطيع أن ترى حالتها؟!» لم يجبه فوتاكي ولم يحاول التماس أي عذر بل أشار بيده ببساطة إشارة تقول إنه متفق معه تماماً، ثم أعاد الزجاجة إلى مكانها من جديد. لقد أمضى ساعات طويلة وهو يحاول أن يشرح الأمر لشميدت، لكن الرجل كان يهز رأسه: كان رأي شميدت «أنهما حظيا بالفرصة ثم ضيّعاها» بالجلوس هنا في الحانة مثل «أغنام خائرة العزم» بدلاً من الاستفادة من الاضطراب الذي يخلقه مجيء إرمياس وبيترينا للانسلال بهدوء حاملين المال، بل الأفضل من ذلك أيضاً هو أنه «يمكننا أن نترك كرانر هنا ليتعفن...». ومهما حاول فوتاكي أن يشرح له أن كل شيء سيكون مختلفاً، اعتباراً من الغد، وأن على شميدت أن يهدأ فقط لأن الحظ ابتسم لهما حقاً هذه المرة، فقد كان شميدت يرسم تعبيراً ساخراً على وجهه ويظل صامتاً؛ وهكذا استمر الأمر إلى أن أدرك فوتاكي أنهما لا يمكن أن يتفقا لأنه طالما كان صديقه القديم غير مستعد لقبول أن إرمياس كان «فرصة حقيقية» فإنه لن يتفق معه على وجود أي خيار آخر: من غيره (ومن غير بيترينا أيضاً، بطبيعة الحال) سوف يسيران هنا وهناك على غير هدى، كالعميان، من غير دليل يستهديان به، وسيتبادلان الصياح، وسيتشاجر كل منهما مع الآخر «مثل خيول محكومة بالموت في المسلخ». كان ـ بالطبع ـ يفهم في مكان عميق في داخل رأسه سبب هذه

المقاومة لدى شميدت لأنهما رزحا سنوات طويلة تحت لعنة الحظ السيئ، رغم أنه كان يرى أملاً حقيقياً في أن يهتم إرمياس بالأمور كلها فيتحسن كل شيء نتيجة ذلك ويكون معنى هذا أنهم سيتمكنون أخيراً من «جعل الأمور تسير» لأن إرمياس هو الرجل الوحيد القادر «أن يجمع معاً كل الأشياء التي تنفرط وتتساقط عندما نتولى الأمر بأنفسنا». فأي أهمية عند ذلك لأن يختفي مبلغ من المال كأنه دخان، مبلغ غير معروف مقداره؟ على الأقل، لن يكون عليهما أن يشعرا بهذه المرارة تجاه أي شيء وأن يجلسا يوماً بعد يوم يراقبان الجص يتساقط من الجدران ويراقبان الجدران والسقوف تتهاوى؛ ولن يكون عليهما أن يهتما بتباطؤ نبضات قلبيهما وبالخدر المتزايد في أطرافهما. هذا لأن فوتاكي كان واثقاً من أنه لا دورة الفشل هذه الماضية من أسبوع لأسبوع ومن شهر لشهر التي تتهاوى فيها الخطط نفسها (الخطط المتزايدة تشوّشاً) فجأة وتستحيل إلى رماد، ولا ذلك التوق الواهن إلى الحرية، كانا يشكلان خطراً حقيقياً. بل على العكس، كانت تلك هي القوى التي تجمعهما معاً لأن الحظ العاثر والفناء التام شيئان مختلفان تماماً، أما الآن، مثلما صارت الأشياء آخر الأمر، فإن الفشل صار غير مطروح أبداً. كان يبدو له أن الخطر الحقيقي آت من مكان آخر، من مكان ما تحت أقدامهم، رغم أن مجراه محكوم بأن يكون غير أكيد: رجل يجد الصمت مخيفاً على نحو مفاجئ، يخاف أن يتحرك، يلطي في زاوية يأمل أن تحميه. حتى المضغ يصبح تعذيباً هناك، ويصير البلع ألماً مبرحاً، فلا يلاحظ آخر الأمر أن كل شيء من حوله قد أبطأ، ولا يلاحظ أنه صار أكثر التصاقاً بمكانه، ثم يكتشف أخيراً أن انسحابه الاستراتيجي ما كان بأقل من حالة تحجّر. تلفت فوتاكي حوله خائفاً، ثم أشعل سيجارة بيدين مرتجفتين وابتلع شَرِهاً ما كان باقياً في كأسه. قال موبخاً نفسه: «لا يجوز أن أشرب؛ كلما شربت أصبح عاجزاً عن منع نفسي من التفكير في التوابيت». مد ساقيه واستند بظهره إلى كرسيّه

مرتاحاً، ثم قرر ألا يشغل نفسه بأفكار مخيفة أكثر من ذلك؛ أغمض عينيه وترك الدفء والنبيذ والأصوات تتخلل عظامه كلها. كان الألم السخيف الذي استولى عليه قبل لحظة قد زال عنه في اللحظة التي تلتها: صار الآن مصغياً فقط إلى الجلبة المرحة من حوله، تأثر كثيراً (إلى حد جعله يكاد يكون غير قادر على رد دمعة كادت تقطر من عينه) لأن قلقه السابق زال وحل محله شعور بالعرفان لأنه يحظى الآن، بعد هذه العذابات كلها، بمزية القدرة على الجلوس وسط هذا الصخب، متفائلاً مستثاراً آمناً من كل شيء كان عليه أن يواجهه. إذا كان قد استهلك ثماني كؤوس ونصفًا، فإن لديه قوة باقية تكفي لأن يعانق كل من هذين الصاحبين المتعرقين المشيرين إليه بيديهما لأنه كان عاجزاً عن مقاومة رغبته في إعطاء شكل رسمي لهذه المشاعر العميقة. لكن المشكلة أنه أصيب بصداع عنيف من غير توقع، أحس بالحر فجأة وصارت معدته تعلو في جوفه وكسا العرق حاجبيه. غرق في أعماق نفسه، ضعيفاً تماماً، وحاول تحسين حالته بأن يتنفس تنفساً عميقاً فلم يسمع حتى كلمات السيدة شميدت («ماذا بك؟ هل أصابك الصمم أم ماذا؟ أنت، فوتاكي، هل أنت مريض؟») التي رأت فوتاكي يدلك معدته وقد شحب وجهه، كان من الواضح أنه يعاني، فلوحت بيدها («آه، طيب. ها هو شخص آخر لا يمكن الاعتماد عليه») واستدارت لتواجه نظرة صاحب الحانة الذي كان يحدق فيها منذ وقت طويل بتعبير شهواني شديد الوضوح. «هذه الحرارة غير محتملة! يانوس، افعل شيئاً بحق السماء!» لكنه بدا كأنه لم يسمعها «في هذه الضوضاء الجهنَّمية». اكتفى بأن فتح كفيه، ومن غير أن يرد على السيدة شميدت وعلى كلامها الفارغ عن المدفأة، قذفها بنظرة محمَّلة بالمعاني العميقة. أدركت المرأة أن محاولاتها لا طائل منها، فجلست غاضبة وفكت الزر العلوي في قميصها الأصفر الليموني مما أسعد صاحب الحانة الذي نظر إليها مسروراً لأن عمله الصبور قد توِّج أخيراً بالثمرة المرجوة. مرت عليه

ساعات الآن وهو يزيد قوة النار، خفيةً وبحيطة ضرورية تستحق الثناء، وأخيراً... بحركة سريعة واحدة... نزع أداة ضبط الوقود في المدفأة ـ «فبعد كل حساب، من الذي يستطيع أن يلاحظ الأمر في هذا الهرج والمرج كله؟» ـ حتى يمكن أن «تتحرر» السيدة شميدت من معطفها أولاً، ثم من سترتها الصوفية... صار مفعول سحرها عليه الآن أقوى من أي وقت مضى. كانت السيدة شميدت قد رفضت كل محاولاته، وكان الفشل مصير جهوده كلها ـ رغم أنه لم يستسلم أبداً ـ ولم تفعل العذابات التي مر بها عند كل رفض إلا أن ازدادت في كل مرة. لكنه كان صبوراً، وقد انتظر، وواصل الانتظار، لأنه أدرك منذ اللحظة الأولى عندما فاجأ السيدة شميدت في الطاحون بين ذراعي سائق الجرار الشاب ـ بدلاً من أن تقفز واقفةً على قدميها وتجري خجلة مبتعدة، واصلت ما كانت فيه وتركته واقفاً هناك، جافّ الحنجرة، إلى أن أوصلها الشاب أخيراً إلى ذروة المتعة ـ أن الأمر سوف يقتضي جهداً بعيد المدى حتى يفوز بها. لكنه، ومنذ أن انتبه قبل بضعة أيام إلى أن الصلات بين فوتاكي والسيدة شميدت قد «تراخت»، إن جاز التعبير، صار غير قادر تقريباً على إخفاء سروره لأنه أحس بأن دوره قد جاء الآن وأن تلك هي فرصته الحقيقية. وأما الآن فقد أصابه الضعف لمرأى يد السيدة شميدت تمسك قميصها عند صدرها وتستخدمه لتهوية نفسها، بدأت يداه ترتجفان ولم يستطع التحكم بهما، وغامت عيناه تماماً. «هذان الكتفان! هذان الفخذان الصغيران اللذان يحتك أحدهما بالآخر، وهذان الردفان، وهذان الثديان، يا ربي!» أرادت عيناه أن تحيطا بالمشهد كله دفعة واحدة، لكنه لم يستطع (لشدة الإثارة) إلا أن يركز على «التسلسل المدوِّخ» لهذه التفاصيل كلها. غار الدم من وجهه وأحس بالدوار: كان يحاول عملياً أن يلفت انتباه عينَي السيدة شميدت غير المباليتَين («يبدو كأنه شخص أحمق...»)، ولأنه كان غير قادر على تحرير نفسَه من الوهم القائل إنه يستطيع تلخيص كل حالة من

حالات الحياة، من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً بعبارة بارعة واحدة، فقد سأل نفسه: «أيعقل أن يحاول أي رجل توفير الوقود أمام امرأة كهذه؟» كان ذلك كله حلماً سعيداً واحداً. لكن، لو كان يعرف مدى عقم محاولاته، وكم هو بعيد عما ترغب تلك المرأة فيه الآن، فلعله كان ينسحب إلى مستودعه مرة أخرى حتى يداوي جراحه الجديدة محمياً هناك من نظرات الآخرين العدائية ومتجنباً السخرية الضاحكة التي ستواجهه. ولأنه لم يكن قادراً حتى على تخمين أن ما اعتبره نظرات تشجيع من السيدة شميدت (نظرات من الواضح أنها كانت موجهة أيضاً إلى كرانر وهاليكس ومدير المدرسة، وإليه أيضاً)، وأن الطريقة التي قادتهم بها إلى دوّامة الرغبة الخطيرة هذه بأطرافها الممدودة المسترخية، لم تكن إلا أسلوبها في ملء الوقت بينما كان كل سنتيمتر من خيالها مكرَّساً لإرمياس، وكانت ذكرياتها عنه تقرع «حواف وعيها المعشوشبة مثلما يفعل بحر غاضب وقت العاصفة»، ذكريات ممتزجة بصور مثيرة عن حياتيهما معاً في المستقبل، صور كثفت كرهها ومقتها للعالم المحيط بها الذي «يجب أن تودعه قريباً». وإذا حدث من حين لآخر أن تمايل ردفاها أو سمحت للعيون الشرهة بتأمل مشهد نهديها البارزين، فإن ذلك لم يكن يحدث لجعل الساعات المرهقة الباقية تمر سريعاً فقط بل كان أيضاً استعداداً للقائها المرتقب مع إرمياس عند تلك النقطة التي «يتحد فيها قلباهما في سعادة لا تزال تتذكّرها». كان واضحاً تماماً لكرانر ولهاليكس (بل حتى لمدير المدرسة)، خلافاً لصاحب الحانة، أن لا أمل لهم أبداً: كانت سهام رغباتهم تتساقط عند قدمي السيدة شميدت خائبة؛ لكن ذلك جعلهم، على الأقل، قادرين على القبول بعدم جدوى رغباتهم: تستطيع الرغبة أن تبقى، أن تبقى على الأقل، من غير موضوعها. كان مدير المدرسة الأصلع النحيل الطويل («المشدود كالوتر...»)، برأسه الصغير غير المتناسب مع جسمه، جالساً خلف كيريكس في الزاوية مترفّعاً وأمامه كأس النبيذ. لقد

سمع بمحض المصادفة عن وصول إرمياس المتوقع، رغم أنه الشخص الوحيد المتعلم في المنطقة!... باستثناء الطبيب الثمل دائماً. من يظن هؤلاء الناس أنفسهم؟ وماذا يظنون أنهم فاعلون؟ لو أنه لم يضق ذرعاً بعدم دقة مواعيد شميدت وكرانر ويغلق المركز الثقافي بعد أن وضع جهاز الإسقاط (هذا ما كان ملتزماً به خطياً) في مكان آمن وقرر «الذهاب لمعرفة الأخبار» في الحانة، فلعله لم يكن ليسمع أبداً بقصة عودة إرمياس وبيترينا... ثم ماذا كان يمكن لهؤلاء الناس أن يفعلوا من غيره؟ من سيحمي مصالحهم؟ أيظنون أنه سيقبل ما قد يقترحه إرمياس مثلما هو... من غير سؤال؟ من غيره يستطيع أن يتقدم ليكون قائداً لهؤلاء الرعاع؟ لا بد أن يمسك أحد ما بالزمام، وأن يضع خطة وينظم «كل ما يلزم» ضمن قائمة واضحة! عندما انجلت نوبة غضبه الأولى («هؤلاء الأشخاص لا أمل فيهم! ما العمل؟ من المؤكد أن علينا أن نكون منهجيين في هذا الأمر؛ لا نستطيع أن نؤجل كل شيء من يوم لآخر...») صار انتباهه موزَّعاً بين السيدة شميدت وبين وضع تفاصيل تلك الخطة؛ لكنه سرعان ما تخلى عن الاهتمام الثاني لأنه كان مقتنعاً تماماً، استناداً لسنوات طويلة من الخبرة بأنه «على المرء، في أي وقت بعينه، بأن يركز على شيء واحد فقط». كان مقتنعاً بأن هذه المرأة مختلفة عن غيرها. لا يمكن أن يكون الأمر مجرد مصادفة عندما رفضت محاولات أبناء المنطقة الآخرين الفظة الحيوانية للتقرب منها، رفضتهم واحداً تلو الآخر. أحس أن السيدة شميدت في حاجة إلى «رجل جدي. رجل له معنى» وليس إلى شخص من نوع السيد شميدت، شميدت الذي لا تلائم شخصيته الخشنة روحها البسيطة الفطنة المصقولة... لا تلائمها على الإطلاق! «وفي التحليل الأخير»، لا عجب في أن تكون هذه المرأة منجذبة إليه ـ لا مجال أبداً للشك في انجذابها هذا ـ وتكفي ملاحظة أنها الشخص الوحيد في المزرعة الذي لم يحاول السخرية منه أبداً، حتى عندما جرى إغلاق

المدرسة، فقد ظلت تخاطبه بلقب «المدير». ولا بد أن مسلك هذه المرأة نحوه (بمعزل تماماً عن مسألة الانجذاب، بل يمكن القول إن في الأمر احتراماً جلياً واضحاً) كان يُظهر أنها تدرك كونه ينتظر اللحظة المناسبة فقط (ستكون تلك اللحظة عندما يستعيد الأشخاص المناسبون، الأشخاص الصالحون الذين يأتون في المرتبة الأولى من الناحيتين الإنسانية والمهنية معاً، مناصبهم الرسمية التي تركوها حتى يفسحوا مجالاً لتلك الجمهرة الغوغائية من المهرجين لما يمكن اعتباره مجرد نوع من الانسحاب الاستراتيجي الموقت) حتى يجدد بناء المدرسة و«ينطلقوا بحيوية» في التعليم من جديد. ثم إن السيدة شميدت، بطبيعة الحال ـ لماذا ينكر المرء ذلك؟ ـ كانت امرأة مليحة حقاً؛ الصور التي التقطها لها (التقط هذه الصور منذ سنوات باستخدام آلة تصوير رخيصة لكنها موثوقة تماماً) كانت أفضل بكثير، في رأيه، من الصور «المصطنعة كثيراً» التي يراها في مجلة فولز للألعاب والأحجيات التي كان يقرأها محاولاً التخلص من ليالي الأرق المليئة بالقلق من غير نهاية... لكن، ربما بسبب التأثير المعروف عادة للإجهاز على زجاجة ثانية من النبيذ، فقد خذلته فجأة أفكاره التي تكون عادة واضحة منظَّمة منهجية: اضطربت معدته، وبدأت «العروق» في رأسه تنبض نبضاً مؤلماً، وصار شبه مستعد لأن يقفز واقفاً على قدميه متجاهلاً ثرثرة هؤلاء «الفلاحين» البدائية ليدعو المرأة إلى طاولته، راحت عيناه تجوسان المواضع السرية الخبيثة في جسد السيدة شميدت، هنا وهناك، عندما التقت نظرته المستثارة بعينيها اللامباليتين من فوق هيكل كيريكس المنكبّ بوجهه فوق طاولة البلياردو وشخيره يملأ المكان، وبدا له أن اللامبالاة المطلقة في عينيها قد اخترقته مباشرة فاحمر وجهه وتراجع مختفياً خلف جسد الفلاح الضخم حتى يبقى «وحيداً مع خجله» أو حتى يقلع عن تلك الفكرة على الأقل، لساعة أو نحو ذلك، تماماً مثلما فعل هاليكس الذي توقف فجأة في منتصف الجملة ـ بعد أن

رأى أن السيدة شميدت لم تسمعه رغم جلوسها قبالته، أو أنها سمعته لكنها ببساطة لم تكن تريد سماع قصته المثيرة عن أحداث عائلية قديمة ـ وترك كرانز يواصل الصياح والمشاجرة مع السائق الذي كان أكثر منه غضباً، لكن من غير الاستعانة به ـ «اعذرني!» ـ لأنه لم يكن يريد أن يدخل في جدالٍ معه؛ وبعد أن اتخذ هذا القرار أزاح خيوط العنكبوت عن ملابسه وحدَّق محبطاً في رأس صاحب الحانة الدهني الراضي عن نفسه الذي كان يحاول استمالة أنظار السيدة شميدت، وذلك أنه خلص ـ بعد قدر غير قليل من التفكير ـ إلى أن تكاثر شباك العنكبوت لا بد أن يكون نوعاً جديداً من الألاعيب، لا بد أن يكون جزءاً من حِيَل صاحب الحانة لأن «كومة الخراء هذه لا مكان لها في العالم». كم كان هذا الرجل وغداً! ما كان يكفيه أن يزعج الناس إزعاجاً مستمراً بكلامه الطفوليّ الفارغ، بل صار الآن يحاول مغازلة السيدة شميدت أيضاً! وبما أن هذه المرأة كانت له وحده... أو، ستكون له وحده عما قريب لأن الأعمى نفسه يستطيع أن يرى أنها ابتسمت له مرتين على الأقل، وأنه أجابها بابتسامة أيضاً!... بالنظر إلى هذا كله ـ فالأمر واضح لمن يريد أن يرى، وهو واضح خاصة لعينيه الحادّتين كما هو معروف عنه ـ لم يكن هنالك أي حد للمدى الذي يمكن أن يبلغه تحرّش قاطع الطريق هذا، الاستغلالي الذي لا يستحي، هذا المخادع المقرف!... صحيح أن هذا الرجل مليء مالياً، وأن مستودعه مزدحم إلى آخره بالنبيذ والبراندي والطعام، فضلاً عما في الحانة نفسها (إن لم نذكر السيارة الواقفة في الخارج أيضاً) لكنه يريدها هي أيضاً! ويريد المزيد والمزيد! هذا رجل لا يعرف الشبع! يريد أن يغازل السيدة شميدت أيضاً! لقد تجاوز الحد كثيراً هذه المرة! كان هاليكس مصنوعاً من مادة أكثر صلابة. لم يكن مستعداً لتحمل هذه السفالة كلها! يظن الجميع أنه فأر صغير جبان، لكن هذا مظهر خارجي فحسب، هذا هو الرجل الخارجي في هاليكس. لا بأس، فليأتوا بإرمياس وبيترينا! إن

الرجل الداخلي في هاليكس قادر على أشياء لا يستطيعان أن يحلما بها أبداً! أفرغ كأس النبيذ، ثم ألقى نظرة جانبية على زوجته الحجرية ذات العينين اليقظتين، ومد يده سريعاً ليملأ الكأس من جديد لكنه اكتشف، يا للدهشة أن الزجاجة كانت فارغة (كان متذكراً تماماً أن فيها كأسين على الأقل). صاح بصوت مرتفع: «هنالك من سرق نبيذي!» ثم قفز واقفاً على قدميه ملقياً نظرات محدقة من حوله لكنه لم ير أي زوج من العيون المجفلة المذنبة، فدمدم متذمراً وعاد ليجلس في كرسيه. كان دخان التبغ الآن قد صار كثيفاً إلى حد جعل الرؤية من خلاله أمراً صعباً: كانت المدفأة النفطية تضج بالحرارة، صار سطحها أحمر اللون متقداً، وصار كل من في الحانة يتصبب عرقاً. ارتفعت الجلبة، ثم ارتفعت، لأن أصحاب الأصوات العالية كلهم، كرانر وكيليمين والسيدة كرانر (وكذلك السيدة شميدت عندما استعادت قواها) حاولوا جميعاً أن يعلوا بأصواتهم فوق الضجيج، وفوق هذا كله استيقظ كيريكس أيضاً وراح يطالب صاحب الحانة بزجاجة أخرى. كان كرانر يقول مندفعاً: «هذا ما تظنه يا صاحبي!» كانت كأسه في يده، وكان يلوح بذراعيه تحت أنف كيليمين تماماً وقد نفرت العروق في جبهته والتمعت عيناه الحسيرتان بالوعيد. قفز السائق واقفاً وهو يقول: «لست صاحباً لك»، فقد أعصابه تماماً... «لم أكن صاحب أحد أبداً في حياتي كلها، هل تفهم؟» حاول صاحب الحانة تهدئتهما من خلف طاولته («كفّا عن هذا من فضلكما! إنكما تسببان ضجيجاً يجعل الصداع يشق رأس المرء!») لكن كيليمين دار من حول طاولة فوتاكي وجرى صوب طاولة صاحب الحانة. «لا بأس، قل له إذن! لا بد أن يقول له أحد!» رفع صاحب الحانة أنفه: «أقول له ماذا؟ ألا تستطيع نسيان الأمر، ألا تستطيع أن ترى أنه يزعج الجميع؟» لكن كيليمين ازداد غضباً بدلاً من أن يهدأ: «يبدو أنك لا تفهم الأمر أنت أيضاً! هل أنتم أغبياء كلكم؟!» قال هذا ثم بدأ يضرب بقبضته على طاولة صاحب الحانة: «عندما كنت... نعم، أنا...

كنت صديقاً لإرمياس بالقرب من مدينة نوفوسيبيرسك... في معسكر أسرى الحرب؛ لم يكن هناك أي بيترينا في ذلك الوقت! هل تفهمون؟! لم يكن هناك بيترينا!» «ماذا تعني بقولك إنه لم يكن هناك؟ لا بد أنه كان في مكان ما؟» قال كيليمين هذا وقد ظهر الزبد على فمه، ثم رفس طاولة صاحب الحانة رفسة قوية. «انظر، إذا كنت أقول إنه لم يكن موجوداً فهذا يعني أنه لم يكن موجوداً في أي مكان. بكل بساطة... في أي مكان!» حاول صاحب الحانة تهدئته: «طيب، طيب! فليكن ما تريد؛ كن لطيفاً الآن وعد إلى طاولتك وكفَّ عن رفس طاولتي وتحطيمها». كشر كرانر وصاح من فوق رأس فوتاكي: «أين كنت أنت؟! وكيف صرت في نوفوسيبيرسك، لا أدري إن كان هذا اسمها، عليها اللعنة؟ انظر يا صاحبي، إذا كنت لا تستطيع أن تتحمل الشراب، فكف عن الشراب». حدّق كيليمين في صاحب الحانة وقد ارتسم الكره في تعابير وجهه، ثم استدار صوب كرانر وهز رأسه ليعبر عن المزيج المناسب من الغضب والمرارة، وفتح كفيه بطريقة استعراضية أمام الجهل الفاضح عند هذا الرجل... تهادى عائداً إلى طاولته وحاول تهدئة نفسه بالجلوس في وضع مريح، لكنه أخطأ الحساب فجعل الكرسي ينقلب ويقع معه، ثم انتهى به الأمر منبطحاً على الأرض. كان هذا أكثر مما يحتمله كرانر الذي انفجر ضاحكاً: «ماذا أصابك... أيها الأحمق... أيها الأحمق الكبير السكير...! تكاد تنشقّ خاصرتي من الضحك! وهذا الذي... هذا... إنه... إنه يزعم... يزعم أنه كان أسير حرب في... لا! هذا كثير جداً!...». جحظت عيناه وأمسك كرشه بيده، وتمكن من شق طريقه حتى طاولة شميدت، ثم توقف خلف السيدة شميدت، ثم احتضنها من الخلف فجأة. «هل سمعتِ هذا...» قال لها وما زال الضحك يخنق كلماته... «هذا الرجل ـ هذا الرجل هناك ـ كان يحاول أن يقول لي... هل سمعتِ ما قاله؟...». أجابته السيدة شميدت بحدة محاولة تحرير نفسها من يديه الشبيهتين بمجرفتين: «لا، لم أسمع،

لكني لست مهتمة أصلاً». تجاهل كرانر ما قالته، ثم مال عليها بثقل جسده كله، ثم ـ كأن ذلك كان مجرد مصادفة ـ جعل كفه تنزلق داخل قميصها المفتوح عند الرقبة. «أوووه! الجو لطيف ودافئ هنا»، قال هذا مبتسماً لكن المرأة حررت نفسها منه بحركة غاضبة، ثم استدارت واستجمعت قواها كلها ووجهت له لكمة شديدة. صاحت بزوجها عندما رأت أن كرانر لا يكف عن الابتسام: «أنت! أنت جالس هناك فقط! كيف تستطيع أن تحتمل هذا؟! كانت يداه على جسمي؟!» وبجهد مهول، رفع شميدت رأسه عن الطاولة، لكن هذا كان أقصى ما أسعفته به قوته، ثم انكبَّ فوق الطاولة من جديد. دمدم قائلاً: «مم تشتكين؟» ثم جاءته نوبة من الفواق... «عليك فقط... دعي... يديه... تصلان أي مكان! على الأقل، هنالك من... يمتّع... نفسه...». كان صاحب الحانة قد تحرك خلال هذا الوقت ومضى إلى كرانر كأنه ديك مقاتل صغير. «أتظن هذا المكان ماخوراً؟ أتظن أن هذا المكان شيء من هذا القبيل؟ أتظنه مبغى؟!» لكن كرانر اكتفى بالوقوف هناك، كان أشبه بالثور منه بالديك، لم يتراجع... نظر إليه بطرف عينه قبل أن يُشرق وجهه فجأة: «ماخور! هكذا هو تماماً يا صاحبي! هكذا هو!» لف صاحب الحانة بذراعه وبدأ يجره صوب الباب. «من هنا يا صاحبي! دعنا نخرج من هذا الجحر القذر! فلنذهب إلى الطاحون! هناك نجد ما يستحق أن نسميه حياة. هيا بنا، لا تعاندني...» لكن صاحب الحانة أفلح في الإفلات منه وعاد سريعاً إلى طاولته منتظراً (وهو يشعر بالرضا) أن يلاحظ ذلك «الأحمق السكران» أن زوجته الضخمة تنتظره منذ فترة طويلة عند الباب واضعة يديها على ردفيها وعيناها متقدتان. فحّت في أذن زوجها عندما اصطدم بها: «أستطيع أن أسمعك! هيا، أخبرني أنا أيضاً! أين تظن نفسك ذاهباً؟!... إلى مؤخرة أمك؟!» سرعان ما صحا كرانر. نظر إليها غير فاهم: «أنا؟ أنا؟ ولماذا أذهب إلى أي مكان؟ لن أذهب إلى أي مكان لأنني لا أريد إلا حبيبتي الصغيرة الوحيدة، لا أريد

أحداً غيرها». حررت السيدة كرانر نفسها من ذراعيّ زوجها وتابعت تقول وهي تهز إصبعها: «سوف أعطيك 'حبيبتك الصغيرة' من غير شك، وسوف تستيقظ صاحياً في الصباح وإلا فإن حبيبتك الصغيرة ستضربك على عينيك ضربة لن تنساها!» صحيح أنها كانت أقصر منه قامة بكثير إلا أنها جرّت كرانر من كمّ قميصه، مثل حمل وديع، ودفعت به إلى الكرسي: «اجرؤ فقط أن تقف من غير أن أقول لك ذلك. نعم، ستندم إن فعلتها...» ملأت كأسها ثم أفرغتها دفعة واحدة بحركة غاضبة، ونظرت من حولها... أطلقت زفرة كبيرة ثم استدارت صوب السيدة هاليكس التي كانت تراقب ما يحدث برضا متجهّم («وكر للرذيلة، هذا هو اسم المكان! لكن، سيكون هنالك أيضاً دموع وعويل وصرير أسنان، مثلما يقول النبي!») «ماذا كنت أقول؟» استعادت السيدة كرانر حديثها الذي انقطع وهي تلوّح بإصبعها مهدِّدة صوب زوجها عندما مد يده صوب الكأس خائفاً: «نعم، أوه! بكلمات أخرى أستطيع أن أقول إن زوجي رجل محترم، لا أستطيع التذمر، هذه هي الحقيقة! هذا بسبب الشراب، أنت تعرفين، بسبب الشراب! لو أنه لم يكن يشرب، فإن الزبدة نفسها لا يمكن أن تذوب في فمه، صدقيني، الزبدة نفسها لا تذوب. يمكنه أن يكون رجلاً طيباً تماماً عندما يريد ذلك! وهو يستطيع العمل أيضاً، أنت تعرفين، يستطيع العمل مثل رجلين معاً! فماذا لو كان لديه عيب واحد أو اثنان؟... يا إلهي! من منا ليست لديه عيوب يا سيدة هاليكس، يا عزيزتي؟ قولي لي! لا يوجد إنسان من غير عيب في أي مكان. لم يمشِ على وجه الأرض إنسان من ذلك النوع. ماذا؟ إنه لا يستطيع أن يتحمل فظاظة الناس معه؟ نعم، هذا هو الشيء الوحيد الذي يغضبه، الذي يغضب زوجي. تلك المرة مع الطبيب، حدث ذلك بسبب، نعم، تعرفين كيف هو الطبيب، يعامل الناس كأنهم كلاب! يمكن لرجلٍ ذكي أن يتغاضى عن ذلك وأن يتمالك أعصابه لأن هذا هو الطبيب، بعد كل حساب، وليس الأمر كله شيئاً كبيراً، من الأفضل

تجاهله، انتهت القصة. على أي حال، إنه ليس سيئاً بقدر ما يبدو عليه. يجب أن أدرك هذا يا سيدة هاليكس، يا عزيزتي، لأنني أعرفه من أوله إلى آخره، أعرف كل نقاط ضعفه الصغيرة، بعد هذه السنين كلها!» مد فوتاكي يده بحذر وتوكأ على عصاه متوجّهاً صوب الباب، كان شعره مشعثاً وقميصه متدلياً من الخلف، أما وجهه فكان أبيض اللون كالكلس. وبصعوبة كبيرة نزع الإسفين الخشبي من الباب وخطا خطوة إلى الخارج، لكن صدمة الهواء المنعش رمته على ظهره فوراً. كان المطر ينهمر بشدة، على حاله، وكانت كل قطرة منه «رسالة أكيدة من الجحيم» تنفجر على قرميد سقف الحانة الذي كسته الطحالب وعلى جذوع وأغصان أشجار الأكاسيا وفوق اللمعان غير المنتظم للطريق المعبدة، على الطريق نفسها وتحت الطريق أيضاً، وعلى الفسحة أمام الباب حيث كان جسد فوتاكي المنحني المرتعد مستلقياً في الطين. ظل هناك بضع دقائق كأنه فقد وعيه في الظلام، وعندما أفلح في الاسترخاء أخيراً شعر بالنعاس على الفور، ولو لم يخطر في بال صاحب الحانة بعد نصف ساعة من ذلك أن يتساءل أين ذهب فوتاكي (فخرج ووجده، ثم هزّه حتى يصحو «أنت! هل جننت أم ماذا؟! انهض! أتريد أن يصيبك التهاب رئوي؟») فلعله كان سيظل هناك حتى الصباح. استند فوتاكي، والدوار يعصف برأسه إلى جدار الحانة رافضاً عرض صاحبها («هيا الآن، استند إليّ، سوف تبتل حتى العظام إذا بقيت في الخارج، كف عن هذا...») واكتفى بالوقوف مخبولاً مبتلاً كله تحت وابل المطر العنيف، كان يرى، من غير أن يفهم، العالم غير المستقر من حوله إلى أن بلله المطر بالكامل ـ بعد نصف ساعة من ذلك ـ ولاحظ فجأة أنه عاد صاحياً من جديد. دار حول زاوية الحانة حتى يبوّل إلى جانب شجرة أكاسيا عارية عجوز، وبينما كان يفعل ذلك رفع رأسه ناظراً إلى السماء وشعر بأنه ضئيل عديم الحول تماماً ـ وبينما كان تيار من الماء لانهاية له يندفع منه (على نحو رجوليّ قوي) جاءته موجة جديدة من

الكآبة. واصل نظره إلى السماء محدّقاً فيها مفكّراً في أنه لا بد أن توجد في مكان ما ـ لكنه مكان بعيد ـ نهاية لهذه الخيمة الكبيرة الممتدة فوقهم لأنه «مكتوب أن كل شيء لا بد له من نهاية». قال في نفسه والصخب مستمر في رأسه: «إننا مخلوقون في هذا العالم القذر مثل خنازير تتمرغ في الطين من غير أن تكون لدينا أي فكرة عن سبب هذا العناء كله وعما يجعلنا منغمسين في هذا التناحر الأبديّ على الطريق المؤدية إلى المعلف، أو إلى الفراش عند المساء». أقفل أزرار سرواله وتحرك جانباً حتى يصبح تحت المطر مباشرة. قال مزمجراً: «هيا، اغسل عظامي العجوز! اغسلها جيداً لأن قطعة الخراء العتيقة هذه لن تظل هنا وقتاً طويلاً بعد الآن». وقف هناك بعينين مغمضتين ورأسه ملقى إلى الخلف لأنه كان توّاقاً إلى التحرر من تلك الرغبة العنيدة التي تعاوده دائماً بأن يعرف على الأقل (الآن بعد أن صار قريباً من النهاية) إجابة هذا السؤال: «ما الغاية من فوتاكي؟» وذلك لأن أفضل شيء على الإطلاق أن يستسلم الآن، أن يستسلم لتلك اللحظة الأخيرة عندما يوضع جسده في الحفرة الأخيرة، لأن يسقط في تلك الحفرة بالحماسة نفسها المتوقعة من طفل وليد يحيّي العالم للمرة الأولى؛ ثم فكر في السماء من جديد، وفي الخنازير أيضاً، لأنه أحس ـ رغم صعوبة التعبير عن هذا الإحساس بالكلمات، ورغم أن فمه بدأ يجف ـ أن أحداً لم يشكّ أبداً في أن العناية الإلهية الواضحة بذاتها التي تهتم بنا يوماً بيوم ليست إلا التماعة سكّين الجزّار نفسها («في ساعة فجر لا يمكن تجنبها»)، وأن ذلك سيأتي في وقت لا نتوقعه أبداً، وقت لا نعرف فيه حتى لماذا يتعين علينا أن نواجه ذلك الوداع المخيف الذي لا سبيل إلى فهمه. فكر وهو يهز خصلات شعره المتشابكة ويشعر بكآبة أكثر عمقاً: «ولا مهرب الآن، ولا شيء يمكن فعله؛ فمن الذي يستطيع أن يفهم فكرة أن شخصاً يسعده، لأي سبب كان، أن يواصل العيش إلى الأبد يجب أن يطرد من على وجه هذا الكوكب وأن يمضي الأبدية كلها مع الديدان في مستنقع

مظلم قذر الرائحة». كان فوتاكي «محباً للآلات» في شبابه، وقد ظل على هذا الحب حتى الآن عندما صار يشبه طائراً صغيراً مبللاً موحلاً متسخاً بقيئه؛ ولأنه كان يعرف مقدار الدقة والانتظام اللازمَيْن حتى لعمل مضخّة بسيطة، فقد فكر في أنه إن كان هناك مبدأ كونيٌّ عامل في مكان ما («مثلما هو موجود بشكل واضح في الآلات!»)، فإن («المرء يستطيع أن يراهن بحياته عليه!»)، ذلك أن العالم، حتى إن كان عالماً مجنوناً مثل هذا، لا بد أن يكون خاضعاً للمنطق. وقف ضائعاً تحت المطر المتدفق، ثم (من غير أي إنذار) بدأ يتهم نفسه: «أي أحمق معتوه أنت يا فوتاكي! تتمرغ أولاً في الطين مثل الخنزير، ثم تقف هنا مثل خروف ضال... هل فقدت ما لديك من عقل قليل؟ وكأنك لا تدرك أن آخر ما يحق لك أن تفعله هو أن تسكر تماماً! وعلى معدة فارغة أيضاً!» هز رأسه غاضباً ونظر إلى نفسه من الأعلى إلى الأسفل ثم أحسّ بالعار وبدأ يمسح ملابسه محاولاً تنظيفها من غير كبير نجاح. سرعان ما عثر على عكازه في الظلام وحاول بقميصه وبنطاله اللذين لا يزال الطين يغطيهما أن يتسلل عائداً إلى الداخل من غير أن يلاحظه أحد حتى يطلب بعض المساعدة من صاحب الحانة. سأله صاحب الحانة وهو يغمز بعينه ويشير له صوب غرفة المستودع: «هل تشعر بأنك صرت أحسن الآن؟ هنالك وعاء من الماء وبعض الصابون في الداخل، لا تقلق بشأن هذا، تستطيع أن تستخدم هذه المنشفة لتجفّف نفسك». ظل واقفاً هناك بذراعين معقودتين على صدره ولم يتحرك إلى أن انتهى فوتاكي من تنظيف نفسه رغم معرفته أنه كان قادراً على تركه هناك وحيداً لكنه قرر أن من الأفضل أن يبقى معه لأن «المرء لا يعرف أبداً ماذا يمكن أن يضع الشيطان في عقول الناس». قال له: «نظف بنطلونك بأفضل ما تستطيع ثم اغسل القميص. تستطيع أن تتركه يجفّ على المدفأة. وإلى أن يصبح جاهزاً يمكنك أن تلبس هذا!» شكره فوتاكي ولفَّ نفسه بالمعطف القديم بما عليه من شباك العنكبوت، ثم مسد شعره الذي يقطر

ماء وسار خلف صاحب الحانة خارجاً من المستودع. لم يعد للانضمام إلى شميدت وزوجته من جديد. بل جلس قرب المدفأة بدلاً من ذلك ونشر قميصه على ظهرها سائلاً صاحب الحانة: «هل لديك شيء للأكل؟» أجابه الرجل: «ليس لدي إلا الحليب بالشوكولا وهذه المعجنات». قال فوتاكي: «أعطني قطعتين منها!» لكن الدفء تغلغل فيه فنام قبل أن يعود صاحب الحانة حاملاً الصينية. صار الوقت متأخراً الآن، ولم يبق مستيقظاً إلا السيدة كرانر ومدير المدرسة وكيريكس والسيدة هاليكس (التي صارت حرة الآن، بعد أن استُنفد الجميع، في أن ترفع إلى شفتيها كأس زوجها الذي لم يكن منتبهاً لشيء)، وهكذا فقد استقبل فوتاكي صينية صاحب الحانة العامرة («معجنات طازجة، تفضّل») بحركة رفض خدرة، فعادت المعجنات كما هي، لم يمسها سوء. دمدم صاحب الحانة غاضباً وهو يمطط أطرافه المتيبسة قبل أن يجري حساباً عقلياً سريعاً لحالة الأمور: «رائع، فلتموتوا جميعاً... أعط هذه الجثث نصف ساعة فتراها تنبعث حية من جديد». بدا الأمر كله ميؤوساً منه لأن الطلبات ظلت أقل بكثير مما كان يتوقعه في الأصل، وما عاد قادراً على الأمل إلا في أن كمية من القهوة يمكن أن تعيد «هؤلاء الرعاع الثملين» إلى رشدهم. وإلى جانب الخسارة المالية (لأن هذا النقص الكبير في الغلة يعتبر خسارة أيضاً) فإن ما أزعجه أكثر من غيره هو أنه كان بعيداً خطوة واحدة عن الفوز بالسيدة شميدت في غرفة المستودع عندما انطفأت كأنها مصباح وسقطت نائمة على نحو مفاجئ ما أجبره على التفكير في إرمياس من جديد (رغم قراره بألا يسمح للفكرة بأن «تزعجه لأن الأشياء ستأخذ مجراها») مدركاً أنه سيصل قريباً مع صاحبه وعندها يكون الأمر «كله» قد انتهى. «أنتظر، وأنتظر، ولا أفعل شيئاً إلا الانتظار»، قال هذا في نفسه ثم هبَّ واقفاً على قدميه عندما تذكر أنه وضع المعجَّنات على الرف من غير أن يغطيها، رغم أن «أولاد الحرام هؤلاء» سوف يستيقظون من جديد ويجعلونه يندفع

حاملاً الصينية عدة ساعات. كان معتاداً منذ زمن طويل على حالة التأهب الدائم، وقد استمرّ على هذه الحال منذ أن تجاوز أولى موجات غضبه ولم يعد شديد الحرص للعثور على آخر مالك للحانة، «ذلك السوابيّ الملعون»، ليقول له: «لم يكن في العقد شيء عن العناكب». ففي تلك الآونة، بعد يومين فقط من افتتاح الحانة وبعد أن تجاوز صدمته الأولى، جرّب كل طريقة ممكنة للتخلص من تلك المخلوقات لكنه لم يلبث أن اكتشف استحالة ذلك وأدرك أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً غير أن يتكلم مع ذلك السوابي أملاً في إقناعه بتخفيض السعر قليلاً. لكنه كان قد اختفى عن وجه الأرض، ولم تختف العناكب معه، فقد واصلت «التجوّل سعيدة» في المكان فاضطر إلى حمل نفسه على القبول طيلة ما بقي من حياته بحقيقة أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً؛ صحيح أنه كان قادراً على ملاحقة العناكب دائماً مستخدماً الخِرَق والملابس، وعلى الزحف من فراشه عند منتصف الليل. لكنه لم يكن قادراً (حتى في هذه الحالة) على التعامل إلا مع «معظمها» في أحسن الأحوال. ومن حسن الحظ أن هذه المشكلة لم تصبح موضوعاً رئيسياً للأحاديث لأن العناكب لم تكن قادرة على «تدمير المكان على هواها» طالما ظلت الحانة مفتوحة وظل الناس يتحركون فيها من مكان إلى آخر. لكن، وحتى إن كانت العناكب قادرة على «تغطية كل ما يتحرك بشباكها» فإن المشكلة كانت تبدأ دائماً بعد أن يخرج آخر الزبائن فيقفل الرجل باب الحانة ويغسل الكؤوس المتسخة ويضع الأشياء في أماكنها ثم يغلق سجلّ حساباته، أي أن المشكلة كانت تبدأ كلما بدأ التنظيف لأن كل زاوية وكل قوائم الطاولات والكراسي، وكل نافذة، والمدفأة نفسها، والرفوف الصغيرة في الزاوية، والرفوف الأخرى، بل حتى صفّ صحون السجائر على طاولته، تكتسي كلها سريعاً طبقة من شباك العنكبوت. ثم يزداد الوضع سوءاً بعد ذلك عندما ينتهي من التنظيف ويستلقي في غرفة المستودع، وهو يشتم بهدوء، فلا يستطيع النوم لأنه

يعرف أن بضع ساعات ستكون كافية لأن تغطيه العناكب بشباكها أيضاً. ولهذا السبب، لا عجب في أنه كان ينكمش ويشعر بالقرف من كل ما يذكره بشباك العنكبوت؛ وكثيراً ما يحدث له أن يصبح غير قادر على تحمّل ذلك الوضع فيهاجم قضبان النافذة المعدنية محاولاً تحطيمها لكنه لا يستطيع ذلك ـ لحسن الحظ، لأنه يهاجمها بيدين عاريتين. وكان يقول لزوجته متذمّراً شاكياً: «وهذا كله ليس شيئاً إذا ما قورن مع...». وذلك أن الشيء الأكثر فظاعة هو أنه لم يرَ عنكبوتاً حقيقياً واحداً رغم أنه كان ـ في ذلك الوقت ـ يظل ساهراً طوال الليل خلف طاولته؛ لكن الظاهر أن العناكب كانت تشعر بأنه موجود هناك ليراقبها فتمتنع عن الظهور. وحتى بعد أن قبل هذا الواقع فقد ظل يأمل في أن يتمكن من رؤية تلك العناكب ولو لمرة واحدة. وهكذا صار من عاداته، من وقت لآخر، ومن غير أن يتوقف عما يفعله، أن يتجوّل بعينيه في أرجاء المكان منتبهاً مثلما جلس ينظر إلى الزوايا الآن. لا شيء! تنهّد ثم مسح الطاولة ثم جمع من الطاولات الأخرى كل ما عليها من زجاجات فارغة، ثم خرج من الحانة ليقضي حاجته خلف إحدى الأشجار. وعندما عاد، أعلن بنبرة احتفالية: «هنالك شخص قادم». هبَّ كل من في الحانة واقفاً على قدميه فوراً. صرخت السيدة كرانر وقد امتقع لونها: «شخص ما! ماذا تقصد بشخص ما؟ وحده؟». أجابها صاحب الحانة: «شخص واحد فقط». قال هاليكس فاتحاً كفيه: «وماذا عن بيترينا؟» «قلت لكم إنه شخص واحد. هذا كل ما أعرفه!» قال فوتاكي: «حسن إذن... لا يمكن أن يكون هو»، فتمتم الآخرون: «صحيح تماماً، ليس هو». عادوا فجلسوا في أماكنهم وأشعلوا سجائرهم محبَطين، أو أخذوا رشفات من كؤوسهم، ولم يرفع رأسه إلا عدد قليل منهم عندما دخلت السيدة هورغوس الحانة، بل إنه حتى من رفعوا رؤوسهم أشاحوا بوجوههم عنها لأنها كانت تبدو مثل ساحرة عجوز حيزبون (مع أنها لم تكن كبيرة السن كثيراً) ولأنها لم تكن محبوبة

كثيراً في المزرعة (تقول السيدة كرانر عنها: «لا شيء مقدسًا في تلك المرأة»). نفضت السيدة هورغوس المطر عن معطفها ومن غير أن تقول كلمة واحدة، سارت إلى طاولة صاحب الحانة بخطى واسعة. سألها الرجل بصوت بارد: «ماذا ستطلبين؟» فأجابته السيدة هورغوس بصوتها الذي يشبه النعيب: «أعطني زجاجة بيرة. إن الجو فظيع في الخارج». نظرت من حولها في الحانة، بعينين حادتين غير خاليتين من الفضول كما بدا لهم، كانت تنظر كما لو أنها وصلت في الوقت المناسب لتكون شاهداً على جريمة من الجرائم. استقرت عيناها أخيراً على هاليكس. ابتسمت كاشفة عن لثتين حمراوين من غير أسنان، ثم خاطبت صاحب الحانة قائلة: «يبدو أنهم يقضون وقتاً طيباً هنا». كان وجهها الغرابي المتغضّن يشع ازدراءً، وكان الماء يقطر من معطفها الذي بدا متجمعاً على ظهرها كأنه حدبة. رفعت الزجاجة إلى فمها وبدأت تشرب بشراهة. سال خيط من البيرة على ذقنها، وراح صاحب الحانة ينظر إليها متقززاً عندما رأى البيرة تقطر فوق رقبتها أيضاً. سألته السيدة هورغوس: «هل رأيت ابنتي؟ أقصد ابنتي الصغيرة». أجابها بطريقة جافة: «لا! لم تكن هنا». نعقت المرأة وبصقت على الأرض. أخرجت سيجارة واحدة من جيبها. ثم أشعلتها ونفثت الدخان في وجه صاحب الحانة. قالت: «هل تعرف؟ المسألة هي أننا أقمنا حفلة صغيرة البارحة مع آل هاليكس، لكن انظر إلى هذا القذر الآن، ليست لديه اللياقة الكافية لأن يقول لي مرحباً. كنت نائمة طيلة النهار. استيقظت هذا المساء ولم أجد أحداً في البيت، لا ماري ولا جولي ولا ساني الصغير، لم أرَ أحداً منهم. لكن هذه ليست مشكلة. يبدو أن ابنتي الصغيرة مختبئة في مكان ما. عندما تعود، سأعلمها كيف تختبئ حتى لا تنسى ذلك في حياتها أبداً. أنت تعرف كيف يكون الأمر». لم يقل صاحب الحانة شيئاً. أفرغت السيدة هورغوس ما بقي من زجاجتها وطلبت زجاجة أخرى على الفور. دمدمت مكشّرة: «هي ليست هنا إذن،

تلك العاهرة الصغيرة!» انكمشت أصابع قدمَي صاحب الحانة في حذائه. قال: «لا بد أنها في مكان ما في المزرعة. إنها ليست من النوع الذي يهرب». أجابته المرأة بحدة: «بل هي ذلك النوع بالتأكيد! اللعنة عليها! آمل أن تنال ما تستحقه، وكلما كان ذلك أسرع كلما كان أفضل. لقد اقترب الفجر وهي لا تزال خارج البيت في هذا المطر. لا عجب في أنني مرهقة إلى حد يجعلني ألازم السرير طيلة الوقت». صاح كرانر بصوت مرتفع: «وأين تركتِ البنات؟» أجابته السيدة هورغوس بصوت ملؤه الغضب وكأنها تبصق: «وما علاقتك أنت بهذا؟ إنهنَّ بناتي!». فابتسم كرانر قائلاً: «لا بأس، لا بأس، لا حاجة لأن تقطعي رأسي!» «إنني لا أقطع رأسك؛ لكن عليك أن تهتم بشؤونك الخاصة فقط!» ساد الصمت. أدارت السيدة هورغوس رأسها إلى بقية الشاربين واستندت بمرفقها إلى طاولة صاحب الحانة ثم نصبت ظهرها وأخذت جرعة كبيرة أخرى من زجاجتها. «إنني في حاجة إلى البيرة من أجل معدتي المضطربة. إنها الدواء الذي ينفعني في أوقات كهذه». «أعرف هذا. هل تريدين بعض القهوة؟» هزت المرأة رأسها: «لا، إذا شربت القهوة فسوف أتقيأ طيلة الليل. وما نفع القهوة؟ لا فائدة منها!» حملت زجاجتها من جديد وأفرغتها في جوفها حتى آخر قطرة منها. «ليلة سعيدة إذن. سوف أذهب الآن. إذا رأيت أي واحدة منهن فقل لها أن تعود إلى البيت سريعاً. لن أنفق الليل كله متجوِّلة من هنا إلى هناك. ليس في سنّي هذه». دفعت إلى صاحب الحانة بورقة من فئة العشرين ثم وضعت البقية في جيبها واتجهت صوب الباب. قال كرانر خلف ظهرها ضاحكاً: «قل للبنات ألا يستعجلن». تمتمت السيدة هورغوس شيئاً ثم بصقت على الأرض مودّعة عندما فتح صاحب الحانة الباب لها. أما هاليكس الذي كان من قدامى المزرعة فلم يكلّف نفسه حتى بأن «يلقي في اتجاهها نظرة واحدة من عينيه اللتين تشبهان كرتين زجاجيتين»؛ وذلك أنه كان جالساً يحدّق في زجاجته الفارغة أمامه منذ أن

استيقظ، ولم يكن مهتماً إلا بمحاولة اكتشاف ما إذا كان أحد ما قد خدعه. راح يمسح أرجاء الحانة بعينين كعينَي النسر، ثم استقرت نظرته أخيراً على صاحب الحانة وقرر أن يراقب الرجل مراقبة يقظة ليجعل الآخرين يرون، عند أول فرصة مناسبة، كم هو شخص نذل. أغمض عينيه من جديد وترك رأسه يسقط على صدره لأنه كان غير قادر على البقاء صاحياً أكثر من بضع دقائق في المرة الواحدة قبل أن يغلبه النوم من جديد. قالت السيدة كرانر: «اقترب الفجر، لديّ إحساس يقول إنهما لن يأتيا». تمتم صاحب الحانة وهو يمسح حاجبه: «لو أنهما لا يأتيان!» ثم مشى في الحانة حاملاً إبريق القهوة. أجابها كرانر: «لا تقلقي! سوف يأتيان عندما يكونان جاهزَيْن». أضاف فوتاكي: «هذا صحيح طبعاً! لن يطول الأمر كثيراً، سترون». بدأ يتناول رشفات صغيرة من قهوته التي يتصاعد البخار منها ويتلمس قميصه الذي يجف عند المدفأة ثم أشعل سيجارة وراح يفكر في ما يمكن أن يفعله إرمياس بعد وصوله. من المؤكد أن المضخة ومولدات الكهرباء في حاجة إلى صيانة شاملة على سبيل البداية. كما أن غرفة المحركات كلها في حاجة إلى الطلاء بالكلس من جديد، ويجب كذلك إصلاح الأبواب والنوافذ لأن هناك تياراً هوائياً يسبب الصداع طيلة الوقت. ولن يكون هذا سهلاً بطبيعة الحال لأن المباني في حالة سيئة، ولأن الأعشاب قد غزت الحدائق، وأخذ الناس كل ما يمكن استعماله في تلك المباني الصناعية القديمة ولم يتركوا شيئاً غير جدران عارية حتى صار المكان كأنه تعرض للقصف. لكن إرمياس ليست لديه كلمة «لا أستطيع»! ثم إن المرء في حاجة إلى الحظ بعد ذلك لأن شيئاً لا يمكن أن ينجح من غير حظ. لكن الحظ يأتي مع الذكاء. إن ذهن إرمياس حادّ كالموسى. وحتى عند ذلك الوقت عندما جرى تعيين إرمياس على رأس العمل (راح فوتاكي يتذكّر مبتسماً)، كان الجميع يهرعون إليه عند وجود مشكلة، وكان المديرون يهرعون إليه أيضاً؛ وذلك لأن إرمياس، مثلما قال

بيترينا ذات مرة، كان «ملاك الأمل عند أناس فقدوا الأمل وواجهوا صعوبات لا حل لها». لكن، ماذا يستطيع المرء أن يفعل في مواجهة غباء لا حدود له: لا عجب في أنه ذهب آخر الأمر. وفور اختفائه بدأت الأمور تتدهور مباشرة، وانحدر ذلك المجتمع الصغير كله إلى درجة كبيرة. جاء البرد والصقيع أول الأمر، ثم جاء مرض المواشي الذي خلف أكواماً من الأغنام الميتة، ثم صارت الأجور تتأخر أسبوعاً نتيجة عدم وجود المال الكافي لدفعها. ورغم ذلك، عندما وصل الأمر إلى تلك الحال، كان الجميع يقولون إن كل شيء قد انتهى. وإن من الضروري إغلاق المصنع. وهذا ما حدث بالفعل. رحل من كانت لديهم أماكن يستطيعون الرحيل إليها، ذهبوا بأقصى سرعة؛ وأما من لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه، فظلوا هنا. وهكذا بدأت المشاجرات والمشاحنات والخطط اليائسة حيث كل شخص يعرف ما يجب فعله أكثر من الآخرين، أو راح يتظاهر بأنه لم يحدث شيء. وفي آخر المطاف، رضخ الجميع لإحساسهم بانعدام الحيلة، وراحوا ينتظرون المعجزات وهم يراقبون مرور الوقت بقلق متزايد ويعدّون الأسابيع والشهور حتى فقد الوقت نفسه أهميته بالنسبة إليهم فصاروا يجلسون في المطبخ طيلة اليوم ويحصلون على قروش قليلة من هنا وهناك فينفقونها من فورهم على الشراب في هذه الحانة. وفي الآونة الأخيرة اعتاد هو نفسه على البقاء في غرفة المحرّكات القديمة، ولم يعد يتركها إلا للذهاب إلى الحانة أو إلى بيت آل شميدت. وعلى غرار الآخرين، لم يعد يصدّق أن أي شيء يمكن أن يتغير. جعل نفسه ترضخ لفكرة البقاء هنا طيلة حياته لأنه لم يكن قادراً على فعل شيء غير ذلك؛ فهل يستطيع عجوز مثله أن يبدأ شيئاً جديداً؟ هكذا كان يفكر، لكن ليس بعد الآن: «سينتهي هذا كله الآن. سيصل إرمياس قريباً ليهز الأشياء هزاً ويعيدها إلى مسارها من جديد»... ارتجف في مكانه واستدار في كرسيه لأنه كان متحمساً عندما بدا له، أكثر من مرة، أن هنالك من يحاول

فتح الباب، لكنه قال لنفسه أن يهدأ بعض الشيء («صبراً! صبراً...»)، وطلب من صاحب الحانة فنجاناً آخر من القهوة. ما كان فوتاكي وحده على هذه الحال: كانت الإثارة ملموسة في أرجاء الحانة كلها، وخاصة عندما نظر كرانر إلى الخارج عبر زجاج الباب وأعلن بنبرة احتفالية: «بدأ نور الفجر يظهر في الأفق». وفي تلك اللحظة عاد الجميع إلى الحياة فجأة، وبدأ النبيذ يتدفق من جديد، وارتفع صوت السيدة كرانر فوق صوت الجميع: «ما هذا؟ هل هي جنازة؟!» مضت في الحانة تهزّ ردفيها الضخمين حتى وقفت أمام كيريكس: «أنت هناك! استيقظ! اعزف لنا شيئاً على أكورديونك». رفع الفلاح رأسه وتجشأ بصوت مرتفع: «قولي هذا لصاحب الحانة، إن الآلة آلته، ليست لي». صاحت السيدة كرانر: «اسمع يا صاحب المكان! أين هو أكورديونك؟» دمدم صاحب الحانة وهو يختفي داخل غرفة المستودع: «إنه هنا، سأحضره الآن... لكن عليكم الآن حقاً أن تشربوا من جديد». شقّ طريقه إلى رفوف الطعام فتناول الآلة التي غطتها خيوط العنكبوت، نظفها كيفما اتفق، ثم حملها ومضى بها إلى كيريكس: «كن حذراً الآن! إن هذا الأكورديون مزاجي قليلاً...». دفعه كيريكس بعيداً عنه ووضع حمّالات الآلة على كتفيه، ثم جرى على مفتاحيها وانحنى ليكمل كأسه: «أين النبيذ إذن؟» كانت السيدة كرانر تتمايل وسط الغرفة بعينين مغمضتين: «اذهب واجلب له زجاجة!» قالت هذا مخاطبة صاحب الحانة ثم راحت تدق بقدمها نافدة الصبر: «ماذا بك أيها الوغد الكسول! لا تسقط نائماً فوقي! وضعت يديها على ردفيها وخاطبت الرجال الضاحكين موبخة إياهم: «جبناء! ديدان! أليس عند واحد منكم شجاعة للرقص معي؟» لم يكن هاليكس مستعداً لأن ينعته أيّ كان بأنه جبان؛ وهكذا فقد انتصب واقفاً وتظاهر بعدم سماع زوجته تناديه: «أنت، الزم مكانك!» اندفع إلى السيدة كرانر صائحاً: «إنه وقت التانغو». ثم شدّ ظهره. لم يعرهما أحد أي التفاتة، فلفّ هاليكس وسط السيدة كرانر

بذراعه ويبدأ الرقص. عند ذلك، أفسح الآخرون لهما مكاناً وراحوا يصفقون ويهتفون ويشجّعون الراقصَيْن، وحتى شميدت نفسه صار غير قادر على منع نفسه من الضحك لأنهما قدّما مشهداً لا يقاوم: هاليكس الأقصر من شريكته بمقدار الرأس يدور ويثب من حول السيدة كرانر بينما هي تهز ردفيها الضخمين من غير أن تحرك قدميها. كان هاليكس يبدو كمن يحاول إخراج دبور من قميصه. انتهت رقصة الكسارداس الأولى بهتاف مرتفع من الجميع، كاد صدر هاليكس ينفجر اعتزازاً ولم يستطع منع نفسه من مخاطبة الحشد المهلل: «أرأيتم؟ أرأيتم؟ هذا أنا! هذا هو هاليكس!» كانت رقصتا الكسارداس التاليتان أكثر إثارة لأن هاليكس تفوّق على نفسه بسلسلة من الحركات المعقدة التي لا يستطيع أحد تقليدها، وكان يقاطع حركاته تلك عندما يتخذ هيئة جامدة كأنه تمثال، كان يتجمد في مكانه تماماً رافعاً ذراعه اليسرى أو اليمنى فوق رأسه فيبدو جسمه كأنه صار مفرغاً... وينتظر إيقاع الموسيقى القوي التالي محاولاً إطالة لحظة المجد الاستثنائية الفريدة هذه بمزيد من القفز من حول السيدة كرانر اللاهثة المحمرّة. وكلما انتهت رقصة من الرقصات، كان هاليكس يطالب بالتانغو؛ وعندما أذعن له كيريكس أخيراً وبدأ يعزف لحناً معروفاً للجميع وهو يوقّع على الأرض بحذائه الضخم الثقيل، لم يعد المدير قادراً على المقاومة فخطا صوب السيدة شميدت التي أيقظها هذا الضجيج من حولها وهمس في أذنها: «هل لي بهذه الرقصة؟» وعندما بدأ الرقص، صار قادراً أخيراً على وضع يده اليمنى على ظهر السيدة شميدت فدوّخته رائحة الكولونيا على الفور وسحرته ما جعل بداية الرقصة خرقاء بعض الشيء لأنه كان يحاول احتضانها ليضيع في ثدييها الحارَّيْن المتألقين؛ والواقع أنه كان مضطراً إلى ممارسة قدر كبير من ضبط النفس حتى يحافظ على «المسافة الإلزامية» بينهما. لكن الوضع لم يكن ميؤوساً منه تماماً لأن السيدة شميدت راحت، حالمة، تقترب منه أكثر فأكثر، صارت قريبة

جداً حتى ظن أن دمه بدأ يغلي، وعندما ازدادت الموسيقى رومانسية أسندت خديها المبللين بالدموع على كتف المدير قائلة: «تعرف أن نقطة ضعفي هي الرقص...». لم يعد مدير المدرسة في تلك اللحظة قادراً على الاحتمال أكثر من ذلك فقبّل تلك الطيات الناعمة في رقبة السيدة شميدت: عندها، وبعد أن أدرك ما فعله، أسرع فشدّ قامته لكنه لم يكن في حاجة إلى الاعتذار لأن المرأة عادت فشدته إليها صامتة. وأما السيدة هاليكس التي كان مزاجها قد تغير من الكراهية النشطة الحادة إلى الازدراء الأبكم، فمن الطبيعي أنها لاحظت كل ما جرى: لا شيء يمكن أن يظل خفياً عنها. كانت مدركة تماماً كل ما يجري من حولها. تمتمت قائلة في نفسها، ثابتة على إيمانها: «لكن ربي، مخلصنا، واقفٌ معي». وكانت تتساءل فقط عن السبب الذي يجعل يوم الحساب بطيئاً: أين هي نار الجحيم التي ستحرقهم جميعاً بالتأكيد؟... «ما الذي يجعلهم ينتظرون، هناك في الأعلى؟! كيف يستطيعون أن ينظروا إلى وكر الرذيلة والشهوة هذا، 'الآتي مباشرة من سدوم وعمورة' ثم لا يفعلون شيئاً». وبما أنها كانت واثقة تماماً من أن يوم الدينونة وشيك فقد كانت تنتظر نافذة الصبر لحظة حسابها وغفرانها رغم أنها، كان عليها أن تعترف بهذا، تمر بأوقات ـ ولو كانت دقيقة واحدة ـ تقع فيها فريسة إغراء الشيطان نفسه بأن تتناول جرعة من النبيذ، ويجعلها هذا الملعون راضية بأن تنظر (برغبة آثمة) إلى جسد السيدة شميدت المتمايل وقد تلبّسه الشيطان. لكن الرب كان يمارس رعاية حازمة لروحها، وكانت قادرة على مكافحة الشيطان وحيدة، إن اقتضى الأمر: فليصل إرمياس الذي نهض من الرماد، فليصل في وقته حتى يساعدها لأن من المستحيل توقّع أن تستطيع وحدها وضع حد لهجوم مدير المدرسة الفاسق. لم تستطع منع نفسها من ملاحظة أن الشيطان أحرز نصراً تاماً، وإن يكن موقتاً، (أليس هذا هو هدف الشيطان؟) على هؤلاء المجتمعين في الحانة لأنهم، عدا فوتاكي وكيريكس، كانوا على أقدامهم الآن، وكان حتى من لم

يحظ منهم بحصته من السيدة كرانر أو السيدة شميدت واقفاً قريباً منهما منتظراً انتهاء الرقصة حتى يأخذ دوره. كان كيريكس نشيطاً لا يعرف التعب، وكان يضبط الإيقاع بقدمه من خلف طاولة البلياردو، وما كان الراقصون المتحمسون يسمحون له بأي وقت لكي يستريح ويشرب كأساً بين مقطوعتين، بل ظلوا يضعون أمامه على الطاولة زجاجة خلف الأخرى حتى لا تخفّ عزيمته. لم يعترض كيريكس على هذا بل واصل العزف، تانغو بعد الآخر، ثم صار يكتفي بإعادة المعزوفة الواحدة مرة تلو الأخرى من غير أن يلاحظ أحد ذلك. ومن الطبيعي أن السيدة كرانر لم تستطع مواكبة هذا فقد تقطعت أنفاسها وتصبب العرق منها وبدأت أقدامها تحرقانها فلم تنتظر حتى انتهاء الرقصة بل استدارت على عقبيها فجأة وتركت مدير المدرسة المتحمس وألقت بنفسها فوق كرسيها. جرى هاليكس وراءها بنظرة مستعطفة متهمة: «روزي، يا عزيزتي، يا عزيزتي الوحيدة، لن تتركيني هكذا، أليس كذلك؟ دوري معك في الرقصة التالية».
كانت السيدة كرانر تمسح عرقها بمنديل فأزاحته عنها وهي تقول بصعوبة: «ماذا تظن؟ لم يعد عمري عشرين عاماً». سرعان ما ملأ هاليكس كأساً فدفعها في يدها قائلاً: «اشربي هذه يا روزي، يا عزيزتي!» وعند ذلك أجابته السيدة كرانر ضاحكة: «لن يكون هنالك 'بعد ذلك'! ليست لدي طاقة مثلكم أيها الشباب». «يا روزي العزيزة... أنا لست طفلاً، أنا أيضاً! لا، لكن هنالك طريقة يا روزي العزيزة!...» لكنه لم يعد قادراً على متابعة كلامه لأن عينيه راحتا الآن تتجولان فوق صدر المرأة الذي يعلو ويهبط. ابتلع ريقه، ثم تنحنح وقال: «سوف أجلب لك شطيرة». أجابته السيدة كرانر بلطف بعد ذهابه: «نعم، سيكون هذا جيداً»، ثم عادت تمسح حاجبها الذي يقطر عرقاً. وبينما كان هاليكس يجلب الصينية، راحت تنظر إلى السيدة شميدت الحيوية دائماً التي تدور حالمة من رجل إلى آخر وهي ترقص التانغو. قال هاليكس وهو يجلس قريباً جداً منها: «والآن،

دعيني أطعمك». استند بظهره مرتاحاً في مقعده لافّاً إحدى ذراعيه حول السيدة كرانر (من غير أن يخاطر بشيء، لأن زوجته نامت أخيراً خلف الجدار). وراحا معاً يمضغان بصمت الفطائر الجافة واحدة بعد أخرى، وعندما مدا يديهما ذات مرة إلى الصينية التقت أعينهما لأن قطعة واحدة كانت باقية فيها. قالت المرأة متململة: «هنالك تيار هواء، ألا تحسّ به؟ حدق هاليكس عميقاً في عينيها، كانت عيناه زائغتين بسبب الشراب. قال لها وهو يدفع القطعة الأخيرة في يدها: «أتعرفين يا روزي، يا عزيزتي، دعينا نأكلها معاً، موافقة؟ تبدئين من هذا الجانب، وأبدأ من الجانب الآخر إلى أن نصل إلى منتصفها. وهل تعرفين ما نفعله بعد ذلك يا حبيبتي؟ سوف نوقف تيار الهواء في الباب باستخدام ما بقي منها». انفجرت السيدة كرانر ضاحكة: «أنت تحاول دائماً أن توقع بي! متى يُشفى هذا الثقب الذي في رأسك؟ جيد جداً... الباب... نوقف التيار!» لكن هاليكس كان مصمماً: «لكن، يا عزيزتي روزي، أنت التي قلت إن هناك تياراً. إنني لا أحاول الإيقاع بك. هيا، خذي قضمة». قال هذا ووضع طرف الفطيرة في فمها، ثم أطبق أسنانه على الطرف الآخر منها. وبمجرد أن فعل هذا، انشطرت الفطيرة إلى نصفين وسقطت في حجريهما لكنهما ظلا من غير حركة ـ فَماهما متقابلان ـ وعند ذلك بدأ هاليكس يحس بالدوار فاستجمع شجاعته وقبل المرأة على فمها. رفرفت السيدة كرانر مرتبكة ودفعت هاليكس العاطفي بعيداً عنها: «الآن، الآن يا لاجوس! هذا ليس مسموحاً. لا تفعل مثلما يفعل الحمقى! ماذا تتوقع؟ يمكن أن يرانا الجميع هنا»، ثم أصلحت وضع تنورتها. لم ينته الرقص إلا عندما دخل الصباح من النافذة والجزء الزجاجي من الباب. كان صاحب الحانة وكيليمين منحنيَيْن فوق الطاولة، وكان مدير المدرسة منكبّاً على طاولته بالقرب من السيد والسيدة شميدت، أما فوتاكي وكرانر فكانا يبدوان كشخصَيْن مخطوبَيْن لأن كلًّا منهما كان مستنداً إلى الآخر، وكان رأس السيدة هاليكس متدلياً فوق

صدرها. كانوا في نوم عميق كلهم. تابع هاليكس والسيدة كرانز همسهما حيناً من الزمن لكنهما لم يمتلكا قوة كافية للنهوض وجلب زجاجة نبيذ أخرى، وهكذا غلبتهما رغبة النوم أخيراً في خضم ذلك الشخير الهانئ من حولهما. ظل كيريكس وحده مستيقظاً. انتظر حتى توقف الهمس كله، ثم نهض ومطط أطرافه ومضى يجول بين الطاولات بصمت. كان يتحسس طريقه باحثاً عن زجاجات لا تزال فيها بقايا ثم يأتي بها ويصفّها على طاولة البلياردو. تفحص الكؤوس أيضاً؛ وعندما كان يجد قطرة نبيذ في كأس من الكؤوس كان يشربها على الفور. كان ظله العملاق يتبعه مثل شبح سائراً على الجدار، وكان ينحرف صوب السقف أحياناً ثم يستريح عندما يتوقف صاحبه غير واثق من خطوته التالية، يتوقف في الزاوية الخلفية من الحانة. مسح كيريكس خيوط العنكبوت عن الندوب والخدوش الجديدة في وجهه المخيف، ثم صب ما بقي من نبيذ في كأس واحدة وراح يشربها بشراهة وهو ينفخ. ظل يشرب من غير انقطاع حتى اختفت آخر قطرة في جوفه الضخم. استند إلى الخلف، ثم فتح فمه محاولاً التجشؤ عدة مرات. وعندما فشل في ذلك، وضع يده على بطنه وسار بصعوبة حتى الزاوية حيث أدخل إصبعه في فمه وبدأ يتقيأ. وعندما انتهى اعتدل واقفاً ومسح فمه بيده. قال بصوت هادر: «هكذا انتهينا من الأمر» ثم عاد إلى مكانه خلف طاولة البلياردو. حمل الأكورديون وبدأ يعزف لحناً عاطفياً حزيناً. بدأ جسده الضخم يتأرجح أماماً وخلفاً بالترافق مع أنغام الموسيقى اللطيفة، وعندما وصل إلى منتصف المعزوفة ظهرت دمعة في زاوية جفن عينه المشلول. ولو ظهر أحد ما في تلك اللحظة وسأله فجأة عما يحزنه لما استطاع الإجابة. كان وحيداً مع صوت الآلة الموسيقية ولم يجد ما يمنعه من الاستسلام والذهاب بعيداً مع ذلك اللحن العسكري البطيء. لم يكن لديه سبب يجعله يكفّ عن عزفه؛ وعندما بلغ آخر المعزوفة بدأ عزفها من جديد، من غير أي انقطاع، كأنه طفل بين أشخاص كبار نائمين،

كأنه طفل سعيد راضٍ لأن أحداً غيره لم يكن قادراً على الاستماع إليه. حفّز صوت الأكورديون المخملي جولة نشاط جديدة محمومة لدى العناكب. غطت خيوطها كل زجاجة، وكل فنجان، وكل صحن سجائر. وصارت كل قائمة من قوائم الطاولات والكراسي مكسوة بما يشبه شرنقة من تلك الخيوط؛ وبمساعدة خيط سري ما، كانت هذه الشرانق كلها متصلة معاً وكأن هناك شيئًا مهمًا يجعل تلك العناكب، المختبئة في زواياها السرية البعيدة، حريصة على معرفة كل رعشة صغيرة وكل حركة مجهرية، وكأنها ستظل مرتاحة طالما بقيت شبكتها الغريبة الخفية هذه سليمة. مدت خيوطها خلف وجوه النائمين وأيديهم وأقدامهم أيضاً، ثم عادت بسرعة البرق إلى جحورها الخفية، وظلت جاهزة للمضيّ إلى عملها من جديد عندما تشعر بأي اهتزاز. وأما الحشرات الطائرة التي كانت تلتمس السلامة من خيوط العناكب فظلت مستمرة في طيرانها من غير تعب طيلة الليل وهي ترسم دوائر من حول المصباح الخافت. واصل كيريكس عزفه، نصف نائم، وكان دماغه نصف المنتبه مليئاً بالقنابل والطائرات المتساقطة، وبجنود يفرون من ميدان المعركة، وببلدان محترقة... كانت كل صورة تعقب سابقتها بسرعة شديدة تبعث على الدوار: وعندما دخلا، كان المكان هادئاً ولم يلاحظهما أحد، فوقفا مدهوشين ينظران إلى المشهد أمامها. وهكذا كان كيريكس وحده الذي أحس، من دون أن يعي ذلك فعلاً، أن إرمياس وبيترينا قد وصلا.

الجزء الثاني

6 . إرمياس يلقي كلمة

أيها الأصدقاء! أعترف بأنني جئتكم في وقت عصيب. وإذا لم تخدعني عيناي، فإنني أرى أن أحداً منكم لم يتخلف عن حضور هذا الاجتماع الهام... ولا شك عندي أيضاً في أن كثيرين منكم واثقون بأنني سأكون مستعداً لأن أقدم لكم تفسيراً للأحداث الأخيرة، الأحداث التي لا يمكن لأي عاقل إنكار أنها مأساة شاملة، ويبدو لي أننا وصلنا حتى قبل الوقت الذي فكّرنا فيه البارحة... لكن، ماذا أستطيع أن أقول لكم أيها السيدات والسادة؟ ماذا أستطيع أن أقول إلا إنني... مصدوم، بل إنني مصعوق تماماً... صدقوني، فأنا مرتبك تماماً أيضاً، وهذا يعني أن عليكم أن تسامحوني لأنني لا أستطيع الآن أن أجد الكلمات المناسبة، وبدلاً من أن أخاطبكم مثلما ينبغي لي فإنني لا أزال أشعر بغصّة في حلقي، مثلما تشعرون أنتم، غصة بسبب الصدمة التي شعرنا بها جميعاً، لذلك أرجو ألا يفاجئكم أن أكون مثلكم جميعاً (في هذا الصباح الحزين لنا كلنا)، أرجو ألا يفاجئكم أنني أشعر بالعجز ولا أجد كلمات أقولها لأنني، عليّ الاعتراف بهذا، لا أجد ما يساعدني على الكلام عندما أتذكر كيف كنا مجتمعين الليلة الماضية، كيف وقفنا مذعورين أمام جثة هذه الطفلة التي اكتشفت قبل وقت قليل، وكيف قلت لكم إن علينا أن نحاول النوم، وها نحن مجتمعون من جديد آملين أننا

(ربما الآن، غداة الحادثة) يمكن أن نستطيع مواجهة الحياة بذهن أكثر صفاء رغم أنني، صدقوني، ضائع تماماً مثلكم، ولم يأتني هذا الصباح الجديد إلا بمزيد من التشوّش والحيرة. أعرف أن عليَّ أن أستجمع شتات نفسي وأن أشد من عزيمتي لكني واثق من أنكم ستفهمون الوضع إذا كنت في هذه اللحظة غير قادر على قول شيء ولا على فعل شيء إلا مشاطرة هذه الأم الحزينة مصابها، مشاطرتها هذا المصاب بعمق، مشاطرتها حزنها المستمر الذي لن يزول أبداً... وذلك لأنني لا أظن أن علي إخباركم مرتين عن ألم فقدان شخص عزيز ـ ألم مستمر من لحظة لأخرى ـ ألم فقدان طفلة من أحب الأطفال إلى قلوبنا... إنه، يا أصدقائي، ألم لا يمكن لأحد أن يقيسه. ولا أظن أن أحداً من المجتمعين هنا عاجز عن فهم هذا، فالمأساة تشملنا جميعاً، تشمل كل واحد منا، لأننا، كما نعرف تماماً، مسؤولون عما حدث، مسؤولون كلنا. وأقسى ما يجب أن نواجهه في هذا الوضع هو واجبنا في دراسة القضية، رغم أننا نصر على أسناننا وتمسك الغصة بحلوقنا. أقول هذا لأنه (وعليَّ أن أشدد على هذا الأمر بأقصى ما أستطيع) لا شيء أكثر أهمية قبل وصول المسؤولين وقبل وصول الشرطة وبدء تحقيقاتها من قيامنا، نحن الشهود الذين نتحمل المسؤولية، ببناء الأحداث على نحو صحيح واكتشاف سبب هذه الفاجعة المخيفة التي تمخّضت عن وفاة طفلة بريئة. من الأفضل أن نعدَّ أنفسنا لأن المسؤولين المحليين سوف يعتبروننا أول من يتحمل المسؤولية عن هذه الكارثة. نعم يا أصدقائي، نحن أول من يتحمل المسؤولية! لكن من المؤكد أن هذا لا يجوز أن يفاجئنا. إذا كنا صادقين مع أنفسنا، فإن علينا الاعتراف بأننا، بشيء من الاهتمام وبشيء من الحذر الواجب، كنا قادرين على منع وقوع المأساة، ألا ترون أننا كنا قادرين على تفادي وقوعها؟

فلنفكر فقط في أن هذه المخلوقة الضعيفة، هذه المخلوقة التي يمكن أن نعتبرها قد صارت في عهدة الله، مثل حمل صغير، كانت معرَّضة لكل أنواع الأخطار، وكان يمكن أن تقع فريسة لأي متشرد أو عابر سبيل، فريسة أي شيء وكل شيء يا أصدقائي... كانت في الخارج طيلة الليل، مبتلة حتى العظام تحت ذلك المطر العنيف، كانت في الخارج تحت رحمة الريح الشديدة، كانت فريسة سهلة لكل العناصر... ومن خلال إهمالنا الأعمى، إهمالنا الشرير الذي لا يمكن غفرانه، كانت متروكة تتجول وحدها مثل كلب شارد، هنا على مقربة منا، بل في وسطنا عملياً، تدفعها هنا وهناك قوى كثيرة، لكنها لم تبتعد عنا كثيراً. لعلها كانت تنظر عبر هذه النافذة، تنظر إليكم سيداتي وسادتي، تنظر إليكم وأنتم ثملين طيلة الليل، ولا أستطيع أن أنكر أيضاً أننا مررنا بينما كانت تنظر إلينا من خلف شجرة أو من قلب كدس من أكداس القش، تنظر إلينا ونحن سائرين مرهقين متعثرين تحت المطر، مارّين بمعالم الطريق المعروفة تماماً، قاصدين عزبة آلماسي ـ كانت دربها قريبة منا في حقيقة الأمر، قريبة إلى حد يكفي معه أن نمدّ يداً لنلمس يدها، ثم لم يسرع أحد إلى مساعدتها (هل تفهمون هذا) عندما حاولت أن تصرخ، لا بد أنها حاولت الصراخ في لحظة الموت تلك، لا بد أنها حاولت أن تنادي أحداً ما، لكن الريح ذهبت بصوتها فضاع في خضم الضوضاء التي كنتم تخلقونها بأنفسكم، أنتم سيداتي وسادتي! سوف تسألون: ما الذي جعل عوامل المصادفة الفظيعة هذه تجتمع كلها، وكيف جاءت نزوة القدر الرهيبة هذه؟... لا تسيئوا فهمي، فأنا لا أتهم أي شخص بعينه... لست أتهم الأم التي أظن أنها لن تحظى بعد اليوم بنوم هانئ في الليل لأنها غير قادرة على مسامحة نفسها على استيقاظها متأخرة كثيراً في هذا اليوم المشؤوم. ولست أتهم أيضاً،

مثلكم يا أصدقائي، شقيق الضحية، هذا الفتى المتميز الذي ينتظره مستقبل مشرق، إنه آخر شخص رآها، على مسافة مئتي متر من هنا، فقط، مجرد مئتي متر منكم يا سيداتي ويا سادتي، منكم أنتم الذين لم يخطر في بالكم أي شيء، أنتم الذين كنتم تنتظرون وصولنا بصبر فسقطتم في نوم مخمور بليد... لست أتهم أحداً بعينه، ولست أتهم شيئاً، لكن... دعوني أطرح هذا السؤال عليكم: ألا يقع اللوم علينا جميعاً؟ ألن يكون من الأجدى لنا، ألن يكون أكثر لياقة بدلاً من طرح الأعذار والحجج الرخيصة، أن نعترف بأننا، نعم، بأننا نحن المذنبين في حقيقة الأمر؟ هذا لأن علينا (إن السيدة هاليكس محقة في هذا الأمر من غير أي شك) ألّا نخدع أنفسنا آملين في منح ضمائرنا استراحة من خلال التظاهر بأن ما حدث كله كان مصادفة عجيبة، مجرد اجتماع عشوائي لأحداث لم نكن قادرين على فعل شيء إزاءها. أستطيع أن أبرهن لكم في دقيقة واحدة على أنكم مخطئون في هذا! دعونا ننظر في الأمر، جزءاً بعد جزء، كل واحد منا بدوره، دعونا نحلل اللحظة المفزعة وندرس أجزاءها المختلفة، لأن السؤال الكبير (لا يجوز لنا أن ننسى هذا سيداتي وسادتي) هو ما حدث حقاً صباح البارحة في هذا المكان. لقد فكّرت في تفاصيل الليلة مرة بعد مرة قبل أن أعثر على الحقيقة! أرجوكم، لا تظنوا أن المسألة كامنة في عدم معرفة كيف حدثت تلك المأساة، فالحقيقة أننا لا نعرف حتى طبيعة ما حدث... إن المعلومات التي ندركها، الاعترافات الكثيرة التي سمعناها، متناقضة جداً إلى حد يستلزم وجود شخص عبقري، (شخص لديه دماغ حقاً، مثلما تقولون أنتم في هذه المنطقة) حتى يبصر شيئاً عبر هذا الضباب ويصل إلى الحقيقة... كل ما نعرفه هو أن الطفلة قد ماتت. وهذا ليس قدراً، عليكم أن تعترفوا بذلك! وهذا ما حملني على التفكير بعد ذلك،

بعد أن استلقيت على فراشي في غرفة المستودع التي قدّمها لي هذا الرجل اللطيف، صاحب الحانة، قدمها بكل إخلاص، فكرت في أننا لا نملك طريقاً آخر غير المضيّ عبر الأحداث كلها، خطوة فخطوة. إنني مقتنع تماماً بأن ذلك هو الإجراء الصحيح الوحيد الذي نستطيع القيام به... علينا أن نجمع التفاصيل كلها، التفاصيل التي تبدو من غير أهمية؛ لذلك أرجوكم ألا ترددوا، أرجوكم أن تتذكّروا كل ما يمكن أن يكون قد بدا لأنظاركم قليل الأهمية. فكروا جيداً في أي شيء يمكن أن تكونوا قد نسيتم إخباري به ليلة أمس لأن هذا هو السبيل الوحيد الذي نستطيع أن نجد من خلاله تفسيراً لما حدث لنمتلك نوعاً من الدفاع عن أنفسنا في اللحظة الحرجة القادمة، لحظة التحقيق... فلنستفد من الوقت القصير الباقي أمامنا، فبمن يمكن أن نثق غير أنفسنا؟ لا أحد غيرنا قادر على حكاية قصة هذه الليلة الخطيرة وهذا الصباح الخطير...

كان لهذه الكلمات الجدية وقع جنائزي في الحانة كلها. كانت أشبه بقرع أجراس غاضب متواصل، صوت كان وقعه المخيف في نفوسهم أعمق بكثير من فائدته في توجيههم إلى معرفتهم منبع مشكلاتهم. كانت الجماعة محيطة بإرمياس قلقة صامتة مسحورة (بوجوه تعكس الأحلام المخيفة في الليلة الماضية، وجوه تخنقها ذكريات صور منذرة بالشؤم تنتقل بين الأحلام واليقظة)، كأنها مجموعة أشخاص استيقظوا قبل لحظات، أشخاص لا تزال ثيابهم مجعدة وشعورهم مشعثة، ولا تزال على وجوه بعضهم آثار ضغط الوسائد... ينتظرون منه أن يشرح لهم سبب انقلاب العالم رأساً على عقب بينما كانوا نائمين... كانت حالة فوضى رهيبة. كان إرمياس جالساً في الوسط واضعاً ساقاً فوق ساق ومستنداً بجلال إلى الخلف محاولاً أن يتجنّب النظر في تلك العيون المحمرة المحاطة بهالات سوداء... كانت عيناه تحدقان إلى الأمام بجرأة، وكانت

وجنتاه المرتفعتان وأنفه الصقري المكسور وذقنه البارزة المحلوقة حديثاً ترتفع فوق رؤوس الجميع، وكان شعره الذي طال حتى غطّى رقبته متموجاً من الناحيتين، وكان كلما وصل إلى فقرة أكثر أهمية في حديثه يرفع حاجبيه الكثيفين المتقاربين الناميين ويرفع إصبعه موجِّهاً عيون المستمعين إلى حيث يريد.

لكن عليّ أن أخبركم شيئاً قبل أن ننطلق في هذا الدرب الخطر. لقد أغرقتمونا يا أصدقائي بأسئلة كثيرة عندما وصلنا فجر الأمس: كان كل منكم يقاطع الآخر، ويشرح، ويطالب، ويبدأ الكلام ثم يتراجع، ويرجو ويقترح، ويثير الحماسة ويتبرم، وأريد الآن، رداً على هذا الترحيب الفوضوي، أن أتناول أمرين اثنين رغم أنني تحدثت فيهما مع كل واحد منكم بمفرده... طلب مني أحدكم «أن أكشف سر اختفائنا»، مثلما دعاه واحد منكم، منذ ثمانية عشر شهراً... لا بأس أيتها السيدات وأيها السادة... «لا وجود لأي سر»؛ دعوني أوضح هذه النقطة جيداً وأنتهي منها: لا وجود لأي سر من أي نوع. كان علينا في الآونة الأخيرة أن نقوم ببعض الواجبات ـ يمكنني أن أطلق على هذه الواجبات اسم «مهمة» ـ مهمّة يكفي أن أقول عنها إنها على ارتباط عميق بوجودنا هنا الآن. وبعد أن قلت هذا، عليَّ الآن أن أسلبكم وهماً آخر لأن لقاءنا غير المتوقع هذا ليس إلا مصادفة خالصة (بحسب تعبيركم أنتم) قادتنا طريقنا ـ طريقي وطريق صديقي ومساعدي العزيز ـ إلى عزبة آلماسي لأنه كان علينا ـ لأسباب محددة ـ أن نذهب في زيارة طارئة إلى ذلك المكان حتى نُجري ما يمكن أن نطلق عليه اسم «استطلاع». وعندما انطلقنا، يا أصدقائي، لم نتوقع أن نجدكم هنا: لم نكن في الحقيقة واثقين أيضاً من أننا سنجد أن هذه الحانة لا تزال مفتوحة... وهكذا ترون أن رؤيتكم كلكم من جديد كانت مفاجئة لنا؛ لم نتوقع أن نراكم

هنا كأن شيئاً لم يحصل. لا أنكر أننا سررنا برؤية هذه الوجوه التي نعرفها، لكني في الوقت نفسه ـ لن أخفي هذا الأمر عنكم ـ قلقت عندما رأيت أنكم، يا أصدقائي، لا تزالون عالقين هنا (اعترضوا إن كنتم تجدون كلمة عالقين أقوى مما يجب)، عالقين في هذا المكان النائي بعد سنوات من اتخاذكم قرار الرحيل ومغادرة هذه الطريق المسدودة بحثاً عن حظكم في مكان آخر. عندما التقينا آخر مرة، قبل ثمانية عشر شهراً تقريباً، كنتم واقفين أمام الحانة تلوّحون لنا مودعين عندما مضينا واختفينا خلف المنعطف، وأذكر الآن بوضوح تام كم كان لديكم من خطط كبيرة، وكم كان لديكم من أفكار رائعة جاهزة لا تنتظر غير وضعها موضع التطبيق، وكم كنتم متحمسين آنذاك. والآن، أجدكم لا تزالون هنا، تماماً على الحالة نفسها مثلما كنتم عندها، بل أسوأ حالاً من ذي قبل، اعذروني على هذا التعبير يا سيداتي ويا سادتي، أجدكم أكثر بلادة من ذي قبل! فماذا حدث إذاً؟ ماذا حل بخططكم الكبيرة وأفكاركم اللامعة؟!...
أوه، أرى أنني خرجت عن الموضوع بعض الشيء، أكرر القول يا أصدقائي إن ظهورنا بينكم مجرد مصادفة. وفي حين كان هذا العمل المستعجل كثيراً الذي لا يحتمل أي تأخير يجب أن يجعلنا نصل منذ بعض الوقت ـ كان علينا أن نصل إلى عزبة آلماسي عند ظهر الأمس ـ فإنني، في ضوء صداقتنا القديمة، قررت، يا سيداتي ويا سادتي، عدم ترككم وحدكم هنا، ليس فقط لأن هذه المأساة تمسّني أنا أيضاً (الحقيقة أننا كنا قريبين كثيراً عندما حدثت، فضلاً عن أنني أكاد أذكر وجود تلك الضحية المسكينة بيننا وأعرف أن علاقتي الطيبة بأسرتها تفرض عليّ واجباً لا مهرب منه)، بل لأنني رأيت أيضاً أن هذه المأساة كانت نتيجة مباشرة لوضعكم هنا، وهذا يعني أنني لا أستطيع أن أترككم هكذا ببساطة. لقد أجبت على سؤالكم

الثاني من خلال هذا الكلام، لكن اسمحوا لي أن أكرر ما قلت حتى لا يكون هنالك أي سوء تفاهم في ما بعد. سمعتم أننا قادمون في الطريق فافترضتم متعجلين أننا نعتزم رؤيتكم، لكنكم كنتم مخطئين فقد قلت منذ قليل إنه لم يخطر في بالي أنكم لا تزالون هنا. لكني لا أستطيع إنكار أن هذا التأخير مزعج بعض الشيء لأنه كان علينا أن نكون في المدينة الآن؛ لكن، وبما أن الأمور جرت على هذا النحو فلنحاول إنجاز شيء ما بأسرع ما نستطيع، ولنحاول التوقف ملياً عند المأساة التي حدثت. وربما، إذا بقي وقت بعد ذلك، فسوف أحاول أن أفعل شيئاً من أجلكم، رغم أن عليَّ الاعتراف بأنني لا أستطيع التفكير في طبيعة هذا الشيء الآن.

...

ماذا فعل القدر بكم يا أصدقائي، يا أصحاب الحظ العاثر؟ أستطيع الإشارة إلى صديقنا فوتاكي هنا بكلامه المحبط الذي لا ينتهي عن الجص المتقشر والسقوف التي تفقد قرميدها والجدران المتداعية والحجارة المتآكلة؛ إن طعم الهزيمة المر يسكن كل شيء يقوله. لماذا نهدر الوقت على التفاصيل المادية الصغيرة؟ لماذا لا نتحدث بدلاً من ذلك عن إخفاق المخيّلة، عن ضيق الأفق، عن الملابس المهلهلة التي ترتدونها الآن؟ أوَليس علينا أن نناقش غرابة عدم قدرتكم على فعل أي شيء على الإطلاق؟ أرجو ألا يفاجئكم أنني أستخدم كلمات أقسى من المعتاد، لكن يجب الآن أن أقول ما أفكر فيه وأن أكون صادقاً معكم. وهذا لأن الكلام الناعم، صدقوني، والسير بخطى حذرة للالتفاف حول النقاط التي تثير حساسيتكم، لن يؤدي إلا إلى زيادة الأمور سوءاً! وإذا كنتم تظنّون حقاً، مثلما أخبرني مدير المدرسة البارحة وهو يخفض صوته ويقول إن «هذه المزرعة ملعونة»، فلماذا لا تستجمعون شجاعتكم وتفعلون شيئاً

بخصوص هذا الأمر؟! إن من الممكن أن تكون لهذا الأسلوب الوضيع الجبان الضحل في التفكير نتائج خطيرة، يا أصدقائي، إذا سمحتم لي بأن أقول هذا! عجزكم هو المذنب، جُبنكم هو المذنب، هو المذنب يا سيداتي ويا سادتي! ليس في مقدور المرء ـ انتبهوا إلى هذه النقطة جيداً ـ أن يدمر الآخرين فحسب، بل هو قادر على تدمير نفسه أيضاً، وهذه هي الغلطة الكبرى يا أصدقائي، وإذا فكرتم في الأمر جيداً فسوف ترون أن كل خطيئة نرتكبها في حق أنفسنا ليست إلا فعلاً من أفعال إهانة الذات وتحقيرها.

كان أهالي المزرعة متجمّعين معاً مذعورين؛ وأما بعد هذه الجمل المرعبة الأخيرة فقد أحسّوا بأنهم يموتون ويتلاشون، وكان عليهم أن يغمضوا أعينهم لا بسبب هذه الكلمات النارية وحدها بل لإحساسهم بأن عينيه تحفران ثقوباً فيهم... كانت تعابير وجه السيدة هاليكس اعترافاً كاملاً بالذنب، راحت تمتص هذه الإهانات المجلجلة امتصاصاً، وقفت أمامه كأنها في حالة من النشوة الجنسية. واحتضنت السيدة كرانر زوجها وشدّته إليها بقوة إلى درجة جعلته، من حين لآخر، يطالبها بتخفيف قبضتها قليلاً. وجلست السيدة شميدت شاحبة إلى «طاولة المتحدّثين» وهي تمر بيدها على حاجبها من حين لآخر كأنها تحاول مسح البقع الحمراء التي راحت تظهر هناك في موجات خفيفة من الاعتزاز التي لم تستطع ضبطها... وأما السيدة هورغوس (خلافاً لحال الرجال الذين وقفوا مسحورين ـ من غير أن يفهموا تماماً هذه الاتهامات المبطنة ـ مذعورين من المشاعر العنيفة المتولدة في داخلهم) فراحت تراقب الأحداث بفضول شديد وتطلّ بوجهها، من حين لآخر، من خلف منديلها المجعد.

أعرف، أعرف بالطبع... أن لا شيء بسيطًا! لكن، قبل أن تلتمسوا الأعذار لأنفسكم وتلقوا باللائمة في هذا الضغط الذي لا سبيل إلى احتماله على الوضع أو على عجزكم عندما تواجهكم

الحقائق، فكروا بالصغيرة إيستي لحظة واحدة، بالصغيرة التي سبب لكم موتها هذا الذعر كله... تقولون إنكم أبرياء يا أصدقائي، هذا ما تقولونه عن أنفسكم الآن؛ لكن، ما قولكم إذا سألتكم الآن بماذا نصف هذه الطفلة البائسة؟... أندعوها ضحية بريئة؟ شهيدة المصادفة؟ أندعوها ضحية خالية من كل خطيئة؟... أنتم ترون إذن! لنقل إنها كانت الطرف البريء! صحيح؟ لكن، إذا كانت هي من يجسد البراءة، فأنتم من يجسد الذنب، يا سيداتي ويا سادتي، كل واحد منكم، اعترضوا إن شئتم على هذه التهمة إذا رأيتم أنها من غير أساس... آه، لكنكم صامتون! أنتم متفقون معي إذن! تفعلون حسناً بأن تتفقوا مع ما أقول، لأننا، مثلما ترون، واقفون الآن على عتبة اعتراف يحررنا... لأنكم تعرفون الآن كلكم، تعرفون ولا تخمّنون فقط، ما حدث في هذا المكان. هل ما أقوله صحيح؟ أريد أن أسمع كل واحد منكم يقولها الآن... قولوها الآن... ماذا؟ أليس لديكم ما يُقال يا أصدقائي؟ لا بأس، أفهم طبعاً كم هو صعب عليكم أن تعترفوا، حتى الآن عندما صار كل شيء واضحًا تماماً. لا نستطيع أن نبعث هذه الطفلة حية بطبيعة الحال، لكن صدقوني، هذا بالضبط ما يتعين علينا فعله الآن لأنكم ستكونون أقوى من أجل المواجهة. لا يقل الاعتراف الواضح النظيف، مثلما تعرفون، أهمية عن الغفران نفسه. تصبح الروح حرة، وتتحطم قيود الإرادة، ونصير قادرين على رفع رؤوسنا عالياً من جديد، فكروا في هذا يا أصدقائي، سرعان ما يحمل صاحب الحانة التابوت إلى المدينة بينما نبقى نحن هنا حاملين ثقل المأساة فوق أرواحنا، لكننا لن نكون ضعفاء ولن نكون غير مطهّرين، لن ننطوي على أنفسنا جبناً، لأننا ـ رغم قلوبنا المحطمة ـ اعترفنا بخطيئتنا وصرنا قادرين على الوقوف غير هيّابين تحت مصباح العدالة الكاشف... دعونا الآن لا

نضيّع وقتاً لأننا صرنا نفهم جميعاً أن موت إيستي كان عقاباً وإنذاراً لنا وأن تضحيتها تشير لنا، يا سيداتي ويا سادتي، إلى مستقبل أفضل وأكثر إنصافاً.

غشت الدموع أعينهم المؤرقة المعذبة؛ سمعوا هذه الكلمات فسرت فيهم موجة من الارتياح، موجة حذرة مترددة لكن لا شيء قادراً على إيقافها، فمسحت وجوههم وانطلقت منهم، هنا وهناك، زفرة تكاد تكون جماعية. كان ذلك أشبه بضياء الشمس الحاد يشفي آلام البرد. كان هذا ما ينتظرون حدوثه هذه الساعات كلها، هذه الكلمات التي تحررهم وتشير إلى الأمل الأخير، إلى أملهم الدائم في «مستقبل أفضل وأكثر إنصافاً»؛ الآن صارت نظراتهم الخائبة تشع أملاً وإيماناً وحماسة، وكذلك حزماً وإحساساً بإرادة فولاذية وهم واقفون أمام إرمياس...

وأنتم تعرفون، عندما أتذكر ما رأيته عند وصولنا واجتيازنا هذه العتبة، تعرفون كيف كنتم يا أصدقائي، كنتم متناثرين في هذه الغرفة، متهالكين، غائبين عن الوعي، مستلقين على الكراسي والطاولات، وكانت ثيابكم خرقاً كساها العرق؛ ويجب الاعتراف بأن قلبي يؤلمني وبأنني صرت غير قادر على الحكم عليكم لأنني لا أستطيع نسيان هذا المنظر أبداً. سوف أذكره كلما حدث شيء يهدد بجعلي أنحرف عن المهمة التي أوكلها الرب لي. نعم، لأن ذلك المشهد جعلني أرى مدى بؤس الناس المعزولين إلى الأبد المحرومين من كل شيء: رأيت فيه الناس المنبوذين، عاثري الحظ، المحتاجين، عديمي الحول؛ وجعلني تنفسكم وشخيركم وزفيركم أسمع نداءكم الملحّ من أجل المساعدة، نداء لا بد لي من تلبيته طالما أنا على قيد الحياة وإلى أن أصبح غباراً ورماداً أنا نفسي أيضاً... أرى في هذا إشارة، إشارة خاصة، فما الذي يجعلني أنطلق من جديد من غير أن آخذ مكاني على رأس هذا الغضب الذي يزداد

فوة، ويزداد تصاعداً، ويزداد تبريراً. الغضب الذي يطالب برؤوس من هم مذنبون حقاً... يعرف أحدنا الآخر جيداً يا أصدقائي. وأنا كتاب مفتوح أمامكم. تعرفون كيف تجوّلت في العالم سنين كثيرة، بل عقوداً من السنين، وتعرفون أنني مررت بتجارب مريرة جعلتني أرى، رغم الوعود كلها ورغم المظاهر كلها ورغم الحجاب الكثيف الذي تقيمه الكلمات الكاذبة، أن لا شيء تغير في حقيقة الأمر... يظل الفقر فقراً، وأما تلك الملعقتان الإضافيتان من الطعام التي نحصل عليهما فلا تعدوان أن تكونا كلاماً فارغاً. وفي هذه الشهور الثمانية عشر الأخيرة اكتشفت أن كل ما فعلته حتى الآن لم يكن شيئاً، وما كان علي أن أهدر وقتي على تفاصيل صغيرة تافهة؛ إن من واجبي أن أجد حلاً أكثر استمراراً إن كنت أريد تقديم المساعدة... وهذا ما جعلني أنتهز الفرصة آخر الأمر: أريد الآن أن أجمع حفنة من الناس حتى أقيم اقتصاداً نموذجياً يوفّر القوت المضمون ويجمع برباط قوي زمرة صغيرة ممن فقدوا كل شيء، إن جاز لي التعبير على هذا النحو... هل بدأتم تفهمونني... ما أريده هو أن أقيم جزيرة صغيرة لحفنة من الناس ممن لم يبق لديهم شيء يخسرونه، جزيرة صغيرة متحررة من الاستغلال حيث يعمل الواحد من أجل الآخرين لا في مواجهة الآخرين، حيث يحظى كل واحد بالوفرة والسلم والأمان ويستطيع أن يذهب إلى النوم ليلاً كما يليق بكائن بشري... وعندما تسري أخبار هذه الجزيرة أعرف أن جزراً مثلها ستظهر وستتكاثر مثلما يتكاثر الفطر: ستكون هناك دائماً أعداد جديدة منا، وفي آخر المطاف سيصبح ممكناً فجأة كل ما كان يبدو مجرد حلم غامض، سيصبح ممكناً بالنسبة لك، وبالنسبة لك، ولك، ولك. وقد شعرت، بل عرفت في حقيقة الأمر، أن هذه الخطة يجب أن تجد طريقها إلى التنفيذ عندما أصل إلى هذا المكان. وبما أنني عشت هنا بنفسي،

وبما أنني أنتمي إلى هذا المكان، فلا بد أن يكون هو مكان تحقيق الخطة. أكتشف الآن أن ذلك هو السبب الحقيقي الذي جعلني أنطلق إلى عزبة آلماسي مع صديقي ومساعدي، وهذا يا أصدقائي هو السبب في اجتماعنا الآن. لا يزال المبنى الرئيسي، مثلما أذكر، في حالة مقبولة حتى الآن، ويمكن إصلاح المباني الباقية في وقت قصير أيضاً. وأما الحصول على عقد الإيجار فليس إلا شيئاً يشبه لعب الأطفال. تظل لدينا مشكلة واحدة، مشكلة كبيرة، لكن، دعونا لا نشغل أنفسنا بها الآن...

سرى هرج مستثار من حوله: أشعل سيجارة وحدق أمامه وقد اكتسى وجهه تعبيراً جاداً مهيباً، كان سارحاً في أفكاره وقد ازدادت الغضون بين حاجبيه عمقاً وراح يعض على شفتيه. ومن خلفه، عند المدفأة، كان بيترينا مأخوذاً تماماً، كان يحدق معجباً برأس «العبقري» من الخلف. عند ذلك تكلم فوتاكي وكرانر معاً: «ما المشكلة؟»

لا أظن أن من الممكن إثقال كاهلكم بهذا الأمر الآن. أعرف كيف تفكرون. تقولون: لماذا لا نكون نحن أولئك الناس؟... الواقع يا أصدقائي أن هذه ليست فكرة مستحيلة تماماً. الناس الذين أريدهم هم من ليس لديهم شيء يفقدونه، وهم أيضاً ـ هذا هو الشيء الأكثر أهمية ـ من لا يهابون المخاطرة. أقول هذا لأن خطتي فيها مخاطر من غير شك. فإذا تقاعس أي واحد من المشاركين، أنتم تفهمون هذا، أي واحد، إذا أصابه الخوف وتراجع، فإنني سوف أضيع ـ هكذا هو الأمر تماماً! نحن نعيش زمناً صعباً. ولا أستطيع أن أجعل الخطة تطرح ثمارها على الفور... يجب أن أكون مستعداً للتراجع بشكل موقت ـ وأنا مستعد للتراجع في حقيقة الأمر إذا صادفت عقبة لا أستطيع التغلب عليها فوراً. لكن هذا لن يكون إلا تراجعاً استراتيجياً أنتظر بعده قدوم اللحظة المناسبة التالية.

الآن، صار السؤال نفسه موجهاً إليه من كل ناحية: «لا بأس، أخبرنا عن المشكلة الكبيرة؟ ألا نستطيع... ربما، على الرغم من ذلك... على نحو ما...»

انظروا إليَّ يا أصدقائي... ليس الأمر سراً كبيراً في الحقيقة، ولا شيء يمنعني من إخباركم. لكني أتساءل عن فائدة هذه المعرفة بالنسبة لكم؟... على أي حال، لا تستطيعون في هذه اللحظة أن تفعلوا شيئاً لمساعدتي. وسأكون سعيداً، من جانبي، بأن أساعدكم عندما تتحسن الأمور هنا، وأما الآن فعملي الآخر يتطلب اهتمامي كله. يجب أن أخبركم بالحقيقة وأقول إن المزرعة تبدو لي في حالة ميؤوس منها في هذه اللحظة... وقد يكون أفضل ما أستطيع القيام به أن أجد للواحد منكم عملاً شريفاً وحياة لائقة في مكان ما، لكن وضعكم جديد بالنسبة لي، وهذا ما يجعلكم تفهمون أن الأمر مستحيل حالياً. يجب أن أفكر في المسألة ملياً. ألا تريدون البقاء معاً؟ إنني أفهمكم، أفهمكم بالطبع، لكن ماذا أستطيع أن أفعل في هذه الحالة؟ ماذا؟ ماذا قلت؟ تسألني عن المشكلة! ما المشكلة؟ لا بأس، انظر، قلت لكم قبل قليل إنني لا أريد إخفاء شيء عنكم. المشكلة هي المال، يا سيداتي ويا سادتي، المال... فبطبيعة الحال، لا يمكن فعل شيء من غير المال، المشروع كله ميت من غير المال... بدل الإيجار، وتكاليف العقود، وإعادة البناء، والاستثمار، ومسألة الإنتاج كلها... يتطلب هذا كله، وأنتم تعرفون، مقداراً مما... ماذا يسمونه... رأس المال الاستثماري... لكنها مسألة معقدة يا أصدقائي، فلماذا نخوض فيها الآن؟ ماذا تقول؟... حقاً؟... أتقول إن لديك مالاً؟ لكن كيف؟ أوه، فهمت. أنت تقصد قيمة الماشية، القطيع. نعم، هذا واضح الآن.

الآن، سَرَت حمى حقيقية في تلك المجموعة؛ هب فوتاكي واقفاً على

قدميه ثم أمسك بإحدى الطاولات فحملها ووضعها أمام إرمياس ومد يده إلى جيبه. جعل الآخرين يرون مساهمته المالية، ثم ألقى بالمال على الطاولة. وخلال دقائق فقط، تبعه كرانر، ثم لحق بهما الآخرون، واحداً بعد الآخر، راح كل منهم يضع ماله فوق مساهمة فوتاكي. راح صاحب الحانة الذي صار وجهه رمادياً يجري جيئة وذهاباً خلف طاولته ويتوقف جامداً بين لحظة وأخرى ويشبّ على رؤوس أصابعه حتى يستطيع الرؤية بشكل أفضل. فرك إرمياس عينيه متعباً؛ همدت السيجارة بيده. كانت نظراته من غير أي تعبير بينما انطلق فوتاكي وكرانر وهاليكس وشميدت ومدير المدرسة والسيدة كرانر محاولين أن يتفوّق كل منهما على الآخر في إظهار حماسته ومدى استعداده والتزامه. وهكذا راحت كومة النقود فوق الطاولة تعلو أكثر فأكثر. وأخيراً، نهض إرمياس واقفاً ومضى إلى بيترينا فوقف إلى جانبه وأشار لهم بيده طالباً الصمت. عم الهدوء الغرفة:

أصدقائي! لا أستطيع إنكار عمق تأثري بحماستكم هذه... لكنكم لم تفكروا في الأمر ملياً كما ينبغي. لا، لم تفكروا في الأمر كما يجب! لا تعترضوا، أرجوكم. لا يمكن أن تكونوا جادّين في هذا! من المؤكد أنكم لا تستطيعون المساهمة بمدّخراتكم الصغيرة التي تعبتم كثيراً في جنيها، المال الذي بذلتم جهداً يفوق طاقة البشر، لا تستطيعون المساهمة به هكذا، فجأة، من أجل فكرة جاءت وليدة اللحظة، لا تستطيعون التضحية بكل شيء، المغامرة بكل شيء، من أجل مشروع فيه مخاطر كثيرة! أوه، يا أصدقائي! إنني أشعر بامتنان لا حدود له تجاه تصرّفكم المؤثر هذا، لكن لا، لا أستطيع أخذ المال منكم... لا أستطيع أخذ المال مدة من المرجح أن تمتد شهوراً كثيرة... حقاً؟... لا أستطيع أخذ المدخرات التي عانيتم المرارة من أجل جمعها طيلة العام؟... بماذا تفكرون؟! إن خطتي، رغم كل شيء، تحفّها مخاطر لا يمكن لي أن أتوقّعها،

مخاطر من مختلف الأشكال! فالقوى التي أقف في مواجهتها يمكن أن تؤخّر تنفيذ الخطة شهوراً، بل حتى سنوات! وأنتم تريدون الآن التضحية من أجل تلك الخطة بنقودكم التي شقيتم في جمعها! فهل أقبلها؟ هل أقبل هذا المال بعد أن اعترفت لكم بأنني غير قادر على مساعدتكم في مستقبل قريب؟ لا يا سيداتي ويا سادتي! لا أستطيع أن أفعل هذا. أرجو أن تستعيدوا نقودكم وأن تخبئوها في مكان آمن! سوف أحصل على الموارد اللازمة بطريقة أو بأخرى، لست مستعداً لجعلكم تخاطرون إلى هذا الحد. يا صاحب الحانة، ألا تستطيع الوقوف ساكناً لحظة واحدة؟ كن لطيفاً واجلب لي زجاجة من المياه المعدنية... أشكرك... انتظر! أرجو ألا يرفض أحد منكم هذا: إنني أدعو أصدقائي الأعزاء إلى تناول الشراب على حسابي... هيا يا صاحب الحانة، لا تفكر في الأمر... اشربوا يا أصدقائي... اشربوا، وفكروا. فكروا جيداً. اهدأوا وفكروا في الأمر بروية مرة أخرى... لا تتخذوا قرارات متعجلة. لقد أوضحت لكم الأمر وأخبرتكم عن المخاطر. لا يجوز أن توافقوا إلا إذا كنتم قد عقدتم العزم تماماً. فكروا في احتمال أن تفقدوا هذا المبلغ الذي تعبتم فيه كثيراً، وفكروا في أن من الممكن، وهذا احتمال، أن تجدوا أنفسكم مضطرين إلى البدء من جديد، من الصفر... لا، لا، يا صديقي فوتاكي، لا أظن أن في هذا أي مبالغة... لا أظن أنني... أنت تتحدث عن الخلاص... أرجو عدم إحراجي بهذه الطريقة! نعم... الحق معك، هذا أقرب إلى الحقيقة يا صديقي كرانر... «متمنّي الخير» هذا تعبير أستطيع قبوله، إنني «متمنّي الخير» لكم بالتأكيد... أرى أنكم غير مقتنعين. لا بأس، لا بأس، حسنًا... يا سيداتي! يا سادتي! هل تسمحون بشيء من الهدوء؟ لا تدعونا ننسى سبب اجتماعنا هنا هذا الصباح! لا بأس! أشكركم!...

أجلسوا في أماكنكم من فضلكم... نعم... في الواقع... أشكركم في الواقع يا أصدقائي... أشكركم!...

انتظر إرمياس حتى جلس الجميع في كراسيهم، ثم عاد إلى مكانه ووقف هناك، ثم تنحنح وفتح ذراعيه بحركة انفعالية، ثم تركهما تسقطان من جديد رافعاً صوب السقف عينين دامعتين قليلاً. ومن خلف الجمع الذي بلغ تأثره أقصاه، كان أفراد أسرة هورغوس (صاروا معزولين عن الآخرين في هذه اللحظة) يتبادلون النظرات، مرتبكين تماماً. وكان صاحب الحانة يمسح طاولته متحمّساً بمنشفة تجفيف الكؤوس، ويلمّع صينية المعجنات، ويلمع الكؤوس، ثم جلس على كرسيه لكنه لم يستطع، مهما حاول، أن يبعد عينيه عن كومة النقود الكبيرة أمام إرمياس.

والآن، يا أعز أصدقائي... ماذا أستطيع أن أقول؟ تقاطعت دروبنا مصادفة، لكن القدر شاء ذلك، واعتباراً من هذه الساعة سنبقى معاً، سنبقى معاً ولن يباعد شيء بيننا... لكني قلق عليكم، يا سيداتي ويا سادتي، قلق بسبب المخاطرة التي قررتم تحملها. وعليّ أن أعترف بأن لثقتكم تأثيرًا كبيرًا في نفسي... أمر طيب أن يكون المرء محط هذه العاطفة التي لا أشعر أنني أستحقها... لكن دعونا لا ننسى ما جعلنا نصل إلى هذا الوضع! دعونا لا ننسى! فلنتذكر الكلفة دائماً... علينا ألا ننساها أبداً! أي كلفة؟ يا سيداتي ويا سادتي! آمل أن تتفقوا معي عندما أقترح تخصيص جزء صغير من هذا المبلغ، هذا المال الموجود أمامي الآن، لتغطية نفقات الجنازة حتى نوفر ذلك العبء على هذه الأم الحزينة. سيكون هذا عرفاناً منا تجاه الطفلة التي مضت إلى نومها الأخير من أجلنا نحن بالتأكيد، أو بسببنا نحن... أقول هذا لأن من المستحيل، آخر الأمر، أن نحدد ما إذا كانت قد ماتت من أجلنا أو بسببنا. لا نستطيع إثبات هذا، ولا ذاك. لكن السؤال باقٍ في قلوبنا دائماً، مثلما ستظل باقية

ذكرى تلك الطفلة، طفلة لعلها فقدت حياتها لهذه الغاية تحديداً... فلنفعل هذا حتى يشرق من جديد النجم الذي يقود حياتنا... من يعرف يا أصدقائي... لكن الحياة قاسية، وقد كانت قاسية علينا في هذا الأمر.

5. المشهد كما بدا من الأمام

ستظل السيدة هاليكس مصرة بعد سنوات من ذلك على أن الهواء فوق رؤوسهم (بعد أن اختفى إرمياس وبيترينا و«الطفل الشيطان» الذي ربط نفسه بهما آخر الأمر ذاهبين في الطريق المؤدية إلى البلدة تحت المطر المنهمر تاركين من بقوا هناك واقفين في صمت أمام الحانة لأن مخلّصهم لم يختف بعد تماماً عن أعينهم عند منعطف الطريق) امتلأ فجأة بفراشات ملوَّنة. لم يعرف أحد من أين أتت هذه الفراشات، لكن المرء كان قادراً على سماع موسيقى ملائكية لطيفة من الأعلى، بكل وضوح. لعلها كانت وحدها من هذا الرأي، لكن من المؤكد أنهم صاروا عند ذلك فقط يصدقون ما حدث، صاروا في تلك اللحظة فقط قادرين على إدراك أنهم لم يكونوا تحت تأثير رؤيا مطمئنة، لكنها رؤيا خادعة تتبعها صحوة مرة، بل أيقنوا أنهم عصبة متحمسة مختارة خصيصاً اجتازت لتوّها مخاض التحرر المؤلم؛ وعرفوا أن في مقدورهم، طالما ظلوا قادرين على رؤية إرمياس وتذكر تعليماته الواضحة وعلى الفرح بكلمات التشجيع التي يقولها، أن يكبتوا خوفهم من أن شيئاً مفزعاً يمكن أن يحدث في أي لحظة من أن شيئاً يمكن أن يطيح بعيداً بإحساسهم الهش بالنصر فيتركهم محطمين تماماً، وذلك أنهم كانوا يعرفون أن شرارات الحماسة المتوقدة يمكن أن تتحول سريعاً إلى رماد بعد ذهابه؛ وهكذا راحوا، من أجل إطالة الوقت الفاصل بين الاتفاق الذي أبرموه والوداع الذي لا بد أن يعقبه،

يؤخرون ذهاب إرمياس وبيترينا مستخدمين مجموعة متنوعة من الحيل: راحوا يتحدثون عن الطقس، أو يشتكون من الروماتيزم، أو يفتحون زجاجات جديدة من النبيذ وهم يثرثرون طيلة الوقت عن الفساد العام في الحياة ـ كأن حياتهم كانت متعلقة بذلك. وهكذا كان يمكن فهم أنهم لم يصبحوا قادرين على التنفس بحرية إلا بعد أن ذهب إرمياس لأنه لم يكن بالنسبة لهم تجسيداً لوعد المستقبل اللامع فحسب، بل تجسيد للخوف من الكارثة أيضاً: لا عجب في أنهم لم يجرأوا، إلا بعد ذهابه، على تصديق أن «كل شيء سيكون صحيحاً كالمطر» من الآن فصاعداً، وأنهم صاروا الآن فقط قادرين على الاسترخاء وترك الفرحة تغمرهم وتهدهد قلقهم وتسمح لهم بأن يستمتعوا بالإحساس الجديد المدوّخ بالتحرر الذي يمكن أن يطغى حتى على الإحساس المعتاد «بالكارثة التي من الواضح أن تجنّبها غير ممكن». ثم ازداد تهليلهم حماسة عندما لوّحوا مودّعين صاحب الحانة (صاح كرانر: «نلت ما تستحق أيها العجوز البخيل») الذي كان مستنداً، مرهقاً، إلى إطار الباب عاقداً يديه على صدره وقد ظهرت دوائر سوداء تحت عينيه، كان يراقب تلك الحفنة الطرِبة مبتعدة عنه فلم يستطع (بعد أن استنفد غضبه الذي يأكله وكرهه القديم وعذاب إحساسه بالعجز المطلق) إلا أن يصيح من خلفهم: «موتوا جميعاً أيها البؤساء، أيتها الحفنة الجاحدة من أولاد الحرام». كان قد أمضى الليلة كلها صاحياً يضع الخطط ـ خطط عاجزة، فاشلة كلها ـ للتخلص من إرمياس الذي بلغ من وقاحته أن استولى حتى على فراشه؛ وبينما كان يفكر، بعينين محمرّتين، إن كان عليه أن يطعنه، أو يخنقه، أو يسممه، أو يقطعه إرباً بالفأس... كان ذلك «الخنزير ذو الأنف المعقوف» يشخر بسعادة في غرفة المستودع غير مهتم بشيء على الإطلاق. كان الكلام قد أثبت فشله أيضاً، فشله الكامل، رغم أن الرجل قد فعل كل شيء ممكن (حانقاً، أو غاضباً، أو محذراً، أو راجياً فقط) من أجل جعل «هؤلاء الريفيين

الجاهلين» يغيّرون رأيهم ويتركون هذه الخطة التي ستكون كارثة مضمونة، كارثة تدمّرهم جميعاً، لكن ذلك كان يشبه الكلام مع جدار من القرميد («عودوا إلى رشدكم، اللعنة عليكم! ألا ترون أنه يجركم من أنوفكم!»)، وهكذا لم يبق أمامه شيء غير أن يلعن العالم كله ويعترف بالحقيقة المذلّة، بحقيقة أن الخراب قد أصابه إلى الأبد؛ فما «معنى الاستمرار في العمل من أجل خنزير ثمل أو من أجل متشرد واحد» ـ ما الذي يستطيع أن يفعله الآن غير أن يجمع حاجاته ويفعل ما يفعله الجميع... يرحل، يعود إلى بيته في المدينة ويأمل في بيع الحانة، بل ربما يستطيع أن يحقق بعض الربح من بيع العناكب أيضاً. «يمكنني أن أعرض بيعها على شخص ما حتى يعرضها في تجربة علمية، من يدري فقد أحصل على بعض المال من بيع هذه العناكب. لكن هذا لن يكون إلا نقطة في بحر... الحقيقة أنني لم أعد أعرف أبداً كيف أبدأ من الصفر»؛ هكذا أقرَّ حزيناً آخر الأمر. لم يكن يماثل شدة قنوطه إلا شدة سرور السيدة هورغوس بيأسه هذا. فبعد أن راقبت «هذه الشعائر الحمقاء كلها» وعلى وجهها تعبير من الشماتة، عادت إلى الحانة لتسخر من صاحبها الجالس خلف طاولته: «هل ترى؟ انظر إلى نفسك فقط! لقد أفلت الحصان، أليس كذلك؟» ضبط صاحب الحانة أعصابه رغم أنه كان يود أن يرفسها. تابعت المرأة تقول: «هكذا تجري الأمور، ساعة فوق وساعة تحت. من الأفضل لك أن تعتاد الأمر وتقبله. أرأيت ماذا فعلت بك أفكارك النيّرة كلها؟ بيت جميل في المدينة، وسيارة، وزوجة محترمة. لكن هذا غير كافٍ لك! يمكنك الآن أن تختنق به كله!» أجابها صاحب الحانة عاوياً: «اسكتي وكفي عن هذه الثرثرة. عودي إلى بيتك لتثرثري هناك». أفرغت السيدة هورغوس زجاجة البيرة في جوفها ثم أشعلت سيجارة: «كان زوجي مثلك تماماً، كان لا يرضى أبداً. لم يكن يعجبه شيء... مهما يكن. وعندما أدرك غلطته كان الوقت قد فات كثيراً. لم يعد أمامه شيء يفعله إلا أن يشنق نفسه في عليّة البيت».

أجابها صاحب الحانة بحدة: «لماذا لا تخرسي؟ كفي عن إزعاجي! عودي إلى بيتك واهتمي ببناتك قبل أن يهربن منك أيضاً». ابتسمت السيدة هورغوس: «يهربن مني؟ انسَ الأمر! أتظن أنني امرأة بسيطة؟ لقد حبستهما وأقفلت باب البيت عليهما إلى أن تصبح هذه العصابة خارج المزرعة. ولماذا لا أفعل هذا؟ سوف تتركاني لكي أتدبر أمي وحدي في هذه السن المتقدمة. أما بهذه الطريقة فسوف يواصلن الاهتمام بالمزرعة ـ لقد نالتا كفايتهما من البغاء على أي حال. قد لا يعجبهما الأمر، لكنهما ستعتادان عليه. لست مرتاحة إلا من ناحية ابني ساني. لقد أفلتّه على هواه. وله أن يذهب حيث يشاء. لا أجد فائدة منه في البيت أصلاً. إنه يأكل كالخنزير وأنا لا أستطيع إعالته. فليذهب أينما شاء، سأرتاح من همه». قال صاحب الحانة: «وأنت وكيريكس تستطيعان أن تفعلا ما يحلو لكما. أما أنا فقد انتهى أمري لأن ابن الحرام الذي يشبه وجهه وجوه الجرذان دمَّرني نهائياً». أدرك في المساء، عندما انتهى من حزم حقائبه (في ذلك الوقت لم تعد السيارة تتسع لأي شيء عدا التابوت نفسه، لا إلى جانبه ولا خلفه ولا على المقاعد ولا في أي مكان) وبعد أن أغلق الأبواب والنوافذ بحرص وانطلق إلى المدينة بسيارته الفارشافا العتيقة المحطمة وهو يشتم طيلة الوقت، أنه لن ينظر خلفه ولن يستدير مرة واحدة، بل سيحاول أن يختفي بأسرع ما يستطيع وأن يحاول محو كل أثر لهذا البناء البائس من ذاكرته آملاً أن يختفي عن الأنظار وأن تنمو النباتات فتغطيه كله بحيث لا تعبأ حتى الكلاب الضالة بالتوقّف للتبوّل عليه؛ كان يأمل أن يختفي مثلما اختفى أولئك الغوغاء من المزرعة، أن يختفي من غير إلقاء نظرة أخيرة على السقف الذي كست قرميده الطحالب وعلى المدخنة المعوجّة والنوافذ المغلقة؛ كان يفكر هكذا لإدراكه أنهم، عندما اجتازوا المنعطف ومروا تحت اللوحة القديمة التي تشير إلى اسم المزرعة منتشين «بآفاق المستقبل اللامعة» كانوا واثقين من أن الجديد لن يكتفي بالحلول محل

القديم فحسب، بل هو سيمحوه من محله تماماً. لقد قرروا أن يلتقوا عند غرفة المحركات القديمة بعد ساعتين كحد أقصى، وذلك لأنهم كانوا يريدون الوصول إلى مزرعة المآسي قبل حلول الظلام؛ وقد بدا لهم أن لديهم الوقت الكافي لكي يحزموا أكثر حوائجهم أهمية فقط، فأي معنى لأن يجرجروا مقتنياتهم معهم عشرة أميال تقريباً، وخاصة إذا كانوا يعرفون أنهم لن يكونوا في حاجة إلى أي شيء بعد أن يصلوا إلى هدفهم. اقترحت السيدة هاليكس أن ينطلقوا على الفور من غير أن يهتموا بشيء وأن يتركوا كل شيء خلفهم لكي يبدأوا بروح «الفقر المسيحي»، لأننا «حظينا بالبركة منذ الآن وصار الإنجيل يهتم بأمرنا». لكن الآخرين ـ هاليكس خاصة ـ تمكنوا من إقناعها آخر الأمر بأن من الأفضل أن يأخذوا بعض الحاجيات الشخصية الأساسية على أقل تقدير. تفرقوا بعد ذلك متحمسين، وانكب كل منهم على حزم متاعه: بدأت النساء الثلاث بالملابس أولاً ثم أفرغن المطابخ وغرف المؤونة، أما شميدت وكرانر وهاليكس فتوجهوا إلى خزائن أدواتهم أولاً وراحوا يفرزون ما رأوه أكثر أهمية، ثم تفقدوا بقية الأشياء بأعين كأعين النسور حتى يتأكدوا من أن النساء، بإهمالهن، لم يتركن «أي شيء قيّم». كانت مهمة العازبين أسهل المهمات على الإطلاق: اتسعت حقيبتان كبيرتان لمقتنيات كل منهما. وعلى العكس من مدير المدرسة الذي حزم حقيبته سريعاً، لكن بانتقائية كبيرة لأن ذهنه كان يركز دائماً على «الاستفادة القصوى من كل ما يتيحه المكان الجديد»، فقد رمى فوتاكي حوائجه كلها في حقيبتين قديمتين باقيتين لديه من والده، ثم أغلق أقفالهما بسرعة البرق (كان ذلك مثل إعادة الجنّي إلى القمقم وإغلاقه عليه)، ثم وضعهما الواحدة فوق الأخرى وجلس عليهما وأشعل سيجارة بيدين مرتعشتين. والآن، بعد أن لم يعد هنالك ما يذكّره بوجوده الشخصي، الآن بعد أن فرغ المكان من فوضاه، ذلك المكان الذي احتواه ثم صار الآن عارياً بارداً، الآن بعد أن حزم متاعه، أحس بأنه لم يترك من

خلفه شيئاً يشير إلى أنه كان جزءاً من هذا العالم، لم يترك دليلاً واحداً يمكنه إثبات أنه كان موجوداً هنا ذات يوم. لكن، ومهما يكن عدد أيام الأمل الممتدة أمامه، أو أسابيع الأمل أو شهوره، أو سنيّه ـ لأنه كان واثقاً تماماً من أن حظه تغير أخيراً إلى الأفضل ـ فقد راح ينظر إلى متاعه الآن في هذا المكان المعرَّض للريح الذي يفوح برائحة كريهة (المكان الذي لم يعد يستطيع أن يقول عنه «أعيش هنا»، رغم أنه ما كان يملك أيضاً إجابة على السؤال: «إن لم يكن هنا، فأين إذن؟»)، فقد وجد من الصعب عليه أن يقاوم إحساساً خانقاً بحزن متزايد. بدأت ساقه المعطوبة تؤلمه فنهض عن الحقائب واستلقى حذراً فوق سريره المعدني. غلبه النعاس بضع دقائق، ثم استيقظ مذعوراً فجأة وحاول أن يقفز فعلقت ساقه بقضبان السرير وكاد يقع على وجهه. أطلق سلسلة من الشتائم، ثم استلقى من جديد واضعاً قدمه فوق رأس السرير وراح ينظر إلى السقف المتشقّق برهة وعلى وجهه ظل من الكآبة قبل أن يرفع نفسه على مرفقيه ليتفحص الغرفة الفارغة. وعندما فعل ذلك أدرك ما كان يجعله يؤجل اتخاذ قرار الرحيل مرة بعد مرة: لقد أراح نفسه من الأمان الوحيد في حياته فما عاد لديه شيء الآن؛ ومثلما كانت تعوزه الشجاعة على البقاء في الماضي، أعوزته الشجاعة على الذهاب الآن لأنه، بعد أن حزم أمتعته لهذا الرحيل النهائي، صار كأنه يحرم نفسه من احتمالات كثيرة... كأنه استبدل فخاً بآخر. صحيح أنه كان، إلى هذه اللحظة، سجين المزرعة وغرفة المحرك، لكنه صار الآن خاضعاً للحظ وحده (بل لعبة في يد ذلك الحظ)؛ وإذا كان، حتى هذه اللحظة، قد خشي قدوم يوم يصبح فيه غير قادر على فتح الباب وتصبح النافذة فيه غير قادرة على إدخال أي ضياء، فإنه يحكم على نفسه اليوم بأن يكون حبيس قوة دفع أبدية، قوة دفع يمكن أن يفقدها أيضاً. «سوف أتحرك بعد دقيقة واحدة» سمح لنفسه بشيء من التأخير، ثم مد يده باحثاً عن علبة السجائر بالقرب من السرير. تذكر بمرارة الكلمات الأخيرة

التي قالها إرمياس عند باب الحانة «أنتم أحرار منذ اليوم يا أصدقائي!» لأنه ما كان يشعر بشيء من الحرية الآن... صحيح أن الوقت صار ضيقاً أمامه، إلا أنه كان غير قادر أبداً على حزم أمره والذهاب. أغمض عينيه وحاول تهدئة مخاوفه «التي لا لزوم لها» بأن يتخيل حياته في المستقبل، لكن القلق استولى عليه بدلاً من أن يهدأ، استولى عليه إلى درجة جعلته مضطراً إلى مسح قطرات العرق عن جبهته. مهما حاول قسر مخيلته على الحركة، كانت صورة واحدة تظهر ثم تعاود الظهور مرة بعد مرة: رأى نفسه في الطريق ماشياً بمعطفه القديم المهلهل وحقيبته البالية، رأى نفسه يترنح مستنفد القوى تحت المطر ثم يتوقف ويعود أدراجه متردداً غير واثق. قال لنفسه قانطاً: «كف عن هذا! يكفي هذا يا فوتاكي!» نهض عن السرير وحشر أطراف قميصه في بنطلونه، ثم ارتدى معطفه الثقيل البالي وربط مقبضي الحقيبتين معاً. حمل الحقيبتين إلى الخارج ووضعهما تحت الإفريز، وعندما لم ير أحداً هناك انطلق لاستعجال الآخرين. كان على وشك القرع على باب بيت كرانر، أقرب جيرانه، عندما سمع أصواتاً مرتفعة في الداخل كأنها أصوات سقوط عدد من الأشياء الثقيلة في وقت واحد. تراجع عدة خطوات لأنه ظن في البداية أن هنالك مشكلة. وعندما أراد قرع الباب من جديد سمع بوضوح صوت ضحكات السيدة كرانر المجلجلة في الداخل، ثم صوت صحن يتكسر، ثم صوت فنجان يصطدم بالأرض الحجرية. «ماذا يفعلون بحق الجحيم؟» نظر عبر نافذة المطبخ وهو يظلل عينيه بكفه. لم يصدق ما رآه: كرانر رافعاً قدراً ثقيلة فوق رأسه، ثم رآه يرميها صوب الجدار بكل قوته. وفي تلك الأثناء كانت السيدة كرانر تنتزع الستائر عن النوافذ الخلفية المطلة على حديقة البيت ثم تشير إلى كرانر الذي فقد صوابه بأن يبتعد عن الطريق، ثم تجر خزانة الصحون الفارغة فتبعدها عن الجدار وتدفعها بصعوبة حتى تقع. اصطدمت الخزانة بأرضية المطبخ مصدرة صوتاً رهيباً. انفصل أحد جوانب الخزانة فما كان

من كرانر إلا أن حطم ما بقي منها إلى أجزاء. ثم صعدت السيدة كرانر فوق كومة الركام في وسط المطبخ فانتزعت المصباح القصديري المعلق بالسقف ولوحت به فوق رأسها، وما كاد فوتاكي يحظى بالوقت الكافي لإبعاد رأسه عن النافذة قبل أن يطير المصباح نحوه خارجاً من النافذة بعد أن هشّم زجاجها ويتدحرج بضعة أمتار قبل أن يستقر تحت إحدى الشجيرات. وعندما أفلح أخيراً في فتح تلك النافذة قليلاً صاح به كرانر: «هاي! ماذا تفعل؟» وزعقت السيدة كرانر من خلفه: «يا إلهي!» وهي تنظر شاحبة الوجه إلى فوتاكي وهو ينهض لاعناً مستنداً إلى عصاه وينتزع شظايا الزجاج من ملابسه. دمدم فوتاكي عابساً: «جئت لكي استعجلكما؛ لكن لو عرفت أنكما ستستقبلاني هكذا لبقيت في المنزل». كانت قطرات العرق تتساقط من السيدة كرانر التي لم تستطع، رغم محاولاتها، إخفاء رغبتها في التدمير. قالت له بابتسامة خبيثة: «لا بأس، نلت ما تستحق لأنك كنت تسترق النظر. هذا غير مهم. ادخل إذا استطعت وسنشرب كأساً لكي نتصالح». هز فوتاكي رأسه ونفض الوحل عن حذائه، وعندما نجح في السير بخطى سريعة فوق مرآة ضخمة مكسورة وموقد بترولي مبقور وخزانة ملابس محطمة في الصالة، كانت السيدة كرانر قد ملأت ثلاث كؤوس من الشراب. سأله كرانر راضياً عن نفسه تمام الرضا: «إذن، ما رأيك؟ عمل جيد، أليس كذلك؟» أجابه فوتاكي وهو يقرع كأسه بكأس السيدة كرانر: «كان عليكم أن تتركوا أشياءكم كما هي». قال له كرانر: «لن أتركها حتى تأخذها حفنة من الغجر! أفضّل أن أحطمها كلها». أجابه فوتاكي من غير مبالاة: «فهمت»، ثم شكرهما على كأس البالينكا وغادر المكان سريعاً. اجتاز المرتفع الصغير الفاصل بين صفين من البيوت لكنه كان أكثر احتراساً عندما وصل إلى بيت شميدت وألقى نظرة حذرة من نافذة المطبخ أولاً. لكنه لم يجد خطراً هنا... لم يجد إلا الحطام؛ ورأى شميدت وزوجته جالسَيْن مرهقين فوق خزانة كبيرة مقلوبة. «هل فقد

الجميع عقولهم؟ ماذا أصاب هؤلاء الناس بحق الجحيم؟» نقر على زجاج النافذة ولوّح بيده للسيدة شميدت المنزعجة الغاضبة مشيراً لها بضرورة الإسراع لأن وقت الرحيل قد حان؛ ثم سار صوب البوابة لكنه توقف بعد خطوات قليلة عندما رأى مدير المدرسة زاحفاً بحذر وهو يدخل إلى فناء بيت كرانر ويبّول عبر نافذتهم المكسورة، ثم ينطلق عائداً إلى بيته وهو لا يزال يظن أن أحداً لم يره (كان فوتاكي مختبئاً خلف بوابة بيت شميدت)؛ كان متردداً في البداية لكنه، عندما وصل إلى بيته، راح يصفق الباب الرئيسي مرة بعد مرة بقوة متزايدة. تساءل فوتاكي مذهولاً وهو يغادر فناء بيت شميدت: «ماذا أصابهم يا ترى؟ هل جنوا كلهم؟» وسار نحو بيت المدير بخطوات بطيئة. كان مدير المدرسة مستمراً في صفق بابه بغضب متزايد كأنه يحاول دفع نفسه إلى حالة هستيرية؛ وعندما رأى أنه لم ينجح في ذلك، حمل الباب كله منتزعاً إياه من مفصلاته، وتراجع خطوتين إلى الخلف، ثم ضربه بالجدار مستخدماً قوته كلها. لكن هذا ظل غير كافٍ لتحطيم الباب، فما كان منه إلا أن قفز فوقه وظل يضربه بقدمه حتى لم تبق منه قطعة سليمة. ولو أنه لم يلتفت خلفه ويرى وجه فوتاكي المكشر ناظراً إليه فلعله كان يمكن أن يبدأ تحطيم أي قطعة أثاث لا تزال سليمة في البيت؛ لكنه رآه فأحسّ بحرَج عميق؛ ابتسم لفوتاكي ابتسامة مترددة وأصلح من وضع معطفه الرماديّ الثقيل قائلاً: «آه، أنت ترى...» لكن فوتاكي لم يجبه بشيء... «تعرف كيف هو الأمر. ثم أيضاً...». رفع فوتاكي كتفيه قائلاً: «واضح! كل ما أردت معرفته هو متى تصبح جاهزاً. لقد أنهى الآخرون حزم متاعهم». تنحنح مدير المدرسة قائلاً: «أنا؟ نعم، إنني جاهز الآن. عليّ فقط أن أضع أمتعتي على عربة كرانر». «جيد. تستطيع أن تتفق معه على ذلك». «لقد اتفقنا بالفعل. سيكلفني ذلك زجاجتين من البالينكا. لو كان الأمر غير ذلك لأثرت مشكلة معهم، لكن بما أن لدينا... هكذا أفترض... رحلة طويلة أمامنا...».

طمأنه فوتاكي: «واضح، الأمر يستحق ذلك». ثم ودعه وانطلق إلى غرفة المحركات. وأما مدير المدرسة (كأنه كان ينتظر فقط حتى يدير فوتاكي ظهره) فبصق عبر فتحة الباب، ثم حمل بيده قرميدة وقذف بها نافذة المطبخ؛ وعندما استدار فوتاكي وقد سمع صوت تحطم الزجاج، نفض المدير معطفه وتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً، بل حاول أن يبدو كأنه منشغل بالنظر إلى شظايا الخشب المتناثرة من حوله. وبعد نصف ساعة كانوا جميعاً في غرفة المحركات مستعدين للانطلاق. وباستثناء شميدت (أخذ شميدت فوتاكي جانباً محاولاً تفسير ما حدث قائلاً له: «أنت تعرف يا صديقي ما كان يخطر في بالي فعل ذلك. كل ما حدث هو أن المقلاة سقطت عن الطاولة، ثم تتالت الأمور من تلقاء نفسها»)، كانت الوجوه المتورّدة والأعين المتألقة بالرضا هي وحدها ما يفضح حقيقة أن الآخرين جميعاً «ودَّعوا بيوتهم كما يجب».. ومن فوق حقيبتَي مدير المدرسة، اتخذ معظم متاع آل هاليكس مكانه بسهولة على عربة كرانر اليدوية الصغيرة ذات العجلتين؛ وكان لدى آل شميدت عربتهم الخاصة أيضاً، فزال أي سبب للقلق من احتمال أن تكون الرحلة بطيئة بسبب ثقل المتاع. وهكذا وقفوا جميعاً مستعدين للانطلاق... بل كان من شأنهم أن ينطلقوا على الفور لو أن أحداً منهم بادر إلى ذلك. كان كل منهم ينتظر الآخرين، وهكذا وقفوا جميعاً صامتين محدقين إلى المزرعة بارتباك متزايد لأنهم شعروا جميعاً، الآن عند لحظة الرحيل، أن من الأفضل أن تقال «كلمات وداع»، وكانوا ميّالين جميعاً إلى أن يقوم فوتاكي بهذه المهمة لكنه (بعد أن شاهد هذا التدمير غير المفهوم كله) راح يبحث عن الكلمات، وعندما عثر أخيراً على شيء يمكن اعتباره خطاباً «ملائماً للمناسبة على نحو ما»، كان هاليكس قد ضاق ذرعاً بالانتظار، فأمسك بذراعَي عربته قائلاً: «هيا!» سار كرانر أولاً جاراً عربته من خلفه متقدماً الباقين، وكانت السيدة كرانر والسيدة هاليكس تحفان بالعربة من الجانبين حتى لا يسقط كيس من

الأكياس، ومن خلفهما مباشرة سار هاليكس وهو يدفع عربته، وفي آخر السائرين كان الزوجان شميدت. اجتازوا بوابة المزرعة الرئيسية القديمة، ولفترة غير قليلة لم يكن يسمع إلا صوت عجلات العربتين لأن أحداً منهم، باستثناء السيدة كرانر لم يقدم على كسر ذلك الصمت (لم تكن قادرة على مسك لسانها زمناً طويلاً. وظلت تدلي بتعليقات متواصلة عن حالة الأمتعة المكوَّمة على العربة)... ربما لأنه كان صعباً عليهم اعتياد هذا المزيج الغريب من الإثارة والحماسة والتوتر في ما يتعلّق بمستقبلهم المجهول، مزيج ما كان له إلا أن يزيد عمق قلقهم في ما يتعلق بقدرتهم، بعد ليلتين من غير نوم، على تحمل مشقة هذه الرحلة الطويلة. لكن شيئاً من هذا لم يستمر زمناً طويلاً لأنهم اطمأنوا جميعاً إلى أن المطر سيظل خفيفاً عدة ساعات وإلى أن الطقس لن يزداد سوءاً، ثم إنهم صاروا يجدون صعوبة متزايدة في عدم التعبير عن إحساسهم بالارتياح والزهو لقرارهم البطولي بكلمات يصعب على كل من ينطلق في مغامرة من المغامرات أن يكتمها في قلبه. كان كرانر سعيداً بأن يطلق صيحة عظيمة عندما بلغوا الطريق المعبدة وساروا في الاتجاه المبتعد عن المدينة، صوب عزبة آلماسي، لأن عقوداً من إحساسه بالإحباط (الإحساس الذي كان لا يزال يثقل روحه منذ نصف ساعة فقط) اختفت تماماً لحظة انطلاقهم رغم أن المزاج التأملي الذي سيطر على رفاقه ظل قيداً عليه إلى أن بلغوا مدخل مزرعة هوتشميس، فاستولت عليه الروح المعنوية المرتفعة وصاح فرحاً: «اللعنة على سنوات البؤس هذه! لقد فعلناها! لقد فعلناها يا أصدقائي! يا أصدقائي الأعزاء لقد فعلناها!» أوقف عربته واستدار فواجه الآخرين، ثم ضرب بيده على فخذه وصاح من جديد: «انظروا يا أصدقاء! لقد انتهى البؤس! هل تصدّقون هذا؟! هل تفهمين هذا يا امرأة؟!» قفز على السيدة كرانر وحملها كما يحمل طفلاً وراح يدور بها بأسرع ما يستطيع وظل هكذا حتى تقطعت أنفاسه فتركها وسقط بين ذراعيها وهو يكرر مرة بعد

مرة: «لقد قلت لكِ! لقد قلت لكِ!» لكن «موجة مشاعره» التي انفجرت شملت الآخرين في تلك اللحظة أيضاً: انطلق لسان هاليكس أولاً فراح يشتم السماء والأرض قبل أن يستدير صوب المزرعة فيهز قبضته صوبها، ثم مضى فوناكي إلى شميدت الذي لا يزال مبتسماً وقال له بصوت مرتعش ناضح بمشاعر جياشة: «يا صديقي العزيز...» وفي هذه الأثناء كان مدير المدرسة يشرح متحمساً بعض الأمور للسيدة شميدت («ألم أقل لك إننا لا يجوز أن نتخلى عن الأمل؟ يجب أن نؤمن، أقول لك، أن نؤمن حتى الموت! إلى أين يمكن أن يأخذنا الشك؟ إلى أين قولي لي؟»)
أما هي فأجبرت نفسها على ابتسامة متردّدة لأنها لم تكن تريد لفت الأنظار إليها بإظهار طوفان السعادة الصاخب النابع في داخلها؛ وألقت السيدة هاليكس رأسها إلى الخلف رافعة عينيها إلى السماء وراحت تردد بصوت مرتجف أجَشّ: «فليكن اسمك مباركاً»، وظلت هكذا إلى أن أسكتها المطر المنهمر على وجهها، كما أدركت أيضاً أن صوتها غير قادر على أن يعلو صياح هذه «العصبة التي لا ربَّ لها». صاحت السيدة كرانر بصوت هادر: «اسمعوا يا ناس! فلنشرب نخب هذه اللحظة!» ثم أخرجت زجاجة من أحد أكياسها. قال هاليكس فرحاً: «اللعنة! نعم، أنت مستعدة حقاً لبدء حياة جديدة». ثم أسرع فوقف خلف كرانر حتى يكون الأول في صف الشاربين، لكن الزجاجة اتخذت بينهم مساراً عشوائياً تماماً وراحت تنتقل من فم إلى فم فلم ينتبه حتى فرغت كلها إلا من جرعة واحدة في قعرها. همست السيدة كرانر له: «لا تكن حزيناً هكذا يا لاجوس!» بل غمزت له بعينها أيضاً... «سيكون هنالك مزيد، سترى» وبعد هذا لم يعد أحد قادر على مضاهاة هاليكس: كأنه صار أخف وزناً بما لا يقاس فراح يندفع بعربته إلى الأمام والخلف ولم يهدأ إلا لحظة وجيزة عندما نظر في عيني السيدة كرانر على مسافة أمتار قليلة منه فأجابته بنظرة كأنها تقول «ليس بعد...» ومن الطبيعي أن بهجته الكبيرة هذه انتقلت إلى الآخرين أيضاً،

رغم أنهم كانوا مضطرين دائماً إلى تعديل وضع هذه الحقيبة أو تلك فوق العربات، فتقدّموا مسافة طيبة وسرعان ما خلفوا وراءهم الجسر الصغير فوق قناة الري القديمة وصاروا قادرين أن يروا في البعيد الأعمدة الكبيرة التي تحمل الكابلات المعدنية متدلية بينها. ومن حين لآخر، كان فوتاكي يساهم في الثرثرة رغم أن المسيرة كانت أكثر صعوبة عليه لأنه كان مضطراً إلى مواصلة حمل الحقيبتين الثقيلتين (رغم الجهود المخلصة التي بذلها كل من شميدت وكرانر، تبين أن من المستحيل وضع هاتين الحقيبتين فوق أي عربة من العربات)، كان يحملهما على كتفيه مما زاد من صعوبة مواكبة الآخرين إضافة إلى معاناته من ساقه العرجاء التي زادت من مشقة السير. قال فوتاكي: «أتساءل كيف سيتدبرون أمورهم». أجابه شميدت: «من؟» «كيريكس على سبيل المثال». صاح كرانر مستديراً صوبهما: «كيريكس! لا تقلقوا على كيريكس. لقد عاد إلى بيته البارحة فرمى بنفسه في الفراش ـ لا أعرف إن كان سريره قد انهار من تحته نتيجة ذلك ـ ولا أظن أنه سيتيقظ قبل الغد. سوف يزمجر ويتذمر في الحانة بعض الوقت ثم يتوجه إلى السيدة هورغوس لقضاء وقت طيب عندها. إنهما متشابهان مثل حبتَي بازلاء هذين الاثنين». قاطعه هاليكس: «لا شك في هذا! سوف يحطم كل منهما الآخر! أتظنون أنهما يباليان بأي شيء آخر؟ لقد خلعت السيدة هورغوس ثياب الحداد منذ اليوم التالي». تدخلت السيدة كرانر في الحديث: «كنت أفكر فقط...! ماذا حدث لكيليمين العظيم؟ لقد اختفى فجأة... لم أره أبداً». أجابها كرانر مبتسماً: «كيليمين؟ أتسألين عن كيليمين يا عزيزتي؟ لقد ذهب أمس، بعد الظهر. مر عليه وقت عصيب، ها ها ها! لقد هاجمني أولاً ثم بدأ يهاجم إرمياس، ذلك المعتوه. نعم، نال ما يستحق، بل أكثر قليلاً، لأن إرمياس لا يتحمل شيئاً من هذا الكلام الفارغ؛ وقد قلت له أن ينصرف فوراً عندما بدأ يشتكي ويقول لإرمياس ما عليه أن يفعله ويخبره إننا كلنا يجب أن نكون في السجن وإنه يستحق نصيباً أفضل

منا... وأشياء أخرى من هذا القبيل! وبعد ذلك حمل أشياءه وانصرف من غير أي كلمة. وأظن أن ما جعله يدرك أن ما أنهى أمره فعلاً هو أنه لوح بشارة متطوعي الشرطة التي على ذراعه أمام إرمياس الذي قال له – اعذروني – قال له أن يمسح بها مؤخرته». أضاف شميدت: «لن أقول إنني أفتقد وجوده معنا، ابن الحرام. لكنني متأكد من أن عربته مفيدة لنا». «نعم، هذا صحيح. لكن كيف نستطيع احتماله؟ هذا الرجل مستعد للمشاجرة حتى مع سمكة قرش». توقفت السيدة كرانر فجأة وقالت: «انتظروا!» أوقف كرانر العربة مذعوراً. قالت: «استمعوا جميعاً! كيف سهوتم؟ في أي شيء تفكرون أنتم؟» قال كرانر يستحثها على الكلام: «هيا إذن! أخبرينا، ما المشكلة؟» «الطبيب! ماذا عن الطبيب؟» خيّم الصمت عليهم جميعاً. بدأت المرأة تقول مترددة: «نعم، الحقيقة... لم أقل له كلمة واحدة! بالتأكيد!...» استدار كرانر صوبها قائلاً: «هيا يا امرأة! ماذا بك؟ ظننت أن هنالك مشكلة حقاً؟ لماذا أنت قلقة على الطبيب؟» «أنا واثقة من أنه كان يود أن يأتي معنا. سوف يموت جوعاً إذا ظل وحده. إنني أعرفه ـ وكيف لا أعرفه بعد هذه السنين كلها؟ أعرف أنه مثل الطفل، إذا لم أضع الطعام أمامه، فإنه سيظل جائعاً حتى الموت. ثم إن هنالك البالينكا أيضاً، والسجائر. والملابس المتسخة. اتركوه أسبوعاً أو اثنين وسترون أن الجرذان ستأكله». أجابها شميدت حانقاً: «لا تلعبي أمامنا دور السامريّ الطيب! عودي إذا كنت حريصة عليه إلى هذا الحد. لست مشتاقاً إليه، لست مشتاقاً إليه أبداً! وأظن أنه سيكون في غاية السعادة لأننا غبنا عن أنظاره...» انضمت إليهما السيدة هاليكس عند ذلك: «صحيح تماماً! علينا أن نشكر الله لأن عبد الشيطان ذلك لم يأت معنا! إنه من جماعة الشيطان بكل تأكيد، أعرف هذا منذ زمن طويل». توقف الجميع الآن؛ أشعل فوتاكي سيجارة وقدم السجائر للآخرين. قال: «لكن الأمر غريب رغم ذلك: ألم يلاحظ شيئاً؟» تحدثت السيدة شميدت التي لم تقل كلمة

واحدة إلى الآن: «ذلك الرجل أشبه بالخلد. لا، بل أسوأ من الخلد! فالخلد يخرج رأسه فوق الأرض من حين لآخر. لكن الأمر يبدو كأن الطبيب يحب أن يدفن حياً. مرت أسابيع منذ أن رأيته آخر مرة». قال كرانر مسروراً: «بحق السماء! إنه بخير تماماً! يسكر كل يوم ثم ينام ويشخر لأن ليس لديه ما يفعله غير ذلك. لا حاجة لأن نشعر بالأسف عليه! ولا مانع عندي من أن يكون كل ما يملكه في جيبي الآن. ثم إننا وقفنا هنا زمناً طويلاً. فلنواصل السير وإلا فلن نصل أبداً». لكن فوتاكي ظل قلقاً: «إنه يجلس عند النافذة طيلة اليوم. فكيف لم يلحظ شيئاً؟» ظل برهة يفكر في الأمر مضطرباً ثم انطلق خلف كرانر وهو يخطو معتمداً على عصاه... «من المستحيل أنه لم يسمع هذا الصخب كله! كيف لم يلحظ حركة الجميع، وحركة العربات، وهذا الصياح كله... نعم، لعل من الممكن أنه كان نائماً خلال ذلك كله. السيدة كرانر هي من تحدث معه آخر مرة، أول من أمس، ولم يكن هنالك أي مشكلة بالتأكيد في ذلك الوقت. لكن كرانر محق على أي حال، فعلى كل امرئ أن يهتم بشؤونه الخاصة. وإذا كان الطبيب يحب أن يلاقي ربه هناك فلا مشكلة عندي. لكني مستعد للمراهنة على هذا: خلال يوم أو اثنين، عندما يسمع ما حدث، فسوف يعيد التفكير في الأمر ويستجمع نفسه ويلحق بنا. إنه غير قادر على الاستمرار هناك من دوننا». بعد نصف ميل، أو نحو ذلك، صار المطر أكثر شدة، وظلت الجماعة ماضية في طريقها متبرمة بينما كانت أشجار الأكاسيا على جانبي الطريق تتناقص: بدا كأن ما يسند حياتهم نفسها يختفي تدريجياً. وأمامهم، على الأرض الغارقة بمياه المطر، كان تناقص الأشجار مستمراً، ثم لم تعد هنالك أي شجرة، ولا حتى غراب. بزغ القمر في السماء وكان قرصه الشاحب لا يكاد يبين من خلال الغيوم الكالحة غير المتحركة. أدركوا أن الغسق سيحل بعد ساعة واحدة، وبعده يخيم الليل فجأة. لكنهم ما كانوا قادرين على السير بسرعة أكبر، حلّ عليهم التعب، استبد بهم تماماً.

وعندما مرّوا بكنيسة صغيرة خربتها العواصف، اقترحت السيدة هاليكس استراحة صغيرة (إضافة إلى صلاة صغيرة أيضاً) فرفضوا الفكرة غاضبين لأنهم عرفوا أنهم إذا توقفوا الآن فسوف تكون مواصلة السير صعبة عليهم. وعبثاً حاول كرانر إنعاش الآخرين بقصص عن حوادث يتذكرونها جميعاً («هل تذكرون عندما حطمت زوجة صاحب الحانة مغرفتها الخشبية على مؤخرة زوجها...» أو «هل تذكرون كيف وضع بيترينا الملح في مؤخرة، أرجو عفوكم، ذلك القط البني؟»): بدلاً من أن ينتعشوا قليلاً راحوا يلعنون كرانر لأنه لا يكف عن الكلام. فكّر شميدت غاضباً: «في الأصل... من قال له إنه زعيم علينا هنا؟ ولماذا يريد أن ينصب نفسه مديراً علي؟ سوف أتحدث مع إرمياس وأقول له أن يعاقبه عقاباً شديداً؛ لقد صار يظن نفسه شيئاً كبيراً في الآونة الأخيرة...». وعندما أصر كرانر على مواصلة ذلك وخاض جولة أخرى من رفع الروح المعنوية («فلنسترح دقيقة وننال شيئاً من الشراب. كل قطرة ذهب خالص، ثم إننا لم نأخذها من صاحب الحانة أيضاً»)، هجموا على الزجاجة جميعاً من غير انتظار كما لو أن كرانر كان يحاول إخفاءها عنهم. لم يستطع فوتاكي منع نفسه من الانضمام إليهم. قال مخاطباً كرانر: «أنت مبتهج تماماً طيلة الوقت. أتساءل إن كنت ستبتهج إلى هذا الحد لو كانت ساقك عرجاء وعليك أن تجرجر هاتين الحقيبتين معك؟» أجابه كرانر بحدة: «أتظن أن جَرّ هذه العربة القذرة أمر سهل؟ لا أعرف ما يمكن أن أفعله عندما تتحطم على هذه الأرض الملعونة». أحس كرانر بالإهانة، رغم إجابته هذه، فصمت ولم يحدّث أحداً بعد ذلك، بل مضى يجر عربته مثبتاً عينيه على الطريق عند قدميه. كانت السيدة هاليكس تلعن السيدة كرانر، صامتة، لأنها كانت واثقة تماماً من أنها لم تكن تفعل شيئاً مفيداً على الجانب الآخر من العربة؛ وكان هاليكس يلعن كرانر وشميدت كلما فكر في يديه المتألمتين لأن «من السهل عليهما طبعاً أن يثرثرا وهما ماشيان...». لكن السيدة شميدت

كانت مصدر قلق خاص لدى الجميع لأنهم رأوا بشكل واضح الآن ـ إن لم يكن من قبل ـ أنها صامتة على نحو غريب منذ انطلاقهم، ثم إنها ـ «لحظة واحدة! عندما أعود بذاكرتي»- خطرت الفكرة نفسها لشميدت وللسيدة كرانر... «لم تقل كلمة واحدة منذ وصول إرمياس...» ثم إن «هناك شيئًا مريبًا» ثم... فكرت السيدة كرانر: «هنالك شيء مريب. ألديها ما يقلقها؟ هل هي مريضة؟ بالتأكيد لا! آه، ليس كذلك... إنها تعرف ما تفعله. لا بد أن إرمياس قال لها شيئاً عندما استدعاها إلى غرفة المستودع في الليلة الماضية... لكن، ماذا يمكن أن يريد منها؟ نعم، يعرف الجميع ما حدث بينهما في المرة الأخيرة... لكن ذلك منذ زمن بعيد جداً! كم سنة مضت على ذلك؟» واصل شميدت التفكير منزعجاً: «إنها لا تفكر في شيء إلّا في إرمياس. تلك النظرة التي رمتني بها عندما جاءت السيدة هاليكس بالخبر! اخترقتني نظرتها تماماً! لا يمكن أبداً أن يكون... أوه، لا. لن تفقد عقلها في هذه السن. نعم، لكن... ماذا لو؟ عليها أن تعرف أنني سأكسر رقبتها، سأفعل هذا! لا، لن تفعلها. ثم إنها لا يمكن أن تتخيل أصلاً أن إرمياس يفكر فيها، فيها هي من دون الناس جميعاً! شيء مضحك. تظل رائحتها مثل الخنزير مهما صبت على نفسها من كولونيا طيلة النهار. أوه، نعم، إنها على شاكلة إرمياس! لديه من النساء الكثير، كل واحدة أجمل من الأخرى، ولن يشتهي إوزّة ريفية مثلها. آه، لا... فلماذا تلتمع عيناها على هذا النحو؟ لماذا تلتمع هاتان العينان الكبيرتان مثل عيني البقرة؟... وكيف، بحق الجحيم، تبلغ بها الوقاحة حد التودّد لإرمياس؟ لعنها الله! نعم، بالطبع، إنها تتودد إلى أي شخص مهما يكن... طالما أنه يرتدي بنطلوناً... لا بأس، سوف أخلصها من هذا كله! إذا لم تكن قد فهمت الدرس في المرة الماضية فلا مشكلة عندي في تلقينها درساً آخر. سأجعلها تعود إلى صوابها، لا شيء مقلقًا في الأمر! فليجف ثدياها... تلك العاهرة... ومعها كل العاهرات في هذا الكوكب الموبوء».

صار إيقاع سير الفريق أكثر صعوبة على فوتاكي، وحفر الحبل الذي ربط به الحقيبتين كتفيه حتى نزفا. أحس بأن عظامه قد اشتعلت ناراً، وعندما أوجعته ساقه العرجاء من جديد وجد أنه قد تخلف كثيراً عن الآخرين رغم أنهم لم يلاحظوا شيئاً من ذلك إلى أن استدار شميدت وصاح به: («ماذا أصابك؟ إن سيرنا بطيء أصلاً من غير أن تؤخرنا أنت»). وذلك لأن غضب شميدت كان في تزايد لأن كرانر «يلعب دور الزعيم الكبير»، فحثّ السيدة شميدت على أن تسرع خطاها بينما بدأ هو نفسه يحاول التقدم عليهم بساقيه الصغيرتين. وسرعان ما لحق بعربة كرانر وصار على رأس الموكب. قال كرانر في نفسه غاضباً: «هيا إذن، اندفع إلى الأمام! سنرى قريباً من يستطيع الصمود». قال هاليكس لاهثاً: «بحق السماء يا أصدقائي... لا تستعجلوا هكذا! لقد أدمى هذا الحذاء اللعين قدميَّ، وصارت كل خطوة عذاباً». أجابته السيدة هاليكس بصوت خفيض: «لا تتذمر! ما الذي يجعلك تبكي؟ ولماذا لا تجعلهم يرون أنك رجل حقيقي؟ لماذا لا تجعلهم يرون ذلك هنا بدلاً من الحانة؟» شد هاليكس على أسنانه عندما سمع هذا وحاول مواكبة كرانر الذي كان غارقاً الآن في سباق خاص مع شميدت... كان الاثنان في منافسة مريرة، وكان أحدهما يتقدم أحياناً ثم لا يلبث الآخر أن يسبقه حتى يتقدم على الموكب. وهكذا صار فوتاكي متروكاً خلفهم على مسافة ازدادت حتى بلغت مئتي متر تقريباً فكف عن محاولة اللحاق بهم. جرَّب طرقاً مختلفة لحمل الحقيبتين اللتين كان ثقلهما يتزايد في كل لحظة، لكن الألم ظل مستمراً كيفما غيَّر وضع الحبل الذي يحمل الحقيبتين. وهكذا قرر عدم المضي في تعذيب نفسه. وعندما وجد شجرة أكاسيا كبيرة الجذع انحرف عن الطريق متوجهاً إليها ثم انهار في الطين مثلما هو، مع الحقيبتين وكل شيء. استند إلى جذع الشجرة وأمضى بضع دقائق من اللهاث المؤلم قبل أن يزيح الحبل عن كتفيه ويمطط ساقيه. دسّ يده في جيبه ليخرج أعواد الثقاب، حتى

يرى ما حوله، لكن النوم غلبه فجأة. استيقظ شاعراً بحاجة إلى التبول فتحامل على نفسه حتى وقف على قدميه، لكن ساقيه كانتا خدرتين فسقط من جديد، واقتضى الأمر محاولة ثانية حتى يتمكن من النهوض والبقاء واقفاً على قدميه. قال بصوت مرتفع بعد أن أراح نفسه وجلس على واحدة من الحقيبتين: «كم نحن حمقى؟... كان علينا أن نصغي إلى إرمياس. قال لنا أن ننتظر، فماذا فعلنا؟ أكان علينا أن ننطلق على الفور؟ في هذه الليلة تحديداً؟ ها أنا جالس في الطين، متعب كالكلب... وكأن هناك فارقاً بين انطلاقنا اليوم أو غداً أو بعد أسبوع... ربما كان إرمياس قادراً على تأمين شاحنة بحلول ذلك الوقت! لكن لا... ليس هذا ما نفعله نحن، أوه، لا! لا نستطيع إلا أن ننطلق على الفور! إنها غلطة كرانر أساساً!... لكن، هذا غير مهم، لقد فات وقت الأسف. لم نعد بعيدين الآن». أخرج سيجارة فأشعلها وعبّ منها نفساً عميقاً. بدأ يشعر بأنه صار في حال أفضل رغم وجود شيء من الدوار في رأسه، ورغم صداعه المتواصل. مد ساقيه المتيبستين من جديد وراح يدلكهما، ثم راح ينكت الأرض أمامه بعصاه. كان الغسق قد حل؛ ولم يعد فوتاكي قادراً على رؤية الطريق، لكنه أحس بالاطمئنان والهدوء: لا يمكن أن يضل طريقه لأن الدرب تسير حتى عزبة المآسي تماماً؛ ثم إنه سلك هذه الطريق كثيراً خلال السنوات الماضية لأنه كان يقوم بدور «مدير الجنازات» لأجزاء الآلات الزائدة... هكذا كانت مهمته، إضافة إلى أشياء أخرى، فكان يزيل المكونات التالفة أو غير المستخدمة ويخزّنها في المبنى الذي كان في حالة سيئة منذ ذلك الوقت. فكّر فجأة: «وعندما تفكر في الأمر، فإن هنالك شيئاً آخر شديد الغرابة في هذا كله. فلنأخذ هذا المكان على سبيل البداية. لا شك في أنه كان مكاناً جيداً في الماضي، أيام الكونت؛ لكن، كيف هو الآن؟ في آخر مرة رأيته، كانت الأعشاب قد غزت الغرف، وكانت الريح قد أودت بقرميد البرج كله، ولم تكن في المبنى نافذة سليمة ولا باب سليم، بل إن الأرضية نفسها كانت

مفقودة في بعض الأماكن حتى إنك تستطيع أن ترى القبو من خلالها... لكن من الأفضل ألا أتدخل في هذا، بالطبع... إرمياس هو الزعيم، وهو يعرف سبب اختياره هذه العزبة! لعله اختارها لأنها معزولة إلى درجة تجعلها أفضل مكان ممكن... فليس هنالك شيء بالقرب منها، ولا حتى مزرعة. من يدري؟ لعله اختارها لهذا». لم يرد استخدام عود ثقاب جديد لأن من الصعب أن يشتعل في هذا الجو الرطب، وهكذا أشعل سيجارة جديدة من عقب السيجارة القديمة الذي لا يزال مشتعلاً ولم يرمه بعد... ظل بعض الوقت ممسكاً به بين أصابعه المتيبسة لأنه كان يعطي دفئاً لذيذاً. ثم أيضاً هذا الأمر كله، ما حدث بالأمس... «مهما حاولت، فإنني أظل غير قادر على فهم ما حدث... كان واثقاً من أننا نعرفه إلى الحد الكافي، لماذا هذا التهريج كله؟ كان يتحدث كأنه واعظ إنجيلي... وكان واضحاً أنه يعاني جراء ذلك مثلما كنا نعاني نحن أيضاً... لست أفهم هذا. كان يعرف ما نريد! وكان يعرف أيضاً أن السبب الوحيد الذي جعلنا نساير هذا الكلام الفارغ عن الطفلة الحمقاء هو أننا أردنا أن يبقى معنا، 'طيب، يكفي هذا! ها أنا هنا أيها الأولاد والبنات. فما سبب هذا الأنين والنحيب كله؟ فلنشد عزيمتنا ونفعل شيئاً ذكياً ولو مرة واحدة. هل لديكم أفكار جيدة؟...' لكن لا! كان كلامه كله 'يا سيداتي ويا سادتي' ثم أيضاً 'يا سيداتي ويا سادتي'، ثم راح يقول لنا إننا خاطئون بائسون كلنا، أقصد أن هذا يتجاوز قدرتي على التصديق! ومن يدري إن كان يفعل هذا صادقاً أو أنه يعبث بنا! لم تكن هنالك طريقة لإخباره بأن يكف عن هذا... وكل هذا الكلام عن الطفلة المتخلفة... لقد ابتلعت قدراً كبيراً من سم الفئران، فماذا إذن؟ لعل ذلك أفضل شيء من أجل تلك المخلوقة الحزينة، فقد وفّر عليها المزيد من المعاناة، على الأقل. لكن ما علاقتي بهذا كله؟ أمها موجودة: كان من واجبها أن تراقبها وتهتم بها! ثم... كل ذلك البحث المحموم في المستنقعات وبين الأشجار، طيلة اليوم في هذا الطقس

الفظيع... مشّطنا كل شبر من المكان حتى وجدنا تلك البائسة الصغيرة. كان على تلك الساحرة العجوز، والدتها، أن تبحث عنها. لكن، هكذا هو الأمر. من يستطيع أن يفهم إرمياس؟ لا أحد! هكذا هو... ما كانوا ليفعلوا هذا في السابق... أقصد أنني ما كنت أعرف أين أنظر، فوجئت تماماً... لقد تغير بالتأكيد، تغير تماماً، هذا مؤكد. نحن لا نعرف ما جرى معه في السنوات الأخيرة؛ لكن أنفه المعقوف، وسترته ذات المربعات، وربطة عنقه الحمراء، مثلما كانت تماماً! كل شيء في أحسن حال». أطلق زفرة ارتياح ثم نهض واقفاً والتقط أمتعته وعلّق الحبل على كتفيه ثم انحنى والتقط عصاه وانطلق على الطريق من جديد. وحتى يمر الوقت بسرعة أكبر، حتى يلهي نفسه عن ألم الحبل الذي يعض لحمه، وكذلك لأنه كان خائفاً بعض الشيء من كونه وحيداً هنا في آخر العالم سائراً في طريق مهجورة،... بدأ يغني: «كم أنت جميلة يا هنغاريا الغالية»، لكنه نسي كل شيء بعد هذه الكلمات، لم يخطر في باله شيء، فراح ينشد النشيد الوطني. لكن الغناء جعله يحس بوحدة أكبر، وهكذا كف عن الغناء سريعاً وحبس أنفاسه، بدا له أنه يسمع صوتاً من جهة اليمين. بدأ يسير بخطى أكثر سرعة... بقدر ما سمحت له ساقه العرجاء. لكنه سمع عند ذلك صوت شيء يتكسر على الجانب الآخر من الطريق... «ما هذا بحق الجحيم...؟» فكر في أن من الأفضل أن يعود إلى الغناء من جديد. لم تعد المسافة أمامه طويلة. سيملأ الغناء الوقت...

ندعو الله أن يبارك الماغيار،

ألا يخذلهم في الحرب

أن يحميهم في المعارك الدامية

عندما يهاجمهم أعداؤهم...

وعند ذلك سمع شيئاً كأنه... كان هنالك صيحة أو شيء من هذا

القبيل... أو لعلها ليست صيحة... لا، كان ذلك صوت شخص يبكي. «لا، إنه حيوان ما... حيوان يتألم. لا بد أنه كسر ساقه». لكنه لم يستطع أن يرى شيئاً، مهما أمعن النظر هذه الناحية أو تلك لأن الظلمة كانت مطبقة عليه من الجانبين الآن. كان من المستحيل أن يرى شيئاً.

أولئك الذين نزلت بهم لعنة الحظ السيئ زمناً طويلاً

امنحهم السعادة هذا العام...

عندما رأوا فوتاكي، راح كرانر يعابثه: «ظننا أنك غيرت رأيك!» ثم أضافت السيدة كرانر: «عرفته من مشيته. لا يمكن أن يخطئه المرء... إنه يحجل كأنه قِطٌّ أعرج». أنزل فوتاكي حقيبته وأبعد الحبل عن كتفيه ثم أطلق زفرة ارتياح. سألهم: «ألم تسمعوا شيئاً في طريقكم؟» سأله شميدت: «لا، ماذا نسمع؟» «مجرد صوت غريب». جلست السيدة هاليكس على حجر كبير، ثم راحت تدلّك ساقيها وقالت: «لم نسمع صوتاً غريباً إلا صوتك وأنت آت في الطريق. لم نعرف هوية القادم». «الماذا؟ من يمكن أن يكون؟ هل من أحد غيرنا هنا؟ لصوص أو قطاع طرق؟... لا يمكن العثور على عصفور هنا، فكيف يكون من حولنا بشر؟» كانوا الآن واقفين على ممر يؤدي إلى المبنى الرئيسي، وكانت نباتات مرتفعة قد نمت بشكل فوضوي على جانبي ذلك الممر طيلة عشرات السنين، أحاطت تلك النباتات بأشجار الزان ذات الجذوع العريضة إلى حد غريب وتسلقتها مثلما تسلقت أغصان اللبلاب البرّي جدران القاعة السميكة، وهذا ما جعل «القصر» كله (هكذا كانوا يدعون هذا الجزء من العزبة) يوحي بالصمت واليأس لأنه، رغم أن النباتات لم تكن قد كَسَت الأماكن المرتفعة من المبنى، كان واضحاً أن المكان كله سوف يستسلم بعد سنوات معدودة أمام غزو هذه النباتات الذي لا يرحم. في الماضي، كان تمثالان أنثويان عاريان يحفان بالدرجات العريضة المؤدية إلى المدخل الضخم، وكان لهذين التمثالين أثر كبير على فوتاكي عندما رآهما أول مرة منذ سنوات،

فكانت ردة فعله الأولى الآن أن راح يتلفّت باحثاً عنهما، لكن عبثاً ـ كأن الأرض ابتلعتهما. اجتازت المجموعة الدرجات بخطى مترددة، ساروا صامتين بأعين متسعة لأن السقف الصامت المرتفع الذي كان لا يكاد يُرى في الظلام فوقهم (رغم أن الزخارف الجصية قد تساقطت عن الجدران منذ زمن بعيد، ورغم أن البرج القديم صار الآن مزعزعاً إلى درجة جعلت من الواضح أنه لن يستطيع الصمود أمام عاصفة أخرى، فضلاً عن الفتحات الموجودة حيث كانت النوافذ) لا يزال محتفظاً بمظهر العظمة وبنفحة من الوجود المستمر الذي لا يقدر عليه الزمان، نفحة كانت جزءاً من الغاية الأصلية منه. وعندما بلغوا أعلى السلم، خطا شميدت من فوره، من غير تردد، تحت قوس المدخل الرئيسي المنهار وراح يتفحص باهتمام، لكن من غير أي خوف، ذلك البيت الذي يرنّ فيه الخواء. سرعان ما اعتادت عيناه الظلمة بحيث تمكن، عندما بلغ القاعة الصغيرة إلى جهة اليسار، من تجاوز قطع السيراميك المكسرة المرمية على الأرض والمعدات وأجزاء الآلات الصدئة الملقاة فوق ألواح الأرضية المتعفنة، وأفلح في التوقف قبل السقوط في واحدة من ثغرات الأرضية الكثيرة التي يتذكرها فوتاكي بكل وضوح. لحق به الآخرون متخلفين عنه ثماني أو تسع خطوات فتجوّلوا في «القصر» البارد الخرب المهجور الذي تخترقه تيارات هوائية صقيعية، وكانوا يتوقفون من حين لآخر عند إحدى فتحات النوافذ للنظر إلى الأسفل صوب الحديقة الواسعة التي نمت فيها النباتات إلى حد خطير، ساروا متجاوزين تعبهم ينظرون إلى أطر النوافذ المحفورة بإتقان، الأطر التي ظلت سليمة رغم قدمها واتساخها، وراحوا يحدقون في الأشكال الجصية الجامدة على نحو غريب في السقف فوقهم... رأوا هذا كله على ضوء لهب أعواد الثقاب المتراقص؛ لكن ما أثار اهتمامهم أكثر من أي أمر آخر كان مدفئة نحاسية معوجّة مقلوبة على جانبها... أحصت السيدة هاليكس التي بلغت بها الإثارة أوجها الآن ثلاثة عشر رأساً

من رؤوس التنانين المحفورة عليها. لكن صوت السيدة كرانر الخشن أخرجهم من حالة الإعجاب الصامتة عندما وقفت في وسط الصالة على ساقيها القويتين ورفعت ذراعيها عالياً صارخة بحيرة واضحة: «كيف يستطيع أي إنسان أن يتحمل كلفة تدفئة هذا المكان كله؟» وبما أن السؤال كان يحمل إجابته معه فقد اكتفوا جميعاً بالهمهمة تعبيراً عن دهشتهم قبل أن يعودوا إلى صالة المدخل حيث تجادلوا بعض الوقت (كان شميدت معارضاً بشكل خاص لاقتراح كرانر. قال: «هنا، في هذا المكان؟ هنالك تيار هواء فظيع؟ نعم يا زعيم، فكرة رائعة، بالتأكيد»)، ثم وافقوا على رأي كرانر الذي قال: «من الأفضل أن نخيّم هنا لقضاء الليل. صحيح أن هناك تيارات هواء مثل كل مكان آخر في هذا المكان، لكن ماذا يمكن أن يحدث إذا وصل إرمياس قبل الفجر؟ كيف يستطيع أن يعثر علينا في هذه المتاهة؟» خرجوا إلى عرباتهم تحسباً لاشتداد المطر وتحوّل الريح إلى عاصفة خلال الليل، خرجوا حتى يغطوا أمتعتهم ويأخذوا ما جلبوه معهم ليكون فراشاً مؤقتاً ـ بطانية أو لحافًا أو كيسًا. لكن، وبعد أن استقروا على أفضل نحو ممكن، وبعد أن دفّأتهم أنفاسهم قليلاً تحت بطانياتهم، وجدوا أنهم أكثر إرهاقاً من أن يستطيعوا النوم الآن. رن صوت كرانر في الظلمة: «أتعرفون أنني لا أستطيع أن أفهم إرمياس حقاً؟ هل يستطيع أحدكم أن يشرح لي الأمر؟ كان شخصاً بسيطاً طيب القلب مثل أيّ واحد منا. وكان يتحدث مثلنا: كان ذهنه أكثر حدة فقط. وأما الآن! إنه يشبه لورداً، كأنه شخصية كبيرة حقيقية!... هل أنا مخطئ؟» ساد صمت طويل قبل أن يتكلم شميدت: «كان الأمر غريباً بعض الشيء... إن شئت الحق. لماذا نعبث بالخراء؟ لنشم رائحته؟ كان واضحاً لي أنه يسعى لشيء ما، لكن كيف يمكن أن يعرف أيّ منّا كيف سينتهي الأمر...؟ لو عرفت منذ البداية ما أراده لأمكنني إخباره بألا يشغل نفسه كثيراً بهذا الكلام الكبير...». تقلّب مدير المدرسة في فراشه المصنوع كما اتفق وحدّق حزيناً في

الظلمة. «حقاً، كان هذا كثيراً بعض الشيء، كل ذلك الكلام عن تلك الخاطئة... أقصد إيستي كذا وإيستي كذا! وكأنّ لي علاقة بأمر تلك الطفلة المتخلفة! يغلي دمي كلما سمعت اسمها. ما هذا الكلام عن 'إيستي الصغيرة المسكينة'؟ مسخرة حقيقية، نعم مسخرة، إن للفتاة اسماً، اسمها إيرزي، لكنهم أفسدوها بالدلال. كان والدها رخواً معها فدمّرها! أما أنا؟ ماذا كان يمكن أن أفعل؟ ثم إنني فعلت كل ما كان في وسعي لمساعدة الفتاة للوقوف على قدميها! بل إنني قلت للساحرة العجوز عندما جاءت بها من قسم ذوي الاحتياجات الخاصة، قلت لها هذا لأن المسألة مسألة عمل مشترك بيننا، إنني سأجعلها تلتزم بالنظام إذا أرسلتها لي كل صباح. لكن لا، لم يكن ذلك لينجح أبداً. تلك البخيلة... معها نقود... لم تكن تريد أن تنفق قرشاً على ابنتها البائسة المسكينة! فهل أكون أنا من يقع عليه اللوم؟ مسخرة حقيقية إن أردتم رأيي». همست له السيدة هاليكس: «اخفض صوتك قليلاً! زوجي نائم. إنه معتاد على الصمت». تجاهلها فوتاكي: «ما سيكون، سيكون. وسنكتشف قريباً جداً ما أراده إرمياس. سوف يتضح الأمر كله غداً، بل ربما قبل ذلك. هل تستطيعون تخيّل هذا؟» أجابه مدير المدرسة: «أستطيع! هل رأيت المباني الخارجية؟ هنالك خمسة مبانٍ على الأقل؛ وأنا جاهز للمراهنة على أنها ستتحول إلى ورشات». سأله كرانر: «ورشات؟ أي نوع من الورشات؟» «وكيف أعرف أنا؟ أظن أنها كانت ورشات على نحو أو آخر. ما الحاجة إلى هذه التخمينات كلها. رفعت السيدة هاليكس صوتها من جديد: «ألا تستطيعون أن تخرسوا جميعاً؟ كيف يستطيع المرء أن يحظى ببعض الراحة؟» أجابها شميدت بحدة: «آو... اخرسي أنتِ! ما المشكلة إذا تكلّم الناس؟» تابع فوتاكي كلامه: «لا، أظن أنها ستكون عكس ذلك. ستصبح تلك الورش بيوتاً لنا بينما يتحوّل هذا المكان إلى ورشات». قال كرانر معترضاً: «أنتم مستمرون في الحديث عن الورشات... ما قصتكم؟ هل تريدون أن

تصبحوا مهندسين كلكم؟ أفهم الأمر في ما يتعلق بفوناكي، أما أنت، ماذا ستفعل؟ هل تريد أن تصير مديراً للأعمال؟» أضاف مدير المدرسة ببرودة: «كفانا ثرثرة. لا أظن أن هذا هو الوقت المثالي للنكات الغبية! ثم من أعطاك الحق أصلاً في الإساءة إلى الناس؟ إنني أسألك!» قال هاليكس منزعجاً: «آه، بحق الله، ناموا قليلاً! لا أستطيع النوم وأنتم تتكلمون هكذا». مرت بضع دقائق هادئة، لكن الهدوء لم يستمر لأن أحدهم ضرط فجأة. ضحك كرانر ولكز جاره شميدت بين أضلاعه قائلاً: «من فعل هذا؟» أجابه شميدت وهو ينقلب في فراشه: «اتركني. لست أنا». لكن كرانر لم يكن ليترك الأمر: «هيا الآن، ألن يعترف أحد منكم؟» كان هاليكس غاضباً على حافة الانفجار عندما استوى جالساً: «انظر! أنا من فعلها. إنني أعترف بذلك كله. فهل تخرسون الآن من فضلكم...». ساد هدوء حقيقي بعد هذا. وسرعان ما صاروا يغطّون في نوم عميق بعد دقائق قليلة. كان أحدبُ بعينين زجاجيتين يطارد هاليكس الذي فر هارباً ثم قفز في النهر، لكن وضعه صار أكثر حرجاً لأن الأحدب كان يضربه على رأسه بعصا طويلة ضخمة كلما أخرجه من الماء ليتنفس ويقول له بصوت خشن: «الآن، ستدفع الثمن». سمعت السيدة كرانر صوتاً في الخارج، لكنها لم تستطع معرفة طبيعته. وضعت معطفها وخرجت في اتجاه غرفة المحركات. كادت تبلغ الطريق المعبدة عندما استبدّ بها شعور سيىء. استدار فرأت النار تلتهم سقف بيتها. راحت تصيح باكية: «المحروقات! لقد تركت المحروقات في الخارج! يا رحمة السماء!» اندفعت عائدة وهي تصرخ طالبة النجدة، وبدا لها أن الجميع قد اختفوا، فاقتحمت البيت لتنقذ ما تستطيع إنقاذه. فكرت في الغرفة قبل كل شيء، وبسرعة البرق دخلتها فأخذت النقود المخبّأة تحت غطاء السرير، ثم قفزت فعبرت العتبة الملتهبة إلى المطبخ حيث كان كرانر جالساً إلى الطاولة يتناول طعامه بهدوء كأن شيئاً لم يحدث. «جوسكا! هل فقدت عقلك؟ البيت

يحترق». لكن كرانر لم يتحرك أبداً. ورأت السيدة كرانر أن الستائر بدأت تشتعل: «اهرب أيها المخبول! ألا ترى أن البيت كله على وشك الانهيار؟» اندفعت خارجة من البيت وجلست في الخارج؛ وفجأة زال خوفها وارتجافها، بل صارت شبه مستمتعة بمشهد ممتلكاتها كلها تتحول إلى رماد. بل إنها عبرت عن ذلك للسيدة هاليكس التي ظهرت إلى جانبها: «انظري، ما أجمل هذا! لم أر في حياتي كلها لوناً أحمر جميلاً بهذا الشكل!» كانت الأرض تميد من تحت قدمَي شميدت. كان كأنه يسير في مستنقع. بلغ شجرة فتسلقها، لكنه شعر بأنها تغرق أيضاً. كان مستلقياً على السرير، وكان يحاول نزع قميص النوم عن زوجته لكنها بدأت تصرخ فقفز خلفها وتمزّق القميص. استدارت السيدة شميدت لتواجهه، وقوقأت، وتفتحت حلمتا ثدييها الضخمتين كأنهما زهرتان رائعتان. كان الحر شديداً في الداخل، وكان العرق يقطر منهما. نظر من النافذة: كانت تمطر في الخارج، وكان كرانر جارياً إلى بيته حاملاً صندوقاً من الكرتون بين يديه لكن قعر الصندوق انفتح وتبعثرت محتوياته في كل مكان. كانت السيدة كرانر تصرخ عليه طالبة منه أن يستعجل، فلم يستطع أن يلتقط نصف ما تناثر من الصندوق وقرر أن يعود لالتقاط الأشياء الباقية في اليوم التالي. وفجأة، اندفع صوبه كلب فصرخ مذعوراً ورفس الكلب في وجهه فعوى الكلب مرة ثم انهار وظل مستلقياً هناك على الأرض. لم يستطع منع نفسه: رفس الكلب ثانية. كان بطن الكلب ناعماً. كان مدير المدرسة يحاول بشيء من الصعوبة، وهو يشعر بإحراج عميق، أن يقنع رجلاً صغير الجسم مرتدياً بدلة مرقّعة بأن يصحبه إلى مكان بعيد عن الأعين. بدا الرجل غير قادر على الرفض وكان مدير المدرسة غير قادر على ضبط نفسه إلا بصعوبة، وفور وصولهما إلى الحديقة المهجورة بدأ يدفع الرجل أمامه حتى وصلا إلى مقعد حجريّ نمت شجيرات صغيرة من حوله فأخفته، وهناك جعل الرجل الصغير ينبطح ورمى بنفسه فوقه وراح يقبله

من رقبته، لكن، في تلك اللحظة، ظهر أطباء في أردية بيضاء سائرين في الممر المفروش بحجارة بيضاء فراح يشير إليهم خجِلاً ليفهموا أنه هو أيضاً كان ماراً من هنا أيضاً. لكنه، رغم ذلك، مضى يشرح للأطباء أنهما ليس لديهما مكان آخر يذهبان إليه وإن عليهم أن يفهموا ذلك وأن يأخذوه في عين الاعتبار، وبدأ يشتم الرجل الصغير لأنه لم يعد يشعر تجاهه الآن بغير القرف الشديد، لكن ذلك كان من غير أثر لأن الأطباء راحوا ينظرون إليه بازدراء ثم لوّحوا بأيديهم تلويحة متعبة كأنما يريدون القول إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً في هذا الأمر. كانت السيدة هاليكس تغسل ظهر السيدة شميدت وانزلقت المسبحة المعلقة على حافة الحمّام في الماء، وظهر وجه شاب وغد ينظر من النافذة. قالت السيدة شميدت إنها اكتفت وإن جلدها بدأ يحترق من شدة الفرك، لكن السيدة هاليكس دفعتها وأعادتها إلى الحمام وواصلت فركها لأنها خشيت أكثر من أن تكون السيدة شميدت منزعجة منها ثم زعقت غاضبة أتمنى أن يلسعك ثعبان وجلست على حافة حوض الحمام وكان الوغد الشاب مستمراً في النظر من النافذة. كانت السيدة شميدت عصفوراً يطير سعيداً عبر حليب الغيوم وكانت تنظر إلى شخص في الأسفل يلوّح لها بيده فهبطت قليلاً وسمعت السيدة شميدت تصرخ قائلة: لماذا لا تطبخ لك أيها الوغد تعال هنا فوراً لكنها طارت فوقها وسوف تجعلك سعيداً ولن تموت من الجوع قبل الغد أحست بحرارة الشمس على ظهرها فجأة وكان شميدت هناك إلى جانب سريرها. كفّي عن هذا فوراً لكنها لم تلق إليه بالاً وانخفضت أكثر وأحبت أن تلتقط حشرة وكانوا يضربون فوتاكي بقضيب حديد فلم يستطع الحركة كان مربوطاً بالحبال إلى شجرة وأحست بعمق كيف كان الحبل يحز في جرحه المفتوح على امتداد ظهره أشاحت بوجهها لأنها لم تستطع احتمال ذلك. كانت جالسة على حفّارة تحفر خندقاً عميقاً. جاء رجل وقال لها أن تسرع لأنه لم يعد هنالك وقود مهما رجوتني من أجل ذلك. واصلت حفر

الخندق أعمق فأعمق لكنه ظل ينهار فحاولت من جديد لكن عبثاً فصرخت وهي جالسة عند نافذة غرفة الآلات ولم تكن لديها فكرة أبداً عما يحدث كان الوقت فجراً وبدأ النور يظهر أو بدأ المساء يحل وازداد الظلام ولم تكن راغبة في انتهاء ذلك كله. ظلت واقفة من غير أن تعرف ما يحدث حولها لم يتغير شيء في الخارج ولم يكن الوقت صباحاً ولا مساء واصلت الشمس انحدارها أو لعل الوقت كان فجراً...

4 . رؤيا سماوية؟ هلوسة؟

اختفى إحساسه بالإرهاق فور التفافهم حول المنعطف وغياب الناس الملوّحين لهم عند الحانة. كان إحساساً ثقيلاً كالرصاص، لكنه الآن لم يعد يشعر بأي قدر من النعاس المعذِّب الذي أبقاه ملتصقاً بالكرسي عند المدفأة، فمنذ أن قال له إرمياس ذلك الشيء الذي لم يكن يجرؤ على تخيله حتى في أحلامه («لا بأس، اذهب وتكلم في الأمر مع أمك. تستطيع أن تأتي معي إن أحببت...»)، لم يعد يطيق إغماض عينيه... أمضى الليلة كلها متقلباً في فراشه مرتدياً ملابسه كلها حتى لا يتأخر عن موعد اللقاء المقرَّر عند الفجر؛ والآن، عندما رأى الطريق ممتدة أمامهم كالسهم المتجه إلى اللانهاية، رآها عبر الضباب في ضوء الفجر الشحيح، تضاعف عزمه وأحس أخيراً بأن «العالم كله ينفتح أمامه» وعرف أنه سيظل ماضياً في طريقه مهما حدث. ورغم شدة رغبته في التعبير عن حماسته بطريقة من الطرق، فقد أفلح في ضبط تلك الرغبة وصار، عن غير وعي منه، يقيس خطواته بطريقة أكثر انضباطاً ويلحق بسيده رغم احتراقه بحمى اختياره لأنه أدرك أنه لن يستطيع القيام بالمهمات الموكلة إليه إذا تصرف مثلما يتصرف طفل يسيل مخاطه من أنفه بل كما يتصرف الرجل ـ فضلاً عن حقيقة أنه إذا تكلم من غير تفكير فإن بيترينا المنزعج دائماً لن يتأخر عن قذفه بعبارة جديدة ساخرة، وهو لا يستطيع احتمال فكرة أن يقلل أحد من شأنه أمام إرمياس، ولا حتى مرة واحدة. كان واضحاً له تماماً أن خياره

الأفضل هو أن يقلد إرمياس تقليداً مخلصاً في كل تفصيل صغير لأنه كان واثقاً من أن هذا يضمن له عدم التعرض لأي مفاجأة بشعة؛ راح في البداية يراقب حركاته المميزة، خطوته اليسيرة الطويلة، ووقفته المتكبّرة الواثقة، ورأسه المرفوع، وحركات إصبعه المنتصبة، متحديةً حيناً متوعدة حيناً آخر، قبل أن يقول شيئاً هاماً، والأصعب من ذلك كله الإيقاع الهادر لصوته والصمت الثقيل بين العناصر الفاصلة المميّزة في كلامه، اهتم أيضاً بملاحظة كيف يتحكم بعباراته الطنانة، وحاول أن يلتقط شيئاً من الثقة الأكيدة التي تسمح لإرمياس بالتعبير عن أفكاره بسهولة ودقة تامَّتَين. لم تفارق عيناه لحظة واحدة ظهر سيده المحدودب قليلاً وقبعته ذات الإطار الضيق المشدودة بإحكام على رأسه حتى تقي وجهه من المطر، وعندما رأى أن سيده لم يكن يُعِره أي اهتمام لأن من الواضح أن ذهنه كان منشغلاً بشيء آخر، راح يمشي صامتاً مقطباً حاجبيه بجدية لأنه أحب أن يظن أن تركيز انتباهه على هذا النحو يساعد أفكار إرمياس في بلوغ هدفها بسرعة أكبر. حك بيترينا أذنه منزعجاً فقد رأى التعبير المتوتر على وجه رفيقه ولم يكن يجرؤ على كسر الصمت، ورغم محاولته النظر إلى الفتى بطريقة تجعله يفهم أن عليه أن يلزم الصمت أيضاً («ولا صوت واحدًا! إنه يفكر»)، فقد أحس بهذا القيد هو أيضاً وكان توّاقاً إلى طرح الأسئلة إلى حد جعله يجد صعوبة في التنفس، صدر عنه أول الأمر صوت أشبه بالصفير، ثم تبعته أصوات خشنة عندما أراد الكلام... إلى أن صار واضحاً حتى لإرمياس نفسه أن هذا البطل الذي يمسك لسانه إلى جانبه كان على وشك الاختناق عملياً، وهذا ما جعله يكشّر قليلاً ثم يشفق عليه: «هيا، قل ما عندك! ماذا تريد؟» أطلق بيترينا زفرة عميقة ثم لعق شفتيه المتشقّقتَين وراح يطرف بعينيه سريعاً. «يا سيدي! إنني خائف كثيراً... فعلتها في ثيابي! كيف سنخرج من هذه المشكلة؟» أجابه إرمياس منزعجاً: «يجب أن أقول لك إنني سأكون في غاية الدهشة إذا لم تفعلها في ثيابك. هل تريد

بعض المناديل لتنظف نفسك بها». «هذه نكتة! لكني سأكون كاذباً إذا قلت لك إنني راغب في الضحك...». «في هذه الحالة عليك أن تطبق فمك» قال إرمياس، وحدّق بنظرة مكابرة في الطريق التي تلاشت معالمها في البعيد أمامهما. وضع سيجارة في زاوية فمه وأشعلها من غير أن يتوقف. قال لبيترينا وهو ينظر عميقاً في عينيه: «إذا قلت لك إن هذه هي الفرصة التي كنا ننتظرها، هي تماماً، فهل تطمئن عند ذلك؟» أجفل صاحبه قليلاً تحت وطأة نظرته ثم طأطأ رأسه وتوقف مفكراً قليلاً وعندما لحق بإرمياس من جديد كان متوتراً إلى درجة جعلته يعاني حتى تخرج الكلمات من فمه: «ماذ... ماذ... ماذا تظن؟» لم يجبه إرمياس لكنه واصل التحديق في الطريق بطريقة غامضة. كان القلق يعذب بيترينا إلى حد جعله يلتمس شيئاً من المعنى لذلك الصمت العميق المحمّل بالدلالات، وهكذا ـ رغم علمه بعقم محاولته ـ حاول تأخير الكارثة المحتومة، ولو قليلاً. «أصغ إلي جيداً! لقد وقفت إلى جانبك طيلة هذا الوقت، خلال الأوقات الطيبة والأوقات السيئة. أقسم بأنني، حتى لو لم أفعل شيئاً آخر في حياتي هذه البائسة... أقسم بأنني سأقتل أي شخص يجرؤ على التقليل من احترامك! لكن... لا تفعل شيئاً مجنوناً! استمع إليَّ هذه المرة! استمع إلى صديقك القديم الطيب بيترينا! دعنا ننسى هذا كله، ننساه الآن، على الفور! فلنقفز في أول قطار ونبتعد! سوف يقتلنا هؤلاء الناس من غير كلام حالما يكتشفون اللعبة القذرة التي لعبناها عليهم». قال إرمياس معابثاً: «مستحيل! إننا نحمل القضية الكبرى، القضية التي لا أمل لها في الحقيقة، قضية الكرامة الإنسانية...». رفع إصبعه الشهير محذّراً بيترينا: «استمع أيها الحمار! هذه هي لحظتنا». تأوه بيترينا: «فليكن الله في عوننا»، قال هذا وهو يرى أسوأ كوابيسه وقد تحقق... «لقد عرفت هذا دائماً! لقد وثقت... صدَّقت... أملت... وها نحن هنا! هكذا ينتهي الأمر». تدخل «الطفل» السائر خلفهما «لا بد أنك تمزح! ألا تستطيع التعامل مع الأمور بطريقة

جدية ولو لمرة واحدة؟» زعق بيترينا: «أنا؟! إنني سعيد مثل خنزير يتمرّغ في الخراء، ألا تستطيع رؤية لعابي يسيل؟...» صرَّ على أسنانه ورفع رأسه ناظراً إلى السماء ثم هزَّ رأسه قانطاً وقال: «كن صادقاً معي! ماذا فعلت حتى أستحق هذا كله؟ هل آذيت أحداً؟ هل تكلمت مرة بما لا يجوز لي التكلم فيه؟ أرجوك أيها الزعيم... أرجوك أن تقيم اعتباراً لهذه العظام الشائخة إن لم يكن لأي شيء آخر! أشفق على هذه الشعرات الشائبة!» لكن شيئاً من هذا لم يكن ليزحزح إرمياس قيد أنملة: دخلت كلمات شريكه إحدى أذنيه لتخرج من الأخرى. اكتفى بابتسامة غامضة، ثم قال: «الشبكة، يا حمار...» تجمَّد بيترينا عندما سمع هذه الكلمة... «هل تفهم الآن؟» توقفا وواجه كل منهما الآخر، وكان إرمياس مائلاً إلى الأمام قليلاً: «إنها الشبكة، شبكة العنكبوت الضخمة التي نسجتها أنا وسجلتها باسمي، إرمياس... هل دخل هذا الكلام في رأسك الغبي؟ هل ظهر فيه ضوء؟ هل فهمت شيئاً؟» بدأت الحياة تعود إلى بيترينا... ظهر ظل واهن لابتسامة على وجهه، ثم لمعت عيناه الشبيهتان بالزجاج واحمرّت أذناه من الإثارة... إلى أن ظهر التأثر عليه كله. همس بصوت أجش: «في مكان ما... انتظر... في مكان ما هنالك جرس يرن... أظن أنني أفهم الأمر الآن... سيكون رائعاً إذاً... كيف أعبِّر عن هذا...» هز إرمياس رأسه ببرودة: «أنت ترى إذن! فكّر أولاً، ثم انتحب». كان «الطفل» محافظاً على مسافة الاحترام المناسبة خلفهما لكن أذنيه الحادتين ساعدتاه في سماع حديثهما: «لم تفُته كلمة واحدة منه لكنه لم يفهم أبداً معنى الكلام، فراح يكرّر الكلمات كلها في نفسه حتى لا ينساها. أخرج سيجارة وأشعلها، ومثلما يفعل إرمياس، شدّ شفتيه عليها ببطء وقوة وراح ينفث دخانها في خط دقيق مستقيم. لم يحاول إدراكهما بل سار خلفهما بثمانٍ أو تسع خطوات، مثلما كان يفعل من قبل، لأن شعوره بالانزعاج والجرح ازداد عندما لم يختره سيده «لإطلاعه على السر» رغم أنه يعرف بالتأكيد أنه

«بعكس بيترينا المتذمر دائماً» سيبذل روحه حتى يكون جزءاً من الخطة. لقد وعد أصلاً بأن يكون وفياً من غير شرط، حتى النهاية. بدا عذاب الغيرة من غير نهاية، وازدادت المرارة التي عانتها روحه عندما وجد نفسه مضطراً إلى إدراك أن إرمياس يعتبر أنه لا يستحق أن يخاطبه ولو بجملة واحدة! ولا جملة واحدة. تجاهله سيده تجاهلاً تاماً كما لو أنه «ليس موجوداً» كما لو أن فكرة «ساندور هورغوس قد عرض خدماته... وهو ليس صفراً على الشمال بعد كل حساب» لم تكن تعني أي شيء إطلاقاً بالنسبة إليه. كان انزعاجه شديداً إلى درجة جعلته يحك بقعة قبيحة من حب الشباب على وجهه، وعندما بلغوا مفترق بوستيليك لم يعد يستطيع احتمال المزيد فاندفع ليلحق بهما ونظر في عينَي إرمياس وصاح وهو يرتجف غضباً: «لن أتابع السير معك بهذه الطريقة!» نظر إليه إرمياس من غير أن يفهم شيئاً: «ماذا قلت؟» «إذا كانت لك ملاحظات عليَّ فقُلها الآن من فضلك! قل لي إنك لا تثق بي وسوف أذهب على الفور». صاح بيترينا: «ماذا أصابك؟» «لم يصِبني شيء أبداً! قل لي فقط إن كنت تريدني معك أم لا! لم توجّه لي كلمة واحدة منذ انطلاقنا، كنت دائماً تكلم بيترينا، بيترينا، بيترينا! إن كنت مولعاً به إلى هذه الدرجة، فلماذا دعوتني إلى الذهاب معك؟» أوقفه إرمياس بهدوء: «انتظر لحظة الآن! أظن أنني فهمتك. استمع جيداً إلى ما سأقوله لك لأن الوقت لن يتسع لقوله بعد الآن... دعوتك لأنني في حاجة إلى شاب قدير مثلك، لكن بشرط أن تكون قادراً على فعل ما يلي: أولاً، لا تتكلم إلا عندما أوجّه الكلام إليك. ثانياً، إذا عهدت إليك بشيء ما فسوف تفعل كل ما تستطيع لإنجازه. ثالثاً، عليك أن تعتاد على عدم الوقاحة معي. وأما في الوقت الحالي، فأنا من يقرر ما أقوله لك وما لا أقوله. هل هذا واضح؟» خفض «الطفل» عينيه محرجاً: «نعم، لكني فقط...». «ليس هنالك 'لكني فقط'. تصرف كما يتصرف الرجال. ثم إنني أعرف ما أنت قادر عليه، يا ولدي، ولا أظن أنك

ستخذلني... لكن هذا يكفي الآن. فلنتابع السير». خبط بيترينا بكفه على ظهر «الصبي» خبطة ودية لكنه نسي يده هناك واستمر في دفعه إلى الأمام: «اسمعني جيداً يا كومة الخراء الصغيرة، عندما كنت في سنك لم أكن أجرؤ على فتح فمي في حضور الكبار. كنت أظل صامتاً، أظل صامتاً مثل قبر، إذا كان بالقرب مني أحد الكبار. لم يكن أحد 'يرد الكلام' في ذلك الزمان... ليس مثل الآن! ماذا تعرف عن...» كف عن الكلام فجأة... «ما هذا؟» «عن أي شيء تسأل؟» «ذلك الصوت...». قال الصبي بحيرة: «لم أسمع شيئاً». «ماذا تقصد بأنك لا تسمع شيئاً؟ ألا تسمع الآن؟» راحا يصغيان وقد حبسا أنفاسهما. وعلى مسافة خطوات قليلة أمامهما وقف إرمياس متخشباً أيضاً، كان يصغي. كانوا لا يزالون عند مفترق بوستيليك، وكان نقر قطرات المطر على الأرض لطيفاً، وما من كائن حَيّ حولهم إلا بضعة غربان تحوم في البعيد. بدا لبيترينا أن الصوت قادم من مكان ما فوقه، وأشار بصمت إلى السماء، لكن إرمياس هز رأسه قائلاً: «بل من هناك...» وأشار إلى البلدة بإصبعه. «لعلها سيارة!...» أجابه سيده وقد ظهر الارتباك واضحاً عليه: «ربما». لم يتحركوا. ولم يزدد صوت الطنين قوة، ولم يضعف. قال «الطفل» متردداً: «لعلها طائرة، ربما...». أجابه إرمياس: «لا، هذا مستبعد...، لكننا سنسلك الطريق الأقصر على كل حال، سنذهب في طريق بوستيليك حتى نبلغ عزبة وانخيم، ثم نأخذ الطريق القديمة. وربما نكسب أربع أو خمس ساعات بتلك الطريقة. اعترض بيترينا حانقاً: «هل لديك فكرة عن الوحل في تلك الطريق؟» «أعرف هذا. لكن هذا الصوت لا يعجبني. سيكون من الأفضل لنا أن نختار الطريق الأخرى. سنكون واثقين هناك من أننا لن نصادف أحداً». «نصادف من؟» «وكيف أعرف؟ فلنذهب». تركوا الطريق المعبدة متجهين صوب بوستيليك. وواصل بيترينا استراق النظر إلى الخلف من فوق كتفه وعيناه تمسحان المشهد كله بتوتر، إلا أنه لم ير شيئاً. لكنه كان مستعداً لأن

يقسم الآن على أن الصوت آت من مكان ما فوقهم. «لكنه ليس صوت طائرة... إنه أشبه بأرغن الكنيسة... أوه، هذا جنون!» توقف، ثم هبط على يديه وركبتيه واضعاً أذنيه على الأرض: «لا، بالتأكيد لا!» استمر صوت الطنين خفيضاً، لم يقترب منهم ولم يبتعد عنهم. ومهما حاول بيترينا التفتيش في مخازن ذاكرته عن شيء يشبه هذا الطنين فإنه كان عاجزاً عن مضاهاته بأي صوت سمعه من قبل. ما كان ذلك الصوت هدير سيارة أو طيارة أو رعداً بعيداً... توجّسَ شراً من ذلك الصوت. راح يدير رأسه يميناً وشمالاً وهو يحس الخطر كامناً في كل أجمة وفي كل شجرة هزيلة، بل حتى في الخندق الضيق إلى جانب الطريق الذي كان طافحاً بماء غطته بيوض الضفادع. لكن أكثر شيء رعباً كان عدم قدرته حتى على تحديد ما إذا كان ذلك الخطر، مهما تكن طبيعته، قريباً في متناول اليد أو بعيداً لا تطاله العين. ألقى نظرة شك على «الطفل»: «انظر إلي! هل أكلت اليوم؟ أليست هذه قرقعة صادرة عن معدتك؟» قال له إرمياس ملتفتاً إليه: «كفاك حماقة يا بيترينا! تحرك بسرعة أكبر!»... صاروا الآن على مسافة ربع ميل من مفترق الطرق، وعندها لاحظوا شيئاً آخر إضافة إلى الطنين المقلق المستمر. كان بيترينا أول من رأى ذلك: لم يكن قادراً على النطق بكلمة واحدة، لكنَّ عينيه عبّرتا عن صدمته. جحظت عيناه البليدتان في محجرَيْهما ناظرتين إلى السماء كأنهما تشيران إلى مصدر الصوت. على يمينهم، فوق الأرض المستنقعية عديمة الحياة، كان وشاح شفاف أبيض يمتد على نحو جليل واضح. لم يسعفهم الوقت في استيعاب ذلك المشهد لأن الوشاح تلاشى عندما لمس الأرض فأصابهم الذعر. قال بيترينا وهو يهز رأسه غير مصدِّق: «اقرصوني!». ووقف «الطفل» هناك مدهوشاً فاغر الفم، وعندما رأى أن إرمياس وبيترينا كانا غير قادرَيْن على الكلام قال بنبرة جازمة: «ماذا في الأمر؟ ألم تريا ضباباً من قبل؟» أجابه بيترينا متوتراً: «وهل تدعو هذا ضباباً؟!... يا حمار! أقسم أنه كان نوعاً من... كأنه وشاح

عروس... يا زعيم، إن لديّ إحساساً سيئاً تجاه هذا الأمر...» كان إرمياس يحدق محتاراً في مكان اختفاء الوشاح: «هذه مزحة. عد إلى رشدك يا بيترينا وقل شيئاً منطقياً». صاح «الطفل»: «انظروا هناك»... غير بعيد عن مكان ظهور الوشاح الأول، كان هنالك وشاح آخر يطفو بطيئاً في الهواء. حدّقوا فيه مسحورين بينما راح ينخفض فلمس الأرض واختفى كأنه كان ضباباً بالفعل. استحثهم بيترينا بصوت راجف: «فلنبتعد عن هذا المكان يا زعيم! حسبما أرى الأمر، ستمطر السماء ضفادع بعد قليل...» قال إرمياس حاسماً: «أنا واثق من أن هناك تفسيرًا منطقيًا لهذا... ليتني أعرف ما هو هذا الوشاح!... لا يعقل أن نجنّ نحن الثلاثة معاً في وقت واحد». قال «الطفل» مكشّراً: «فقط... لو كانت السيدة هاليكس هنا... لو كانت هنا لشرحت لنا الأمر فوراً». رفع إرمياس رأسه فجأة: «ماذا قلت؟» حل الصمت فجأة. أغمض «الطفل» عينيه حائراً مرتبكاً: «كنت أقول فقط...». سأله بيترينا مذعوراً: «هل تعرف شيئاً؟» كشّر «الطفل» وقال: «أنا؟... بالطبع لا أعرف. كنت أمزح فقط...» تابعوا سيرهم صامتين وخطر في ذهن بيترينا، بل في ذهن إرمياس أيضاً، أن من الأكثر حكمة أن يعودوا أدراجهم من فورهم، لكنَّ أيّاً منهما لم يكن مستعداً لاتخاذ هذا القرار لأنهما لم يكونا متأكدَيْن أن العودة من حيث أتوا يمكن أن تكون أقل خطراً. بدأوا يسرعون في سيرهم، ولم يتذمر بيترينا هذه المرة، بل على العكس تماماً: لو كان الأمر عائداً إليه وحده لجروا كلهم... وهكذا، عندما رأوا أطلال عزبة واينخيم أمامهم واقترح إرمياس أن يستريحوا عندها قليلاً («لقد نامت ساقاي تماماً... سنشعل ناراً ونأكل شيئاً ونجفف أنفسنا، ثم نتابع السير...»)، صاح بيترينا قانطاً: «لا، لن أستطيع احتمال هذا! لا يمكنك أن تتخيل أنني راغب في البقاء في هذا المكان لحظة واحدة أكثر مما هو ضروري... ليس بعد ما حدث الآن». حاول إرمياس أن يطمئنه: «لا حاجة إلى الذعر. إننا مرهقون، ولم نكد نحظى بشيء من النوم منذ

يومين. إننا في حاجة إلى استراحة. ولا يزال أمامنا طريق طويل». أجابه بيترينا: «لا بأس، لكن عليك أن تسير في المقدمة»، ثم استجمع ما بقي لديه من شجاعة وسار خلف الاثنين نحو عشر خطوات. كان قلبه في فمه من شدة الخوف، وما كان مستعداً حتى للاستجابة إلى مناكفات «الطفل» الذي رأى هدوء إرمياس فاسترخت أعصابه قليلاً وطمع في أن يعتبره سيده «واحداً من الشجعان»... انتظر بيترينا حتى انعطف الاثنان في الدرب المؤدية إلى العزبة، ثم تلفت منتبهاً قلقاً صوب اليمين وصوب الشمال وسار خلفهما متردّداً لكن قواه تركته كلها عندما واجه البوابة الرئيسية للمبنى الخرب: رأى مذعوراً كيف اختفى إرمياس و«الطفل» سريعاً خلف إحدى الشجيرات، أما هو فقد كان غير قادر على الحركة. «سوف يصيبني الجنون. إنني أشعر بهذا». كان خوفه شديداً، وغطى العرق حاجبيه. «يا لعنة الجحيم! أين أقحمنا أنفسنا!» حبس أنفاسه ونجح أخيراً، بعد أن توترت عضلاته إلى حد الألم، في أن ينزلق ـ جانبياً ـ خلف شجيرة أخرى. ظهر من جديد صوت يشبه القهقهة، ثم ازداد ارتفاعاً: كان أشبه بصوت ثلة مبتهجة من الأشخاص، فمن الطبيعي تماماً أن تنشد هذه الجماعة بقعة مهجورة كهذا المكان حتى تمضي وقتاً ماجنًا هنا في المطر والريح والبرد!... وحتى تقهقه هكذا... بهذا الصوت الغريب. سرت رجفات البرد في ظهره. استرق النظر صوب الممر، وعندما رأى أن اللحظة مناسبة انطلق كالمجنون مندفعاً صوب إرمياس مثلما يقفز جندي أمام نار العدو مخاطراً بحياته متنقلاً من خندق إلى آخر في خضم المعركة. همس بصوت مختنق عندما استقرّ إلى جانب إرمياس الجاثم على الأرض: «هل تسمع يا صاحبي؟ ماذا يجري هنا؟» أجابه الآخر بصوت هادئ مستقر: «لا أستطيع رؤية شيء في هذه اللحظة»، كان مسيطراً على نفسه تماماً، ولم يرفع عينيه أبداً عن البقعة التي كانت حديقة القصر في ما مضى... «لكني أظن أننا سنعرف الأمر سريعاً». نخر بيترينا قائلاً: «لا! لا

أريد أن أعرف شيئاً». قال «الطفل» مستثاراً وهو يتحرّق شوقاً إلى لحظة يعهد له فيها سيده بمهمة ما: «كأنهم يقيمون حفلة حقيقية هنا...» قال بيترينا بصوت زاعق: «هنا! في المطر؟... في هذا المكان البعيد؟... يا زعيم، فلنجرِ الآن قبل فوات الأوان!» «أطبق فمك، لا أستطيع سماع شيء». «أستطيع أن أسمع! أستطيع أن أسمع! هذا ما يجعلني أقول إنني...». قاطعه إرمياس بصوت هادر: «هدوء!» لم يكن هناك ما يشير إلى حركة في الحديقة التي نمت أعشابها فكادت تكسو شجرات البلوط والجوز والبقس وأحواض الزهور، وهذا ما جعل إرمياس يقرر (لأنهم لم يكونوا قادرين على رؤية شيء غير جزء صغير من تلك الحديقة) إن عليهم أن يزحفوا بحذر إلى الأمام. أمسك بذراع بيترينا المرتجفة بجنون وشدّه خلفه حتى بلغا المدخل الرئيسي، ثم ساروا على رؤوس أصابعهم مع الجدار الممتد ناحية اليمين... إرمياس في المقدمة... لكنه عندما بلغ زاوية المبنى وألقى نظرة حذرة على القسم الخلفي من الحديقة تجمد واقفاً في مكانه لحظة واحدة ثم سحب رأسه سريعاً. همس بيترينا: «ماذا رأيت هناك؟ هل نهرب؟» سأله إرمياس بصوت متوتر: «هل ترى ذلك الكوخ الصغير؟ سوف نذهب إليه، واحداً بعد الآخر. أنطلق أنا أولاً، ثم أنت يا بيترينا، ثم الطفل. هل هذا واضح؟» لم يكد يفرغ من هذه الكلمات حتى انطلق في اتجاه الكوخ الصيفي وهو يجري خافضاً رأسه. دمدم بيترينا بارتباك واضح: «لن أذهب! إنها عشرون متراً على الأقل. سوف تطلق النار علينا ونمتلئ ثقوباً قبل أن نصل». دفعه «الطفل» بخشونة حتى يتحرك ـ «انطلق الآن!» ـ لم يكن بيترينا يتوقع هذه الدفعة ففقد توازنه بعد خطوات قليلة وانكب على وجهه في الطين. نهض سريعاً ثم لم يلبث أن انبطح ثانية بعد خطوات قليلة ولم يصل إلى الكوخ إلا زحفاً على بطنه كأنه أفعى. كان في غاية الذعر إلى حد جعله يظل برهة غير قادر على رفع رأسه لينظر من حوله... ظل مستلقياً على الأرض، ساكناً تماماً، مغطياً

عينيه بكفيه... وعندها، بعد أن أدرك أنه «بفضل من رحمة الله» لا يزال حياً، استجمع شجاعته فجلس واسترق نظرة إلى الحديقة عبر ثغرة في الجدار. لم تكن أعصابه المتعبة قادرة على الصمود أمام ذلك المشهد. زعق وهو يلقي بنفسه منبطحاً على الأرض: «إلى الأسفل!» قال إرمياس بنبرة حادة: «لا تزعق يا أحمق! إذا سمعت منك صوتاً آخر فسوف أكسر رقبتك». في آخر الحديقة، أمام ثلاثة أشجار بلوط ضخمة عارية، في فسحة مكشوفة، رقد جسد صغير ملفوفٌ بسلسلة من الأوشحة الشفافة. كانوا على مسافة أقل من ثلاثين متراً من ذلك الجسد، وهذا ما سمح لهم بتمييز الوجه، أو بتمييز أجزائه التي لم يحجبها وشاح؛ ولو لم يكونوا يظنون ثلاثتهم أن هذا مستحيل، أو لو أنهم لم يساهموا في وضع الجثة في التابوت الذي صنعه كرانر على عجل، لأقسموا جميعاً أن أمامهم جثة شقيقة الطفل راقدة بوجه أبيض كالرماد وشعر ملتفّ أشقر... نائمة في سلام. ومن حين لآخر كانت الريح ترفع أطراف الوشاح بينما كان المطر يغسل الجثة بهدوء، أما أشجار البلوط العتيقة الثلاث فكانت تئن وتطقطق كأنها موشكة على السقوط... لكن لم يكن هناك أحد بالقرب من الجثة، ما كان حاضراً إلا تلك الموسيقى البهيجة الحلوة، موسيقى ضحك خالي البال يشبه قرع الأجراس. راح «الطفل» يحدق في تلك الفسحة مشلولاً غير عارف من أي شيء يخاف أكثر، من منظر أخته المتيبسة التي تقطر ماء... المكتسية بياضاً نقياً كبياض الثلج، أم فكرة نهوضها فجأة وسيرها إليه. ارتجفت ساقاه واسودّ كل شيء في عينيه... الأشجار والقصر القديم والحديقة والسماء... لم يبق سواها تتألق ساطعة إلى حد الألم... تتألق وتغدو أكثر وضوحاً في وسط تلك الفسحة. وفي ذلك الصمت المفاجئ، في ذلك الانعدام الكلي لأي صوت من الأصوات، عندما صارت قطرات المطر نفسها صامتة في سقوطها، عندما ظنوا جميعاً أنهم غدوا صُمّاً لأنهم يحسون الريح من غير أن يسمعوا همهمتها ولأنهم لم يعودوا يشعرون

بالنسيم الغريب الذي يهب صوبهم... لكنه سمع، رغم ذلك، الطنين المستمر والضحك الصادح يسكتان فجأة لتحل محلهما صرخات مخيفة وقباع كقباع الخنازير، وعندما رفع رأسه رآهم متحركين، قادمين إليه. غطى وجهه بذراعيه وبدأ ينشج باكياً. قال إرمياس هامساً، متجمداً، وهو يضغط على ذراع بيترينا بشدة جعلت مفاصل كفه بيضاء اللون: «هل ترى هذا؟» هبت ريح صاعدة من حول الجسد، وفي صمت تام راحت الجثة البيضاء إلى حد يعمي الأبصار ترتفع بحركة غير واثقة... وبعد أن بلغت مستوى قمم أشجار البلوط اهتزت فجأة ثم تحركت قليلاً وبدأت انحدارها صوب الأرض من جديد حتى عادت إلى مكانها السابق نفسه. وفي تلك اللحظة انطلقت تلك الأصوات التي لا أجساد لها في جوقة غاضبة من جديد كأنها جماعة يائسة فشلت في محاولتها الأولى فصار عليها أن تعيد الكرة من جديد. كان بيترينا يقول لاهثاً: «أتستطيعون تصديق هذا؟» أجابه إرمياس الذي صار الآن شاحباً شحوب الموت: «إنني أحاول تصديقه... أتساءل كم مضى عليهم من الوقت وهم يحاولون هذا؟ الطفلة ميتة منذ يومين. بيترينا، لعلها المرة الأولى في حياتي التي أجد فيها نفسي خائفاً حقاً. هل أستطيع أن أسألك سؤالاً يا صديقي؟». «هيا اسأل!» «ماذا تظن أن...» «ماذا أظن؟» «أتظن أن... ممم... أن الجحيم موجود حقاً؟» غصّ إرمياس بريقه وهو يقول: «من يدري؟ لعله موجود». وفجأة عاد كل شيء هادئاً من جديد. لم يعد هناك إلا صوت الطنين، لعله صار أعلى قليلاً. بدأت الجثة ترتفع من جديد. وعندما علت ستةأقدام فوق الفسحة ارتجفت ثم انطلقت بسرعة لا تصدق وطارت في السماء ولم تلبث أن اختفت بين الغيوم التي لا تزال ساكنة كالحة كما كانت. اكتسحت الريح الحديقة، واهتزت شجرات البلوط مثلما اهتز الكوخ الصيفي الخرب القديم، وعند ذلك بلغت الأصوات الرنانة الضاحكة أقصى مداها وصدحت منتصرة فوق رؤوسهم قبل أن تخفت وتتلاشى بطيئاً من غير أن

تترك خلفها شيئاً غير نتف من وشاح تتهادى رويداً صوب الأرض... سمعوا صوت قرقعة قطع القرميد في سقف بناء القصر المنهار، وصوت الاصطدام المخيف لمزراب قصديري مكسور بجدار ذلك المبنى. ظلوا واقفين دقائق من غير نهاية متجمدين محدّقين في الفسحة، وعندما لم يحدث شيء بعد ذلك عادوا إلى رشدهم شيئاً فشيئاً. همس إرمياس: «أظن أنه انتهى»... أطلق فواقاً عميقاً. همس بيترينا: «آمل ذلك حقاً. فلننهض الطفل». حملا «الطفل» الذي كان لا يزال مرتعداً من تحت إبطيه وساعداه على الوقوف. قال بيترينا يشجعه رغم كونه يجد صعوبة في البقاء واقفاً هو نفسه: «هيا الآن، تماسك!» قال «الطفل» منتحباً: «اتركني وحيداً! أفلتني». «لا بأس عليك. لا شيء يدعو إلى الخوف الآن». «اتركني هنا! لست ذاهباً إلى أي مكان». «بل أنت آتٍ معنا بالطبع! كفَّ عن هذا البكاء البائس! لم يعد هناك أي شيء أصلاً». مضى «الطفل» إلى الثغرة في الجدار ونظر إلى الفسحة: «أين... أين ذهبت؟» أجابه بيترينا وهو متمسك بقرميدة بارزة في الجدار: «اختفت مثل الضباب». «مثل... الضباب؟» «مثل الضباب». قال «الطفل» بنبرة غير واثقة: «لقد كنت محقاً إذن». قال إرمياس بعد أن تمكن من إيقاف فواقه أخيراً: «بالتأكيد! علي الإقرار بأنك كنت مصيباً. لكن، أنتما... ماذا... ماذا رأيت؟» قال بيترينا وأنظاره مثبتة إلى الأمام وراح يهز رأسه بمرارة: «أنا، لم أر إلا ضباباً. لا شيء إلا الضباب، ضباب في أرجاء المكان كله». ألقى «الطفل» نظرة قلقة صوب إرمياس: «لكن ماذا... ماذا كان ذلك». أجابه إرمياس: «هلوسة»، كان وجهه أبيض بلون الطباشير وكان صوته خافتاً إلى حد جعل «الطفل» يميل نحوه بحركة غريزية... «إننا مرهقون. وأنت خاصة. وهذا ليس مفاجئاً أبداً». قال بيترينا مؤيداً: «ليس مفاجئاً على الإطلاق. يرى الناس عادة أشياء مختلفة في حالات من هذا النوع. عندما كنت أخدم في الجبهة كانت تمرّ بي ليالي أرى فيها آلاف الساحرات يطاردنني وهنّ راكبات على

مكانسهن ذات العصيّ الطويلة... كنت أرى هذا بالفعل». ساروا مسافة الممر كله، ثم تابعوا السير زمناً طويلاً في الطريق إلى بوستيليك من غير كلام. وكانوا يتجنبون برك الماء العميقة. وكلما ازدادوا اقتراباً من الطريق القديمة، المستقيمة كالقالب، المؤدية إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من البلدة كلما ازداد قلق بيترينا إزاء حالة إرمياس. كان سيده في غاية التوتر، وكانت ركبتاه تخذلانه من حين لآخر حتى بدا، في أوقات كثيرة، أنه سوف ينهار في الخطوة التالية. كان وجهه شاحباً وقد تراخت ملامحه، وكانت عيناه تحدقان بلمعة زجاجية لكن من غير أن تنظرا إلى شيء محدد. ومن حسن الحظ أن «الطفل» لم يلاحظ شيئاً من هذا لأنه هدأ قليلاً بعد حديثه مع إرمياس وبيترينا («بالطبع، ماذا يمكن أن يكون غير ذلك! هلوسات. يجب أن أستجمع شجاعتي إذا كنت لا أريد أن يسخروا مني») وذلك لأنه كان فرحاً لاعتراف بيترينا بدوره في اكتشاف حقيقة تلك الرؤيا، وهذا ما جعله قادراً الآن أن يسير في مقدمة الموكب. توقف إرمياس فجأة. أسرع بيترينا إليه مذعوراً حتى يساعده إن استطاع ذلك. لكن إرمياس دفع ذراعه الممدودة بعيداً عنه، ثم استدار عنه عاوياً: «أيها الحقير! لماذا لا تنقلع؟! لقد شبعت منك! هل فهمت!؟» خفض بيترينا أنظاره سريعاً. وعندما رأى إرمياس ذلك، أمسكه من ياقته محاولاً حمله لكنه لم يستطع فدفعه دفعة قوية جعلته يفقد توازنه ويسير بضع خطوات متعثراً ثم ينكبّ إلى وجهه في الطين. قال راجياً مسترحماً: «يا صديقي... لا تفقد...» صاح إرمياس به: «ألا تزال تردّ الكلام؟!» ثم انقضّ عليه، وبكل قوته سدد لكمة على وجهه. وقفا متواجهَيْن، وكان بيترينا بائساً قانطاً لكنه عاد صاحياً من جديد... كان في غاية الإرهاق، خاوياً تماماً... لم يعد يشعر إلا بضغط القنوط القاتل مثلما يشعر حيوان علق في الفخ وأدرك أن لا مهرب له. قال متلعثماً: «يا سيدي... إنني... إنني لست غاضباً». رفع إرمياس رأسه: «إياك أن تكون غاضباً... يا أحمق...». انطلقوا من جديد، واستدار بيترينا

صوب «الطفل» الذي بدا متجمداً كأنه حجر، ثم أشار له بيده كأنه يريد القول: «هيا، لا مشكلة، انتهى الأمر الآن». وكان يزفر من حين لآخر ويحكّ أذنه الكبيرة: «استمع... إنني من أتباع الإنجيل...». قال إرمياس مصحّحاً: «ألا تقصد القول إنك من أتباع الكنيسة الإنجيلية». أجابه بيترينا سريعاً بعد زفرة ارتياح لرؤيته أن شريكه قد تجاوز الحالة السيئة التي كان فيها: «نعم، صحيح، هذا صحيح، هذا ما قصدت قوله... وماذا عنك؟» «أنا؟ لم يعمّدني أحد أبداً. أظن أنهم عرفوا أن هذا لن يغير شيئاً...». «هشش!...» لوّح بيترينا بذراعيه مذعوراً وهو يشير إلى السماء... «لا تقلها بصوت مرتفع!» قال إرمياس مزمجراً: «ماذا بك أيها الأحمق الكبير... ما أهمية هذا الآن؟» «قد لا يكون مهماً في نظرك أنت لكنه مهم في نظري. أكاد أعجز عن التنفس كلما فكرت في ذلك الشهاب المتوهّج». أجابه إرمياس بعد صمت طويل: «لا تفكر بهذه الطريقة. لا أهمية لما رأيناه قبل قليل. لا معنى له. السماء؟ والجحيم؟ والحياة الآخرة؟ كلها هراء. تضييع للوقت فقط. لا تتوقف المخيلة عن عملها أبداً، لكننا لا نقترب من الحقيقة قيد أنملة». استرخت أعصاب بيترينا أخيراً. أدرك الآن أن «كل شيء صار على ما يرام»، وأدرك أن ما يجب أن يقوله لرفيقه يمكن أن يكون تعبيراً عن ذاته الحقيقية مثلما كان... «لا بأس، لكن لا تصرخ عالياً بهذا الشكل!» ثم قال هامساً: «ألم ننل ما يكفي من المتاعب إلى الآن؟» «لا يمكن أن يتجلّى الله في اللغة، أيها الأحمق. ولا يمكن أن يتجلى في أي شيء». قاطعه بيترينا حانقاً: «لكني مؤمن بالله! على الأقل، عليك أن تراعيني قليلاً، أنت أيها الملحد الملعون». «إنها غلطة. لقد فهمت منذ أمد بعيد أن الفرق ليس أكثر من صفر... بيني وبين البعوضة، أو بين البعوضة والنهر، أو بين النهر وصوت يصرخ فوقه. ليس هنالك جوهر أو معنى في أي شيء. لا شيء إلا شبكة من الاعتمادات المتبادلة تحت وطأة ضغوط ضخمة متغيرة. إنها مخيلاتنا فحسب، لا عقولنا، التي

تضعنا دائماً في مواجهة الفشل والاعتقاد الكاذب بأننا نستطيع أن نرفع أنفسنا من أربطة أحذيتنا لنخرج من قلب الفناء البائس. لا مهرب لنا من هذا، أيها الغبي». قال بيترينا معترضاً: «لكن كيف تستطيع أن تقول هذا الآن... بعد ما رأيناه؟» «هذا بالضبط ما يجعلني أقول إننا عالقون إلى الأبد. إننا محكومون بكل معنى الكلمة. ومن الأفضل لنا ألا نحاول الذهاب في أي من الاتجاهين، من الأفضل ألا نصدِّق أعيننا. هذا فَخّ يا بيترينا. ونحن نقع في هذا الفخ كل مرة. نظن أننا نتحرر منه، لكننا لا نفعل إلا إعادة ترتيب الأقفال. إننا عالقون... انتهت الحكاية». قال بيترينا وقد صار الآن غاضباً حقاً: «لا أفهم كلمة من هذا! لا تسمعني أشعارك الملعونة هذه، تكلم بوضوح!» قال إرمياس بحزن: «فلنشنق أنفسنا أيها المخبول! على الأقل... ينتهي الأمر سريعاً هكذا. النهاية نفسها في الحالين، سواء شنقنا أنفسنا أو لم نفعل ذلك. لا بأس إذن، لا داعي لأن نشنق أنفسنا». «اسمع يا صديقي... أنا لا أستطيع فهمك! كف عن هذا الآن قبل أن أنفجر باكياً...» ساروا صامتين بعض الوقت، لكن بيترينا لم يستطع ترك الأمر: «أتعرف ما مشكلتك يا زعيم؟ المشكلة هي أنك غير معَمَّد». «قد يكون هذا صحيحاً». كانوا قد بلغوا الطريق القديمة الآن، وكان «الطفل» توّاقاً إلى المغامرة... كان يمسح الأرض من حولهم بعينيه لكنه لم يكن يرى فيها شيئاً غير آثار قديمة لعجلات العربات أيام الصيف. ولم ير أي خطر. وفوق رؤوسهم كان يعبر أحياناً سرب من الغربان، وبعد ذلك اشتد المطر وبدأت الريح تشتد أيضاً مع اقترابهم من البلدة. سأل بيترينا: «طيب، وماذا الآن؟» «ماذا؟» «ماذا يحدث الآن؟» أجابه إرمياس وهو يشد على أسنانه: «ماذا تقصد بقولك ماذا يحدث الآن؟ سوف يتحسّن الوضع من الآن فصاعداً. حتى هذه اللحظة كان الآخرون يقولون لنا ما نفعله، أما الآن فنحن من سيقول لهم ما يفعلون. إنه الأمر نفسه تماماً. تبديل ترتيب الكلمات فقط». أشعل كل منهم سيجارة وراحوا ينفثون الدخان متجهّمين.

بدأ الظلام يحل على البلدة عندما بلغوا الناحية الجنوبية الشرقية منها ومضوا عبر الشوارع المهجورة التي تظهر الأضواء في نوافذها حيث يجلس الناس صامتين أمام أطباق الطعام التي يتصاعد بخارها. توقف إرمياس عندما بلغوا حانة «الميزان»: «هنا! سوف نتوقف هنا بعض الوقت». دخلوا الحانة فاسدة الهواء، العابقة بالدخان، المزدحمة بالناس، وبينما كانوا يشقّون طريقهم بين مجموعات ضاحكة أو متجادلة من السائقين وموظفي الضرائب والعمال والطلبة، توجّه إرمياس إلى البار لينضم إلى صف الانتظار الطويل الواقف عنده. عرف عامل البار إرمياس حالما رآه فعبر الباب واتجه بحركة رشيقة صوب الناحية الأخرى من البار وهو يقول: «حسنًا، حسنًا! من أرى هنا الآن؟ تحياتي! أهلاً يا ملك الفوضى». انحنى عبر البار ماداً يده وسأل إرمياس بصوت هادئ: «كيف نستطيع أن نخدمك أيها السيد؟» تجاهل إرمياس اليد الممدودة إليه وأجاب بنبرة باردة: «كأسان من الشراب الممزوج وزجاجة صغيرة من المياه الغازية». أجابه عامل البار وهو يسحب يده مصدوماً قليلاً: «حالاً يا سيدي... كأسان من الشراب الممزوج وزجاجة من المياه الغازية. ستأتي في الحال». عاد إلى موقعه في وسط البار وصبّ كأسَي الشراب ثم قدمهما سريعاً إلى إرمياس قائلاً: «أنتم ضيوفي أيها السادة». أجابه إرمياس: «أشكرك. ما الجديد يا ويز؟» مسح عامل البار جبهته المتعرقة بكمّ قميصه والتفت يميناً وشمالاً ثم انحنى مقترباً من إرمياس وهمس مستثاراً: «لقد هربت الخيول من المسلخ، أو هكذا يقولون». «الخيول؟» «نعم، الخيول ـ سمعت قبل قليل أنهم لم يتمكنوا من الإمساك بها. اسطبل خيول بأسره... أرجوك... خيول تجري على هواها في المدينة... أرجوك. هكذا يقولون». هز إرمياس رأسه ثم رفع الكؤوس عالياً وسار بها مجتازاً الحشد بشيء من الصعوبة حتى بلغ بيترينا و«الطفل» اللذين تمكنا من العثور على مكان لجلوسهم. «المياه الغازية لك يا ولدي». «شكراً، لقد

رأيت، إنه يعرف». «ليس التخمين صعباً. إذن... في صحتنا». أفرغا كأسيهما، وقدم بيترينا السجائر للآخرين، ثم أشعلوها. «آه، إنه المحتال الشهير! مساء الخير! أهذا أنت؟ كيف وصلت إلى هنا بحق الشيطان؟ يسرني كثيراً أن أراك». كان رجل قصير أصلع له وجه بلون الشمندر يتقدّم منهم ماداً يده بطريقة ودية قال: «تحياتي» ثم التفت إلى بيترينا. سأله بيترينا: «إذن... كيف هي الأمور يا توث؟» أجابه: «جيدة تماماً. جيدة مثلما تسير الأمور هذه الأيام! وماذا عندكما؟ حقاً، لابد أن سنتين... لا، ثلاث سنوات منذ رأيتكما آخر مرة. هل كان لديكما شيء مهم؟» هز بيترينا رأسه: «ممكن». «آه، هذا شيء مختلف...» قال الأصلع هذه الكلمات بشيء من الحرج ثم استدار إلى إرمياس: «هل سمعت؟ لقد انتهى أمر زابو». همهم إرمياس: «آها، همم»، ثم أفرغ ما بقي في كأسه... «ما الجديد يا توث؟» اقترب الأصلع منه: «لقد حصلت على شقة». «هل هذا صحيح؟ أهنئك. وهل هنالك شيء آخر؟» أجاب توث بصوت خافت: «حسنًا، الحياة تمضي في سبيلها. كانت لدينا انتخابات محلية منذ فترة بسيطة. هل لديك فكرة عن عدد الذين أدلوا بأصواتهم؟ هاه؟ هل حزرت؟ أستطيع إحصاءهم كلهم واحداً واحداً. كلهم موجودون هنا». قال هذا وهو يشير إلى رأسه. أجابه إرمياس بصوت متعب: «جيد هذا إنجاز كبير بالنسبة لك يا توث. أرى أنك لا تضيّع وقتك». بسط الأصلع كفَّيه وقال: «هذا واضح، أليس كذلك؟» قال بيترينا وهو يميل في اتجاهه: «هنالك أشياء يتعين على الرجل أن يقوم بها. أليس هذا صحيحاً؟... وفي الحقيقة، يتعين عليك أن تقوم بشيء الآن. هل تقف في صف الانتظار لتجلب لنا شيئاً نشربه؟ أجابه الأصلع متحمساً: «ماذا تحبون أن تشربوا يا سادة؟ ستكونون ضيوفي». «شراب ممزوج». «سأعود حالاً. أعود بعد دقيقة واحدة». صار عند البار في لحظات، وأشار لعامل البار بيده، وسرعان ما عاد حاملاً ملء يديه من الكؤوس. «نخب لقائنا!» قال إرمياس:

«في صحتك» وأضاف بيترينا: «إلى أن تعود الأبقار إلى مكانها». سأل توث بعينين متسعتين متشوقاً إلى سماع الإجابة: «قل لي... ما الجديد؟ ما الجديد هنا؟» سأله بيترينا: «أين؟» «فقط، أنت تعرف، هنا... أتحدث بشكل عام». «آه، لقد شهدنا نشوراً لتونا». ابتسم الأصلع فظهرت أسنانه الصفراء: «لم تتغير على الإطلاق يا بيترينا! هاهاها! لقد شهدنا نشوراً لتونا! هذا هو أنت، نعم، هذا هو أنت!» سأله بيترينا منزعجاً: «ألا تصدقني؟ سترى، سوف تكون نهايتك وخيمة. احرص على ألا تكون ملابسك شديدة الدفء عندما تكون واقفاً بباب الموت. يقولون إن الجو حار هناك بما فيه الكفاية». كان توث يتلوّى ضحكاً. قال لاهثاً: «رائع يا سادة! سوف أعود إلى من كنت بصحبتهم. هل نلتقي ثانية؟» أجابه بيترينا بابتسامة حزينة: «هذا أمر لا مفر منه». تركوا حانة «الميزان» وساروا في شارع عريض تحفّه أشجار الحور من الجانبين. كان الشارع ماضياً إلى مركز البلدة. كانت الريح تعصف في وجوههم والمطر يدخل في عيونهم؛ ولأن الدفء حل في أجسادهم بعد ما شربوه، قد راحوا الآن يرتجفون وينكمشون على أنفسهم. لم يقابلوا أحداً حتى بلغوا ساحة الكنيسة، بل كان بيتربنا يعلّق على ذلك قائلاً: «ماذا هذا؟ هل هو حظر للتجول؟» هز إرمياس رأسه بحزن: «لا، إنه الخريف فحسب، إنه هذا الوقت من السنة. يجلس الناس عند مواقدهم ولا يتحركون حتى الربيع. إنهم يمضون الساعات عند النافذة إلى أن يحل الظلام في الخارج. وهم يأكلون ويشربون ويتعانقون في الفراش تحت اللحاف. وهنالك لحظات يشعرون فيها بأن كل شيء يسير مساراً خاطئاً بالنسبة لهم، فيضربون أولادهم أو يرفسون القطة، وهذا ما يمنحهم قدرة على الاستمرار زمناً أطول بعض الشيء. هكذا تسير الأمور... يا أحمق». اعترضهم حشد من الناس عند الساحة الرئيسية. سألهم رجل طويل القامة: «هل رأيتم شيئاً؟» أجابه إرمياس: «لا شيء على الإطلاق». «إذا رأيتم شيئاً فعليكم إخبارنا فوراً.

سوف نظل هنا ننتظر الأخبار. سوف تعثرون علينا هنا». «عظيم، إلى اللقاء». وبعد أن ساروا بضعة أمتار، سأله بيترينا: «قد أكون غبياً، ولكن ماذا لو كانوا هنا؟ من الطبيعي تماماً أن يبحثوا عنهم. ماذا كانوا يفترضون أن نرى؟» أجابه إرمياس: «خيول». «خيول؟ أي خيول؟» «إنها الخيول التي فرّت من المسلخ». مضوا في الشارع الخالي من الناس، ثم استداروا إلى الحي الروماني القديم، ناغورومانفاروس. وعند تقاطع شارع إيمينيسكو والجادة الكبيرة، رأوهم. كانوا هناك في وسط شارع إيمينيسكو يرعون العشب... ثمانية خيول أو عشرة. كانت أضواء الشارع الخافتة منعكسة على جلود ظهورهم. تابعوا قضم العشب بهدوء إلى أن لاحظوا أنهم ينظرون إليهم، وفجأة... كأنهم تحركوا حركة موحدة، رفعوا رؤوسهم وصهل واحد منهم، وخلال دقيقة واحدة كانوا قد اختفوا عند النهاية البعيدة للشارع. سأل «الطفل» مبتسماً: «مع من أنت؟» أجاب بيترينا متوتراً: «مع نفسي». كانت حانة «شتيغروالد» خالية تقريباً عندما وصلوا إليها، وسرعان ما غادرها الأشخاص القلائل الذين كانوا فيها. وكان شتيغروالد يعبث بجهاز تلفزيون عند الزاوية، كان يشتم الجهاز من غير أن يلاحظ دخول القادمين الجدد: «اللعنة عليك يا قليل النفع، يا ابن الحرام» خاطبه إرمياس بصوت مرتفع: «مساء الخير». فاستدار شتيغروالد سريعاً: «يا إلهي! أهذا أنت؟» طمأنه بيترينا: «لا مشكلة، لا مشكلة على الإطلاق». دمدم صاحب الحانة: «هذا جيد، ظننت أن...» أشار إلى جهاز التلفزيون غاضباً: «هذا الجهاز الملعون... أحاول منذ ساعة أن أجعل الصورة تظهر، لكنها اختفت ولا تريد العودة». «في هذه الحالة، عليك أن تستريح. هات لنا كأسين من الشراب الممزوج وشراباً غازياً للفتى الشاب». جلسوا إلى الطاولة وحلوا أزرار معاطفهم ثم أشعلوا سجائرهم. قال إرمياس: «اسمع يا صبي، تناول شرابك بسرعة ثم اذهب إلى بيت باير. تعرف أين يعيش، أليس كذلك؟ جيد، قل له إنني أنتظره هنا». أجاب

«الطفل»: «حاضر»، ثم أغلق أزرار معطفه من جديد. تناول الكأس من يد صاحب الحانة وأفرغها دفعة واحدة، ثم انطلق سريعاً من الباب. استوقف إرمياس صاحب الحانة بعد أن وضع الكؤوس أمامهم وهمَّ بالعودة إلى مكانه: «شتيغروالد؟» «آه، إذن، هنالك مشاكل رغم كل شيء». تأوه وزرع جسمه الضخم على كرسي إلى جانب إرمياس الذي طمأنه قائلاً: «لا مشاكل أبداً». «إننا في حاجة غداً إلى شاحنة صغيرة». «ومتى تعيدها؟» «غداً ليلاً. وسوف ننام هنا الليلة». هز شتيغروالد رأسه مرتاحاً: «لا بأس». ثم قال وهو ينهض واقفاً: «ومتى تدفع لي؟» «الآن في هذه اللحظة». «عفواً؟» «لقد أسأت السمع... غداً». انفتح الباب واندفع «الطفل» إلى الحانة مسرعاً. «سيأتي فوراً» قال هذا ثم جلس في كرسيه. «أحسنت يا بني. اذهب واجلب لنفسك كأساً أخرى من المياه الغازية. وقل للرجل أن يطبخ لنا قليلاً من حساء الفاصولياء». أضاف بيترينا: «مع قطع كبيرة من اللحم». وبعد دقائق قليلة، دخل رجل ثقيل ضخم البنية أشيب الشعر حاملاً مظلة في يده. لا بد أنه كان على وشك النوم لأنه ما كان مرتدياً ملابس عادية بل كان يضع معطفه فوق ثياب النوم وينتعل خفاً من الفرو الصناعي. قال بصوت ناعس وهو يجلس على كرسي إلى جانب إرمياس: «سمعت أنك عدت إلى البلدة، يا أمير». «لن أمانع إذا صافحتني». كان إرمياس يحدّق في الفراغ حزيناً، لكنه انتبه وابتسم ابتسامة راضية عندما سمع كلمات باير: «احترامي الشديد. آمل أنني لم أوقظك من النوم». لم تفارق البسمة شفتَي إرمياس. وضع ساقاً فوق ساق واستند إلى كرسيه وراح ينفث الدخان بطيئاً. «فلنتحدث في العمل». رفع القادم الجديد يده: «لا تحاول إخافتي منذ البداية». لكنه تابع يقول واثقاً... «تابع كلامك، اطلب مني شيئاً الآن بعد أن سحبتني من فراشي». «ماذا تحب أن تشرب؟» «لا، لا تسألني عما أحب شربه. ليس لديهم ما أحبه هنا. سوف أشرب بالينكا الخوخ». وبعد ذلك راح يصغي إلى إرمياس بعينين مغمضتين كأنه

نائم. ولم يرفع يده من جديد ليطرح سؤالاً إلا عندما جاءه صاحب الحانة بالبالينكا فأفرغها في جوفه دفعة واحدة: «فيمَ العجلة؟ لم تُعرّفني بعد على رفاقك المحترمين...» وثب بيترينا واقفاً: «اسمي بيترينا، في خدمتك، إنني بيترينا». لم يتحرّك «الطفل». قال فقط: «هورغوس». فتح باير عينيه وقال: «شاب حسن السلوك!» قال هذا ونظر إلى إرمياس نظرة العارف... «سيكون مستقبله باهراً». «يسرني أن تكون معجباً بمساعديّ يا سيد بوم بوم». رفع باير رأسه كمن يريد الدفاع عن نفسه: «لا تطلق عليَّ ألقاباً. لست مولعاً بالأسلحة، وأظن أنك تعرف هذا. إنني أتاجر بها فقط. فلتخاطبني باسمي فقط، باير». ابتسم إرمياس ثم أطفأ عقب سيجارته تحت الطاولة. «عظيم! الوضع كالتالي، سأكون شاكراً لك إذا أعطيتني بعض... المواد الأولية. كلما كانت متنوعة كلما كان ذلك أفضل». أغمض باير عينيه: «هل هذا مجرد سؤال افتراضي أم أنك مستعد لدعمه بمبلغ محدَّد يمكن أن يساعدني في الاستمرار على احتمال هذه الحياة؟» «هناك مال بطبيعة الحال». هز الضيف رأسه مستحسناً: «لا أستطيع إلا أن أكرر القول عنك بأنك، كشريك تجاري، رجل حقيقي دائماً وأبداً. من المؤسف أن عدد الذين يحسنون التصرف ممن نتعامل معهم في هذه المهنة لا يفتأ يتناقص». سأله إرمياس بابتسامته نفسها عندما ظهر شتيغروالد حاملاً أطباق حساء الفاصولياء: «ألن تتناول العشاء معنا؟» «ماذا تقدمون اليوم؟» أجابه صاحب الحانة: «لا شيء». سأله باير بصوت متعب: «هل تقصد أن كل ما تجلبه لنا غير صالح للأكل؟» قال شتيغروالد: «صحيح». أجابه باير: «في تلك الحالة لن آكل شيئاً». نهض واقفاً وانحنى انحناءة صغيرة ثم هز رأسه في اتجاه «الطفل» هزة خصَّه بها: «في خدمتكم أيها السادة. سوف نهتم بالتفاصيل... إن كنت فهمتك على نحو صحيح». وقف إرمياس أيضاً ومدَّ يده: «تماماً! سوف أمر عليك في نهاية الأسبوع. نم جيداً». أجابه باير: «انظر، لقد مرت ستٌّ وعشرون سنة بالضبط منذ أن

نمت آخر مرة خمس ساعات ونصف الساعة من غير أن يوقظني أحد: ومنذ ذلك الوقت أتقلّب وأدور، نصف نائم، نصف مستيقظ، لكني أشكرك على كل حال». انحنى من جديد ثم غادر الحانة بخطوات بطيئة ومظهر ناعس. وعندما فرغوا من تناول العشاء، أعدَّ لهم شتيغروالد مكاناً للنوم في الزاوية وهو يدمدم طيلة الوقت، ثم لكز جهاز التلفزيون الذي يرفض أن يعمل لكزة يائسة أخيرة بمرفقه عندما كان على وشك مغادرتهم. ناداه بيترينا: «هل لديك إنجيل؟» أبطأ شتيغروالد، ثم توقف واستدار صوب بيترينا: «إنجيل؟ ولماذا يلزمك إنجيل؟» «فكرت أن أقرأ قليلاً قبل أن أنام. إن لقراءة الإنجيل تأثير مهدّئ بالنسبة لي كما تعرف». دمدم إرمياس: «كيف تستطيع أن تقول هذا من غير أن تحمَرّ خجلاً؟. كنتَ طفلاً منذ أن قرأت كتاباً آخر مرة، بل إنك كنت تنظر إلى الصور فقط». قال بيترينا معترضاً وهو يتخذ هيئة من وجهت إليه إساءة: «لا تستمع إليه، إنه يقول هذا بسبب غيرته فقط». حك شتيغروالد رأسه: «ليس لديّ إلا بعض القصص البوليسية الجيدة. أتريد أن أجلب لك واحدة منها». «لا سمح الله. هذا لا ينفع أبداً». قذفه شتيغروالد بنظرة غاضبة ثم خرج من الباب مختفياً في الفناء. غمغم بيترينا: «هذا الشتيغروالد... يا للبائس الملعون! أقسم أن الدببة الجائعة التي أراها في كوابيسي ودودة أكثر منه»، كان إرمياس قد استلقى في المكان المعدّ له وغطى نفسه بالبطانية. «ربما. لكنه سيعيش أكثر منا جميعاً». أطفأ «الطفل» الضوء وسكنوا جميعاً. وظل الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه، لفترة من الزمن، صوت بيترينا وهو يحاول أن يتذكر كلمات الصلاة التي كان يسمع جدته ترددها:

أبانا الذي... أممم... أبانا الذي

الذي في، في... في السماء

في السماء، ليتعظم، أممم... ليتقدس اسمك

يا سيدنا يسوع المسيح، لا... فليتقدس... لا... فلنقدس

لا، بل فليتقدس اسمك،

و... أعطنا هذا... أقصد، أقصد أن،

فليكن كل شيء بحسب مشيئتك،

فليكن مثلما تريد... في الأرض وفي

إنها: في الأرض... في السماء...

... أو لعلها... في الجحيم، آمين

3. المشهد كما بدا من الخلف

استمر هطول المطر هادئاً رخياً، وأما الريح فماتت غير مأسوف عليها، لكن نسمات واهنة ظلت تداعب سطح الماء الراكد في البرك مداعبة واهنة لا تلحق اضطراباً بالقشرة الرقيقة الميتة التي غطت تلك البرك خلال الليل، البرك التي راحت تتشرّب على نحو متزايد، غير آسفةٍ على برد الليل، الضياء السابح نحوها بطيئاً من جهة الشرق. جذوع الأشجار، وأغصان تتشقق هنا وهناك، والأعشاب الدبقة العفنة، بل حتى «القصر» نفسه ـ كل شيء كان مغطى بغلالة رقيقة، لكنها دبقة، كأنها علامة وضعتها عليها كلّها قوى الليل الخدّاعة حتى تعود فتواصل عملها التخريبي المدمّر عليها في الليلة التالية. وعندما سبح القمر فوق طبقات الغيوم الكثيفة منحدراً صوب الأفق الغربي، غير مرئي، راحت عيونهم ترفرف ناظرة إلى الفتحة الفاغرة التي كانت مدخل القصر الرئيسي ذات يوم أو عبر فجوات النوافذ المرتفعة سابحةً في الضياء المتجمد... عندها أدركوا ببطء أن شيئاً قد تغير، أن شيئاً ما لم يكن في مكانه تماماً مثلما كان قبل الفجر، وبعد أن فهموا هذا أدركوا سريعاً أن الشيء الذي يخشونه في سرّهم أكثر من أي شيء آخر قد حدث حقاً. أدركوا أن الأحلام التي كانت تقود خطوات يوم أمس قد ولّت، وأن وقت الصحوة المرة قد جاء... زال عنهم إحساسهم الأول بالتشوش فحلّ محلّه إدراك مذعور لمدى حماقة اندفاعهم «الفعل ما فعلوه»؛ أدركوا أن رحيلهم ما كان نتيجة حسابات

صاحية بل وليد دافع شرير، وأدركوا أن لا سبيل الآن، بعد أن أحرقوا الجسور خلفهم في حقيقة الأمر، إلى اتخاذ الوجهة المنطقية والعودة من حيث أتوا. كان الوقت فجراً... أكثر الساعات بؤساً: لا تزال أطرافهم المتيبسة تؤلمهم... كانوا قابعين هناك، مرتجفين في البرد، شفاههم تكاد تكون زرقاء اللون، كانوا جائعين ورائحتهم واخزة، تحاملوا على أنفسهم فوقفوا بين ممتلكاتهم المبعثرة، وكانوا مرغمين على مواجهة حقيقة أن «القصر» الذي بدا لهم ليلة أمس تجسيداً لأحلامهم قد صار اليوم، في هذا الضياء الذي لا يرحم، مجرد سجن بارد قاسي القلب. راحوا يجوبون صالات المبنى الميت المهجورة وهم يتذمرون ويشعرون بمرارة متصاعدة، راحوا يستكشفون، بطريقة فوضوية كئيبة، أجزاء الآلات المفككة الصدئة... وفي صمتهم الجنائزي هذا، بدأ الشك ينمو في نفوسهم... شك في أنهم سيقوا إلى فخ وأنهم، كلهم من غير استثناء، ليسوا أكثر من ضحايا سذّج لمؤامرة وضيعة أرادت رميهم هناك مشردين مخدوعين مسروقين أذلاء. كانت السيدة شميدت أول من عاد إلى فراشه الموقّت البائس؛ جلست مرتجفة فوق حزم حاجياتها وحدّقت خائبة الأمل في الضياء الذي كان يزداد ألقاً. كان الكحل الذي تلقّته «منه» هديةً يوم أمس قد انتشر بقعاً على وجهها المنتفخ، وكان فمها منقلباً إلى الأسفل لشدة المرارة، وكان حلقها جافاً... آلمتها معدتها وأحست بأن ضعفها لا يسمح لها حتى بترتيب شعرها المشعث وملابسها المجعّدة. كان كل شيء عبثاً في عبث: ذكرى الساعات السحرية القليلة التي قضتها «معه» لم تعد كافية لتهدئة مخاوفها من أن كل شيء ضاع الآن. الآن، خاصة بعد ما صار واضحاً أن إرمياس قد نكث بوعده، بكل بساطة. ... ما كان ذلك سهلاً لكن ما كان في وسعها أن تفعل شيئاً آخر: حاولت جعل نفسها تقبل حقيقة أن إرمياس («... إلى أن تنتهي هذه المسألة آخر المطاف...») لن يأخذها معه، وأن حلمها في تخليص نفسها من «مخالب شميدت القذرة»

والابتعاد عن «هذا الجحر العفن» لا بد له من الانتظار، لا بد له من التأجيل شهوراً أو سنوات («يا ربي، سنوات! سنوات أخرى!») لكن الفكرة المخيفة، فكرة أن يكون هذا الانتظار نفسه كذبة أيضاً، وأن إرمياس صار الآن على مسافة بعيدة باحثاً عن فتوحات جديدة، جعلتها تشد قبضتي يديها غاضبة يائسة. صحيح أنها عندما تفكر في الليالي الأخرى، عندما كانت تمنح نفسها لإرمياس في آخر غرفة المستودع، فإن عليها الإقرار (حتى الآن، حتى في هذه الساعة الأكثر خوفًا) بأن لقاءه لم يخيب آمالها: تلك اللحظات الرائعة، تلك اللحظات من الرضا الهانئ إلى حد لا يصدق، كانت صالحة لتعويضها عن كل ما عداها؛ الشيء الوحيد الذي لم تكن قادرة على غفرانه أبداً هو «حبها المغدور» وتحطيم وتلطيخ أملها في «عاطفة صافية حارقة». لكن، بعد كل حساب، ماذا يمكن للمرء أن يتوقع عندما يصبح واضحاً، آخر الأمر، أن كل شيء كان «كذبة قذرة» رغم الكلمات المهموسة سراً لحظة الفراق («قبل الفجر، بكل تأكيد...»).
حدّقت من غير أمل، لكن توقها ظل معانداً، حدقت في المطر عبر الفجوة الضخمة التي كانت مدخل هذا القصر ذات يوم فانقبض قلبها وانطوى جسدها كله وتهدلت خصلات شعرها المشعثة فغطت وجهها المعذب. لكن همس إرمياس الرقيق ظل يرنّ في أذنيها... مهما حاولت التركيز على تعطشها إلى الانتقام بدلاً من حزن القبول المؤلم بالواقع المرير... وظلت ترى في خيالها جسده الطويل العريض الصلب الذي يفرض الاحترام؛ كانت ترى انحناءة أنفه القوية الواثقة، وشفتيه الرقيقتين الناعمتين، وألق عينيه الذي لا سبيل إلى مقاومته، وكانت تشعر من وقت لآخر كأن أصابعه الرقيقة تلعب، غير واعية، بشعرها... وتشعر بدفء كفيه على ثدييها وفخذَيها، وكانت كلما سمعت صوتاً بسيطاً تتخيل أنه جاء، وهكذا (عندما عاد الآخرون ورأت في وجوههم التعبير الجنائزي المر نفسه الذي أحست به على وجهها) انهار ما بقي من مقاومتها الأبية، طوَّح بها اليأس بعيداً.

«ماذا سيحل بي من غيره؟!... حباً بالرب... اتركني إذا كان عليك أن تتركني لكن،... لكن ليس الآن!... ليس بعد!... ليس في هذا الوقت!... ساعة واحدة فقط!... دقيقة واحدة!... لا يهمّني ما يفعله بهم، لكن أنا!... لن يفعل بي هذا!... فليجعلني عشيقة له! خادمة له!... طوع بنانه! ماذا يهمّني؟ فليركلني، وليضربني مثلما يضرب كلباً، هذه المرة فقط، فليعد هذه المرة فقط!». جلسوا عند الجدار يائسين واضعين وجباتهم المغلفة البسيطة أمامهم، وراحوا يمضغون طعامهم في الهواء البارد، هواء الفجر الذي يزداد سطوعاً، وفي الخارج، صدر صوت تحطّم كبير عن الكومة المهلهلة التي كانت ذات يوم برج الجرس في الكنيسة الصغيرة إلى يمين «القصر» (أيام كان فيها جرس)، ومن داخل ذلك المكان جاء صوت هدير مكتوم كأنما انهار في داخله سقف جديد... ما عاد لديهم شك في الأمر الآن، صار عليهم أن يقبلوا حقيقة عدم جدوى أي مزيد من الانتظار لأن إرمياس وعدهم أن يأتي «قبل بزوغ الفجر»، وقد صار الفجر خلفهم الآن. لكن أحداً منهم لم يجرؤ على كسر الصمت أو التفوّه بالكلمات الخطيرة «لقد خُدعنا تماماً» لأنه كان من الصعب كثيراً عليهم النظر إلى «منقذنا إرمياس» باعتباره كاذباً قذراً و«لصّاً وضيعاً»، فضلاً عن أن ما حدث حتى ذلك الوقت كان لا يزال شيئاً غامضاً على نحو ما... ماذا لو أن أحداً أخّر وصول إرمياس من غير توقّع... أو لعله تأخر بسبب سوء الطريق أو بسبب المطر، أو بسبب... نهض كرانر واقفاً ومضى إلى البوابة، ثم جلس مستنداً إلى الجدار الرطب وأشعل سيجارة وراح ينظر متوتراً إلى الدرب المتفرّعة من الطريق المعبدة قبل أن يقف غاضباً وهو يضرب الهواء بذراعيه. جلس في مكانه من جديد وتكلم بصوت مرتعش إلى حد مفاجئ: «أصغوا إلي... إن لدي إحساساً... يقول... إننا... خُدعنا...» وعند سماع ذلك خفض الجميع أعينهم، حتى من كان يحدّق في الفراغ. كرر كرانر عبارته بصوت أكثر ارتفاعاً: «أقول لكم إننا خُدعنا». لم يتحرك أحد الآن، وظل

صدى كلماته القاسية يتردد مشؤوماً في ذلك الصمت المفزع. صرخ كرانر وقد خرج عن طوره تماماً وقفز واقفاً على قدميه: «ما مشكلتكم؟ هل أصابكم الصمم جميعاً؟ أليس لديكم شيءٌ يقال؟! ولا كلمة واحدة». زعق شميدت وقد اسودّ وجهه: «لقد قلت لكم... قلت لكم منذ البداية». كانت شفتاه ترتجفان وكان يشير إلى فوتاكي بإصبع الاتهام. قال كرانر بنبرة عنيفة: «هو الذي وعد... وعدنا بإقامة جنة عدن! ها هي... أنظروا جيداً! هذه هي جنة عدن! هذا ما جئنا إليه. اللعنة على ذلك الوغد البائس! لقد غرّر بنا، وجاء بنا إلى هذا المكان المقفر... بينما كنا نحن... كنا كالأغنام...». التقط شميدت كلام رفيقه: «بينما انطلق هو سعيداً في الاتجاه المعاكس! من يعرف أين هو الآن؟ قد نمضي ما بقي من حياتنا في البحث عنه!...» «ومن يدري في أيّ حانة يقامر بنقودنا الآن؟!» تابع شميدت بصوت مرتجف: «إنه عمل سنة كاملة. سنة كاملة من الشقاء والتوفير! عدت الآن حيث كنت، من غير قرش واحد معي... عدت من جديد». بدأ كرانر يعلو ويهبط مثل حيوان في قفص وقد شدّ قبضتيه وراح يضرب الهواء من حين لآخر... «لكنه سيندم على هذا! سوف يندم كثيراً، ابن الحرام! ليس كرانر بالرجل الذي يترك أمراً كهذا! سأعثر عليه حتى لو بحثت عنه في كل زاوية وحفرة وأقسم أنني سأخنقه بيديَّ العاريتين هاتين... بيديَّ هاتين...» رفع يديه أمام الجميع. رفع فوتاكي يده مستعجلاً، متوتراً: «ليس بهذه السرعة! لا تسرع في إلقاء التهديدات! ماذا لو ظهر بعد دقيقتين؟ أين سيؤدي بك هذا الصراخ كله عند ذلك؟ قل لي!» وثب شميدت واقفاً على قدميه: «أوَتجرؤ على فتح فمك؟ أوَتجرؤ على قول كلمة واحدة؟! أتسألني إلى أين سيؤدي بنا هذا؟! يجب أن أشكرك أنت لأن مالي قد سُرق! من أشكر غيرك؟» مضى كرانر إلى فوتاكي ونظر عميقاً في عينيه. قال فوتاكي: «انتظر!» واستنشق نفساً عميقاً. أجابه شميدت: «لا بأس! سننتظر دقيقتين! سننتظر دقيقتين كاملتين! وعندها

سنرى... وما سيكون سيكون». شدّ كرانز شميدت وأخذه معه فوقفا معاً عند عتبة المدخل الرئيسي. وقف كرانز مباعداً بين ساقيه وهو يتأرجح أماماً وخلفاً. قال شميدت ساخراً وهو يستدير صوب فوتاكي: «نعم، صرنا جاهزين الآن! وها هو قادم... هل تسمعني؟! لقد أتى منقذك! أنت، أيها الحقير البائس». قطع كرانز كلام شميدت وهو يشد على ذراعه: «اسكت! فلننتظر حتى تنتهي الدقيقتان، وعند ذلك سنرى ما يقول، سنرى ما يجود به فمه الكبير». أسند فوتاكي رأسه على ركبتيه. حل صمت مطبق. كانت السيدة شميدت جالسة منكمشة في الزاوية، كانت مذعورة. غصّ هاليكس غصّة كبيرة، ولأنه كانت لديه فكرة غامضة ما عما يمكن أن يحدث قال بصوت لا يكاد يسمع: «هذا رهيب حقاً... رهيب أننا حتى في مثل هذا الوقت... في وقت كهذا... أقصد، كل منا...» نهض مدير المدرسة واقفاً وخاطب كرانز محاولاً تهدئته: «أيها السادة، ما هذا كله!؟ هذا ليس حلاً! فكروا في الأمر!» قال له كرانز بصوت هامس كالفحيح: «اخرس أيها الحمار». جلس المدير مسرعاً عندما رأى النظرة التي في عيني كرانز. سأل شميدت بصوت ثقيل وهو يدير ظهره إلى فوتاكي محدقاً في الدرب: «إذن... يا صديقي؟ هل انتهت الدقيقتان؟» رفع فوتاكي رأسه واحتضن ركبتيه: «قل لي... ما الغاية من هذا الدور الذي تلعبه؟ أتظن حقاً أنني أستطيع أن أفعل شيئاً؟» صار وجه شميدت أحمر كالشمندر: «ومن أقنعني إذن عندما كنا في الحانة؟ هاه؟» ثم انحنى ببطء فوق فوتاكي... «من الذي ظل يقول لي إن علي أن آخذ الأمر ببساطة لأن الأمر كذا وكذا، ولأن كل شيء سيسير على ما يرام، هاه؟» «هل فقدت عقلك يا صديقي؟» أجابه فوتاكي بهذه الكلمات وقد بدأ يرتعش متوتراً... «هل أصابك الجنون؟» لكن شميدت صار واقفاً فوقه في تلك اللحظة فلم يستطع النهوض. زمجر شميدت: «أعد إليّ نقودي»... فتح عينيه المحمرَّتين على اتساعهما... «هل سمعت ما قلت؟ أعد إليَّ نقودي». ضغط فوتاكي

ظهره إلى الجدار: «لا معنى لطلب النقود مني! عد إلى رشدك!» أغمض شميدت عينيه: «أقولها للمرة الأخيرة، أعد إليَّ نقودي» صاح فوتاكي: «اسمعوا جميعاً... أبعدوه عني، لقد أصابه الـ...» لكنه لم يستطع إكمال ما كان يقوله لأن شميدت ركله في وجهه بكل قوته. ارتدَّ فوتاكي إلى الخلف وظل لحظة ساكناً في مكانه تماماً، وبدأ الدم يندفع من أنفه، ثم انزلق بطيئاً وسقط على جانبه. في هذه الأثناء، كانت النساء وهاليكس ومدير المدرسة قد قفزوا جميعاً ولووا ذراع شميدت خلف ظهره ثم جروه بعيداً بصعوبة كبيرة لأنه كان يقاومهم مقاومة عنيفة. ابتسم كرانر متوتراً وهو يقف في المدخل مصالباً ذراعيه، ثم تحرك صوب شميدت. كانت السيدة شميدت والسيدة كرانر والسيدة هاليكس تصرخن جميعاً وتصخبن مذعورات من حول فوتاكي الذي فقد وعيه إلى أن استجمعت السيدة شميدت شتات نفسها وأخذت خرقة ثم جرت إلى المدخل وغمستها في إحدى برك الماء وعادت راكضة بها. ركعت إلى جانب فوتاكي وبدأت تمسح وجهه، ثم استدارت إلى السيدة هاليكس المنتحبة وصرخت بها: «بدلاً من البكاء تستطيعين أن تفعلي شيئاً مفيداً كأن تجلبي خرقة أخرى، خرقة أكبر، لمسح الدم»... كان فوتاكي يستعيد وعيه تدريجاً... فتح عينيه وحدق أولاً في السماء بنظرة فارغة ثم إلى وجه السيدة شميدت القلق وهي منحنية فوقه. شعر بألم حاد فحاول الجلوس. صاحت به السيدة كرانر: «لا تفعل شيئاً بحق السماء! استلق في مكانك وابق هادئاً! إنك لا تزال تنزف». مددوه من جديد على البطانية وحاولت السيدة كرانر أن تمسح الدم عن ثيابه بينما ركعت السيدة هاليكس إلى جانبه وهي تصلي بهدوء. أنَّ فوتاكي وقال: «أبعدوا هذه الساحرة عني! لا أزال حياً...» كان شميدت يلهث في زاوية أخرى وقد ارتبك بشكل واضح؛ كان غارساً قبضتيه في بطنه كأن تلك هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها منع نفسه من الحركة. هز مدير المدرسة رأسه ووقف مع

هاليكس مديراً ظهره إلى شميدت حتى يسد الطريق أمامه إن حاول مهاجمة فوتاكي من جديد: «حقاً! حقاً، لا أستطيع تصديق ما أراه. أنت رجل ناضج! بم تفكر؟ أتذهب هكذا وتهاجم شخصاً ما؟ أتعرف بمَ أدعو هذا الأمر؟ إني أعتبره اعتداء، نعم، هكذا هو». أجابه شميدت وهو يصر على أسنانه: «اتركني وحدي، ابتعد عني». قال كرانر وهو يخطو مقترباً: «هذا صحيح! لا علاقة لك بالأمر. ما الذي يجعلك تدس أنفك في كل مكان؟ ثم إن ذلك المهرج كان يستحقها...» أجابه مدير المدرسة بصوت حاد: «اخرس أنت، أيها الوضيع! أنت... أنت الذي شجعه على فعل ذلك. أتظن أنني لا أسمع؟ من الأفضل لك أن تظل هادئاً». قال كرانر بنظرة قاتمة وهو يمسك بمدير المدرسة: «اسمع ما أقترحه عليك يا صاحبي... أقترح أن تبتعد قبل أن تخسر الفرصة... لا أنصحك بأن تتشاجر مع من...» وفي تلك اللحظة قاطعهم جميعاً صوت رنّان حاد واثق من نفسه: «ماذا يجري هنا؟» التفت الجميع صوب العتبة. أطلقت السيدة هاليكس صرخة فزع، وقفز شميدت واقفاً على قدميه، أما كرانر فتراجع خطوة إلى الوراء بحركة عفوية. كان إرمياس واقفاً هناك. كانت أزار معطفه الرمادي الداكن مغلقة حتى ذقنه، وكانت قبّعته مضغوطة على رأسه حتى غطّت حاجبيه. وكان واضعاً يديه عميقاً في جيبيه، وراح ينظر إلى المشهد بعينين ثاقبتين. تدلّت سيجارة من بين شفتيه. حل صمت حجري. حتى فوتاكي... اعتدل فجلس، ثم حاول الوقوف متمايلاً قليلاً، وأخفى الخرقة خلف ظهره لكن الدم ظل يقطر من أنفه. رسمت السيدة هاليكس إشارة الصليب على صدرها مذهولة، ثم أنزلت يدها سريعاً عندما رأت زوجها يشير لها بأن تكف عن ذلك فوراً. ردد إرمياس سؤاله بنبرة تهديد: «سألتكم عما يجري هنا؟» بصق السيجارة ووضع واحدة جديدة في زاوية فمه. وقف الجميع أمامه وقد طأطأوا رؤوسهم. قالت السيدة كرانر بصوت معتذر وهي تغتصب ابتسامة: «ظننا أنك لن تأتي...».

نظر إرمياس إلى ساعته ونقر على زجاجها بعصبية: «تقول إنها السادسة وثلاث وأربعون دقيقة. ساعتي مضبوطة». أجابته السيدة كرانر بصوت لا يكاد يسمع: «نعم، لكن... لكنك قلت إنك ستأتي ليلاً...» عبس إرمياس: «وماذا تظنوني... سائق تاكسي؟ إنني أبذل كل جهدي من أجلكم، ولم أنم منذ ثلاثة أيام، مشيت أربع ساعات في المطر، وكنت أسرع من لقاء إلى آخر حتى أعالج مختلف العقبات. بينما أنتم...» تقدم خطوة إلى الأمام. وألقى نظرة على هذا الفراش وذاك، ثم وقف أمام فوتاكي: «ماذا حدث لك؟» طأطأ فوتاكي رأسه خجلاً: «أنفي ينزف». «أستطيع رؤية هذا لكن كيف؟» لم يجبه فوتاكي. تنهد إرمياس وقال: «انظروا جميعاً... ليس هذا ما توقعته منكم يا أصدقائي، لم أتوقع هذا من أيّ واحد منكم». ثم استدار صوب الآخرين متابعاً كلامه... «إذا كنتم تبدأون هكذا فماذا تظنون أنكم فاعلون بعد ذلك؟ هل يطعن كل منكم الآخر؟ اسكت...»، أشار بيده إلى كرانر الذي أراد أن يقول شيئاً... «لا يهمني سماع التفاصيل. لقد رأيت ما فيه الكفاية. هذا أمر محزن... أقول لكم... أمر محزن تماماً». راح يسير أمامهم جيئة وذهاباً وقد اكتسى وجهه مظهراً جدياً؛ وعندما عاد إلى مكان وقوفه الأصلي في المدخل استدار فواجههم من جديد: «اسمعوا... ليست لدي أي فكرة عما حدث هنا بالضبط. ولا أريد أن أعرف هذا لأن الوقت أثمن من أن أهدره على التعامل مع أمور تافهة من هذا النوع. لكني لن أنسى. لن أنساك أنت خاصة يا فوتاكي، يا صديقي، لن أنساك. إنما سأتغاضى عن الأمر هذه المرة... بشرط واحد: بشرط ألّا يحدث هذا مرة أخرى. هل هذا واضح؟» انتظر منهم إجابة، ومسح حاجبه بيده، ثم تابع كلامه وقد اكتسى وجهه مظهراً مهموماً: «لا بأس، فلنتحدث في العمل». سحب نفساً عميقاً من البقية الضئيلة الباقية من سيجارته ثم رماها وداس عليها... «لدي بعض الأخبار الهامة». كأنهم بدأوا في تلك اللحظة يخرجون من دائرة السحر المشؤوم. صحوا في لحظة واحدة،

لكنهم ظلوا غير قادرين على فهم ما أصابهم في الساعات القليلة الماضية: ما القوة الشيطانية التي استولت عليهم فخنقت فيهم كل رشاد وعقل؟ ما الذي دفع بهم إلى فقدان رشدهم حتى راح يهاجم أحدهم الآخر «مثل خنازير قذرة تأخّر إطعامها» ما الذي جعل من الممكن أن يندفع أناس مثلهم ـ أناس تمكنوا آخر الأمر من الإفلات من سنوات العجز التي بدت أبدية ليتنفسوا هواء الحرية المدوخ ـ ... يندفعوا في يأس مجنون مثلما يفعل سجناء في قفص... حتى غشيت أبصارهم؟ ماذا يمكن أن يكون تفسير أنهم لم يروا إلا الوجه المقفر المقرز الخَرِب لموطنهم الموعود ويفقدوا تماماً كل أثر للوعد القائل إن «ما سقط سينهض من جديد»؟ كان ذلك أشبه بالاستيقاظ من كابوس. تحلقوا حول إرمياس في دائرة صغيرة، كان خجلهم أقوى من إحساسهم بالانفراج لأنهم... في نفاد صبرهم الذي لا يُغتفر... سمحوا لأنفسهم بالشك في الرجل الوحيد الذي يستطيع إنقاذهم، في الرجل الذي حفظ وعده (وإن كان قد تأخر بضع ساعات... ساعات قليلة فقط)، رجل يدعوهم كل شيء إلى الشعور نحوه بالامتنان؛ وزاد في عذابهم، عذاب خجلهم، إدراكُهم أنه لا يعرف أبداً إلى أي حد ذهبوا في الشك فيه وفي تلويث اسمه واتهامه بمختلف أنواع الجرائم... رجل «خاطر بحياته» من أجلهم، رجل واقف بينهم الآن كأنه برهان حي على زيف ادعاءاتهم وبطلان اتهاماتهم. وهكذا، بهذا العبء الثقيل على ضمائرهم، راحوا يصغون إليه بثقة أكبر من ذي قبل وأكثر رسوخاً، وكانوا يهزّون رؤوسهم متحمسين حتى قبل أن يعرفوا ما يريد قوله، وخاصة كرانر وشميدت اللذين كانا مدركَين فداحة خطيئتهما رغم أن «الظروف التي تغيّرت وصارت أقل ملاءمة» التي كان إرمياس يشير إليها الآن يمكن أن تكون قد عكّرت مزاجهما بعض الشيء... فقد اتضح أن «خططنا في ما يتعلّق بقصر وعزبة آلماسي يجب تعليقها الآن، ولمدة غير معلومة» لأن هنالك بعض الناس «غير المتحمسين» لإقامة مشروع هنا «لا تزال الغاية

منه غير واضحة بعد»، وقد اعترضوا خاصة (هكذا قال إرمياس)... على المسافة الكبيرة الفاصلة بين العزبة والبلدة والتي من شأنها أن تجعل الوصول إلى هذا المكان أمر غير عملي بالنسبة إليهم، وهذا ما يقلل بدوره من إمكانية التفقد المنتظم «للمشروع» بحيث يصبح إجراء الحد الأدنى من ذلك التفقد أمراً صعباً. تابع إرمياس كلامه وقد تعرق قليلاً، لكن صوته ظل رناناً: «بالنظر إلى هذا الوضع، فإن إمكانية الوصول بخططنا إلى النهاية الناجحة، أو الطريق الوحيد الممكن من أجل التقدم إلى الأمام، هي أن نتفرّق في أجزاء مختلفة من البلاد ريثما يفقد هؤلاء السادة كل أثر لنا، وعند تلك اللحظة نستطيع أن نعود لنبدأ تحقيق أهدافنا الأصلية»... فهموا الآن مدى «أهميتهم الخاصة بالنسبة لمجرى الأمر كله» وازداد اعتزازهم بأنفسهم خاصة بعد أن أدركوا ذلك الامتياز الثمين المتمثل في كونهم «القلة المختارة»، وأعجبهم ذلك الاعتراف بما لديهم من صمودٍ وجدٍّ وجَلَدٍ ويقظة... خصائص كثيرة من الواضح أنه لا يمكن الاستغناء عنها. وإذا كان فهمهم قاصراً عن إدراك بعض جوانب الخطة (وخاصة جمل من قبيل «تشير أهدافنا إلى شيء يتجاوز نفسه»)، فقد اتضح لهم على الفور أن تفرقهم هذا ليس إلا «حيلة استراتيجية»، وحتى إذا فقدوا كل اتصال في ما بينهم بعض الوقت فسوف يظلون على اتصال مستمر حي بإرمياس نفسه... رفع السيد صوته قائلاً: «لكن لا يجوز لأي منكم أن يظن أننا نستطيع الاكتفاء بالجلوس في انتظار أن تتحسن الأشياء من تلقاء نفسها مع مرور الوقت». أدركوا، بدهشة زالت عنهم سريعاً أن مهمتهم الآن كامنة في المراقبة اليقظة التي لا تهدأ لكل ما يحيط بهم، وهذا يعني أن عليهم أن يسجلوا بدقة كل ما يسمعونه من آراء وشائعات وأحداث لأنها «انطلاقاً من زاوية اتفاقنا يمكن أن تكون ذات أهمية قصوى»، وفهموا أن عليهم أن يطوِّروا جميعاً مهارة لا يستطيعون الاستغناء عنها ألا وهي القدرة على التفريق بين العلامات المواتية والعلامات غير المواتية

أو، بكلمات بسيطة، «معرفة الخير من الشر» لأنه ـ أي إرمياس ـ يأمل مخلصاً في ألا يظن أحد منهم أن من الممكن أن يتقدّم خطوة واحدة إلى الأمام على المسار الذي كشفه أمامهم بهذا التفصيل كله من غير أن يتحلّى بقدرة التمييز هذه... وعندما سأله شميدت «وبأي شيء نعيش خلال ذلك؟»، طمأنه إرمياس: «اطمئنوا كلكم، اطمئنوا، خططت لكل شيء وفكرت في كل شيء، سوف يكون لديكم عمل، كلكم... وعلى سبيل البداية ستكونون قادرين على سحب بعض المال من أجل احتياجات الحياة الأساسية من المبالغ المشتركة المتراكمة»، وأخيراً اختفت آخر آثار الذعر الذي أصابهم في الصباح الباكر، اختفت دفعة واحدة ولم يبق عليهم غير أن يحزموا متاعهم وينقلوه إلى نهاية الممر حيث وقفت على الطريق المعبدة شاحنة صغيرة تنتظرهم ومحرّكها لا يزال يعمل... وهكذا عادوا فحزموا أمتعتهم بسرعة محمومة، وبعد ارتباك وجيز راحوا يثرثرون ويقولون، كلٌّ للآخر، إن شيئاً لم يحدث؛ وضرب هاليكس أفضل مثال إذ بدأ يحمل في يده حقيبة مرة وكيساً مرة أخرى ويتبع كرانر الذي صار الآن أشبه بالدب، أو يتبع هيكل زوجته الرجولي السائر بخطى واسعة، فيتسلل خلفهما مثل قرد صغير ويقلّد حركاتهما، وبعد فراغه من أمتعته نقل أمتعة فوتاكي الذي كان يتمايل في مشيته على الطريق غير واثق من خطواته، وكان يقول له: «الصديق وقت الضيق...» وعندما أنجزوا نقل كل شيء إلى الطريق، كان «الطفل» قد أفلح في إدارة السيارة في الاتجاه المعاكس (تنازل إرمياس بعد توسلات كثيرة، فسمح له بالجلوس خلف المقود)، ولم يبق لهم بعد ذلك شيءٌ غير إلقاء نظرة وداع سريعة صامتة على «القصر» الذي سيكون مستقبلهم، وكذلك اتخاذ أماكنهم في الشاحنة المفتوحة. مد بيترينا رأسه عبر نافذة السيارة: «إذن، يا رفاقي الأعزاء، أرجو أن ترتبوا وضعكم بحيث تأخذنا وسيلة النقل السريعة العجيبة هذه إلى وجهتنا في أقل من ساعتين! زرّروا معاطفكم وضعوا قبعاتكم

وتمسّكوا جيداً ولكم أن تديروا ظهوركم إلى أمل مستقبلكم الكبير لأنكم إن لم تفعلوا هذا فسوف تتلقون هذا المطر القذر كله في وجوهكم. شغلت الأمتعة نصف صندوق الشاحنة فلم يكن المكان الباقي يتسع لأكثر من جلوسهم متلاصقين تماماً في صفين اثنين، وما كان مفاجئاً في شيء أن تعود إليهم الحماسة نفسها، عندما شغَّل إرمياس المحرك وتحركت السيارة متخذة طريق العودة إلى البلدة، وكذلك دفء «الروابط الوثيقة بينهم» التي زينت نكهتها الحلوة رحلتهم في اليوم الماضي. كان كرانر وشميدت واضحَيْن تماماً في التعبير عن تصميمها على ألا يسمحا أبداً من جديد لنوبات الغضب الغبية بأن تأخذهما، وقالا إنهما، إن حدث أي خلاف في المستقبل، سيكونا أول من يتدخّل لإيقافه. حاول شميدت أن يشير إلى فوتاكي، وسط هذا الصخب المازح كله، ليجعله يفهم أنه «عميق الأسف لما فعل» (ذلك لأنه «فشل» في «مصادفته» في الطريق من ناحية، ولأن الشجاعة اللازمة لذلك أعوزته من ناحية أخرى)، ثم قرر الآن أن يقدم له «سيجارة على الأقل»، لكنه وجد نفسه محصوراً بين هاليكس والسيدة كرانر وكلاهما ضخم الجثة لا يمكن زحزحته. قال مواسياً نفسه: «لا بأس! سأفعل ذلك عندما نترجّل من هذه الشاحنة الملعونة... لا يمكن أن نفترق متخاصمَيْن هكذا». كان وجه السيدة شميدت محمراً وعيناها لامعتين وهي تراقب العزبة المبتعدة سريعاً عنهم، وذلك المبنى الضخم الذي كسته الأعشاب ونباتات اللبلاب، وأبراجه الأربعة البائسة البارزة عند الزوايا، في حين كانت الطريق المعبدة التي تحف بها تلال صغيرة من الجانبين تمضي حتى تختفي في اللانهاية، أثارتها وأراحتها كثيراً عودة حبيبها إلى درجة جعلتها غير منتبهة إلى الريح والمطر يصفعان وجهها، رفعت قبعة معطفها فوق رأسها رغم أنها لم تكن قادرة على حمايتها من شيء لأنها وجدت نفسها، في خضم ذلك الاضطراب المربك، جالسة في آخر الصف الخلفي. لم يكن هناك شك، ولا كانت تشعر بأي شك الآن؛

لا يمكن لأي شيء أن يهز ثقتها بإرمياس من الآن فصاعداً. لم يعد الأمر مثلما كان من قبل لأنها فهمت مستقبلها وهي جالسة هنا في آخر الشاحنة المسرعة: عرفت أنها ستتبعه مثل ظل غريب، كما في الأحلام، حبيبة له تارة وخادمة له تارة أخرى، في فقر مدقع إن اقتضى الأمر، وهكذا ستولد من جديد مرّةً بعد مرة؛ سوف تحفظ حركاته كلها، والمعاني الخفية لكل تغيّر في صوته، وسوف تترجم أحلامه، وإذا أصابه أذى ـ لا سمح الله ـ فسوف يكون حضنها مستراحاً لرأسه... سوف تتعلّم كيف تكون صبورة وتنتظر، وكيف تستعد للمحن، وإذا شاء القدر أن يهجرها إرمياس ذات يوم، أن يهجرها إلى الأبد ـ ماذا يمكنه أن يفعل غير هذا؟ ـ فسوف تنفق أيامها الباقية بهدوء وتحيك كفنها وتمضي إلى قبرها معتزة بنفسها عارفة أن القدر أعطاها «رجلاً عظيماً، رجلاً حقيقياً»، ليكون حبيباً لها... ما كان لابتهاج هاليكس أي حدود، كان محشوراً إلى جانبها: لا المطر ولا الريح ولا تأرجح الشاحنة وقعقعتها، ولا حتى أيّ منغصات كانت قادرة على كسر روحه المعنوية: كانت قدماه المتقرّنتان المتيبستان متجمدتين في حذائه، ومن حين لآخر كانت المياه المتجمعة فوق مقصورة السائق تنصبّ في رقبته من الخلف، وكانت هبّات الريح القوية الآتية من جهة جانب الشاحنة تجعل عينيه تدمعان، لكنه كان مبتهجاً لا بسبب عودة إرمياس فحسب بل أيضاً بسبب متعة السفر نفسها لأنه، مثلما كرر كثيراً في الماضي، «لا يستطيع مقاومة متعة السرعة المدوخة»، وها هي الآن فرصته الكبرى ليحظى بهذه المتعة، الآن مع اندفاع إرمياس متجاهلاً الحفر الخطيرة كلها، والخندقين إلى جانبي الطريق، كان ضاغطاً بقدمه على دواسة البنزين إلى أقصاها، وهذا ما جعل هاليكس (كلما تمكن من فتح عينيه، ولو قليلاً جداً) مبهوراً برؤية المشهد المندفع بسرعة مدوّخة، وسرعان ما وضع خطة (لأن الوقت لم يتأخر بعد، بل إنه الوقت المناسب تماماً) لتحقيق واحد من أحلامه العزيزة عليه منذ زمن طويل، وراح يبحث

عن كلمات تستطيع إقناع إرمياس لمساعدته في تحقيق ذلك الحلم، ثم خطر في باله فجأة أن سائق السيارة مضطر إلى رفض الفرص التي يجدها ـ يا للحسرة ـ شديدة الجاذبية «بالنظر إلى تقدمه بالسن»... وهذا ما جعله يقرر أن يكتفي بأن يستمتع بمباهج الرحلة قدر ما يستطيع، وفي ما بعد، مع كأس ودية، يمكنه أن يشرح التفاصيل كلها لأصدقائه الجدد المتوقعين لأنه كان يتخيل هذا كله تخيلاً فحسب بسبب «افتقاره إلى الخبرة الحقيقية» حتى الآن. وكانت السيدة هاليكس الشخص الوحيد الذي لم يجد شيئاً ممتعاً في «هذه الاندفاعة المجنونة» لأنها كانت، عكس زوجها، متشددة ضد أي نوع جديد من أنواع الحماقة، ولأنها كانت واثقة تماماً من أنهم سيكسرون أعناقهم إذا واصلوا السير على هذا النحو، وهذا ما جعلها تغمض عينيها وتصلي فزعة طالبة من الرب أن يحميهم جميعاً وألا يتركهم في ساعة الخطر هذه، ورغم محاولاتها الكثيرة لإقناع الآخرين بأن يفعلوا مثلها («باسم مخلصنا يسوع المسيح، أرجوكم قولوا لهذا المعتوه أن يخفف السرعة قليلاً!») لكن أحداً منهم لم يكن يلقي بالاً إلى السرعة المجنونة أو إلى تمتماتها المذعورة، بل على العكس من ذلك «بدوا كأنهم مستمتعون بالخطر». وأما الزوجان كرانر، بل حتى مدير المدرسة، فكانا مبتهجين كالأطفال يستندان مزهوَّين إلى ظهر الشاحنة، ينظران كما ينظر السادة الكبار إلى الأرض الجرداء تندفع طائرة فتتجاوزهما. كانت الرحلة مثلما توقعاها تماماً، سريعة كالريح... سرعة تخدّر الذهن، وتجتاز كل عقبة... لا يستطيع شيء أن يقف في وجهها! كانا مزهوَّين برؤية المشهد يختفي في الضباب، وكانا معتزَّين بأنهما استطاعا أن يتركاه خلفهما، ليسا مثل المتسولين البائسين الذين بقوا هناك ـ مهلاً ـ كان رأساهما مرفوعَيْن، ممتلئين ثقة، منتصرَيْن... لم يأسف أحد منهم عندما مرّوا بمزرعتهم القديمة وبلغوا مركز عمّال إصلاح الطرق عند المنعطف الطويل إلا على أنهم لم يلمحوا، في اندفاعهم السريع ذاك، أسرة هورغوس أو الأعمى

كيريكس أو صاحب الحانة وقد صار وجهه قرمزيّ اللون لشدة الحسد... ربَّت فوتاكي برفق على أنفه المتورِّم واعتبر نفسه محظوظاً لأنه «نفد بجلده» من غير أن يصيبه ما هو أسوأ من هذا، لم تسعفه الجرأة للمس أنفه إلى أن زال الألم الحاد تماماً، ولم يكن قادراً على معرفة إن كان أنفه مكسوراً أم لا. لم يستطع السيطرة على تفكيره حتى الآن، بل كان يشعر بالدوار وبشيء من الغثيان. كان ذهنه يخلط بين صورة وجه شميدت المزرقّ المعوجّ وصورة كرانر الواقف خلفه، مستعداً للوثب، وصورة نظرة إرمياس العنيفة، نظرة أحس بأنها تحرقه حرقاً. ومع التراجع البطيء للألم في أنفه انتبه إلى إصابات أخرى: كان جزء من أحدى أسنانه الأمامية مكسوراً، وكان جلد شفته السفلى مشقوقاً. ولم يستطع إلا بالكاد أن يسمع كلمات مدير المدرسة المواسية... كان محشوراً إلى جانبه... «لا يجوز أن تحمل شيئاً في قلبك. فكما ترى، انتهى كل شيء نهاية حسنة...»، وذلك بسبب الطنين في أذنيه ولأن الألم جعله يدير رأسه هذه الناحية تارة وتلك الناحية تارة أخرى غير عارف أين يبصق الدم المالح في فمه، ولم يشعر بأنه تحسن قليلاً إلا عندما لمح الطاحون المهجور وسقف بيت هاليكس المتهاوي لكنه لم يستطع أن يرى غرفة المحركات مهما تلفّت وتلوّى لأنه لم يفلح في اتخاذ الوضعية المناسبة قبل أن يصيروا قبالة الحانة. ألقى نظرة محترسة في اتجاه شميدت المقرفص في السيارة، ثم اعترف لنفسه بأنه (مهما بدا ذلك غريباً) لم يكن يشعر بأي غضب تجاهه على الإطلاق؛ كان يعرف الرجل معرفة جيدة، وكان يعرف دائماً أنه سريع الغضب وهكذا سامحه من كل قلبه (قبل أن تخطر في باله أي فكرة من أفكار الانتقام)، وقرر أن يطمئنه في أقرب فرصة ممكنة لأنه يستطيع أن يحزر حالته الذهنية. جلس يراقب الأشجار تتجاوزه مندفعة على جانبَي الطريق... جلس ينظر إليها بشيء من الحزن وأحسّ بأن كل ما حدث في «القصر» كان لا بد أن يحدث. جعلته الضجة، والريح الصافرة، والمطر

الذي كان يصيبهم من وقت لآخر، يصرف انتباهه ... بعض الوقت... بعيداً عن شميدت وعن إرمياس أيضاً. وبصعوبة كبيرة، أخرج سيجارة وانحنى إلى الأمام ونجح في إشعالها بعد أن غطى عود الكبريت بكفّه. كانوا قد خلفوا الحانة والمزرعة خلفهم بمسافة بعيدة فقدّر أنهم صاروا على مسافة بضع مئات من الأمتار فقط من المولد الكهربائي، وهذا يعني أنهم على نحو نصف ساعة من البلدة. لاحظ مقدار اعتزاز مدير المدرسة وكرانر (الذي كان جالساً إلى جانبه مباشرة) وهما يديران وجهيهما إلى اليمين وإلى اليسار كما لو أن شيئاً لم يحدث، كأن كل ما حدث في العزبة لا يستحق الذكر، وأنه شيء يمكن نسيانه سريعاً. أما من ناحيته، فما كان واثقاً أبداً من أن وصول إرمياس قد حلَّ مشكلاتهم كلها. ومع أن ظهوره واقفاً بالباب قد غيّر كل شيء بالنسبة لهم بعد أن استولى اليأس عليهم، فإن كل ذلك الاندفاع المجنون بعدها، وكذلك هذه السرعة العجيبة في طريق مهجورة، لم يكن أبداً ـ في نظر فوتاكي ـ إثباتاً على أنهم مندفعون إلى مكان بعينه؛ بدا له الأمر أكثر شبهاً بحالة فرار جماعي، «اندفاع أعمى، غير واثق، صوب المجهول»، اندفاع لا معنى له... على نحو ما: لم تكن لديهم أي فكرة عما ينتظرهم... إن كان لهذا الاندفاع المجنون أن يتوقف أصلاً! كان في انعدام وجود أي إشارة إلى ما خطّط له إرمياس موحياً بالشؤم: لم يستطع أن يعرف السبب الذي خلق عندهم هذا الذعر كله والتوق إلى ترك «القصر»، وللحظة وجيزة تذكر صورة مخيفة لم يستطع نسيانها في يوم من الأيام على مَرّ هذه السنين كلها: رأى نفسه مرة أخرى في معطفه العتيق، متكئاً على عصاه، جائعاً، محبَطاً من غير نهاية، سائراً على الطريق المعبَّدة، وكانت المزرعة تختفي في ظلمة الغسق من خلفه ولا يزال الأفق أمامه ممتداً من غير وضوح أبداً... وبدا له الآن، وقد خدَّر ارتجاج الشاحنة حواسه، أن أسوأ هواجسه يغدو حقيقة: من غير نقود، جائعاً، محطَّم الجسم، هكذا كان... جالساً في صندوق شاحنة ظهرت من

لا مكان، منطلقاً على طريق يعرف الرب وحده منتهاها، سائراً إلى المجهول؛ وإذا قيّض لهم أن يصلوا إلى مفترق طرق فإنه سيكون غير قادر على اختيار الطريق لأنه كان عاجزاً متقبلاً لحقيقة أن قدره يقرر في مكان آخر، قدرًا تصنعه شاحنة عتيقة صاخبة مهتزة لا يستطيع التحكم فيها أبداً. فكّر حزيناً: «يبدو أن ما من مهرب أمامي! هذه الطريق أو تلك... إنني خاسر في الحالين. سوف أستيقظ غداً في غرفة غريبة حيث لا أعرف ما ينتظرني، وسيكون الأمر كما لو أنني صرت وحيداً... سأضع حوائجي القليلة على طاولة قرب السرير، إن كان قرب السرير طاولة، وسأكون هناك محدِّقاً من النافذة وقت الغسق أنظر إلى ضوء النهار يذوي من جديد...» صدمه إدراكه أن يقينه بإرمياس قد اهتز لحظة رآه يجتاز مدخل «القصر». «لعله... لو لم يعد وقتها... لعله كان ممكناً أن يبقى عندي شيء من الأمل... أما الآن؟» هناك، في «القصر»، أحس بالخيبة المختفية جيداً خلف الكلمات، ورأى (حتى عندما كان إرمياس واقفاً عند الشاحنة ينظر إليهم وهم يضعون متاعهم فيها) كيف كان مطأطئاً رأسه... رأى أن هناك شيئاً فيه قد اختفى، ضاع إلى الأبد!... صار كل شيء واضحاً الآن... فجأة. تلك الطاقة والقوة التي كانت عند إرمياس ذات يوم لم تعد موجودة؛ لقد فقد أخيراً «ناره القديمة»؛ كان يملأ الوقت فحسب، هو أيضاً، مدفوعاً بفعل العادة وحدها؛ وعندما أدرك فوتاكي هذا فهم أن الحديث الذي جرى في الحانة، بكل ما اشتمل عليه من ألاعيب خطابية، ما كان إلا طريقة يخفي بها إرمياس عن أعين من لا يزالون يؤمنون به حقيقة أنه عاجز مثلهم تماماً وأنه فقد كل أمل في أن يجد معنى للقوة التي تخنقه، مثلما تخنقهم، القوة التي لم يستطع إرمياس أيضاً تخليص نفسه منها. كان أنفه ينبض ألماً، ورفض الغثيان أن يتركه، حتى السيجارة لم تستطع مساعدته في شيء فرماها من غير أن ينهيها. اجتازوا الجسر فوق «المستنقع»... ماءٌ راكد كسته النباتات وبيوض الضفادع، ماءٌ ساكنٌ تماماً... صارت أشجار

الأكاسيا على جانبيْ الطريق أكثر كثافة، بل ظهرت أيضاً في البعيد أبنية في مزرعة مهجورة أو اثنتين وقد أحاطت بها الأشجار. توقف المطر لكن الريح صارت تضربهم بقوة أكثر من ذي قبل... قلقوا من أن تُسقط تلك الريح بعضاً من متاعهم المتكوِّم في الشاحنة. لم يروا ولم يسمعوا في هذا الوقت شيئاً يشير إلى وجود بشر من حولهم، أدهشهم أنهم لم يروا أحداً على الإطلاق... لم يروا أحداً حتى عندما بلغوا مفترق الطرق عند إيليك على الطريق المؤدية إلى البلدة. صاح كرانر: «ما حكاية هذا المكان؟ هل أصابهم الطاعون؟» لكنهم اطمأنوا عندما رأوا شخصين في معطفَيْن مطريَّيْن يلفّ كل منهم الآخر بذراعيه عند مدخل حانة «الميزان»؛ وبعد ذلك انعطفوا نزولاً في الطريق المؤدية إلى الساحة الرئيسية وأعينهم الظمئة تشرب شرباً تلك البيوت المنخفضة والستائر المسدَلة والمزاريب العجيبة والمداخل المصنوعة من الخشب المحفور: كان ذلك يشبه الخروج من السجن. كان الوقت يمر سريعاً، وقبل أن يستوعبوا المشهد من حولهم، توقفت الشاحنة في منتصف الساحة الواسعة أمام محطة القطار. أخرج بيترينا رأسه من الشاحنة وصاح: «هيا يا ناس، هذه نهاية رحلتكم السياحية». هَمّوا بالنزول من الشاحنة، لكن إرمياس ترك مقعد السائق واقترب منهم قائلاً: «انتظروا! الزوجان شميدت فقط، ثم الزوجان كرانر، ثم هاليكس. اجمعوا أمتعتكم! أنت يا فوتاكي، وأنت يا مدير المدرسة، انتظرا هنا!» قاد المجموعة الأولى سائراً بخطوات واثقة ثابتة، وسار أفراد القطيع من خلفه حاملين حقائبهم. دخلوا صالة الانتظار فوضعوا الأمتعة في الزاوية ووقفوا حول إرمياس. «لدينا وقت كافٍ لنتحدث عن كل شيء بهدوء. هل تشعرون ببرد شديد؟» قالت السيدة كرانر ضاحكة: «سوف ننام الليلة ونشخر شخيراً عجيباً. هل لديهم حانة في مكان قريب؟ يلزمني أن أشرب كأساً». أجابها إرمياس وهو ينظر إلى ساعته: «هنالك حانة بالتأكيد. تعالوا معي». كانت صالة الانتظار خالية إلّا

من واحد من موظفي السكك الحديد متكئ إلى طاولة كسيحة. بدأ إرمياس كلامه بعد أن شرب كل منهم كأساً من البالينكا: «شميدت ستذهب أنت وزوجتك إلى إيليك». أخرج محفظته، ثم أخذ منها ورقة وضعها في يد شميدت... «كل شيء مكتوب هنا: الشارع، والرقم، والشخص الذي يجب أن تبحث عنه، وهكذا. قل لهم إنني أرسلتكما. هل هذا واضح؟» هز شميدت رأسه: «واضح». تابع إرمياس: «قل لهم إنني سأمرّ عليكم بعد بضعة أيام لتفقد الوضع. وخلال ذلك سيعطونكم عملاً وطعاماً ومسكَناً. مفهوم؟» «أفهم هذا. لكن من هو ذلك الشخص؟ وما اتفاقك معه؟» قال إرمياس مشيراً إلى الورقة: «إنه قصّاب. وهنالك عمل كثير. أنت يا سيدة شميدت سوف تعملين على طاولة البيع. أما أنت يا شميدت فعملك أن تقدم المساعدة في أمور مختلفة. وأنا واثق من أنكما تستطيعان القيام بهذا». قال شميدت متحمّساً: «لك أن تراهن بحياتك على هذا». «عظيم! يأتي القطار بعد... فلنرَ...» نظر إلى ساعته من جديد... «نعم، بعد عشرين دقيقة تقريباً». استدار إلى كرانر وزوجته: «سوف تجدان عملاً في كيريزتور. لم أكتب كل شيء هنا، ولذلك عليكما أن تحفرا ما أقوله حفراً في الذاكرة. الرجل الذي تذهبان إليه اسمه كالمار، إستفان كالمار. لا أعرف اسم الشارع، لكن عليكما أن تذهبا إلى الكنيسة الكاثوليكية. هذا سهل لأن هنالك كنيسة كاثوليكية واحدة. وهنالك شارع إلى يمين الكنيسة... هل ستتذكران هذا كله؟ تمضيان في الشارع حتى تريا لافتة على اليمين كُتب عليها 'خياطة نسائية'. ذلك هو مكان كالمار. قولا له إن دونسي أرسلكما، واحرصا على تذكّر هذا الاسم لأنه لا يتذكر اسمي المعتاد. قولوا له إنكما في حاجة إلى عمل وطعام ومسكن. أخبراه بهذا على الفور. هناك غرفة للغسيل في آخر المحل يمكنكما النوم فيها. هل فهمتما؟» قالت السيدة كرانر مبتسمة: «فهمنا... الكنيسة، شارع إلى اليمين، نبحث عن اللافتة. لا مشكلة» ابتسم إرمياس: «يعجبني هذا». ثم

استدار صوب الزوجين هاليكس. «تذهبان أنتما الاثنان بالباص إلى بوستيليك. موقف الباص أمام المحطة في الساحة. وعند الوصول إلى بوستيليك عليكما البحث عن بيت القس الإنجيلي. اسألا عن القس غويفيكسان. هل ستنسيان الاسم؟» كررت السيدة هاليكس الاسم متحمسة: «غويفيكسان». «صحيح. قولا له إنني أرسلتكما. إنه يطالبني منذ سنوات بتأمين شخصَيْن للعمل عنده، ولا أستطيع أن أعثر على من هو أفضل منكما. هنالك متسع كبير في ذلك المكان، يمكنكما الاختيار. ولديهم نبيذ ممتاز يا هاليكس. أما أنت يا سيدة هاليكس فعليك تنظيف الكنيسة والطبخ لثلاثة أشخاص والاهتمام بالشؤون المنزلية». كان الزوجان هاليكس في غاية السعادة. قالت السيدة هاليكس وقد فاضت عيناها دموعاً: «كيف لنا أن نشكرك؟ لقد فعلت كل شيء من أجلنا». لوَّح إرمياس بيده: «هيا، هيا الآن! سيكون هناك الوقت الكافي للتعبير عن الشكر. استمعوا الآن إليَّ جميعاً. قبل كل شيء، وقبل أن ننتهي، سيحصل كل منكم على ألف فورينت من صندوقنا المشترك. احرصوا على هذه النقود جيداً، ولا تبددوها! لا تنسوا ما يجمعنا معاً! ولا تنسوا أبداً، ولا دقيقة واحدة، ما يتعين عليكم فعله هناك. عليكم أن تلاحظوا كل شيء ملاحظة دقيقة، في إيليك، وفي بوستيليك، وفي كيريزتور، لأننا لن نصل إلى شيء من غير ذلك. وسوف أزور هذه الأماكن الثلاثة بعد أيام قليلة حتى أتفقد أوضاعكم. وعند ذلك نتحدث في التفاصيل اللازمة. هل لديكم أسئلة؟» تنحنح كرانر ثم قال: «أظن أننا فهمنا كل شيء. لكن، هل يمكنني بشكل رسمي... أقصد... بكلمات أخرى... نود أن نشكرك على كل ما فعلته... من أجلنا، لأننا...» رفع إرمياس يده: «لا يا أصدقائي. لا لزوم للشكر. هذا واجبي»... تقدم خطوة إلى الأمام... «حان وقت فراقنا. لديَّ ألف شيء أفعله... لديَّ مفاوضات هامة». تأثر هاليكس كثيراً فقفز وصافحه قائلاً: «انتبه لنفسك! تعرف أن أمرك يهمنا كثيراً. ونريدك أن تبقى

صحيح الجسم قوياً». ابتسم إرمياس متحركاً صوب الباب: «لا تقلقوا عليّ! اهتموا بأنفسكم. ولا تنسوا: اليقظة الدائمة». خرج من باب المحطة ومضى إلى الشاحنة ثم أشار إلى مدير المدرسة: «اسمع! سوف ننزلك عند شارع ستيربر. اذهب واجلس في حانة إيبار، وسوف أعود إليك بعد ساعة تقريباً. سنتحدث أكثر عند ذلك. أين فوتاكي؟». أجاب فوتاكي وهو يظهر من خلف الشاحنة: «إنني هنا». «أنت...» رفع فوتاكي يده: «لا تهتم بي». نظر إليه إرمياس مصدوماً: «ماذا أصابك؟» «ماذا أصابني؟ لا شيء أبداً. لكني أعرف أين أذهب. هنالك من لديه عمل لي... حارس ليلي». أجابه إرمياس منزعجاً: «أنت شديد العناد دائماً. هناك أماكن أفضل من أجلك. لكن لا بأس، افعل ما تشاء. اذهب إلى ناغورومانفاروس، الحيّ الروماني القديم، وهناك تجد بناية إلى جانب حانة المثلث الذهبي. أنت تعرف مكانها، أليس كذلك؟ إنهم يريدون حارساً ليليًا هناك. وسوف يقدمون لك غرفة أيضاً. وسأعطيك ألف فورينت لتهتم بنفسك. تعشَّ جيداً. أقترح أن تذهب إلى حانة شتيغروالد، إنها على مسافة بصقة فقط، ولديهم طعام هناك». «أشكرك. أنت تحب فكرة البصاق!» كشَّر إرمياس: «الكلام معك مستحيل في هذه اللحظة. خذ أمتعتك. وكُن عند شتيغروالد الليلة. هل اتفقنا؟» مد يده لفوتاكي الذي صافحه متردداً وأخذ النقود بيده الأخرى، ثم حمل عصاه وانطلق متجهاً إلى شارع كوكوس تاركاً إرمياس واقفاً عند الشاحنة من غير أن يقول كلمة واحدة. صاح بيترينا خلفه من مقعد السيارة: «نسيت أمتعتك!» ثم قفز من مكانه وساعد فوتاكي في وضع حقيبتيه على ظهره. سأله مدير المدرسة مرتبكاً، ثم مد يده: «أليس هذا حِملاً ثقيلاً؟» أجابه فوتاكي بهدوء: «ليس كثيراً. إلى اللقاء». انطلق من جديد تاركاً إرمياس وبيترينا ومدير المدرسة و«الطفل» ينظرون إليه بحيرة، لكنهم عادوا إلى الشاحنة بعد ذلك... مدير المدرسة في الخلف... وتوجهوا إلى مركز البلدة. كان فوتاكي يتوقف من حين إلى آخر وهو

يشعر بأنه قد شارف على الانهيار تحت ثقل حقيبتيه. وعندما وصل إلى أول تقاطع طريق أنزل الحقيبتين وفك الحبال، وبعد تردد قصير، فكر قليلاً ورمى واحدة منهما في الخندق، وتابع سيره حاملاً الأخرى. تجول في الشوارع من غير هدف، شارعاً بعد الآخر، وكان يضع حقيبته من وقت لآخر حتى يستعيد أنفاسه ثم ينطلق من جديد وهو يشعر بالمرارة... ولو صادف في طريقه أحداً لطأطأ رأسه مخفياً وجهه لإحساسه بأنه، إذا نظر في عينَيْ شخص غريب، سوف يرى حظه العاثر أكثر سوءاً. لقد كان «قضية خاسرة» بعد كل حساب... «كم أنا غبي! كم كنت راسخ العزم يوم أمس، وكم كانت آمالي كبيرة! انظروا إليَّ الآن! ها أنا أسير متعثراً في الشارع بأنف مكسور وأسنان محطمة وجرح في شفتي، موحلاً مدمّى كأنما هو هذا الثمن الذي كان علي أن أدفعه لقاء غبائي... لكن، رغم ذلك... لا عدالة في أي شي... لا عدالة». ظل يكرر هاتين الكلمتين بكآبة متواصلة لازمته طيلة المساء إلى أن أطفأ النور في واحدة من سقائف المبنى المجاور لحانة المثلث الذهبي ونظر إلى صورته المشوّهة منعكسة على زجاج نافذة قذرة. كانت نظرته فارغة. قال بيترينا عندما مضوا بالشاحنة في الشارع المؤدّي إلى مركز البلدة: «ذلك الفوتاكي... إنه أكبر أحمق رأيته في حياتي... ماذا أصابه؟ أيظن أن هذه الأرض الموعودة؟ ماذا يظن نفسه فاعلاً بحق الشيطان؟! هل رأيت تلك التكشيرة على وجهه... مع ذلك الأنف المتورِّم؟» زمجر إرمياس: «اسكت يا بيترينا! أنت تواصل الكلام كأنك تريد أن تنتهي بأنف متورم أيضاً». تلوّى «الطفل» خلفهما ضاحكاً: «ماذا حدث يا بيترينا، هل أكلت القطة لسانك؟» أجابه بيترينا حانقاً: «أنا؟ أتظن أنني أخاف أحداً؟» كرر إرمياس كلامه منزعجاً: «اسكت يا بيترينا! لا تغمغم هكذا. إذا كان لديك شيء فقله الآن». ابتسم بيترينا وحكَّ رأسه: «حسنًا يا زعيم... إن كنت تسألني...» بدأ حديثه حذراً... «ليست المسألة أن لديَّ شكوكاً، صدقني... لكن، لماذا نحن في

حاجة إلى باير؟» عضَّ إرمياس على شفته وأبطأ حركة السيارة ليسمح لامرأة عجوز بأن تعبر الشارع، ثم ضغط على دوّاسة الوقود. قال بحدة: «لا شأن لك بعمل الكبار». ظل بيترينا مصرّاً: «أريد أن أعرف فقط. لماذا نحن في حاجة إليه؟»... ظل إرمياس محدّقاً أمامه، غاضباً: «إننا في حاجة إليه فقط». «أعرف يا زعيم، لكن الأسلحة والمتفجّرات... حقاً، لماذا؟...» صاح إرمياس به: «قلت لك إننا في حاجة إليه، فقط». «أتريد حقاً أن تفجّر العالم وتفجّرنا بها...؟» دمدم بيترينا وقد ظهرت في عينيه نظرة ذعر: «أنت تريد التخلص من كل شيء فقط، أليس كذلك؟» لم يجبه إرمياس. أوقف الشاحنة. توقفوا في شارع ستريبر. قفز مدير المدرسة من صندوق الشاحنة ولوَّح لهم مودِّعاً، ثم عبر الشارع بخطوات ثابتة وفتح باب حانة إيبار. تساءل «الطفل» قائلاً: «تجاوزت الساعة الثامنة والنصف. ماذا سيقولون؟» لوّح بيترينا بيده: «يستطيع النقيب الملعون أن يذهب إلى الجحيم. ما معنى أن يتأخر المرء! كلمة 'تأخَّر' لا تعني شيئاً بالنسبة لي. عليه أن يكون مسروراً لأننا نقبل أن نراه أصلاً. إنه شرف له أن يعرّج بيترينا عليه. هل هذا مفهوم يا فتى؟ تذكر هذا لأنني لن أكرره مرة ثانية». ضحك الطفل معابثاً: «ها ها! ما هذه النكتة؟» ثم نفخ الدخان في وجه بيترينا. قال بيترينا بنبرة مفخَّمة: «يجب أن يفهم رأسك الغبي أن النكات مثل الحياة تماماً. ما يبدأ بداية سيئة ينتهي نهاية سيئة. يكون كل شيء جميلًا في منتصفه. لكن النهاية هي ما يجب أن يشغل بالك». كان إرمياس ينظر إلى الطريق من غير أن يقول شيئاً. لم يشعر بأي اعتزاز الآن بعد أن أنجز كل شيء. كانت عيناه تحدّقان إلى الأمام بنظرة شبه ميتة. وكان وجهه رمادياً. قبض بشدة على عجلة القيادة، ونفر شريان في صدغه. رأى البيوت الأنيقة على جانبَيْ الشارع؛ ورأى الحدائق، والبوابات المنحنية. رأى المداخل تقذف دخانها. لم يشعر بالكره، ولا بالتقزّز. كان ذهنه صافياً.

2. لا شيء سوى العمل والقلق

بعد دقائق معدودة من تدقيق الوثيقة في الثامنة والربع صباحاً، استلمها الموظفون لإعداد المسوَّدة؛ وبدت لهم مهمتهم كأنها غير قابلة للتنفيذ. لكنهم لم يظهروا غضباً ولا مفاجأة، ولم يتذمروا أبداً: تبادلوا نظرات صامتة كأن الواحد منهم يقول للآخر: أرأيت؟... هذا، في آخر المطاف، دليل مقنع لا شك فيه على حالة التراجع العامة السريعة إلى حد مأساوي. كان كافياً أن ينظر المرء إلى سطور الكتابة المائلة والكلمات المكتوبة بما يشبه الخربشة ليرى أن هذا العمل الموضوع بين أيديهم ليس إلا محاولة مستحيلة لأنهم اليوم أيضاً، مطالَبون بإضفاء شيء من الوضوح، وشيء من الانتظام المفهوم على هذه «الخربشة الفظّة إلى حد الإحباط». جعلتهم محدودية الوقت المتاح لهم (وقت محدود بشكل غير مفهوم)، إضافة إلى ضآلة الأمل في إمكانية الخروج بوثيقة صالحة للاستخدام، يشعرون بتوتر كبير، لكنها حثتهم أيضاً على بذل جهد بطولي. وحدهما «الخبرة والنضج المتراكمان عبر سنوات طويلة؛ وحدها سنوات الخبرة التي تفرض احترامها» كانت قادرة على تفسير قدرتهم على فصل أنفسهم في تلك اللحظة عن الصخب المجنون الذي يثيره زملاؤهم من حولهم وهم يثرثرون ويندفعون من هنا وهناك. وهذا ما مكّنهم، في لحظات فقط، من تركيز انتباههم كله على تلك الوثيقة. وسرعان ما اجتازوا الجمل الافتتاحية التي لم يجدوا فيها ضرورة إلا لجلاء بعض النقاط الغامضة

ونصحيح بعض المحاولات الخرقاء لإظهار التمكّن والإتقان... تلك المحاولات التي تفضح لمسة الناس العوام بكل وضوح. وكان يمكن القول إن القسم الأول من النص مرَّ بسهولة مقبولة تماماً وتحوَّل إلى «مسودة نهائية»... رغم أنني أكدت البارحة، مرات كثيرة، على أنني أرى أن تدوين هذه المعلومات أمر غير مناسب، وحتى أجعله يرى استعدادي (وبطبيعة الحال، حتى أقدّم برهاناً على التفاني الأكيد في ما يتعلق بالمسألة الموكلة إليّ)، فإنني مستعد لأداء هذه المهمة. ويهمني خاصة أن أشير في تقريري إلى حقيقة أنكم طلبتم منّي أن أكون صادقاً تماماً. وعلي أن أشير هنا أيضاً إلى أنه لا شك أبداً في ملاءمة العاملين المتوفرين لدي، وآمل أن أتمكن من إقناعكم بهذا غداً. وأظن أن من المهم أن أشدد على هذا الأمر لأن من الممكن أن تقرأوا المسودة المرتَجَلة التالية على نحو غير ما قصدته منها. وألفت انتباهكم خاصة هنا إلى شرط لا بد منه لاستمرار عملي وامتلاك قاعدة فعالة له، ألا وهو أن أكون أنا وحدي من يتواصل مع العاملين لأن أي طريقة أخرى في العمل ستؤدي إلى الفشل... إلخ... إلخ. لكن الموظفين وصلوا إلى الجزء المتعلّق بالسيدة شميدت فوجدوا أنفسهم أمام صعوبة كبرى، لأنهم لم يجدوا طريقة لإعادة صياغة بعض التعابير السوقية من قبيل «غبية، كبيرة الفم، بقرة»؛ فكيف السبيل إلى المحافظة على محتوى هذه الأفكار الفظة بحيث تظل الوثيقة أمينة للأصل مع المحافظة، في الوقت نفسه، على سويَّة اللغة اللائقة بمستوى احترافيتهم. وبعد شيء من المناقشة استقروا على «أنثى ضعيفة العقل مهتمة بالجنس أكثر من أي شيء»، لكن الوقت لم يسعفهم لاستعادة أنفاسهم لأنهم وصلوا بعد ذلك إلى تعبير «عاهرة رخيصة» بكل ما يحمله من جلافة فظيعة. وتجنّباً لعدم الدقة وجدوا أنفسهم مضطرين إلى صرف النظر عن صيغ من قبيل «أنثى ذات سمعة مشبوهة» أو «امرأة تبذل نفسها»، أو «امرأة مضنية»، وكذلك إلى صرف النظر عن جملة من الاستعارات

الأخرى التي يمكن لاستخدامها أن يبدو شديد الإغراء للوهلة الأولى. جلسوا ينقرون على طاولة الكتابة بأصابعهم التي نفد صبرها، الطاولة التي كانوا جالسين إليها متقابلين يحاول كل منهم تجنّب النظر في عينَيْ زميله؛ ثم استقروا أخيراً على صيغة «امرأة تقدّم نفسها مجاناً» التي لم تكن من غير شائبة لكنها وافية بالغرض. ما كان الجزء الأول من الجملة التي تلت ذلك أكثر سهولة، لكن البصيرة السريعة أسعفتهم في تحويل العبارة العامية إلى حد مخيف «إنها تقفز إلى الفراش مع أي توم أو ريتشارد أو هاري؛ والمصادفة وحدها هي ما يجعلها لا تفعل ذلك» إلى عبارة أكثر ملاءمة نسبياً «كانت تجسيداً لعدم الإخلاص في الزواج». ثم فوجئوا مفاجأة حقيقية عندما وجدوا بعد ذلك ثلاث جمل متتالية تمكنوا من نقلها إلى النسخة الرسمية على حالها من غير تعديل؛ لكنهم اصطدموا بصعوبة أخرى بعد ذلك فوراً. أرهقوا أدمغتهم كثيراً، واستحضروا عبارات كثيرة يمكن أن تكون مفيدة، لكنهم لم يهتدوا إلى عبارة تصلح للحلول محل «رائحة السماد التي تنبعث منها دائماً كأنها مزيج من الكولونيا الرخيصة وشيء متعفّن»، فأوشكوا على الاستسلام وتحويل العمل إلى النقيب بحجّة أن هنالك عملاً طارئاً في المكتب، لكن ضاربة آلة كاتبة جاءت مبتسمة بحياء حاملة لهم فناجين القهوة الساخنة فجعلهم شذاها المبهج يهدأون قليلاً. بدأوا التفكير من جديد، وراحوا ينظرون في خيارات جديدة عندما اتفقوا ـ لتجنب طعنة ذعر جديدة ـ على عدم تعذيب أنفسهم أكثر من ذلك والاكتفاء بعبارة «تستخدم وسائل غير مناسبة للتغطية على الرائحة المزعجة المنبعثة من جسدها». وعندما أفلحوا في إنجاز الجزء المتعلق بالسيدة شميدت قال أحدهم: «عجيب كيف يطير الوقت طيراناً!» فأجابه زميله وهو ينظر إلى ساعته: «صحيح تماماً، صحيح تماماً، لم يبق على وقت الغداء أكثر من ساعة ونيّف». وهكذا قرروا أن يعملوا على ما بقي من الوثيقة بسرعة أكبر قليلاً، وهذا ما كان يعني في الحقيقة أنهم

صاروا أكثر ميلاً من ذي قبل إلى القبول بحلول أقل ملاءمة، «رغم أن من الإنصاف القول إن النتائج ستظل مقبولة تماماً». سرَّتهم كثيراً ملاحظة أنهم تمكنوا من استخدام هذه الطريقة في إنجاز الأقسام التي تحدثت عن السيدة كرانر بسرعة أكبر. تحولت جملة «ذلك الكيس العتيق القذر المليء بالنمائم السامة» إلى «ناقلة أخبار غير موثوقة»، وتحوّلت عبارات من قبيل «يجب أن يفكر أحد ما تفكيراً جدياً بخياطة شفتيها معاً» و«الساقطة البدينة» إلى عبارات مناسبة من غير مواجهة صعوبات كبيرة. وسرَّهم على نحو خاص أنهم وجدوا جُمَلاً يمكن استخدامها ونقلها كما هي إلى النسخة الرسمية، ثم صار تنفسهم أكثر يسراً عندما وصلوا إلى القسم الذي تحدّث عن السيدة هاليكس لأن الموظف الموجود (كان مكلَّفاً بشؤون الهوَس الديني وبعض السمات الغريبة عند الناس) كان على معرفة ببعض التعابير العامية القديمة التي لم تكن ترجمتها إلى اللغة الرسمية بالنسبة إليه أكثر من لعب أطفال. لكنهم، عندما رأوا الأجزاء المتعلقة بزوجها، السيد هاليكس... فقرة محشوَّة حشواً بعبارات فاحشة مرعبة... أدركوا أن الصعوبات الكبرى لا تزال أمامهم، فحيثما نظروا في تلك العبارات المتراصة في شهادة صاحب التقرير وجدوا أن عليهم الإقرار بأنهم قد تعثروا من جديد (لأنهم بلغوا حدود مواهبهم الجماعية في إعادة الصياغة). فبعد أن تمكنوا من تحويل عبارة «القزم المجَعّد الغارق في الشراب» إلى «كهل كحولي ضئيل الجسم»، وجدوا أنفسهم لا يعرفون كيف يتعاملون مع عبارات «مهرج متلعثم» أو «رصاصي تماماً» أو «صاحب غمغمة عمياء». وبعد مناقشة مضنية طويلة قرروا أن يحذفوا هذه العبارات لأنهم توقعوا ألا يكون لدى النقيب الصبر الكافي لمتابعة القراءة إلى آخر الوثيقة التي ستجد طريقها ـ على نحو نظامي سليم ـ إلى أحد الأدراج على أي حال. استلقوا في مقاعدهم مرهَقين مستنزَفين وهم يدعكون عيونهم منزعجين لرؤية زملائهم يثرثرون ويستعدون لوجبة

الغداء ويرتبون ملفاتهم ويدخلون في أحاديث خالية البال في ما بينهم، ثم يغسلون أيديهم بعد عدة دقائق ويخرجون فرادى وجماعات من الباب المؤدّي إلى صالة المدخل. تنهّدوا بحزن وأخرجوا شطائر الزبدة والفطائر الجافة وتابعوا عملهم وهم يمضغون طعامهم لأنهم كانوا مضطرين إلى الاعتراف بأن الذهاب إلى وجبة غداء سيكون «ضرباً من ضروب الرفاهية الآن». لكن الحظ شاء أن يعكّر عليهم حتى هذه المتعة البسيطة ـ فقد الطعام نكهته وصار المضغ نوعاً من أنواع التعذيب ـ وذلك أنهم وصلوا إلى ملف السيد شميدت فاكتشفوا أنهم بلغوا مستوى جديداً من الصعوبة. بلغ مستوى الغموض، واستحالة الفهم، والإهمال، والمحاولة الواعية أو غير الواعية، حدّاً جعل كل شيء يتعين عليهم إعادة صياغته ضبابياً غامضاً، بلغ ذلك كله حدّاً اضطرَّهم إلى الاعتراف بأنها «صفعة في الوجه مسددة إلى مهنيتهم وجديتهم وكفاحهم»... فماذا يمكن أن يكون معنى القول بأن شخصاً ما يمثل «نقطة التقاطع بين التبلد البدائي والخواء الأصيل إلى حد مرعب في حفرة ظلام مطلق لا قرار لها»؟ وأي جريمة في حق اللغة كانت هذه الجمهرة البشعة من الاستعارات المختلطة؟ بل أين يمكن العثور على أدنى أثر للجهد المبذول من أجل الوصول إلى شيء من الدقّة والوضوح الفكري اللذين هما أمران طبيعيان ـ هكذا يزعم الناس ـ في الروح البشرية؟! ثم اكتشفوا مذعورين أن المقطع الخاص بشميدت كان مؤلفاً كله من جمل من هذا النوع، وأسوأ من ذلك أن خط كاتب التقرير صار الآن (لسبب لا يمكن شرحه) غير مقروء أبداً كأنه شخص مخمور يزداد سُكراً مع كل سطر يكتبه... وصلوا من جديد إلى نقطة الاستسلام وترك الأمر كله لأنه «مفزع حقاً كيف يضع الناس، يوماً بعد يوم، أمامنا أشياء مستحيلة من هذا القبيل... ثم... ماذا نتلقى من شكر على عملنا!» وعند ذلك ـ مثلما حدث من قبل في اليوم نفسه ـ جاءتهم رائحة القهوة اللذيذة المقدَّمة إليهم مع ابتسامة فأقنعتهم بإعادة النظر. جلسوا يحاولون

استئصال عبارات من نوع «غباء غير معقول، وتذمّر من غير مبرَّر، وقلق لا يهدأ متحجّر في الظلمة الكثيفة لوجود متضائل لا يشفى حزنه»، وغيرها من الفظاعات اللغوية إلى أن وصلوا إلى نهاية هذا المقطع، لكن معاناتهم استمرت لأنهم اكتشفوا أنهم لم يتركوا فيه من غير تغيير إلا كلمات قليلة فحسب. كان من الواضح أن لا أمل لمحاولة تحديد المعاني الحقيقة التي أرادها صاحب التقرير إلى جانب أداء المهمة البطولية المتمثلة في تحويل هذا الهراء المتداخل كله إلى جملة منطقية واحدة: «إن قدرته الذهنية المحدودة وميله إلى الجبن أمام أي استعراض للقوة يجعلان منه مناسباً بشكل خاص لتنفيذ المهمة المطروحة بأعلى المستويات». ثم جاء المقطع الذي تحدث عن شخص لا اسم له، شخص أشار إليه التقرير فقط باسم مدير المدرسة، فلم يكن أكثر نظافة من المقطع الذي سبقه، بل لعله بدا أكثر غموضاً أيضاً... إن كان ذلك ممكناً: تشوّش أكبر واستمرار لمحاولات التذاكي التي تثير الحنق. قال أحد الموظفين وقد شحب وجهه وهو يشير بيد مرتعشة محاولاً لفت انتباه زميله المتعَب الجالس خلف الآلة الكاتبة إلى قطعة الورق المتسخة: «يبدو لي أن هذا الغبي قد فقد عقله تماماً هنا. استمع إلى هذه!» ثم قرأ الجملة الأولى. «لو أن شكاً أو ميلاً إلى التردد طرأ لدى شخص يعتزم القفز من فوق جسر مرتفع، فإنني أنصحه بأن يفكر في مدير المدرسة: ما أن ينظر إلى هذا الشخص المضحك حتى يعرف فوراً أن لا بديل أمامه غير القفز!» تبادل الموظفان نظرات مرهقة غير مصدقة وقد ظهر يأسهما المطبق واضحاً على وجهيهما. ما هذا!؟ هل يريدون دفعنا إلى ترك هذا العمل؟ نظر الجالس خلف الآلة الكاتبة كأنه يريد القول: اتركها، فالأمر لا يستحق ذلك، لا يستطيع أحد منا أن يفعل شيئاً، تابع فقط. «وأما في ما يتعلق بمظهره فهو أشبه بخيارة يابسة عجفاء ظلت في الشمس فترة طويلة، ثم إن قدراته العقلية أقل حتى من قدرات شميدت، وهذا ما يعني شيئاً في

حقيقة الأمر...». قال الجالس خلف الآلة الكتابة مقترحاً: «فلنكتب: مظهر متهالك، عديم القدرات...» طقطق زميله بلسانه منزعجاً: «ما الارتباط بين هاتين العبارتين؟» أجابه الثاني بحدة: «وكيف أعرف؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟» «هذا ما كتبه؛ وعلينا أن ننقل المعنى...» أجابه زميله: «أوه، لا بأس. سوف أتابع»... «وهو يعالج جبنه بتملّق الذات، وبالكبرياء الفارغة، وبغباء يصيب المرء بنوبة قلبية. وعلى غرار كل التافهين المعجَبين بأنفسهم، فإنه ميّال إلى النزعة العاطفية والتعبير المرتبك عن الحزن، إلخ، إلخ». بعد هذا كله صار واضحاً أن البحث عن حلّ مرضٍ لم يعد ممكناً وأن عليهما الاكتفاء بأنصاف الحلول، إضافة إلى أن الإرهاق جعلهما غير قادرين على القيام بعملهما كما يجب. وهكذا توصلا بعد مناقشة طويلة أخرى إلى الاتفاق على الجملة التالية: «جبان. شديد الحساسية. غير ناضج جنسياً». وبعد هذا التعامل القاسي مع مدير المدرسة، لم يعودا قادرين على إنكار أن ضميريهما المتعبين راحا ينتقلان إلى إحساس ملتهب بالذنب، وهذا ما جعل الجميع يباشرون القسم الخاص بكرانر وقلوبهم في حلوقهم إذ راح انزعاجهم يتزايد عندما لاحظوا سرعة مرور الوقت. أشار أحدهم بعصبية إلى ساعته ثم أشار إلى بقية العاملين في المكتب. أجابه واحد من زملائه بحركة يائسة من يده لأنه لاحظ أيضاً تلك الحركة العامة في المكتب التي كانت توحي بأنه لم يبق من وقت العمل الرسمي إلا دقائق قليلة. هزَّ رأسه قائلاً: «هل يمكن أن يكون هذا معقولاً؟ لا يبدأ المرء العمل إلا وقد حان وقت الانصراف. لا أفهم. تطير الأيام طيراناً في زوبعة متواصلة...» ومع انقضاء الوقت الذي كان ضرورياً لتحويل العبارة المربكة: «الأحمق الذي يجعل المرء لا يرى أمامه إلا ثوراً قذراً» إلى عبارة «حدّاد سابق قوي البنية»، عثروا على مقابل معقول لجملة «جلف متجهِّم، تعابير وجهه غبية، خطر على الجمهور»؛ كان زملاؤهم الآخرون جميعاً قد ذهبوا إلى بيوتهم، وكان عليهم أن

يتحملوا ـ خلال خروجهم ـ مختلف أشكال الوداع الساخرة وإيماءات التقدير المضحكة من غير أي كلمة لأنهم أدركوا أنهم إذا توقفوا عن العمل لحظة واحدة فإنهم سيقعون فريسة إغراء التعبير عن غضبهم وسوف يلقون بكل شيء إلى الجحيم! (مع كل العواقب الخطيرة التي يستتبعها هذا). وقرابة الخامسة والنصف، عندما أنهوا بمشقّة المسوَّدة النهائية للقسم الخاص بكرانر، سمحوا لأنفسهم باستراحة تدخين سريعة. مدوا سيقانهم الخدرة متأوهين، ودلكوا أكتافهم المتعَبة، ودخنوا سجائرهم من غير أي كلمة إلى أن انتهت. قال أحدهم: «حسنًا، فلنتابع. سأقرأ وأنتم استمعوا»... بدأ النص على النحو التالي: «فوتاكي هو الشخص الوحيد الذي يمثل خطراً. لا شيء خطيرًا حقاً رغم ذلك. لا يعني مَيْله إلى التمرد إلا زيادة احتمال أن يخفق إخفاقاً تاماً في نهاية المطاف. يمكنه إنجاز شيء ما، لكنه لا يمكنه تخليص نفسه من قناعاته التي يتمسك بها بكل عناد. أراه شخصاً مسلياً، وأنا واثق من أننا نستطيع الاعتماد عليه أكثر من غيره... إلخ، إلخ...». قال الموظف الأول وهو يملي على زميله ضارب الآلة الكتابة: «لا بأس، اكتب هذا: إنه شخص خطير لكنه مفيد، وهو أكثر ذكاء من الآخرين، ساقه معطوبة». سأله زميله: «هل انتهينا هكذا؟» «ضع اسمه في الأسفل هنا، في آخر الورقة. ما اسمه؟ ... مممم، إرمياس». «ما هذا؟» «سأقولها ببطء: إر مي ا س. هل عندك مشكلة في السمع؟» «هل أكتبه هكذا...؟» «نعم، اكتبه هكذا! كيف يمكن أن تكتبه غير هكذا؟» وضعوا الملف في مغلف، ووضعوا أوراقهم كلها في الأدراج، ثم أقفلوا الأدراج بحرص وعلّقوا المفاتيح على اللوحة عند الباب. ارتدوا معاطفهم من غير كلام، ثم أغلقوا الباب من خلفهم. تصافحوا عند البوابة أسفل السلم. «كيف ستذهب إلى البيت؟» «بالباص» قال الموظف الأول: «لا بأس، إلى اللقاء». أجابه زميله: «كان يوم عمل متعباً، أليس كذلك؟» «إلى الجحيم بذلك كله. لو أنهم يلاحظون مرة

واحدة فقط كم نبذل من جهد من أجل إنجاز العمل». أجابه الآخر: «لكن، لا شيء، حتى ولا كلمة تقدير واحدة». هز زميله رأسه موافقة. تصافحوا من جديد ثم افترقوا. وعندما وصلوا إلى بيوتهم واجهتهم الأسئلة نفسها. «هل كان يومك في المكتب جيداً يا عزيزي؟» فأجابوا على هذه الأسئلة متعَبين: «لا شيء خاصًّا. كالمعتاد يا عزيزتي...» كيف للمرء أن يجيب بغير هذا بعد أن يصل إلى بيته الدافئ؟

1. اكتمال الدائرة

وضع الطبيب نظارته وسحق على مسند كرسيه عقب سيجارته التي احترقت حتى وصلت إلى أظافره عملياً. ثم تحقق من أن المزرعة بخير عن طريق النظر عبر الفتحة بين الستائر وإطار النافذة، وقال في نفسه «كل شيء طبيعي»... بمعنى أن شيئاً لم يتغير. ثم سكب في الكأس الكمية المسموحة له من البالينكا وأضاف إليها بعض الماء. كانت مسألة مستوى البالينكا في الكأس (وهي مسألة تستلزم التوصّل إلى حل مرضٍ إلى الحد الأقصى) قد احتاجت منه تفكيراً متأنياً منذ عودته إلى البيت: مهما يكن التوازن بين كمّيتي الماء والبالينكا مسألة شائكة فلا بد من العودة فيه إلى نصيحة مدير المستشفى الذي كان شديد الحرص، على نحو مرهق بعض الشيء، على تكرار تحذيراته التي كان من الواضح أنه يبالغ فيها، وذلك من قبيل «إذا لم تبتعد عن الكحول، وإذا لم تقلل كمية السجائر التي تدخنها تقليلاً جذرياً، فمن الأفضل لك أن تستعد لمواجهة الأسوأ منذ الآن وأن تستدعي كاهناً...»؛ وهكذا تخلّى، بعد صراع داخلي مؤلم، عن صيغة «مقداران من الكحول ومقدار واحد من الماء» وقبل صيغة أخرى: «مقدار من الكحول وثلاثة مقادير من الماء». شرب كأسه ببطء، قطرة صغيرة بعد قطرة، ورأى أنه الآن (قد تجاوز المرحلة الصعبة بالتأكيد، «فترة الاعتياد الانتقالية»)، وقرر أنه يستطيع الاعتياد حتى على هذا «الشراب الفظيع»؛ تذكّر كيف بصق متقززاً الجرعة الأولى منه عندما

تذوَّق طعمه، لكنه صار قادراً الآن على ابتلاعه من غير أي صدمة تصيب نظامه، بل فكر أيضاً في أنه صار قادراً حتى على التميز بين أنواع مختلفة من «ماء الغسيل» هذا بحيث يفرِّق بين ما يمكن احتماله وما يتجاوز الحد الذي يمكن التسامح فيه. أعاد الكأس إلى مكانها، ثم أسرع فصحَّح وضع علبة الكبريت التي انزلقت من مكانها فوق علبة السجائر، وجرت عيناه برضى واضح فوق الدمجانات الواقفة «في صف عسكري» خلف كرسيه، وتوصل إلى أنه مستعد الآن لمواجهة الشتاء الذي بات قريباً. وبالطبع، لم يكن هذا الأمر «مسألة بسيطة» قبل يومين، عندما وافقوا على خروجه من المستشفى «على مسؤوليته الخاصة» ودخلت سيارة الإسعاف بوابة المزرعة. كان قلقه الشديد قد تحوّل إلى غضب صريح لأنه كان شبه واثق أن عليه أن يبدأ كل شيء من جديد، كان واثقاً من أنه سيجد غرفته في حالة فوضى، وممتلكاته مبعثرة في المكان، بل أكثر من ذلك لأنه لم يكن يظن في تلك اللحظة أن من غير الممكن أن تكون السيدة كرانر (ذات السمعة السيئة تماماً) قد استفادت من غيابه لتتجوّل في البيت كله بدعوى أنها تنظفه «بمكنستها القذرة وخِرَقها التي تفوح بروائح نتنة»، وتخرِّب كل ما أنفق عليه سنوات طويلة من الرعاية الشديدة وكل ما بذل أقصى الجهد من أجل تجميعه. اتضح له أن مخاوفه لا أساس لها: كانت الغرفة مثلما تركها تماماً قبل ثلاثة أسابيع، وكانت دفاتره وأقلامه وكأسه وسجائره وكبريته حيث تركها تماماً، بل كان الوضع أفضل من ذلك أيضاً لأنه شعر براحة كبرى عندما لاحظ أنه لم يرَ وجهاً مستطلعاً واحداً في أي نافذة من نوافذ الجيران عندما اقتربت سيارة الإسعاف من البيت، ولم يزعجه أحد منهم عندما حمل طاقم السيارة (توقعوا أن يحصلوا منه على بقشيش محترم) حقائبه المليئة بالطعام والدمجانات التي ملأها في حانة موبز وأدخلوها إلى البيت. بل لم يجرؤ أحد منهم على إقلاق راحته منذ ذلك الوقت. لم يخطر في باله بالطبع أن شيئاً ذا أهمية يمكن أن يكون قد حدث لأولئك

«المغفّلين الحمقى» في غيابه، لكنه كان مرغماً على الاعتراف بأن هناك تحسنًا طفيفًا جداً: بدت المزرعة مهجورة، ولم يكن فيها شيء من ذلك التجول السخيف هنا وهناك، والظاهر أن الأمطار الموسمية المستمرة التي بدأت (هذا ما لا يمكن تجنبه) قد حبستهم كلهم في زرائبهم فلم يكن مفاجئاً أن أحدًا منهم لم يُخرِج رأسه من الباب... إلا كيريكس الذي رآه من نافذة سيارة الإسعاف قبل يومين سائراً على الدرب المؤدية من بيت آل هورغوس إلى الطريق المعبدة، لكن ذلك استمر لحظة وجيزة لأن الطبيب أدار رأسه سريعاً. سجل في دفتر مذكراته «آمل ألا أرى أحداً منهم حتى الربيع» ثم رفع قلمه بعناية بعد ذلك حتى لا يمزِّق الورق الذي صار (كان هذا شيئاً آخر لاحظه بعد غيابه الطويل) رطباً بحيث يمكن أن تمزقه أي حركة خرقاء. لم يعد لديه بعد ذلك أيّ سبب خاص يدعوه إلى القلق لأن «قوّة عليا» حفظت مرصده هذا سليماً، ولم يكن لديه ما يمكن فعله في ما يتعلّق بالغبار أو بالرطوبة لأنه رأى أن «ما من معنى في إرهاق المرء نفسه» لاتقاء آثار عملية التدهور والتآكل المحتومة. اطمأنت نفسه إلى هذا الأمر لأنه أحس بشيء من الصدمة عند عودته... عندما رأى كل شيء مغطى بطبقة رقيقة من غبار بلغ عمره عدة أسابيع ولاحظ كيف تلاقت خيوط العنكبوت المتدلية من إطارات اللوحات في نقطة عند وسط السقف تقريباً، لكنه سيطر على اضطرابه سريعاً معتبراً أن هذه أشياء تافه، ثم صرف سائق سيارة الإسعاف الذي كان ينتظر متوقّعاً «الإكرامية» وكان من الواضح أنه يستعد لشكر الطبيب عليها. وبعد أن ذهب الرجل، جال الطبيب في الغرفة وبدأ، رغم انشغال ذهنه، يلاحظ «مقدار الإهمال وطبيعته». وسرعان ما استبعد فكرة التنظيف باعتبارها «إفراطاً سخيفاً» فضلاً عن أنها «عديمة الجدوى» لأن من الواضح تماماً أن من شأنها أن تخرّب ذلك الشيء الذي يمكن أن يسمح له بالتوصل إلى مراقبة أكثر دقة؛ وهذا ما جعله يكتفي بمسح الطاولة وما كان عليها، ونفض بعض البطانيات

قليلاً، ثم عاد إلى عمله مباشرة ملاحظاً حالة الأشياء بالمقارنة مع ما كانت عليه قبل أسابيع ومتفحّصاً كل جسم من الأجسام الموجودة في الغرفة ـ المصباح الكهربائي العاري في السقف، ومفتاح المصباح، والأرض، والجدران، والخزانة المتداعية، وكومة القمامة عند الباب ـ وحاول، قدر استطاعته، أن يحصي التغيرات بدقة. أمضى تلك الليلة كلها، والشطر الأكبر من اليوم التالي، في عمل شاقٍّ، ولم يسمح لنفسه بأكثر من سبع ساعات من النوم (عدا بعض الغفوات القصيرة)، بل لم ينم إلا بعد أن رأى أنه أنجز عملية الجرد الدقيقة هذه. وعندما انتهى، سرَّته ملاحظة أن قوّته وحماسته، بالنظر إلى فترة الانقطاع القسرية، لم تنقصا أبداً، بل ازدادتا بعض الشيء أيضاً؛ لكنه لاحظ، في الوقت نفسه، أن قدرته على مقاومة تأثيرات «أي شيء يخالف المعتاد» قد ضعفت بشكل واضح من غير شك، وهذا ما جعله غير منزعج إطلاقاً من انزلاق البطانية الدائم عن كتفيه مثلما كان يحدث دائماً، ومن انزلاق نظارته على أنفه أيضاً، وذلك أن أدنى تغير في ما يحيط به صار في حاجة إلى انتباهه كله الآن ولم يكن قادراً أبداً على استعادة تسلسل أفكاره إن هو قَبِل اضطراره إلى التعامل مع «توافه مزعجة» كثيرة حتى يستعيد «الشروط الأصلية». كان هذا الإهمال نفسه هو ما جعله يتخلص بعد صراع استمر يومين من الساعة المنبّهة التي اشتراها (ليس قبل فحص دقيق لها ومساومات كثيرة في متجر «الأشياء المستعملة» في المستشفى) حتى يتمكن من ضبط نظام تناول أقراص الدواء الموصوفة له ضبطاً دقيقاً. لكنه، ببساطة، لم يستطع الاعتياد على تكتكتها التي تثقب الأذن، خاصة وأن يديه وقدميه مالت بشكل طبيعي إلى اعتماد إيقاع تكتكة الساعة الجهنمي، وهذا ما جعله، عندما انطلق تنبيه تلك الآلة الفظيعة في الوقت المحدد تماماً، ووجد رأسه يلتفت تلقائياً إلى ذلك الشيء الشيطاني، يمسك بها وهو يرتعد غضباً فيلقي بها إلى فناء البيت. استعاد هدوء أعصابه على الفور، وبعد أن استمتع بعدة ساعات من

الصمت التام لم يعد قادراً على فهم ما جعله يتأخر في اتخاذ ذلك القرار... لماذا لم يتخلص منها قبل ذلك ـ الأمس، أو قبل الأمس ـ أشعل سيجارة وأطلق خيطاً طويلاً من الدخان، ثم عدل البطانية التي انزلقت عن كتفيه، وانحنى فوق سجل يومياته من جديد وكتب: «الشكر للرب على أنها تمطر من غير توقف. هذا دفاع ممتاز. أشعر بأنني في حال طيبة تماماً رغم بقاء شيء من أثر ذلك النوم الطويل. لا حركة في أي مكان. باب بيت مدير المدرسة ونافذته محطّمان. لا أستطيع تخمين السبب. ولا أعرف ما حدث وما منعه من إصلاحهما». رفع رأسه فجأة وراح يصغي إلى الصمت ثم لفتت علبة الكبريت انتباهه لأنه شعر، لحظة واحدة فقط، أنها موشكة على الانزلاق عن علبة السجائر. راح يراقبها وهو حابس أنفاسه. لكن شيئاً لم يحدث. صبَّ كأساً أخرى من الشراب وأغلق الدمجانة من جديد، ثم أضاف الماء من الإبريق الموجود على الطاولة ـ اشترى هذا الإبريق من متجر حانة مويز بثلاثين فورينتاً. وبعد أن صبَّ الماء، أعاد الإبريق إلى مكانه وشرب كأس البالينكا دفعة واحدة. جعله ذلك يشعر بتشوّش لطيف: استرخى جسده البدين تحت البطانية ومال رأسه جانباً وبدأت عيناه تغمضان ببطء، لكن أثر هذه الجرعة من الشراب لم يستمر طويلاً لأنه لم يستطع أن يحتمل أكثر من دقيقة واحدة ذلك الحلم الفظيع الذي دخله فور إغفائه: كان حصان جاحظ العينين مندفعاً صوبه، وكان هو يحمل بيده قضيباً فولاذياً ضرب به رأس الحصان مذعوراً بكل ما أوتي من قوة؛ لكنه بعد ذلك لم يستطع، مهما حاول، أن يتوقّف عن الضرب إلى أن رأى دماغ الحصان يخرج من جمجمته المحطمة. استيقظ فتناول من عمود الدفاتر المنتصب إلى جانب الطاولة دفتراً حمل عنوان «فوتاكي»، واستأنف تسجيل ملاحظاته... «إنه يخاف أن يترك غرفة المحركات، ولعله منهار على فراشه الآن يشخر أو يحدق في السقف، أو لعله ينقر على رأس السرير بعصاه المعقوفة باحثاً عن الحشرات فيه مثلما يفعل نقار

الخشب. وهو لا يدرك أبداً أن أفعاله نفسها ستجذب له ما يخشاه أكثر من أي شيء آخر. أراك في جنازتك أيها المغفل». مزج كأساً أخرى من الشراب، ثم شربها كلها، وتناول بعدها أدويته الصباحية مع جرعة من الماء. وخلال ما تبقّى من النهار، سجَّلَ مرتين ـ عند الظهر وعند العصر ـ ملاحظاته عن «حالة الضوء» في الخارج، وسجَّلَ أيضاً ملاحظات كثيرة عن التغير المستمر لتدفق مياه الصرف في الحقل؛ وبعد ذلك، عندما أنجز كتابة وصف للحالة المتوقعة في مطبخ آل كرانر («خانق») ـ كان هذا بعد أن كتب ملاحظاته عن آل شميدت وآل هاليكس ـ سمع فجأة صوت جرس بعيد. كان واثقاً من أنه يتذكّر، تماماً قبل ذهابه إلى المستشفى، بل في الليلة التي سبقت ذهابه إليه، تذكر أنه سمع أصواتاً تشبه هذا الصوت، وكان واثقاً الآن مثلما كان واثقاً في المرة الأولى من أن أذنيه الحادّتين لا تخدعانه. وخلال الوقت الذي استغرقه تقليب صفحات دفاتر الملاحظات اليومية التي كتبها في ذلك اليوم (لم يجد شيئاً يشير إلى الأجراس مما يعني أنه نسي تسجيل ذلك أو أنه لم يرَ أنّ له أهمية خاصة في ذلك الوقت) كان الصوت قد توقف تماماً... سارع هذه المرة إلى توثيق الحدث الاستثنائي وفكر ملياً في تفسيرات كثيرة ممكنة له: لا وجود لأي كنيسة بالقرب من هذا المكان، هذا مؤكد، إلا إذا اعتبر المرء الكنيسة المتداعية الصغيرة، التي استُخدمت كثيراً لغايات أخرى، في عزبة هوتشميس، كنيسة بالفعل، لكن بُعد المسافة أجبره على استبعاد أن تكون الريح قد حملت الصوت. وخطر له، للحظة واحدة، أن هذه قد تكون مزحة من فوتاكي أو هاليكس أو كرانر، لكنه استبعد الفكرة أيضاً لأنه لم يكن قادراً على تخيل أن يستطيع واحد منهم تقليد صوت جرس كنيسة... لكن من المؤكد أن أذنيه المدرَّبتين لم تكونا تخدعانه أو، لعلهما تخدعانه فعلاً!... أيعقل أن قدراته المتطورة كثيراً صارت على درجة من الحساسية تسمح له حقاً بأن يسمع صوت رنين بعيد مكتوم قليلاً ويميزه عن أصوات خافتة

أخرى أقرب منه؟... جلس حائراً في ذلك الصمت، ثم أشعل سيجارة، وعندما لم يحدث شيء خلال فترة طويلة، قرر أن ينسى الأمر الآن إلى أن تظهر إشارة أخرى توحي له بالتفسير الصحيح. فتح علبة من الفاصولياء المحفوظة فأكل نصفها ثم دفعها بعيداً عنه لأن معدته لم تعد قادرة على استقبال أكثر من لقمات قليلة. قرر أن عليه البقاء مستيقظاً لأنه لا يعرف متى يبدأ قرع «الأجراس» من جديد، وإذا كان صوتها مسموعاً لحظة وجيزة مثلما كان الأمر من قبل، فسيكون كافياً أن يغفو لحظات قليلة حتى يفوته سماعها... أعد لنفسه كأساً أخرى، وتناول أدويته المسائية، ثم دفع بقدميه حقيبة كانت تحت الطاولة وأنفق وقتاً طويلاً في البحث عن مجلة بعينها بين بقية المجلات. أنفق الوقت كله، حتى الفجر، في التصفّح والقراءة قليلاً هنا وهناك، لكن يقظته هذه كانت عديمة المعني... كانت نصراً فارغاً على رغبته في النوم لأن «الأجراس» رفضت أن ترنّ مرة ثانية. نهض من كرسيه وأراح أطرافه المتيبسة بالمشي قليلاً، ثم جلس من جديد، وعندما غمر ضياء الفجر الأزرق نافذته وجده غارقاً في نوم عميق. استيقظ عند الظهر غارقاً في العرق... استيقظ غاضباً أيضاً مثلما يفعل دائماً بعد نوم طويل، وراح يلقي بالشتائم وهو يدير رأسه هذه الناحية وتلك... آسفاً على الوقت الذي ضاع. وضع نظارته سريعاً وقرأ آخر جملة كتبها في دفتره ثم استرخى في كرسيه وراح ينظر إلى الحقول عبر شق في الستارة. صار المطر خفيفاً جداً، لكن السماء ظلّت مثلما كانت رمادية قاتمة متجهّمة فوق المزرعة، وكانت أشجار الأكاسيا العارية أمام بيت آل شميدت تنحني طائعة أمام الريح العنيفة. كتب الطبيب: «لقد ماتوا، كلهم... أو لعلهم جالسون إلى طاولة المطبخ مستندين إلى مرافقهم. لا يستطيع باب محطّم، ولا نافذة مكسورة، استنهاض همّة مدير المدرسة. ستتجمد مؤخرته عندما يأتي الشتاء». انتصب جالساً في كرسيه فجأة عندما جاءته فكرة جديدة. رفع رأسه ناظراً إلى السقف وهو يلهث

حتى يلتقط أنفاسه، ثم التقط قلمه وكتب... «إنه يقف الآن». كان يكتب بحماسة كبيرة وهو يضغط بقلمه على الورق ضغطاً خفيفاً حتى لا يمزّقه... «إنه يحكّ ما بين ساقيه، ثم يتمطى. يتجوّل في الغرفة، ثم يجلس من جديد. يخرج ليتبوّل، ثم يعود. يجلس. يقف». كان يكتب بسرعة محمومة، وكان يرى عملياً كل شيء يحدث هناك، وكان يعرف أيضاً... بل كان واثقاً من ذلك تماماً... أن الأمر سيكون هكذا منذ تلك اللحظة. أدرك أن كل هذه السنوات من العمل الجاد الصبور قد أثمرت آخر الأمر: صار أخيراً قادراً على إتقان ذلك الفن الوحيد الذي يسمح له ليس فقط بوصف العالم الذي يتطلب مساره الأبدي المستمر في اتجاه واحد هذا الإتقان كله، لكن صار قادراً أيضاً ـ إلى حد بعينه ـ حتى على التدخل في الآليات الكامنة خلف جريان الأحداث الذي يبدو فوضوياً في ظاهره!... نهض من مرصده وراح يسير، بعينين ملتهبتين ناراً، جيئة وذهاباً من زاوية الغرفة الضيقة إلى زاويتها الأخرى. حاول أن يظل مسيطراً على نفسه، لكنه لم ينجح في ذلك: جاءه هذا الإدراك من غير توقع على الإطلاق، وما كان مستعداً له أبداً، كان مفاجئاً إلى درجة جعلته ـ في اللحظات القليلة الأولى ـ يتساءل إن كان قد فقد عقله... «هل يمكن هذا؟ هل أصابني الجنون؟»... مرَّ وقت طويل قبل أن يهدأ قليلاً: كان حلقه جافاً وقلبه ينبض صاخباً، وكان يتصبَّب عرقاً. مرت لحظة ظن فيها أنه موشك على الانفجار، بكل بساطة، وأنه غير قادر على حمل ثقل هذه المسؤولية؛ وبدا له أن جسده السمين قد راح ينهار معه. ارتدّ إلى الخلف مستنداً في كرسيه مبهور الأنفاس لاهثاً بصعوبة. إن لديه الكثير مما يجب التفكير فيه دفعة واحدة، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً غير الجلوس في هذا الضوء البارد الحاد والتشوّش في رأسه يحرق دماغه حرقاً... أمسك قلمه بحرص وجذب إليه ملف «شميدت» من بين السجلات كلها، ثم فتحه على الصفحة المناسبة... وبتردّد، مثل رجل لديه أسباب وجيهة تدعوه إلى

الخوف من العواقب الخطيرة لأفعاله، كتب الجملة التالية: «إنه جالس وظهره إلى النافذة؛ يلقي جسده ظلاً باهتاً على الأرض». غصّ غصّة كبيرة، ووضع القلم، ثم صب لنفسه، بيدين مرتعشتين كأساً أخرى من البالينكا، أراق نصفها وشرب ما بقي فيها... «إن في حضنه قدرًا أحمر صغيرًا فيه بطاطس مطبوخة مع الفلفل. إنه لا يأكل. إنه ليس جائعاً. إنه في حاجة إلى التبوّل، وهذا ما يجعله يقف ويدور حول طاولة المطبخ ويخرج إلى فناء البيت عبر الباب الخلفي. إنه يعود. إنه يجلس. تسأله السيدة شميدت عن شيء ما. لا يجيبها. وبقدمه، يبعد القدر التي وضعها على الأرض عندما نهض. إنه ليس جائعاً». كانت يدا الطبيب مستمرتين في الارتعاش عندما أشعل سيجارة. مسح جبهته المتعرّقة ثم حرك ذراعه رافعاً مرفقيه كجناحي طائرة حتى يُهوّي تحت إبطيه قليلاً. عدل من وضع البطانية على كتفيه، وانكبّ! على السجل من جديد: «إما أنني جننت أو أنني، بعون من الرب، اكتشفت هذا الصباح أنني أتمتع بقوة مغناطيسية. أجد أنني أستطيع التحكم في مجرى الأحداث من حولي مستخدماً الكلمات وحدها. وليست عندي فكرة أبداً عما يجب أن أفعله أو، لعلي جننت». تبخّرت ثقته عند هذه اللحظة. غمغم قائلاً لنفسه: «هذا كله في مخيلتي فقط». ثم حاول إجراء تجربة أخرى. أخرج الدفتر الذي يحمل اسم كرانر. وجد آخر ما دونه فيه، ثم بدأ يكتب من جديد مستعجلاً: «إنه مستلقٍ على سريره بملابسه الكاملة. حذاؤه بارز من فوق حافة السرير لأنه لا يريد تلطيخ غطاء السرير بالطين. الغرفة حارّة إلى درجة خانقة. وخارج الغرفة، في المطبخ حيث السيدة كرانر، تصدر أصوات قعقعة الصحون. يناديها كرانر عبر الباب المفتوح. تقول له السيدة كرانر شيئاً. يدير كرانر ظهره إلى الباب غاضباً ويدفن رأسه في الوسادة. إنه يحاول النوم، وهو يغمض عينيه. إنه نائم». أطلق الطبيب زفرة عصبية ومزج لنفسه كأساً من الشراب ثم نظر في الغرفة من حوله قلقاً. مسّه شكٌّ عارض فذعر وقال من

جديد: «ما من شك أبداً في حقيقة أنني قادر، عن طريق التصور المركّز، أن أحدد إلى درجة ما ما يجب أن يحدث في المزرعة. وذلك لأنه لا يمكن أن يحدث إلا ما جرى وضع تصور له. المسألة كلها، في هذه المرحلة بطبيعة الحال، هي أن ما يتعين عليَّ أن أجعله يحدث لا يزال سراً مستغلقاً أمامي، وهذا لأن...» بدأت «الأجراس» تقرع من جديد عند تلك اللحظة. ولما كان لديه أكثر من الوقت الكافي للتأكد من أنه لم يكن واهماً عندما سمعها الليلة الماضية، لقد سمع «أصواتاً» بالفعل، لكن الفرصة لم تسنح له للتفكير في مصدر هذه الأصوات المجلجلة لأن طنين الصمت المستمر امتصها فور وصولها إليه. فشعر، فور اضمحلال آخر صوت منها، بخواء كبير في روحه جعله واثقاً من أنه فقد شيئاً ذا قيمة كبيرة. فكر في أن ما سمعه في هذه الأصوات الغريبة النائية كان «نغمة الأمل المفقودة»، كان نوعاً من تشجيع لا موضوع له، رسالة بالغة الأهمية لا سبيل إلى فهم كلماتها أبداً... لم يفهم منها شيئاً إلا أنها «تعني شيئاً حسناً وتعطي توجّهاً لقدرتي التي لم أستوعبها بعد»... وضع حداً لاندفاعه المحموم في الكتابة: ارتدى معطفه سريعاً ووضع السجائر والكبريت في جيبه لأنه أحس الآن أن أهم شيء هو أن يكتشف مصدر هذا الرنين البعيد، أو أن يحاول اكتشافه على الأقل. دوّخه الهواء المنعش أول الأمر: دعك عينيه اللتين أحرقتهما لسعة ذلك الهواء، ثم غادر البيت من الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفية ـ حتى لا يثير أدنى شك لدى الجيران الجالسين عند نوافذهم ـ وحاول الإسراع إلى أقصى حد يستطيعه. بلغ الطاحون فتوقف لحظة متسمراً في مكانه لأنه لم يكن يعرف إن كان ماضياً في الاتجاه الصحيح. دخل بوابة الطاحون الضخمة فسمع أصواتاً تشبه العواء قادمة من الطوابق العلوية. «إنها أصوات ابنتَيْ هورغوس». استدار وغادر المكان. راح ينظر من حوله غير عارف أين يذهب أو ماذا يفعل. أيدور حول المزرعة، أم ينطلق صوب زيكس؟... أو لعل عليه أن يسير على

الطريق المعبدة الذاهبة حتى الحانة؟ أو ربما كان من الأفضل أن يجرب الطريق الذاهبة إلى عزبة آلماسي! بل قد يكون من الأفضل أن يظل هنا أمام الطاحون تحسّباً لأن تبدأ «الأجراس» من جديد. أشعل سيجارة، ثم تنحنح منظفاً حلقه، وراح يضرب الأرض بقدمه ضرباً عصبياً لأنه لم يكن يعرف حقاً كيف يتخذ قراره. نظر إلى أشجار الأكاسيا الضخمة المحيطة بالطاحون، ثم ارتجف أمام حدة الريح وتساءل إن لم يكن الخروج على هذا النحو فكرة حمقاء في الأصل، فكرة وليدة لحظتها... لعله استعجل كثيراً لأن ليلة كاملة كانت تفصل بين مجموعتَي الأصوات اللتين سمعهما. كان على وشك الاستدارة والعودة إلى بيته حيث تنتظره بطانيات دافئة... ريثما تقرع الأجراس مرة أخرى... عندما، في تلك اللحظة نفسها، بدأت «الأجراس» تقرع من جديد. اندفع مسرعاً إلى الساحة المكشوفة أمام الطاحون، وعندما فعل ذلك تمكن من حل اللغز الأول: بدا له صوت «الأجراس» آتياً من الناحية الأخرى من الطريق المعبدة («قد يكون آتياً من عزبة هوتشميس!...»)، ولم يقف الأمر عند تمكنه من تحديد جهة الصوت وحدها، بل صار مقتنعاً الآن بأن الأجراس تمثل دعوة إلى الفعل، أو على الأقل تشجيعاً أو وعداً؛ عرف أنها لم تكن نتاج مخيلة مريضة ولا وهماً جاءه وليد اندفاعة انفعالية مفاجئة... انطلق متحمساً إلى الطريق المعبدة فعبرها من غير أن يعير أدنى اهتمام للبرك والطين، ومضى يشق طريقه صوب عزبة هوتشميس وقلبه «يضج أملاً وثقة وترقباً...» شعر بأن «الأجراس» كانت تعويضاً له عن بؤس حياته كلها وعن كل ما رماه به القدر لأنها تأتي الآن جائزة ملائمة لذلك الإصرار العنيد على البقاء على قيد الحياة... سيجري كل شيء على خير ما يرام عندما ينجح في فهم المعنى الكامل لهذه الأجراس. فبالقوة التي صارت بين يديه الآن، صار قادراً على إعطاء دفع جديد غير معروف بعد «لأحوال بني البشر». وهكذا أحس بما يشبه فرحة طفولية عندما لمح الكنيسة الصغيرة المتهدمة في

النهاية البعيدة لعزبة هوتشميس، ومع أنه لم يكن يعرف إن كان في تلك الكنيسة «جرس» (دمرت الكنيسة في الحرب الأخيرة ولم تظهر عليها أي علامة من علامات الحياة بعد ذلك) أو إن كان فيها أي شيء آخر... لكنه لم ير أن ذلك أمر صعب التصديق... ذلك أن أحداً لم يذهب في تلك الطريق منذ سنين اللهم إلّا إن كان متشردٌ بسيط ما، قد قصدها يوماً ما، باحثاً عن مأوى يمضي فيه الليل. وقف عند باب الكنيسة الرئيسي وحاول فتحه لكن الباب صمد أمام الجذب والدفع ولم يستجب لمحاولات الطبيب التي استخدم فيها وزن جسمه كله؛ دار حول المبنى فوجد في الجدار المتداعي باباً جانبياً صغيراً مهترئاً دفعه دفعة صغيرة فانفتح مطلقاً صريراً حاداً. خفض رأسه ودخل: شباك العنكبوت، والغبار، والتراب، والرائحة، والظلمة. لم يكن قد تبقّى من مقاعد الكنيسة الطويلة أي شيء تقريباً... بضع قطع محطَّمة فقط، وكان يمكن قول الأمر نفسه عن المذبح الذي كان محطَّماً مبعثراً في كل مكان. كانت الأعشاب تنمو في فجوات الجدار القرميدي. ظن أنه سمع لهاثاً خشناً آتياً من الزاوية عند الباب الرئيسي، فالتفت وتحرك مقترباً من ذلك المكان ليجد نفسه أمام شخص متجمّع على نفسه... كائن متقدم في السن إلى حد يصعب تحديده، ضئيل الجسم، متغضّن، راقد على الأرض وقد رفع ركبتيه حتى ذقنه وهو يرتعد خوفاً. حتى في ذلك الظلام، كان قادراً على رؤية ضوء عينيه المذعورتين. وعندما رأى ذلك الكائن أن مكانه قد اكتُشف، تأوه يائساً وتحامل على نفسه زاحفاً إلى الزاوية الأخرى هرباً من الخطر. سأله الطبيب بصوت ثابت بعد أن تغلب على لحظة الذعر: «من أنت؟» لم يجبه ذلك الشخص المنكمش، لكنه واصل اندساسه في الزاوية مستعداً للهرب من جديد. سأله الطبيب وقد رفع صوته قليلاً: «هل تفهم سؤالي؟! من أنت بحق الجحيم؟» قال الكائن شيئاً غير مفهوم، ثم رفع يديه أمامه كمن يحاول الدفاع عن نفسه، ثم انفجر باكياً. قال الطبيب حانقاً: «ماذا تفعل هنا؟ هل

أنت متشرد؟» وعندما لم يجبه القزم بل واصل نواحه، فقد الطبيب أعصابه وصاح قائلاً: «هل من جرس هنا؟» قفز العجوز الضئيل واقفاً على قدميه، مذعوراً، وتوقف عن البكاء فوراً، ثم قال ملوحاً بيديه: «الـ!... الـ!...» وأشار إلى الطبيب بأن يلحق به. فتح باباً صغيراً في مشربية قريبة من الباب الرئيسي وأشار إلى الأعلى: «الـ!... الـ!...» تمتم الطبيب «الرحمة يا رب! إنه مجنون! من أين هربت أيها المعتوه؟» مضى ذلك الكائن صاعداً السلم مخلفاً الطبيب وراءه ببضع خطوات؛ صعد الطبيب السلم محاولاً الالتصاق بالجدار تحسباً لأن تنكسر تحت قدميه تلك الدرجات الخشبية المتعفنة التي تصدر طقطقة منذرة بالخطر. وعندما بلغا برج الجرس الصغير الذي لم يبق فيه إلا جدار قرميدي واحد بعد أن سقطت جدرانه الأخرى منذ زمن بعيد بفعل الريح أو القنابل، استيقظ الطبيب من فوره من «ساعات من النشوة المريضة غير المعقولة». رأى جرساً صغيراً تماماً متدلياً وسط هيكل مرتجَل مكشوف معلق من عارضة خشبية استند أحد طرفيها إلى الجدار القرميدي واستند الطرف الآخر إلى دعامة على شكل عمود. سأله الطبيب: «كيف تمكنت من رفع العارضة؟» حدق العجوز في الطبيب لحظة ثم تقدم نحو الجرس زاعقاً: «الـ ـ الـ ـ آه ـ قامون! الـ ـ الـ ـ آه ـ قامون!» ثم التقط قضيباً معدنياً وبدأ يدق الجرس مذعوراً. شحب لون الطبيب واستند إلى جدار السلم حتى لا يقع. صاح بالرجل الذي كان مستمراً في قرع الجرس بقوة محمومة: «كف عن هذا! كف عن هذا فوراً!» لكن هذا جعل الأمر أكثر سوءاً. « الـ ـ الـ ـ راك ـ قامون! الـ ـ الـ ـ راك ـ قامون! الـ ـ الـ ـ راك ـ قامون!» واصل الزعيق على هذا النحو وهو يضرب الجرس بقوة متزايدة. أجابه الطبيب زاعقاً: «الأتراك قادمون؟! قادمون إلى مؤخرة أمك أيها المعتوه!» ثم استجمع قوته ونزل من برج الجرس مستعجلاً الخروج من الكنيسة محاولاً ترك أقصى مسافة ممكنة بينه وبين المجنون... كان مستعداً لفعل أي شيء حتى يتوقف عن سماع هذا الزعيق

المفزع الذي بدا كأنه يلاحقه طيلة سيره حتى الطريق المعبدة، يتبعه مثل برق مشروخ. اقترب وقت الغسق عندما تمكّن من الوصول إلى بيته واستعاد مكانه عند نافذته من جديد. ثم مر بعض الوقت، بضع دقائق في الحقيقة، حتى استجمع شتات نفسه وكفت يداه عن الارتجاف بشكل يسمح له بحمل الدمجانة ومزج كأس من الشراب وإشعال سيجارة. شرب كأس البالينكا، ثم التقط السجل وحاول أن يصور بالكلمات ما مر به. حدَّق في الورق ثم كتب: «ذعر لا يمكن نسيانه. جرس عاديٌّ ظننته أجراس السماء العظمى. متشرد قذر! شخص ملعون هارب من المأوى. إنني أحمق!» دثّر نفسه بالبطانيات واستند إلى ظهر الكرسي، ثم نظر إلى الحقل من النافذة. كان المطر يتساقط هادئاً. عاد إليه اتزانه الآن. استعاد الأحداث التي جرت بعد الظهر، واستعاد «لحظة الاستنارة» التي جاءته، ثم سحب الدفتر الذي يحمل عنوان «السيدة هاليكس» فتحه على الصفحة التي انتهت عندها الملاحظة الأخيرة وبدأ يكتب: «إنها جالسة في المطبخ، والإنجيل أمامها، وهي تتمتم بهدوء، تقرأ نصاً فيه. ترفع رأسها، إنها جائعة، تمضي إلى غرفة المؤونة، ثم تعود حاملة لحماً وخبزاً ونقانق. تبدأ مضغ اللحم وتأخذ قضمة من الخبز. ومن حين إلى آخر تقلب صفحة من صفحات الإنجيل». كان لما كتبه أثر مهدّئ على نفسه. لكنه، عندما تصفح ما كتبه من قبل عن كل من شميدت وكرانر والسيدة هاليكس، عاد محبَطاً عندما رأى أنه كان خاطئاً كله. نهض واقفاً وراح يتمشى في غرفته متوقفاً من حين لآخر حتى يفكر، ثم يتحرك من جديد. تلفت من حوله ناظراً إلى الحدود الضيقة لبيته، ثم شد الباب انتباهه: قال غاضباً: «اللعنة على هذا!» ثم أخذ علبة مسامير من تحت الخزانة ومضى صوب الباب حاملاً بضعة مسامير في يد ومطرقة في اليد الأخرى وبدأ يدق المسامير بغضب متزايد. وبعد أن انتهى، عاد إلى كرسيه هادئاً وغطى نفسه بالبطانيات ثم مزج لنفسه كأساً جديدة، نصفاً بنصف هذه المرة، بعد شيء من التروّي. حدَّق

أمامه، وفكّر، ثم لمعت عيناه فجأة وأخرج دفتراً جديداً. كتب: «كان المطر يهطل عندما...» ثم هز رأسه وشطب تلك الكلمات. «كان المطر يهطل عندما استيقظ فوتاكي، و...»، حاول من جديد لكنه قرّر أن هذا كان «مادة ضعيفة» أيضاً. حك أنفه، ثم عدل وضع نظارته واستند بمرفقيه إلى الطاولة واضعاً رأسه بين كفيه. رأى أمامه، واضحاً كأنما بفعل السحر، الدرب المعَدّ له... طريقٌ يحف بها الضباب من الجانبين، ودرب ضيقة في الوسط، ووجهُ مستقبله المضيء، وعلى قسماته آثار الغرق الشيطانية. مد يده إلى القلم من جديد وأحس بأنه عاد إلى السكة الصحيحة الآن: لديه دفاتر كثيرة، وبالينكا كافية، وسوف تكفيه أدويته حتى الربيع على أقل تقدير، وإذا لم تصدأ المسامير في الباب فإن أحداً لن يزعجه. وبحذر، حتى لا يتلف الورق، بدأ يكتب من جديد: «ذات صباح، قبيل نهاية تشرين الأول، وقبل وقت قصير من بدء سقوط قطرات مطر الخريف الطويل المتواصل من غير هوادة على التربة المالحة في الناحية الغربية من المزرعة (في وقت لاحق، سيجعل بحر الطين الأصفر النتن عبور الدروب سيراً على الأقدام شيئاً مستحيلاً وسيجعل الوصول إلى البلدة أمراً متعذراً أيضاً)، استيقظ فوتاكي على صوت أجراس. كانت الكنيسة الوحيدة على مسافة أربعة كيلومترات إلى الجنوب الغربي في عزبة هوتشميس العتيقة أقرب مصدر محتمل لهذا الصوت. لكن تلك الكنيسة لم تكن من غير أجراس فقط، بل إن برجها قد انهار أيضاً خلال الحرب، إضافة إلى أنها واقعة على مسافة أبعد كثيراً من أن يستطيع المرء سماع أي شيء منها. ثم إن قرع الأجراس المجلجل هذا لم يبدُ بعيداً؛ كانت الريح تحمل صخبها المنتصر، وبدت كأنها آتية من مكان قريب («كأنها آتية من الطاحون...»).
ألقى بنفسه مستنداً إلى الوسادة بمرفقيه حتى ينظر من نافذة المطبخ الصغيرة كأنها جحر فأر، كانت النافذة مضبَّبة أيضاً... وجَّه أنظاره إلى سماء الفجر التي اكتست زرقة باهتة، لكن الحقل كان ساكناً صامتاً لا

يغسله إلا صوت الجرس الذي يزداد خفوتاً الآن، وما كان في الخارج أي ضوء يستطيع أن يراه إلا ضوء متراقص واحد في نافذة الطبيب الذي كان بيته منفرداً عن بقية البيوت في الناحية القصوى؛ ما كان ذلك الضوء موجوداً إلا لأن ساكن البيت كان، منذ سنوات كثيرة، عاجزاً عن النوم في الظلمة. حبس فوتاكي أنفاسه لأنه أراد أن يعرف مصدر ذلك الصوت: ما كان يطيق أن يفقد نغمة شاردة واحدة من تلك الجلجلة المتلاشية سريعاً، رغم بُعد ذلك الصوت («يجب أن تكون نائماً يا فوتاكي...»). كان معروفاً بخفة حركته، رغم عرجه، فسار بخطواته المضطربة على أرض المطبخ الحجرية الباردة مثل الجليد من غير أن يصدر أي صوت، كأنه قط، ثم فتح النوافذ وانحنى إلى الخارج («أما من أحد مستيقظ؟ ألا يستطيع الناس سماع هذا؟ أما من أحد غيري هنا؟»). صفعته نسمة ريح رطبة حادة في وجهه مباشرة فكان عليه أن يغمض عينيه لحظة، وما عاد لديه شيء يستطيع سماعه مهما أصاخ السمع... إلا صياح ديك، ونباح كلب بعيد، وعواء الريح العنيف وضربات قلبه الكليل ... كأن الأمر كله كان نوعاً من لعبة لا أكثر، أو كأنه حلم شبحيّ («... يبدو كأن في الخارج شخصاً يريد إخافتي»). حدّق حزيناً في السماء المتوعدة، وفي البقايا المحترقة من صيف غزاه الجراد، وفجأة رأى على غصن صغير من أغصان الأكاسيا... كأنما هي رؤيا... رأى توالي الربيع والصيف والخريف والشتاء، كأن الزمن كله كان فواصل تافهة في فضاءات الأبدية الأكبر كثيراً، خدعة ذكية مستحضَرة لعرض شيء منتظم في الظاهر انطلاقاً من عماء الفوضى، أو لتوفير مُنطلق يمكن أن يكون فرصة تجعل المصادفة تبدو كأنها ضرورة... رأى نفسه مسمَّراً إلى صليب مهده ونعشه، يتألم محاولاً انتزاع جسمه بعيداً من غير أن يفلح في النهاية إلا في وضع نفسه -عارياً تماماً، من غير علامة مميزة، مجرداً من كل شيء وصولاً إلى الأساسيات ـ في عهدة الأشخاص الذين كانت مهمتهم غسل الجثث، أشخاص يطيعون نظاماً

مرمياً في الهواء الجاف أمام خلفية ضاجة بالجلادين وسالخي الجلود، حيث كان مرغماً على النظر إلى الشرط الإنساني من دون أي أثر من شفقة، ومن غير احتمال واحد لأي طريق للعودة إلى الحياة، لأنه كان سيعرف يقيناً عند ذلك أنه أمضى حياته كلها لاعباً مع أشخاص غشّاشين علّموا ورق اللعب وسوف يجرّدونه، آخر الأمر، حتى من آخر ما لديه من وسائل الدفاع، من ذلك الأمل في أن يعثر على طريق العودة ذات يوم. أدار رأسه ناحية الشرق الذي كان موطن صناعة مزدهرة ذات حين فلم يعد فيه اليوم شيء إلا مبانٍ متداعية مهجورة، وراح يراقب انبثاق الأشعة الأولى من شمس حمراء منتفخة عبر العوارض العليا من بيت مزرعة متهاوٍ انتزع قرميد سقفه. «عليّ حقاً أن أصل إلى قرار. لا أستطيع البقاء هنا أكثر مما بقيت». اندس من جديد تحت لحافه الدافئ وأراح رأسه على ذراعه، لكنه لم يستطع إغماض عينيه؛ كانت الأجراس الشبحية هي ما سبّب ذعره في البداية، أما الآن فهو الصمت المنذر الذي تلاها: قد يحدث أي شيء الآن، هكذا أحسّ. لكنه لم يحرك عضلة من عضلاته، ليس قبل أن تبدأ الأشياء من حوله، تلك الأشياء التي كانت تصغي حتى الآن، كلاماً عصبياً متوتراً (طقطقت الخزانة، وقعقع القدر، وانزلق طبق خزفي في موضعه في حمالة الصحون)، وعندها...»
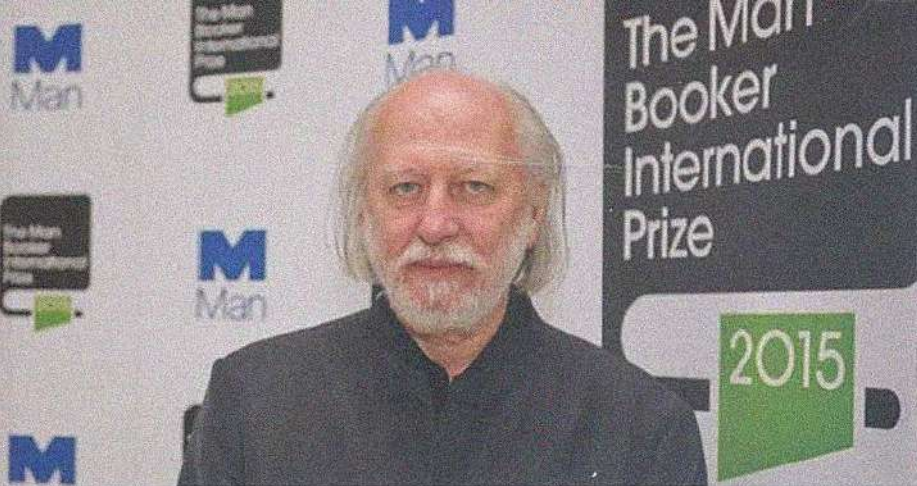
هذه الرواية، للكاتب المجري لاسلو كراسناهوركاي، الفائز بجائزة بوكر الدولية في عام 2015، تعتبر تحفة أدبية سوداوية الطابع تدور أحداثها في قرية معزولة على مدى بضعة أيام ماطرة. قلة قليلة من السكان تبقى في هذه القرية البائسة. مخططاتهم الفاشلة، وخياناتهم، وانكساراتهم، وأحلامهم الضائعة. رقصوا رقصة الموت... ودخل إلى عالمهم شخص أوهمهم أنه مخلّصهم. تتميز هذه الرواية بالوصف الدقيق والمفصّل لشرح أفكار وأفعال الشخصيات للقارئ، فندخل بهذا إلى عقول أولئك الأشخاص، ليس فقط بالاستماع إلى كلامهم بل وأيضًا بقراءة أفكارهم، حتى وإن كانت أفكارًا غير منطقية.

«*رواية هائلة الروعة مبنية بذكاء وفيها إثارة تأسر اهتمامنا برؤية مميزة وجذابة*». (الجارديان)

«*الإثارة في كتابات كراسناهوركاي تكمن في أنه يبدع بنية أدبية خاصة به. وهذه الرواية، أولى رواياته، لا نجد ما يشبهها في الأدب المعاصر*». (The New York Review of Books)

«*عالمية رؤية كراسناهوركاي، تنافس الأنفس الميتة لجوجول..*» (و.ج. سيالد)

«*كتاب عصيّ على التجاهل من أستاذ يغري بمقارنته مع جوجول وميلفيل. رواية كراسناهوركاي هي تشريح للخراب في أكثر صوره ترويعا، وهي دليل لمقاومة هذا الخراب عبر العوالم الباطنية*». (سوزان سونتاج)

هذه الرواية ألهمت المخرج العالمي بيلا تار لإخراج فيلمه الروائي المقتبس عنها والذي حاز على عدة جوائز عالمية.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN 978-9938-886-78-8

تونس - بيروت - القاهرة